المكتبة الأخرى

الإصدار الثانى ▪ مارس 2011 ▪ العدد الثانى

كتاب الثورة

الإصدار الثانى | مارس 2011 | العدد 2

الكتابة الأخرى

غير دورية ■ مستقلة ■ حرة

كتاب الثورة

غير دورية

الكتابة الأخرى

ALKITABA ALOKHRA

الإصدار الثاني ■ العدد 2

الإصدار الأول / مايو 1991- يناير 2002

المحرر العام:

هشام قشطة

تحرير:

أشرف يوسف

جيهان عمر

حمدى الجزّار

علي منصور

مكاوى سعيد

ياسر عبد اللطيف

الغلاف والإشراف الفنى:

أحمد اللبّاد

رقم الإيداع:

2011 / 5414

المراسلات: 18 شارع الدكتور عبد المجيد بدوى

العمرانية الغربية، القاهرة

هاتف: 0100498924

www.alokhra@yahoo.com

فوتوغرافيا بطن الغلاف الأمامي والخلفي: تحسين بكر

ترتيب المواد يخضع لتسلسل الحروف الأبجدية

مفتتح

الثورة المصرية وسقوط الأوهام

على مدار السنوات العشرين الماضية، نهشت عقولَ المثقفين المصريين ريبية «ما بعد الحداثة» وعداؤها السافرُ لمشروع التنوير الفرنسى الذى يُعلى من شان العقل وإمكانية الوصول إلى الحقيقة ويبرر إمكانية الثورة وحاليتها وضرورتها، فاخذ شعراءٌ يقولون أنهم لا يعرفون سوى جسدهم ولا يهمهم الشان العام ولا سماع موسيقى المستقبل ولا المرويات الكبرى التى قال لهم ليوتار أنها قد ذهبت أدراج الرياح.

وبينما هؤلاء المثقفون سادرون فى أوهام «مابعد الحداثة» باغتتهم الثورة والثورة المضادة على المتاريس فرأوا بأم أعينهم أن المروية الكبرى بامتياز، مروية صراع الطبقات، التى صاغها المؤرخون الفرنسيون وليس كارل ماركس، لم تذهب أدراج الرياح، وقرأوا منذ الأيام الأولى للثورة، ما قالته عنها صحيفة النيويورك تايمز من أنها «حربٌ طبقيةٌ سافرة».

كانت شعارات الثوار ولا تزال صريحة ولا لبس فيها:

"الشعب يريد إسقاط النظام!"

"خبز، حرية، عدالة اجتماعية!"

"حرية، تغيير، كرامة إنسانية!"

"حرية، مساواة اجتماعية!"

جاءت الشرارة من تونس، لكن الثورة المصرية مهدت لها حركة إضرابية استوعبت أكثر من ألفى إضراب بين عامى ٢٠٠٥ و٢٠١٠، ثم جاء دخول الطبقة العاملة القوى ساحة النضال فى ٩ و١٠ و١١ فبراير فى عصيانٍ مدنيٍ سافر بمثابة الضربة القاتلة التى أرغمت الدكتاتور على الرحيل عن عرشه ودفعت مسيرة الثورة الهادرة إلى الأمام.

ومع ذهاب الدكتاتور إلى مزبلة التاريخ، ذهبت إلى المزبلة نفسها أكذوبة «نهاية التاريخ». والتاريخ الآن يتحرك بسرعة تخطف الأبصار، ليس فى مصر وحدها. بل فى مجمل العالم

المحتويات

مفتتح:

005 الثورة المصرية وسقوط الأوهام

دراسة العدد:

017 أولئك الذين ولدوا فى الميدان / عبده الزماوى

027 الهتافات واللافتات فى الثورة المصرية / أشرف يوسف

رؤى:

049 الطريق الوحيد / حسنى عبد الرحيم

063 الوداع يا نظريات تبرير الاستبداد / سامر سليمان

067 الفرد فى مواجهة العصابة / عزت القمحاوى

071 ثورة ٢٥ يناير.. عودة الأمل / كريم عبد السلام

079 مشاهد من قلب ثورة العصف العظيم / محمود قرنى

الملف:

قبل.. بعد الثورة /

097 كاريكاتير عمروسليم

شهادات ويوميات:

119 مصر تعود تحت الشمس / إبراهيم عبد المجيد

127 الثورة بين الأحلام والفوضى المستقرة / إبراهيم فرغلى

133 إطلالة نفسية على الثورة المصرية / د. أحمد عبدالله

137 الطريق إلى ميدان التحرير / أحمد عبد المنعم رمضان

141 الأيام الأولى: ٢٥ يناير – ١ فبراير / أحمد زغلول الشيطى

147 عمال مصر فى قلب الثورة / أحمد عزت

العربى وكردستان العراق واليونان، بل داخل الولايات المتحدة نفسها، حيث يزلزل عمال وشبيبة ويسكونسن كرسى «حسنى! ووكر» حاكم الولاية، وسادته الرأسماليين.

وعلى امتداد الكرة الأرضية تتصدى البشرية لاتجاه الرأسمالية العالمية إلى تحميل مليارات البشر نتائج الأزمة الرأسمالية العالمية وتكاليف تجاوز هذه الأزمة، كما تتصدى للرأسمالية بوصفها المسئولة الأولى عن كارثة الأزمة المناخية التى تهدد بدمار كل أشكال الحياة على كوكبنا فى غضون ما لا يزيد عن أربعين عاماً إن لم يتم دفن الرأسمالية الآن.

لقد ضربت الثورة المصرية أكذوبة «انتهاء عصر الثورات والمتاريس». وكانت معارك الثوار فى شوارع وساحات المدن المصرية وعلى متاريس «الأربعاء الدامى» شاهداً على إصرار الملايين على إسقاط نظام القهر والإذلال والاستغلال والإفقار، نظام الأوليجاركية المستند إلى جهاز مباحث أمن الدولة الإجرامى المستند بدوره إلى حثالة البروليتاريا (٤٥٠٠٠٠ بلطجى) والمدعوم من وكالة الاستخبارات المركزية تدريباً وتجهيزاً.

وتحت ضربات الثورة تهاوت أكذوبةٌ أخرى من أكاذيب «ما بعد الحداثة»: «جبروت السلطة المعاصرة». فلئن كان صحيحاً أن الثورة المصرية سوف تجتاز مشواراً غير قصير لتحقيق غاياتها التاريخية، إلاَّ أن الصحيح أيضاً هو أن الثورة قد أثبتت أن هذه السلطة ليست أكثر من نمر من ورق وأن موعد الثورة مع الوصولِ إلى التحرر الإنسانى ليس بعيداً وذلك لأننا نحيا زمن انحدار الرأسمالية، زمن الثورة العالمية.

وهذا هو مربط الفرس.

والرائع هو أن الثوار المصريين يدركون تماماً أنهم ليسوا فى خضم «حملة انتخابية»، بل أنهم يلهمون الإنسانية بمأثرة تاريخية.

هذا الإدراك أعمق غوراً بين صفوف المثقفين المصريين الثوار، وهو ما يدعو «الكتابة الأخرى» إلى مناشدتهم الإسراع ببلورة رؤى جديدة بشأن إعادة بناء العالم الروحى للإنسان الجديد.

المحرر

151 تين يكتب قصيدة / أحمد اللباد
157 ثورة بارتى / أسامة الحداد
161 مشاهد من ذاكرة غير مرتبة / باسم عبد الحليم
167 إبداع شعب / جميل شفيق
169 الورد يريد ... / جيهان عمر
173 أنا مصرى: لحظات من الثورة وحب مصر / خلف على حسن
179 حكى ما حدث / رؤف مسعد
187 ثوار الظل / سعاد سليمان
191 ملائكة التحرير / سلوى بكر
195 مع تحيات الشعب والشاب ميدو/ سامح الأسوانى
199 خواطر من الأسكندرية حول الثورة المصرية / سامى إسماعيل
203 الثورة التى تقرأ روايات ماركيز / سيد محمود
213 الباب المفتوح / د. شيرين أبوالنجا
217 ثورة بطعم الشعر / عبدالحكيم حيدر
219 فلتغنوا.. لأنى أريد أن أرقص / عبدالمنعم رمضان
227 حين رأيته.. فهمت / عز الدين شكرى
231 صورة جانبية لمشاهد يوم القيامة المصرى / عزمى عبد الوهاب
237 هوامش على دفتر الثورة / عصام الزهيرى
243 القادم أصعب / علاء كمال
247 الموت المعلن فى الميدان / عماد فؤاد
251 ٢٥ يناير وأحداث يوم الغضب / فاروق عبدالخالق
261 الشارع برلمان الشعب / فريد أبوسعدة
263 كابوس الديكتاتور وأحلام شعب / محمد شهدى
267 يناير الطيب / محمد الكفراوى
269 المصريون وصناعة الحكام / محمد المسمى قنديل
273 كعكة الميدان / محمود خير الله
275 الرصاصة لم تعد فى جنبى / محمود عبدالرازق جمعة
277 النفخ فى قربة مقطوعة / محمود عبدالوهاب
281 هرمنا... هرمنا / محمود الوردانى
285 رأيتهم كلهم / مكاوى سعيد
289 الثورة والأمثولة / منتصر عبدالموجود
291 التحرير / نورهان البولاقى
293 كنت هناك / وحيد الطويلة
309 خطة الثورة التى لم يطلعنى عليها أحد / ياسر عبد الحافظ
313 فرحتنا التى ستميتنا.. لا رصاص الجبناء / يوسف رخا

عين الثورة

325 عدسة: إسلام العزازى / تحسين بكر / جيهان عمر / عادل وسيلى / محمد حمدى

نصوص:

363 الزعيم / إبراهيم عبد الفتاح
367 قصص فى حجم الكفين / حمدى الجزّار
379 دم الشوارع / سعدنى السلامونى
383 جرى إيه يا أخينا / سمير الأمير
387 العلامات / عبد الرحيم يوسف
389 على كل وش كتاب مفتوح / عمروحسنى
391 تعال هنا يا وطن / عمر حاذق

ترجمة:

399 نصوص وقصائد عن الثورة / ترجمة: أحمد يمانى

فوتوغرافيا: تحسين بكر

فوتوغرافيا: تحسين بكر

فوتوغرافيا: تحسين بكر

أولئك الذين ولدوا فى الميدان

عبده البرماوى

هكذا، بين عشية وضحاها، وقع ما كنا نعجز جميعاً عن مجرد الحلم بحدوثه. ثورة ضخمة، لم يتوقعها إنسان فى الداخل ولا فى الخارج. انتفضت مصر – التى قيل أن شعبها قد يتحرك وينتفض ضد حكم مبارك الاستبدادى إذا ما تحرك أبوالهول، وخرج شبابها الغض، غاضباً يحتل الميادين، يعلوا صوته الرافض للنظام معلناً الإصرار على إسقاطه. اندفع شباب مصر بجسارة للشوارع، وهم يعلمون حقيقة أن نظام مبارك نظام عتيد فى استبداده، قوامه ثلة من الفاسدين احترفوا لسنوات طوال ممارسة القمع والقهر، وصل بمخاتلته وقدرته على السيطرة إلى حالة هيمن فيها على وعى قطاع معتبر من الجماهير، ودجن أفكارهم وقلص تصوراتهم نحوالمستقبل وآفاقه.

فجر الديمقراطية الكاذب ومخاض الثورة العسير

جيل الثوار الشبان هذا بدأ جنيناً استقر فى أحشاء مصر فى لحظة عبقرية، شعرت به يحيا عند «فجر الديمقراطية الكاذب فى ٢٠٠٥». ساعتها كنا حزانى – رغم كل ما جرى من حراك رائع داع للديمقراطية إذ لم تكتمل اللحظة بعد، وانطفأت شمعة الحرية سريعاً. لم يستطع أى منا تفسير هذا الإخفاق المحزن. هؤلاء المصريون –رغم معاناتهم– لا يستجيبون بأعداد معقولة لدعوات الخروج والاعتصام والعصيان المدنى. هل لأن حركة التغيير بدأت كظاهرة مدينية وحضرية تؤمها نخبة لا تلقى التأييد الشعبى الكافى؟ وأن الطروحات العامة لها تصوراتها عن التحول الديمقراطى لم ير المصرى فيها حلاً واضحاً لمطالبه ومساعيه لتحسين معاشه؟ هل قتل الخوف والترهيب قدرة الناس على التمرد، والرفض للظلم؟. لم تعفنا الأسئلة الحزينة من رؤية حقيقة استعادة مبارك

وزمرته لزمام السيطرة بعد تعديل دستورى سافر الاستبداد، تلته عملية تزوير مفضوحة للانتخابات الرئاسية والبرلمانية . وانتصار نظامه على الأفكار التحررية كافة، واستطاعته – باساليبه القمعية والإغوائية – تدجينها وترشيدها وتحصيل نواتجها لصالحه.

استعاد الشباب ذاته، وخرج من هذا المنحنى القاسى، بدروس كبيرة عديدة، منها أن حركة الشباب يجب أن يرفدها تاييد واسع من قطاعات الشباب بمختلف فئاتها. فهم الأكبر والأكثر حيوية داخل المجتمع، وثانيها، أن لا رهان على القوى التقليدية، واجيالها الأكبر المهيمنة، بعقليات متكلسة، تسهم فى الحد من القدرة على تحدى ومناوئة نظام مبارك، وأن جزءاً من عملية إنقاذ الوطن تتعلق بإنقاذ هذه القوى من سيطرة قيادات استطاع مبارك تدجينها بالمصلحة حينا وبالقمع حينا آخر. وأهم الدروس هوأن نجاح نظام مبارك فى عبور كل أزمة عبر سنين حكمه يجد أسبابه فى حالة ذهنية سلبية نشرها لدى الشعب، ملاكها الخوف والشك والإعراض عن الانخراط فى المجال العام، وأداتها هى الترشيد السلوكى والفكرى عبر وسائل الإعلام والتربية والثقافة. وكانت البداية من الدرس الأخير بمبادرة لتحرير المواقع الذهنية باعتبارها الأولى بالبدء فى نظر الجيل الشاب. كان تحرير الوعى خطوة لازمة لمواجهة ما لدى السلطة من آليات القهر وخلق وسائل بديلة للمعرفة سيسهم فى تحجيم رقعة تأثير أجهزة القمع الفكرى.

خطى البدايات جاءت مدعومة بمفهوم الجماعية واعتماد آليات التضامن. تبنى مفهوما جديدا للفرد، يبتعد به عن هذا الإحساس المفرط بانه جزيرة منعزلة، ويجعله ينأى بنفسه عن سلوكيات الأنانالية عند التعامل مع الشأن العام، بدا كاولوية لشباب المدونين والحركات الاجتماعية الجديدة. أدرك هؤلاء الشباب أنهم ليسوا كماً مهملاً، أوذرات هائمة باية حال، ولا يجب أن يكونوا، ذلك أنهم مكون أصيل من مكونات مجتمعهم، وأن واجباً صار محتماً عليهم قضاؤه، لإنقاذ هذا المجتمع من ربقة الاستبداد والفساد. لقد آمنوا بانهم أصحاب مصلحة عامة جامعة فى النهوض بمصر، نهضة تفسح أمامهم فرص الحياة وتوفر لهم ولأهليهم عيشاً أرغد ومستقبلاً أكثر رحابة وحرية.

هذا الشعور بالجماعية، رفده وعى حركى تضامنى مبدع؛ لمس به الشباب كيف أن قوة السلطة وقدرتها على السيطرة ترتكز على تفتيت أى جماعة ونشر الشك بين أفرادها، وإقناعهم بانهم متنافرون، متفرقون، لا جامع يجمعهم، ولا فكرة تلمهم. فنفض الشباب عن عقله هذا الوهم. وسقطت عندهم وبغير رجعة مقولة أن واحدهم مجرد فرد فى كتل صماء صامتة، مفتقدة للوعى النشط، تعيش بغير فاعلية وتحركها سلطة، بالغة الذكاء،

كلية القدرة – تستخدم نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كيفما شاءت لجعله ضمن رعاياها المسخرين والمستعبدين لخدمة رؤاها واهدافها بغير أن يتمتعوا باى حقوق، ونشا لديهم بديلاً عن ذلك وعى – ازداد مع التجربة والفعل رسوخاً – بانه قد يصدق القول بان واحدهم فرد، لكنه فى فردانيته أقرب لحجر صلب فى بناء الجماعة، التى يجب الا تستمر ككتلة صماء، بل يجب منحها وعياً جديداً، يحررها من أسر القعود والخوف، فى مواجهة سلطة ثبت انها عتيقة، محدودة الذكاء ومفتقدة لحد بعيد للقدرة على إدارة نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على نحوينهض بمجتمعها ومواطنيها.

الانتقال من الدفاع إلى الهجوم

كان الإعلام الرسمى يلح بلا كلل مردداً فرية أن شباب مصر أسرى لمشاعر الاغتراب، ودبجت المقالات والبرامج لإثبات انهم غير منتمين، وعمدت السلطة فى كل موقع لترسيخ هذه الرؤية المكذوبة وتوكيد كون الشباب متشرذماً متفرقاً، يؤثر بطبعه الفردية والانسحاب من المجال العام. لكن حقيقة الأمر أن الشباب كان مدركاً لمراد هذا الإلحاح الإعلامى الأقرب لحرب نفسية ضدهم، ويراها مقولات لتبرير هيمنة طبقة الحكم المستبدة، وخطاب يبرر جعلهم عنزات فى قطيع مستلب الحرية والإرادة ينفذ ما يراد له، لا ما يريده هو، فى حين أن الواقع يقول بان هذا النظام يعتمد استراتيجية إزاحة المشكلات لجيل الشباب؛ وظل الشباب فى منتدياتهم ومدوناتهم وصفحاتهم على الشبكة يتساءلون بوعى وضمير حىّ: من فى هذا المجتمع يعانى من البطالة وآثارها غير جيل الشباب؟ من اضطر لإلقاء نفسه فى البحر للبحث عن لقمة عيش؟، من تطبق بحقه نظم تعليم تدجينية بغية حرمانه من الفرص والرغبة فى الانعتاق، علاوة على نظم معرفة تقتل الروح والإبداع؟، من كان يلاحق بقسوة كلما نبتت فى عقله فكرة أودعا لحركة نهوض؟ من حرم من فرص الترقى الوظيفى وقتل أمله فى الصعود الاجتماعى الطبيعى بغير تسول الفرص، وتسلق الحوائط المصمتة لطبقة الحكم التى تقف على النقيض منه ومن أحلامه وطموحاته.

كانت السلطة لا تراه إلا بعين التمييز والإقصاء. ولم يجادل أحد أن صعود الشاب فى بلد مبارك هونتاج للإجابة عن سؤال متخلف – دفع بعض الشبان للانتحار – ومفاده من أى طبقة/عائلة/جماعة جئت؟، أمن أهل التميز أنت، أم من أهل الفقر؟. وعرف الشاب منهم أنه لن يحظى بميزة أوبحق إلا إن كان ذا سند من دوائر الحظوة التى ترضاها

سلطة الفساد والاستبداد. وظل الشباب طوال حكم مبارك المديد – يواجه أشكال التمييز والاستبعاد وحده، ويتحمل نواتج كوارث النظام الذى يخادع ويطنطن باستخدام كلمة «الشباب» واستعارة صوته فى مشروع لتجديد هيمنة طبقة الفساد والاستبداد يقوده ابن الرئيس الموصوف كذباً بالشاب.

من هنا كان ولابد للشباب من البدء بعملية ضخمة لتحرير الوعى، ونفض الخرافات التى تسربت لوعى قطاع كبير منه، قبل الشروع فى مواجهة عريضة مع النظام الفاسد. وكان التدوين بتعبيره الحر عن الفرد دون قيود، والحوارات الناشئة حول أفكار كل فرد مفتتحاً لعملية التحرير الفكرية، وأجاد الشباب استخدام أساليب الصحافة الشعبية فى إنجاز هذا المسعى التحررى واستطاعوا بها فض أختام كل تلك الأوهام التى جرى بثها بداب بين الشباب، وأعاقت حركتهم.

ثورة المدونين

ولد فى ميدان التحرير يوم ٢٥ يناير، بعد عملية مخاض طويلة، جيل شاب يرتكز فى تفاعلاته على تكنولوجيا التواصل والشبكات الاجتماعية، سمى فى البداية بجيل المدونين، ثم لاحقاً اشتهر بجيل الفيس بوك. وهوجيل قوامه أولئك الذين زرعت بذرة وجودهم السياسى والاجتماعى وترعرعت عبر ستة أعوام؛ بدأت ببروز دورهم عام ٢٠٠٥ مع الحركة المصرية للتغيير «كفاية»، وتفاعلهم القوى مع القضايا الفئوية والاجتماعية مع الإضرابات العمالية والعامة التى بدأت مع ٢٠٠٨، وتجلت قدراتهم الفائقة، وجسارتهم فى معارضة نظام مبارك، ونهج التعذيب الذى يمارسه جهاز القمع الحامى له، فى ٢٠١٠ مع قضية الشهيد خالد سعيد. كل لحظة فى هذا المخاض الطويل كانت درساً من دروس ثورية التقت جميعها فى ظهيرة يوم ٢٥ يناير، وأنارت عقل الثوار ومنحتهم فهما عميقا لاستراتيجيات المواجهة التى يمكن بها هدم نظام مبارك.

كان الفعل الأول هوبدء حوار مبكر بين الشباب أنفسهم، حوار كاشف للحقيقة ومحرر للوعى، بعيداً عن جهاز الأكاذيب الذى يستخدم أنظمة الإعلام الجماهيرى التقليدية من صحافة وتليفزيون التى دأبت على تشغيل عمليات يومية لغسيل أدمغة الناس. وكانت أدوات التكنولوجيا الجديدة المتمثلة فى جهاز كمبيوتر محمول رخيص وتليفون محمول مزود بكاميرا ووصلة رخيصة على شبكة الإنترنت – فى الأغلب مشتركة، أومجانية – هى كل ما احتاجه الناشطون لبناء حركة شبكة اجتماعية مناوئة لمبارك، تفوق فى حجمها كل القوى السياسية التقليدية. وبدأ المدونون عمليتهم لتحرير وعى الشباب،

مستخدمين استراتيجيات حرب المواقع، ومركزين فى هجومهم على مخازى أجهزة القمع الوحشية، وعمدوا فى جسارة تفوق عمرهم الصغير وأجسادهم الغضة لفضح ممارساتها. وشنوا حملة نقد على ممارسات تدجين الشباب وإقصائهم من كل مجال، مؤكدين أن هذا الإقصاء ليس له غرض سوى تمديد سيطرة جيل لم يعد يملك أسباب الوصول لمستقبل ناهض لهذا البلد، وسلطة فاسدة ومستبدة لا تملك أى سبب عقلانى يبرر وجودها واستمرارها فى السيطرة على السلطة والثروة والمعرفة. المدونات بدأت من النقد الحاد للغة والقيم والقناعات ومنتجات الفكر للأجيال السابقة. وشكلت القناعات حول قضايا حركية يجب على الشباب البدء بها، ووضعت مبادرات هجومية على منظومة الفساد والاستبداد نفذتها، وكانت حركة الشباب تسير فى تناغم مع حركة اجتماعية أوسع تبتغى التحرر من حكم العائلة، وتنادى بالديمقراطية، ولا نزايد حين نقول أن حركة الشباب كانت فى المقدمة، تعلم وتعطى الدروس لمن هم أكبر، وتنقل الأفكار العظيمة لمستوى حركى وجماهيرى غير مسبوق.

كان من نتائج الحوار الذى خلقه المدونون نفض كثير من الأوهام، وكسر الصور النمطية التى رسمها النظام وشيطن بها القوى السياسية وخلق بينها الحواجز النفسية، وعمق من هوة الأكاذيب التى فصلت بينها، ورعى فى سبيل ذلك مجموعات مدسوسة داخل هذه القوى، تقوتت على ما بقى لهذه الحركات من مساحات لتحريك الناس من أجل حقوقهم. قرر الجيل الجديد تجاوز هذه الإحن، ورؤى كثير من القيادات التقليدية بعدما تبين له أن من يتواصل معهم من شباب التنظيمات والحركات السياسية الأخرى التى يعتمل بداخلهم حلم التحرر ذاته، ويقرؤون من صفحة الحرية ذاتها ويتشاركون المعاناة الحياتية ذاتها، فى العمل والشارع والبيت.

شكلت هذه الحوارت التى كانت ساحتها المدونات ومواقع الصحافة الشعبية والشبكات الاجتماعية وعى هذا الجيل، وبسرعة فائقة شوشت فهم الجيل الأكبر سواء المتحالف مع النظام أوحتى داخل قوى المعارضة التقليدية التى لم تعد تستوعب ماذا يجرى داخل عالم هؤلاء الصغار. كانت قطيعة جيلية واضحة تتشكل على مستوى الوعى والسلوك وتفضيلات المستقبل. لم يكن الأمر بسبب من عجز الجيل الأقدم على استيعاب التكنولوجيا وحسب، لكن كذلك بسبب طول معاشرته لنظم القمع التى رشدت أحلامه، واستانست حماسته للتغيير، ومنحته إحساساً زائفاً بأن هامش التعبير الصغير، ومجموعة الحظائر النفعية التى يديرها النظام لاحتواء المعارضة كافية بذاتها، وأن طرق التعبير الصوتى واستراتيجيات إحراج النظام أمام الكاميرات هى غاية المراد.

كان الشباب على النقيض يريد الحركة الميدانية، وعدم الاكتفاء بالنباح، وظلوا يعلنون فى كل لحظة استيائهم من الحكومة ومن الكبار المهيمنين على القرار، وظل هذا الرفض يكبر بينهم فى حركاتهم وتنظيماتهم، ويؤجج منه شعورهم بتلك البينونة بين أوضاعهم وما يعانونه يومياً من صعود للنفعيين والفاسدين فى كل موقع.

تمارين ما قبل خمسة وعشرين

الرعيل الأول من جيل المدونين طور بخبراته وتفاعلاته دروساً أفادت حركة الثورة أهمها التفاعل الخلاق مع الشبكات الاجتماعية الإقليمية والعالمية وفهم آليات التعاضد الدولى، بعيدا عن الحكومات، وكيف أن أطياف المجتمع المدنى العالمى تتعاضد وتستطيع الضغط داخل بلدانها لصالح حركة التغيير المصرية، وكانت خبرة المدونين الأوائل فى خلق علاقات التواصل مع الميديا الدولية وتشكيل شبكة تفاعل قوية مع المراسلين الأجانب والتعاون معهم وتوعيته بالواقع المصرى، وجعلهم جزءاً من شبكات الإسناد للفعل المناهض للنظام المستبد، خبرة مهمة دعمت الثورة ورشدت تحركات الثوار الشباب. نجاح المدونون فى ترسيخ تقاليد الحوار المسبق قبل خوض أى عمل كبير وإيثار العمل العلنى عوضاً عن تكتيكات العمل السرى التى طفت على فكر الأجيال السابقة من الحركيين، وتغليفه بفلسفة اللاعنف، منح الثورة لونها الأبيض. الحوار جعل الثوار يميلون لإيثار التعلم الجماعى وخلق ما يمكننا اعتباره مجتمعات تعلم واسعة، تنقل الرسائل والأفكار والدروس والخبرات على نحومتسارع، بما يسهم فى تشكيل القناعات والسلوكيات فى اتجاه واحد. التعلم الجماعى استفاد من درس المدونين الأوائل الذين لخصت خبرتهم فى العمل ما قبل الخامس والعشرين من يناير فكرة عدم انتظار البطل وإيثار القيادة الجماعية باعتبار الشباب فى مجموعهم هم البطل، عوضاً عن فكرة الزعامة وترسخها لدى الأجيال الأكبر التى لم تزل غارقة فى سؤال: ومن سيكون زعيمنا؟. بالطبع لم يكن حواراً أومبادرة عمل، أوتحركاً ميدانياً لينجح لولا تمتع هذا الجيل بملكات الانفتاح على الآخر والرغبة فى التعلم وقدرته على تفعيل ملكات العقل الناقد، دون التورط فى قناعات إيديولوجية جامدة تمنعه من التحليق وتكوين أسلوبه الخاص فى التحرك صوب المستقبل.

كل درس من هذه الدروس تجسد فى فعل ميدانى، دفع المدونون فى سبيله من وقتهم وعرقهم وحريتهم ودمائهم، وشارك فى صنعه شبكة تكونت من آلاف الشبان من كل الاتجاهات، عمالاً ومهنيين، وطلاباً ربما لم يعرف بعضهم البعض، ولم ينتبهوا لكونهم

جزءاً من شبكة فعل ضخمة بعرض البلاد وطولها، لكنهم جميعاً أخلصوا العمل تدفعهم رغبة فى غد مشرق وأفضل.

بدا الشباب من منحى برجماتى، تردد بينهم صوت يقول نحن نطمح للمثال، لكن العالم ليس مثاليا، فلا يجب أن تجرفنا أفكار مستحيلة الحدوث عن فهم واقعنا المعقد والتعامل معه بعقلانية. فإنتاج الأفكار المثالية أكثر سهولة ويسراً من إنتاج أفكار وسبل للتغيير يمكن تحقيقها عمليا. الاسترشاد بالمثال العملى المجرب، والبناء عليه، والإضافة الإبداعية له، لهوامر مهم، بينما التخلى عن الواقع والعيش فى يوتوبيا متخيلة ورفض معطيات هذا الواقع بسبب هيمنة المثالية على الذهن أمر يؤدى بالضرورة للفشل. فطرحت مبادرات كثيرة للخروج، بمنطق التجريب والتعلم.

قبل أيام الثورة كان فيس بوك يقوم بدور سلاح الإشارة المهد لمعركة ضد نظام مبارك. انتشرت بسرعة دعوات التظاهر ضد نظام مبارك عبر مجموعات واسعة العضوية مثل «حركة شباب ٦ إبريل» التى دعت للإضراب العام الحاشد فى ٢٠٠٨ وتعرض مديروها حينئذ للتنكيل والاعتقال، ومجموعة «كلنا خالد سعيد» التى حركت التظاهرات الصامتة بطول مصر وعرضها اعتراضا على نهج التعذيب الذى تمارسه الداخلية، وأدارها شباب غير معروفى الهوية، تعلموا من درس " ٦ إبريل" كيفية تجاوز الملاحقات الأمنية، وكذلك مجموعة "الحملة الشعبية لدعم البرادعى رئيساً" التى دعت لعودة البرادعى لمصر وقادت عملية لم شمل قوى المعارضة والشباب خلف الرجل.

اختاروا يوماً له دلالاته وهوعيد الشرطة الموافق الخامس والعشرين من يناير، والذى أعلنه مبارك يوم عيد قومى، فى خطوة استفزاز تنضوى ضمن سلسلة غباءاته التى دعم بها الثورة.

الرهان على غباء النظام وفارق السرعات

فيس بوك وغيره من مواقع التواصل الاجتماعى هى أدوات كاشفة للغضب وليس خالقة له، هى مرايا لحال المجتمع بحلوه ومره. شباب الحركات السياسية، والمنضوون الجدد فى الشان العام من المدونين الشبان ومستخدمى الشبكات الاجتماعية استفادوا مما تتيحه الانترنت من إمكانيات آمنة للتعبير الحر عن الرأى، وطرح المواقف والرؤى، صحيح أن السلطة القمعية هرعت لهذا الميدان الجديد، بعقليتها القمعية التقليدية، لكن الشباب كان مدركاً لميزتين فى صالحه، أولهما ضعف القدرة الاستيعابية لنظم التعامل الأمنى التى تسيطر عليها نخبة عجوزة وعاجزة، وثانيهما هوفارق السرعات حال

استطاعت أنظمة القهر استيعاب التكنولوجيا. كانت أوهام القدرة على فرض الرقابة على الانترنت ومصادرة الرأى وقمعه تغلب على هذه النخبة الأمنية. ظانين أن منع بعض المواد، وتشغيل أنظمة التجسس ستفلح، ولم يستوعبوا متسلسلة النمولأعداد المدونين، وتلك الآلاف التى تدخل عالم التدوين الحركى، فى حين كان تسارع قدرة منظومة القمع على الملاحقة أبطأ بكثير. فى أوقات كثيرة عمدت السلطة لطرقها التقليدية والمشهورة، الاعتقال والتهديد وتلفيق القضايا والتجريس والشائعات، لقمع حركة المدونين وحركيوا الشبكات الاجتماعية. لكن هذه القدرة أيضا كانت محدودة أمام طوفان المنضوين فى هذا التنظيم الجديد والفضفاض.

النظام المصرى كان مفتت الإرادة، تارة يبتغى التجمل أمام العالم الغربى، ويقول أنه نظام حديث، يدخل التكنولوجيا ويقود المجتمع فى سبيل استيعابها. وتارة يغلبه رهاب أن يفقد سيطرته على الشعب فيتراجع أويعيق ما بداه من حركة لتقديم خدمات الإنترنت. فى البداية، ومع السنوات الأولى من القرن العشرين تملك النظام الخوف من فتح قنوات التعبير عبر شبكة الإنترنت، بعد إنجازه لطفرة فى مجال البنية التحتية للمعلومات. تواصل الناس مع بعضهم البعض، عبر دوائر الحوار الإليكترونية، واضطلاعهم الواسع على مصادر المعرفة الديمقراطية، والتعرف الآنى على الأوضاع فى دول العالم المختلفة، يقلل من فرص نجاح آلة القمع الفكرى والتدجين الثقافى فى مصر. غلبهم هذا الخوف رغم أن شبكات التواصل الاجتماعى لم تكن قد نضجت وطورت تكنولوجياتها بعد، وغلب أجهزة الأمن هذا المنهج التشككى فى التعامل مع الإنترنت، ووضعت أساس بنية تحتية قمعية لملاحقة الناشطين على الشبكة، فى ذات الوقت الذى تصاعدت فيه حركة اقتصادية متسارعة فى سوق تكنولوجيا المعلومات، وزادت مبيعات الكمبيوتر والحصول على خدمات الانترنت فى عموم مصرباسعار معقولة. كان هناك داخل النظام صوت نخبة رجال الأعمال التجارى، والذى يبتغى الاستفادة من عوائد تمثيل الشركات التكنولوجية العملاقة التى تريد فتح أسواق لها فى مصر، ويسعى بقوة لإقناع متخذ القرار بانه يستحيل قيام هذه الشركات بالاستثمار فى مصر دون تاسيس بنية تكنولوجية معقولة، وإتاحة حريات بعينها لاستخدام منتجات الشبكة وخدماتها، ويعمد لطرح تطمينات أمنية مفادها أن النظام يمكنه تطوير قدراته على السيطرة، والتحكم، عبر إتاحة تكنولوجيات مضادة، يبيعها هونفسه للنظام – بما لا يجعل مساحات التعبير الجديدة التى تنفتح تلقائيا من إتاحة خدمات الإنترنت تصل لمستوى الخطر. مال الطرفان لحل وسط، هوإتاحة خدمات الإنترنت عبر رجال أعمال ثقات من

منظور أمن الدولة، ومنظومة عمل تتيح لجهاز الأمن التحكم، والتتبع، والإغلاق إن أراد لهذه الخدمات.

تجلى هذا العجز وضعف القدرة على الاستيعاب مع بدء دوران الحركة الثورية، فغلب ميل النظام للقهر، وعمد لممارسة ما يجيده من منع وغلق وتحجيم، وكان هذا هوالخطأ القاتل الأول الذى مثل قوة دفع لمعدل التسارع الثورى. ومع كل خطأ يخطؤه النظام كان حجم الكتلة الثائرة على النظام يزيد، ويتسع نطاقها. قرروا غلق الشبكات الاتصالية كلية، ليؤكدوا عدم فهم حقيقة أن تصميم الشبكة الاجتماعية يقوم على حقائق ميدانية أرضية؛ نعم تستطيع السلطة أن تغلق القنوات التكنولوجية وأنظمة الاتصال، لكنها لن تستطيع أن تحد من التواصل الأرضى، صحيح أنه محدود فى نطاقه، لكنه سيظل موجودا بعد أن أرسلت رسالة الاحتشاد والتنظيم لمتلقيها، وتمت مهمة الشبكة، سلاح الإشارة قد أدى دوره فى التوجيه. وبرز من بعده الفعل الميدانى الذى تطور وتعاظم وكان الناس لم تنقطع عنها التكنولوجيا. لم يدر أغبياء النظام أن الارتداد للتكنولوجيا الأسبق هوالوسيلة الدفاعية الطبيعية حين تنقطع قنوات التواصل الأحدث، أغلقوا الانترنت، وشبكات المحمول، فعاد الناس للتليفزيون وقنواته الفضائية، والتليفون الأرضى، واللقاءات والاجتماعات المباشرة. فهل كانوا سيغلقون كل ذلك، كانت رسالة الحجب والإغلاق فى ذاتها رسالة قوية للناس لعدم تصديق وسائل اتصالهم المدجنة، وضرورة أن يسعوا لاكتشاف الحقائق بانفسهم، عبر أى وسيلة متاحة. وهنا برز الدور القوى فى الإسناد الاتصالى للثورة عبر قنوات كالجزيرة وبى بى سى العربية ومراسلى القنوات الأجنبية فى القاهرة، الذين حاولوا تقديم الصورة الأخرى المغايرة للصورة التى يبثها جهاز الأكاذيب والحرب النفسية التابع لمبارك. كان غباء وعنف التعامل من قبل السلطات باباً لإثبات صدق حركة الشباب أمام الشعب المصرى الذى يتنقل بين الصورتين. وكان الفارق حاسما بين أداء مترهل وتقليدى ومكشوف اتبعه الأخير، وبين رسائل مشفوعة بالصور والشهادات من قلب الأحداث قام بها المراسلون رغم الملاحقة والقهر الذى مارسته السلطة يؤكد للناس أن النظام يكذب، وأن ثورة قد قامت ضده، وأنه لا محالة يسقط تحت أقدام الثوار.

المجد للشهداء، والحياة للثوار الحالمين

خلال أيام الثورة الثمانى عشر بدا نظام مبارك، رغم هيمنته على جهاز ضخم للأكاذيب واسع الانتشار وقوة قمع مليونية وافرة الموارد، مترنحاً. كانت حشود

المصريين التى تتجمع فى الميادين فى عموم الجمهورية، قد فاقت ما اعتاد عليه من حشود محدودة، ونفد معين استراتيجيات الاحتواء التى يجيدها، ولجا لأحط وأقذر أشكال القمع، واتجه بقوة لحسم صراعه مع الشباب بروح معركة النفس الأخير، وأنزل اشياعه من البلطجية والسارقين وسدنة الفساد ليحاربوا معه هذه المعركة، وكانت بحق كما وصفها هيكل معركة اشتبك فيها أفضل من فى مصر مع أخس من فيها، صحيح كانت الكلفة الإنسانية لهذه المواجهة كبيرة، لكن فى النهاية انتصر الحالمون بالحرية.

لقد مثلت نماذج التضحية والجراة من قبل الشباب العزل خلال المواجهات مع سلطة العنف والقهر التى نزلت للميادين والساحات مدججة باحدث ما لدى ترسانة القمع من ادوات القتل والإيذاء، درساً فى الحرية للعالم الذى يشاهد نضال شعب باكمله، يقوده شبابه الحالم المضحى بحياته من أجل حرية وطنه. انبهر العالم بصورة شباب استطاع الوقوف بجسده الغض يحمى أحلامه. كان الشباب الصابر الجسور المتحمل لكافة أشكال الأذى التى يعجز العقل عن فهم الطابع الشرير لمن يمارسونها، لا يواجه مبارك وحده، بل كل قوة شر واستعمار فى العالم تقمع الشعوب وتقهرها. شبابنا بصبرهم وعزمهم وإصرارهم وتضحياتهم، قدموا مثالاً رائعا لشباب العالم، أثبت قوة استراتيجيات اللاعنف المستندة لغرض أخلاقى قوى، فى حسم الصراع مع قوة القهر والشر.

لا تقلل حقيقة كون الشباب هم طليعة هذه الثورة من الحقيقة الأكبر وهى أنها انتهت كثورة شعب، خرجت كل أطيافه وأجياله لتسقط نظام مبارك، دعمتها وحافظت عليها مؤسسات القوة فى الدولة. وستظل دماء الشهداء والضحايا خلال أيام الثورة هى الضوء الذى لن يخبوا بإذن الله، وسيظل تضامن المصريين ونفضهم للأوهام وانضواءهم جميعا خلف الحلم الثورى هوقوة الدفع الحقيقة لكى تكتمل هذه الثورة وتنقل مصر إلى مسار النهضة التى تستحقها ■

فيس بوك على كل ظالم

الهتافات واللافتات فى الثورة المصرية الخالدة

أشرف يوسف

تصدير

تطورت الهتافات واللافتات فى خلاط الثورة المصرية يومًا بعد يوم، حسب المعادلة البسيطة (ديكتاتور+ شعب = ثورة)، ثورة دماؤها ودرعها الواقى ودستورها الجديد جملة يتيمة بلا حزب أوعقيدة، رددتها الحناجر الغاضبة لأنها إلاهة الثورة ومتنها المتداول بين مركزيّها، السويس والقاهرة، وأطرافها فى عدة مدن مصرية مثل الإسكندرية والمنصورة وكفر الشيخ والزقازيق وبورسعيد وأسيوط... إلخ.

الجملة التى ألهمت المصريين طرقًا ولغة جديدتين للتعبير عن ثورتهم وامتداداتها هى:

(الشعب يريد إسقاط النظام).

هل خطر على بال صانع الفيس بوك «مارك زوكربيرج» أن يكون أداة مستخدمة فى تحريرشعوب ضلت أفواهها عن ابتسامة حقيقية؟ فالفيس بوك ومساراته التواصلية مثل التويتر واليوتيوب شريكان متلازمان فى إدارة ثورة مصر الافتراضية، قبل ٢٥ يناير ٢٠١١، وتحديدًا فى اللحظة الزمنية العبقرية التى هرب فيها «بن على»، ديكتاتور تونس، إلى المملكة العربية السعودية.. فكانت الفرجة عليه يسقط أمام شعبه الثائر نقطة الانطلاق لتمصير الثورة التونسية على شكل الدعوة إلى مظاهرة احتجاجية لـ (شعب الفيس بوك) فى عيد الشرطة:

(تونس تونس هاتى الفكرة بكره علينا الدور بكره
بيعرف حالنا من التقارير
وإحنا بنحلم بالتغيير
وإحنا هنعمل التغيير).

انتشرت الدعوة الإلكترونية وعُلق عليها بسخرية لافتة للنظر مصدرها الإحباط لارتباط موعدها بكلمة ثورة، وبالعودة إلى موقع جريدة البديل الذى قام أحد محرريه بعمل ريبورتاج صحفى حول المشاركة فى هذه الدعوة العلنية للقيام بثورة ٢٥ يناير، نلاحظ أن الحس النخبوى قد تراجع أمام هذه الفاعلية السياسية فى البداية،ربما بسبب فشل فعاليات مظاهرتىْ الحد الأدنى للأجور وتفجيرات كنيسة القديسين بالإسكندرية.

ظهر عدد من الشباب الناشطين المتحمسين لـ (إفنت يوم الثلاثاء ٢٥ يناير)، بالتوازى مع ظهور «بوعزيزى المصرى» مجسدًا فى عدد من حالات انتحار معلنة أسبابها الاقتصادية المآل. أما عن الفرقة الأخرى الممثلة للنخبة، حسب المفهوم السائد لتعريفها، فقد انقسمت إلى أكثر من فريق، بعضهم مشارك وبعضهم غير مشارك، بينما اللاعب الأساسى الشعب، يبدوفى الشارع وكان عقيدته الياس، فلا أمل فى شىء ولا حل لأى شىء فى حياة صنمية خُتمت بارتباط الثروة ببرلمان الحزب الوطنى صاحب الشعار الفصيح (من أجلك أنت).

كل محافظات مصر ثارت فهى ثائرة وسكانها ثائرون. توقع بعض المحبطين أن تنتهى هذه الاحتجاجات كما انتهت احتجاجات (سقوط بغداد) بـ" علقة سخنة " ومعتقلين ولجان إعاشة لهم:

(ياداخلية ياحربية هاتوا إيديكم وّيا إيديا سرقونا شوية حرامية

أمن الدولة يا أمن الدولة فين الأمن وفين الدولة؟

دولة عز وأمثاله

وإحنا صبحنا خدّامه).

الهتافان السابقان يشيران إلى التاكيد على الهتاف الشائع (سلمية.. سلمية) بالإضافة إلى عدم عنصرية شعب مصر مع جهاز لم يكن متسامحًا على الإطلاق مع مواطنيه العزّل، بل وقد نمدّ حبل الكلام ونؤكد أن صانع الهتافات يريد إحلال رابط مبتكر ووهمى

فرح

عبسة
سعيد داود

بين مرددى الهتاف وقامعيهم لتكون المعركة الجمعية ضدّ العدوالأصلى، النظام، بتجلياته العديدة فى الأسماء والأحوال.

فالشرطة والشعب فى خدمة الوطن حسب لافتة النظام السابق، وكلنا مصريون لا نردد(الشرطة والحزب إيد واحدة) لاننا نعانى جميعًا من الارتفاع الجنونى للأسعار فى المسكن والمأكل والدواء، بالإضافة إلى كوننا لا نحصل على خدمات مؤسسية فى المستشفيات أوغيرها:

(حسنى بيه يا حسنى بيه كيلواللحمة بميت جنيه).

(حد يقول للست سوزان شعب مصر بات جعان).

يبدوأن المطلب الاجتماعى ملح على هذه الجماهير الغفيرة التى لاتزال تنادى الرئيس وقرينته بـ (البيه) و(الست). وينم هذا على أن الثورة بهتافاتها تسيطر عليها فكرة السخرية من كبيرىْ العائلة المصرية، ويؤكد ذلك هتاف آخر ينادون فيه الرئيس المخلوع بـ (أبوجمال)، لكن جهاز الشرطة أشعل فتيل الثورة بالعنف والقتل غير المبررين، بل ومنح الشعب إكسير الوضوح بدلاً من الالتفاف على مطالبه المشروعة من خلال سيناريوالانفلات الأمنى، فالشعب قرر وأراد إسقاط النظام .

أما بيوت السويس فكان لها اختيار واضح فى نهار ٢٥ يناير قبل أن يظلم برابرة المصفحات الميدان القاهرى، فمنذ الوهلة الأولى كان السوايسية الشجعان يهتفون بالعداء للنظام ورموزه، ولم يكونوا أول القديسين الذين تساقطوا جرحى وشهداء مصادفة بل بقرار ضمنى وهم ينتجون هتافاتهم الخاصة، وذلك باستبدال لفظة أوجملة رخوة بلفظة أوجملة صلبة من الهتافات الشائعة مثل (ولا بنخاف ولا بنطاطى ولا بنحب الصوت الواطى) – ولا بنحب بدلاً من(إحنا كرهنا) و(على وعلى وعلى الصوت عمر الخوف ما أخر موت) – عمر الخوف ما أخر موت بدلاً من (اللى هيهتف مش هيموت).

اعتقدت هذه الجموع البعيدة عن المركز فى التظاهر السلمى وكأنها تلعب مع لغتها

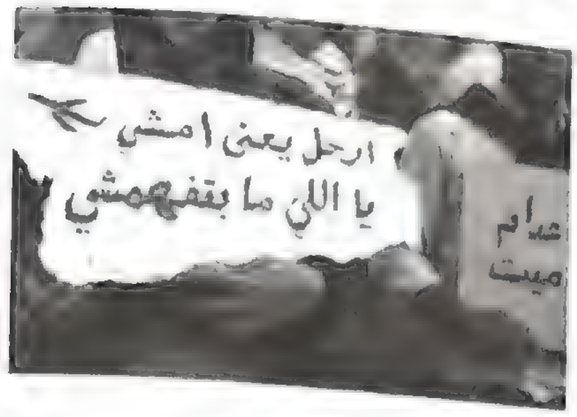

عدسة
كارول كرباج

الاحتجاجية، فاللغة سلاح ذخيرته الجسارة الدالة على النصر أوالشهادة:

(بلدى.. إطلعوا من الباب يا يهود وكلاب
بلدى بتتباع ببلاش للى ما يسواش
بلدى بتتباع وخلاص وزهقنا يا ناس
بلدى مصر المحروسة بقت الموكوسة
بلدى واكساها الكوسة والكوسة كتير قناطير قناطير).

قدمت الثورة قرابينها بسخاء فى جمعة الغضب التى لم تكن جمعة هتافات ولافتات بل كانت جمعة كسر حاجز الخوف بين الشرطة والثوار الذين رددوا شعارين فقط هما (سلمية سلمية) و(الشعب يريد إسقاط النظام) فى ظل إصرارهم على الزحف المقدس إلى ميدان التحرير، وعندما أعلن الحاكم العسكرى حظر التجوال ونزول القوات المسلحة إلى الشارع سيطر على المشهد فى الأيام اللاحقة شعارات مثل:

(الشعب والجيش إيد واحدة).
(إرحل ما تورطش الجيش).
(الجيش المصرى جيشنا ومبارك مش رئيسنا).

على مدى ١٨ يوما أثرت خطابات الرئيس المخلوع فى نزوع الهتافات واللافتات إلى الارتجال المباشر على الطريقة التليفزيونية من قلب الأحداث مما أدى إلى نقلة نوعية لتصبح النكات هى متن الهتافات واللافتات:

(هـــويمشـــى.. مـش هنمشـــى)،
(آخـــر طـالعة جويـة هتـكون للسـعودية)
(شعب مصر خلاص اختار لم العيله وع المطار).
(كلمـــوه بالعبـــرى مـا بيفهمش عربـــى).
(إرحـــل يعنـــى إمشـــى ياللى مابتفهمشى).

(يا ســـوزان خافى عليه هنجيبهولك من رجليه).
(لا سليمان ولا شفيـــق دى ثوره بحق وحقيق).
(قـولـولـــه لاه فاضـــله زقـــــــة).

لم تلتفت هذه الورقة لهتافات ولافتات مابعد الثورة، والممثلتين للضغط على أولى أمر المرحلة الانتقالية من أجل التحول الديمقراطى، حيث أن هتافا لاحقًا رددته الجماهير الغفيرة مفاده(الشعب يريد تطهير البلاد) فما معنى هذا الهتاف فى ظل الشرعية الثورية التى ينبغى أن تكون قد طهرت البلاد فعلاً منذ شربت الجموع(شاى التنحى) بالميدان الذى بدا كدولة محررة دوّنت مطالبها على لافتة قماشية تغطى واجهة أحد العمائر المطلة على ميدان التحرير حيث كبرت الثورة المصرية؟ وصار الميدان رمزها الأكيد الذى يتدفق إليه الملايين بعد الأربعاء الدامى مرددين:

(ماتزعلش من التفتيش
دا أمان ليّا وليك).

إنها أخلاق الثورة التى جعلت التفتيش الذاتى ممنهجًا ولا علاقة له بـ (قانون البلطجة) المضاد لكل رسائل الأمل الناضجة فى قاموس ثورة شعبية تعد الأولى من نوعها فى تاريخ البشرية لأن سلاح مقاومتها هوالسخرية منذ مطلبها الأول والأخير (إرحل) إلى أفراح القول الفصل:

(الشعب خلاص أسقط النظام)

الهتافات واللافتات

أولاً: الهتافات:

ثلاثاء الغضب ٢٥ يناير

- سلمية.. سلمية.

عدسة
كارول كرباج

- واحد اتنين الشعب المصرى فين؟
- ثورة ثورة يا شباب ع الأوضاع الهباب.
- ثورة ثورة حتى النصر ثورة فى تونس ثورة فى مصر.
- بطل تمشى جنب الحيط أصل سكوتك مش هيفيد.
- الإضراب مشروع مشروع ضد الفقر وضد الجوع.
- لودلوقتى قفلتوا عيونكم الضحية الجاية عيالكم.
- يسقط يسقط حسنى مبارك اللى عنده تارى وتارك.
- خالد سعيد مات مقتول ومبارك هوالمسئول.
- يا أهلينا لموا علينا إحنا إخواتكووإحنا ولادكو
وإحنا بنعمل كده علشانكو.
- سامعين صوت الشعب الثاير بيقول بس كفاية مذلة/
نفسى الصوت اللى فى أسوان بيقول شدى الحيل يا محلة.
- لن يكفينا شرف المحاولة إحنا شباب بنواجه دولة.
- يا أبودبوره ونسر وكاب إحنا إ خواتك مش إرهاب
- هومبارك عايز إيه كل الشعب يبوس رجليه ؟/
لا يا مبارك مش هنبوس بكره الشعب عليك هيدوس.
- ثوره ثوره حتى النصر ثوره فى كل شوارع مصر.
- مش هنخاف من أبوك يا جمال صوتنا العالى يهد جبال.
- يا جمال قول لأبوك شعب مصر بيكرهوك.
- يا مبارك إفتح بابك إنت محمى وسط كلابك.
- إرحل إرحل زى فاروق شعبنا بقى منك مخنوق.
- ولا عدلى ولا حبيب إرحلوا يا كلاب التعذيب.

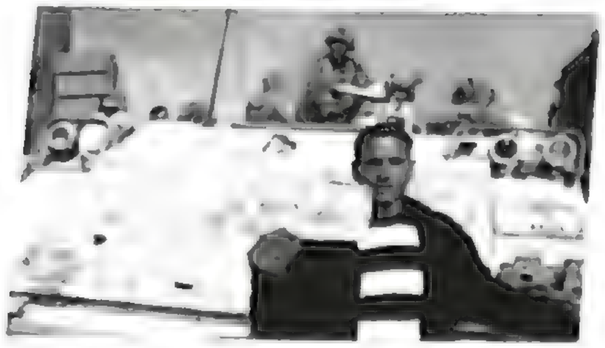

عدسة
سعد داود

- إضربونا فى الشوارع برده صوتنا طالع طالع.
- ياللى خايف خايف ليه؟ باعوا بلدنا وفاضل إيه؟
- باطل..الحزب الواطى باطل وحسنى مبارك باطل /
وجمال مبارك باطل/ وسوزان مبارك باطل/ وأحمد عز باطل/
وحبيب العادلى باطل / باطل.

أسبوع جمعة الغضب ٢٨ يناير:

- الشعب يريد إسقاط النظام.
- تحيا مصر.
- اللـه أكبر.
- يارب.
- كرامة .. حرية .. عدالة اجتماعية.
- ثورة مصر جايه جايه بالعدالة والحرية.
- ظابط شرطة يا جارى وأخويا ليه تضربنى وتحبس أبويا؟
- يسقط يسقط الاستبداد.
- إرفع كل رايات النصر إحنا شباب هنحرر مصر.
- الشعب والجيش إيد واحدة.
- الجيش المصرى جيشنا ومبارك مش رئيسنا.
- إنت يا مصرى إيه أفكارك؟ يسقط يسقط حسنى مبارك.
- بالروح بالدم نفديك يا وطن.
- صحى الخلق وهز الكون مصر بلدنا مش هتهون.
- إرحل إرحل.

عدسة
كارول كرباج

- مش هنمشى هويمشى .
- اعتصام اعتصام حتى يسقط النظام.
- لا لمبارك أب وابن لا للفردة والإستبن.
- آه يا حكومة هز الوسط أكلتونا العيش بالقسط /
- آه يا حكومة هز الوسط كيلواللحمة بقى بالقسط.
- آه يا حكومه هشك بشك بكره الشعب ينط فى كرشك.
- الإصلاح بقى شىء مطلوب قبل الشعب ما ياكل طلوب.
- أول مطلب للجماهير حسنى مبارك يسنقيل.
- الشعب يريد إسقاط الرئيس.

من الأربعاء الدامى حتى جمعة الرحيل ٤ فبراير:

- الشعب يريد محاكمة الرئيس.
- يا مبارك غور غور خلّى الشعب يشوف النور.
- يا سوزان قوللى لإبنك مصر هتبقى سجنه وسجنك.
- يا سوزان خافى عليه هنجيبهولك من رجليه.
- إستقيل إستقيل وإحنا هنحرس أرض النيل.
- ياكلولحمة وياكلوفراخ وإحنا الفول دوخنا وداخ.
- حسنى بيه يا حسنى بيه كيلوالعدس بعشرة جنيه.
- همّا بيلبسوا آخر موضة وإحنا بنسكن عشرة فى أوضة.
- يا وزراء طفوا التكييف مش لاقيين حق الرغيف.
- أحلف بسماها وبترابها الحزب الوطنى اللى خربها.
- حسنى مبارك برّه برّه.. سيب بلدنا حرة حرة.

- مصر بلدنا غاليا علينا وإحنا نشيلها جوّه عنينا.
- يالا يا عمروويالا يا بولس بكره مصر تحصل تونس.
- آخر طالعة جوبة هتكون للسعودية .
- شعب مصر خلاص اختار لم العيلة وع المطار.
- كلموه بالعبرى ما بيفهمش عربى.
- إرحل يعنى إمشى باللى مابتفهمشى.
- إرحل بقى يا عم خلى عندك دم.
- مش عايزينك مش عايزينك.
- هيلا هيلا وهيلا وهيلا ومبارك آخره الليلة.

"إرحل يعنى إمشى" – عدسة: كارول كرباج.

أسبوع الصمود تضمن أحد الشهداء وقداسهم ٦ فبراير:

- معتصمين والحق معانا ضد حكومه بتتحدانا.
- محتجين كلنا واقفين طلاب عمّال وفلاحين.
- عاش كفاح الشعب المصرى.
- يا شهيد ارتاح ارتاح واحنا هنكمل كفاح.
- مصر يا أم ولادك أهم دول علشانك شالوا الهم
راح نفديكى بالروح والدم.
- عاش كفاح الشعب المصرى.
- يا شهيد هناخد تارك إحنا بنسقط حسنى مبارك/
يسقط يسقط حسنى مبارك.
- اللى خانوالعهد بينا واستباحوا كل حاجة
واستهانوا بالعروبة واستكانوا للخواجة.

- قال إيه مجلس أمة واللى عاملينه همّا/
وعلاء مبارك على كل بيزنس ياخد عمولة/
بيقولوا تاب بياكل كباب من مال أبوه/ والعز يابا دبح الغلابة/
وعز يفعل مايريد والشعب أصبح على الحديد.
- لا مبارك ولا سليمان يسقط يسقط الطغيان.
- عايزينها دولة مدنية لا طايفية ولا دينية لا طايفية ولا حرامية.
- بسم العشرة مليون عاطل حكم حسنى مبارك باطل.
- همّا باعوا الجلابية والوطن والبندقية وإحنا أرواحنا فداكى يا مصر.
- مصر يا بلدى يا اغلى ماليًا يا إما الموت يا إما الحرية.
- شدّى حيلك يا بلد الحرية بتتولد.
- لا سليمان ولا شفيق دى ثوره بحق وحقيق.
- قولوله لاه فاضله زقة.
- يارب يشيل الأزمة غبى ومخه جزمة.
- بالطول بالعرض هنجيب النظام الأرض.
- إرحل إرحل يا خسيس إرحل بقى خليك حسيس.
- حسنى إتجنن.
- الشعب مل الشعب مل والتغيير هوالحل.
- يا سوزان قولى للبيه ربع قرن كفاية عليه.
- إيدى فى إيدك يالا يا شعب إحنا بدانا نحب فى بعض.

جمعة الحسم ١١ فبراير:

- الشعب خلاص أسقط النظام.

عدسة
كارول كرياج

- حرية حرية.
- مصر حرة ومبارك برّة.
- انا مندس انا مندس انا عاوز كنتاكى وبس.
- الشعب وكنتاكى إيد واحدة.
- يا مبارك قول لأوباما طالعونى بالبيجاما.
- قالوعلينا سيس واسقطنا الرئيس.
- ياسعودية يا سعودية جايلك عجل من المنوفية.

ثانيًا: اللافتات

- كرامه حرية عدالة اجتماعية .
- التغيير أوالرحيل.
- مبارك عفوًا لقد نفد رصيدكم.
- مالكيش دعوه يا أمريكا.
- حكم تلاتين سنة فى هذا العصر هوإهانة لشعب مصر.
- لا للفقر والغلاء والبطالة والفساد ونهب المال العام .
- لا لقانون الطوارىء.
- لا ذل ولا إهانة للمصريين.
- إحنا الشعب.
- هنا الظلم خلاص.
- مصر فى قلوبنا مش فى جيوبنا.
- إرحل شكرًا.
- مبارك.. طير إنت.

عدسة
سعيد داود

- مبارك يتحدى الملل.
- إضحك الثورة تطلع حلوة.
- نحن نزرع الحرية.
- إنت إيه؟ لزقه.
- لوانت حمار أنا عربجى.
- إرحل (بالهيروغليفى) جايز تفهم يا بومة.
- مصر زعلانة.
- إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر.
- معًا من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية والمواطنة والدولة المدنية.
- نحن فى زمن الثورة ماتزعلش يا أهلى من الألتراس.
- إرحل هتضيّع الدورى على الزمالك.
- الشعب يريد وجبة كنتاكى.
- ماتورطش الجيش.
- الشعب والجيش إيد واحدة.
- الشعب وكنتاكى إيد واحدة.
- إرحل قبل ما الأكسجين يخلص.
- إنجز بقى عايز أحلق.
- عايز أشتغل يا كبير.
- إرحل يا عادلى.
- فى عيد الشرطة كرهنا الشرطة.
- ظابط أمين وشاويش إنتواخواتى وغيركوماليش
ليه تقتلونى بالخراطيش؟

- يا حسنى خليتنا نحب بعض.
- كفاية.
- كلنا سوايسية.
- الجيش والشعب معًا هما مصر.
- ٩٠ شهيد للثورة فى تونس فى شهر وفى مصر ١٥٠ شهيد فى ٥ أيام.
- نهايتكم قربت.
- ثمانين مليون بينادوا لا لمبارك وأولاده.
- انتهى الدرس يا غبى.
- إرحل يا تنح.
- إرحل عايزه أعيش.
- الصحفيون المصريون يؤيدون مطالب الشعب ورحيل رأس النظام وكافة رموزه.
- مالهاش حل تانى أنا باقى فى مكانى.
- منوفى .. برىء من حسنى مبارك.
- شهداء من أجل مصر .
- يا مبارك أبعد عنا كفاية بقى نهب فى مالنا.
- لا للتعتيم الإعلامى من التليفزيون المصرى.
- الكدب حصرى على التليفزيون المصرى.
- سامحنى يارب أنا كنت خايف وساكت.
- من أجل الكرسى يريد الفتنة بين الشعب.
- لوقلنا للحمار شى هيمشى.
- يا مبارك يا جبان يا عميل الأمريكان.

- مصر ليست عزبة للعملاء.
- يسقط بقايا النظام الفاسد.
- إرحل يا قرصان.
- مصر أم الدنيا ومبارك أم الفساد.
- إرحل ده لوعندك دم .
- حسبى الله ونعم الوكيل فيك يا مبارك.
- الرحيل الرحيل يا بايع الأرض والنيل.
- اللعبة انتهت.
- طائرات العال الإسرائيلية ترحب بمبارك.
- مسيحى + مسلم = مصر.
- مبارك يا ويكا إنت وسوزى على أمريكا.
- إمشى بقى إيدى وجعتنى.
- هتمشى هتمشى إنجز عشان أروح أستحمى.
- إرحل مراتى وحشانى إمضاء متزوج منذ ٢٠ يومًا.
- إرحل الوليه عايزه تولد والولد مش عايز يشوفك.
- باى مبارك موبيلات بقى.
- رابطة نجارى مصر تسأل الأسطى حسنى مبارك
ما نوع الغراء الذى يستخدمه؟
- إرحل عايز أتجوز.
- مبارك يريد تغيير الشعب.
- معلش يا بلدى إتاخرت عليكى.
- يا عمر سليمان أنا بطلت أجندات وجبت كشكول سلك.

- حان الآن وقت التنحى.. إيدى وجعتنى.
- شكرًا يا وزير المالية على إعطائك العلاوة ليّا جنيه وعشرون قرشًا.
- تبرعوا لتذكرة فرعون وهامان وجنودهما.
- مبارك شيفت + ديليت.
- لوانت رخم إحنا أرخم منك .
- إرحل بقى إنت مازهقتش.
- لوبتحبها رحلها لحد البيت.
- إرحل يا بارد أنا سقعت.
- بعد ما شعبنا ثار بتقول مش أخلاقنا كانت أخلاقك فين
لما الحزب سرقنا
- شهداء العبّارة يبلغونك تحيات أسماك القرش.
- مطلوب التبرع بالدم لمبارك.
- لوما استحمتش النهارده فى بيتنا
هاستحمى يوم الجمعة فى قصر الرياسة.
- دا لوكان عفريت كان انصرف.
- انتهى عصر الخوف.
- الفرعون تحتمس الثالث حكم مصر ٢٨ عامًا مبارك حكم مصر ٣٠ عامًا.
- عيادة الأسنان خلع الضرس ٢٥ج، خلع السنة ١٥ج،
خلع مبارك ٨٥ مليون مواطن .
- إرحل كفايه عليك جدووبابا.
- لوكان هودكتوراه فى العناد إحنا معانا دكتوراه فى الصبر.
- إمسك حرامى بـ ٧٠ مليار دولار.

- عفوًا مبارك الرحيل إجبارى.
- أهم إنجازات مبارك عمل كبارى، عمل متروالأنفاق، وعمل عبيط.
- يا مبارك إفصل دى التلاجة بتفصل.
- فين البومبونى يا شفيق؟
- حزمنى يا بابا الحزب الوطنى طلعوا عصابة / إمضاء جمال مبارك.
- فضلك زلطة وتطلع برّه .
- قرفتنا ثلاثين سنة ماتريحنا ست شهور وترحل .
- سترحل وستحاكم.
- مطلوب للعدالة فورًا (حسنى باراك زعيم البلطجية)،
(انس الفقى زعيم الفتن)،(حبيب بلطجة قاتل الشباب)،
(صفوت اللاشريف)، (فتحى شرور كاتم الشعب).
- من أدخل الصناعات الملوثة إلى مصر يا مبارك؟
- إدونى فرصتى عايز أعمل أجندتى / إمضاء حسنى مبارك.
- تحيا مصر.
- ثورة شباب مصر.
- مصر حرة.
- تحية لثورة ٢٥ يناير.
- أنا آسف علشان مانزلتش يوم ٢٥ يناير.
- شكرًا لقناة الجزيرة القطرية وعقبال عندكم.
- تعظيم سلام للواء الجيش محسن الفرجانى.

- Have you ever seen stupid president more than Hosny Mubarak?
- Mubarak.. get out.
- Egypt my home, Mubarak an enemy.
- Egyptian not terrorists.
- Game Over.
- Mubarak game over, Omar Soliman no games, USA don?t support, Mubarak will loss, Israel Mubarak?s days gone, Egyptian T.V go back home, Egyptian Win.
- We want to change, we can do it.
- They make take our lives, but they will never take our freedom.
- Egypt regains dignity.
- People demand removal of the regime.
- We want now: 1- new constitution, 2- free and fair elections, 3- an elected president.
- Warning Mubarak the Egyptian volcano is coming.
- Martyrs blood won t go in vain.
- Muslim + Christian = Egypt.
- Mubarak U R expired.

Gameover
مبارك وجمال

سقط
مبارک

الطريق الوحيد

حسنى عبد الرحيم

لاتحلق بومة منيرفا إلا حين يحل الغسق!! ولقد حلقت فى منتصف ليل الخامس عشر من يناير الماضى وأتت الثورة الشعبية المتصلة من يومها وحتى الآن، والوقت مازال باكراً لتحليل العوامل المعقدة التى أدت لهذا الانفجار العظيم ولكننا سنخاطر بطرح مبادئ تحليل أولى، قد لايعجب الكثيرين على اليمين وعلى اليسار، ذلك لأن الجميع يغرقون حتى آذانهم فى جمود عقائدى هم ضحية له بسبب الظلام السياسى الذى فرضه النظام المندحر على بلادنا، والذى لم يسمح بحدوث أية مناظرات فكرية ذات معنى منذ عدة عقود، وكذلك تصور أسوار صينية بين التنظير السياسي والعمل الفكرى والفاعلية السياسية وكذلك انتشار التنظير «الماركسانى» حتى فى أوساط غير يسارية، وهوالأمر الذى جدول تاريخ الثورات السابقة وكذلك اللاحقة فى مقولتى الإصلاح أوالثورة والثورةالسياسة التى تتلوها الثورة الاجتماعية أوتلحق بها.. لكننا نحاول منذ بعض الوقت تجاوز المأزق باستيعاب المقولات المبدعة ل حنا أرندت حول الشمولية والثورة فى سبيل الحرية وكذلك الإسهام المتميز للماركسية النقدية وعلى رأسها أعمال دانييل بن سعيد، وفوق كل ذلك الإنصات إلى صوت الواقع الاحتجاجى الذى لايمكن سماعه أوفهمه بدون المشاركة الواعية فى عملية الاحتجاج نفسها ودون تصور فاسد عن طليعة اصطفاها التاريخ بقيادة جماهير عمياء، وتجنب السخافات الشعبوية عن الجماهير التى تمتلك مخزون الحكمة التى لاتنفد، والتى علينا أن نتعلم منها وليس من أحد سواها، وهى نفس المنظومة السلفية لرب حكيم يملك مصيرنا، ينبغى فقط أن نتضرع إلي اللهأو الشعب أونستمع إلي وصاياهم حتى يدلونا على الصراط المستقيم. المشهد غير المسبوق للثورة المصرية الأولى فى التاريخ يستدعى تحليلاً غير مسبوق، يستدعى هرطقة نظرية، كما كانت الحركة الثورية نفسها هرطقة تنظيمية وسياسية، كما سبقنى للقول حشد واسع من السياسيين، رؤساء دول عظمي، وكتاب محترمين وغير محترمين.

إن ماحدث لم يحدث من قبل!! طبعى أن أية ثورة لاتشبه ثورة أخرى، فلم تشبه ثورات القرن التاسع عشر ثورات القرن الثامن عشر، ولم تشبه ثورات القرن العشرين كليهما، لكن كلهم يشبهون فكرة معينة عن الثورة تكونت عبر التاريخ الجديد هوأن الثورة المصرية لاتشبه أية فكرة مسبقة عن الثورة كما صاغتها النظريات السياسية، إنها ثورة القرن الحادى والعشرين المستمرة في الزمان والمكان حيث ابتدأت في بلد صغير يتمتع سكانه بمستوى دخل جيد وامتدت في صورة مشهدية إلي بلد غالبية سكانه فقراء، حيث اصطف الملايين فى ميادين عامة تحيطها مراكز السلطة التى أسقطتها ثم تحركت إلى البحرين وليبيا حيث الدخل يماثل الدخل فى أوروبا ثم انتقلت إلى اليمن حيث الفقر الهندى الطراز، ونحن الآن فى توقع انتقالها الهادئ والحثيث إلى بلاد الحرمين الشريفين ثم إلى بلاد الملالى!!! تتساءل بومة منيرفا عن هذا الشئ الذى بات يهدد عروش الشرق وطواغيته!!إنه يجوس فى بلاد الركود الشرقى مطيحا بأنظمة بوليسية وديكتاتوريات، ولايقودها حزب أوأيدلوجية، وتتحول الأحزاب التى مرت عليها إلى أحزاب مختلفة، والميادين التى دمرتها بالمساء تعيد تجميلها صباحا، وتضحك مع خصومها وهى تحيلهم إلى مزابل التاريخ!! إن هذا الشئ الجديد يمكننا أن نسميه لدواعى التحليل ثورة الكرامة، لأنه سيسمى نفسه بالاسم الذى يرتأيه هوحتى الآن، لايشبه إلا حدوثه، ولايعادل إلا وقائعه، لكننا نكتب وفق ما نعرفه من كلمات القاموس حتى الرابع عشر من يناير سنة ألفين وأحد عشر ميلادية

ثورة الكرامة

ولقد كرمنا بنى آدم.. الحق فى الاعتراف بالكرامة الإنسانية للشعوب والجماعات والأجيال والأفراد..!! ارفع رأسك فوق انت مصرى هوجوهر هذا الشئ- الثورة المباركة وهى تشكل الرد على حزمة واسعة من الإهدارات المادية والنفسية، التشوق للاحترام ليس فقط من قبل السلطة لكن أساسا الاحترام المتبادل بين المواطنين، ولايخفى على أحد أن النظام المخلوع قد أوجد كل الشروط لكى لايصبح أحدا محترماً أيا كان مستواه الاجتماعى، لقد تحولنا إلى شعب زبالة ونفايات اجتماعياً وأخلاقياً وسياسيا ونفسيا. لايحترم المواطنون الدولة التى تتكون من أفاقين ولصوص ولاتحترم الدولة نفسها لأنها تعرف بأية وسائل تستمر، ولاتحترم الدولة مواطنيها لأنها حولتهم إلى شحادين ومتسلقين ومزورين، ولايحترم المواطنون أنفسهم وبعضهم لأن الأمر الواقع جعلهم لكى يستمروا فعليهم أن يفعلوا كل ماهوفاسد ومنحط، يتساوى فى ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم، متعلموهم وجهلاؤهم، قضاتهم ومتهموهم..!! لم يعد التعلم والاغتناء ولا التثقف ولا الجمال ولا التدين ولا أى شئ كرم به بنى آدم يعنى أى شئ سوى الاستحواذ على ما حرم آخرون منه وهومطلوب تحقيقه بالوسائل الوحيدة التى أقرها النظام البائد، ولم يعد أمامنا سوى الهلاك كأمة وكأفراد، لأننا لم نعد جماعة إنسانية، ولهذا لن يكون الرد سوى باجتماع

دائم لكل الطوائف للتعارف فى ميدان التحرير وميادين شتى، وتوقيف العجلة الجهنمية التى وضعونا بين تروسها، وعندما تأكدنا أننا مازلنا نمتلك مايجعلنا بشرا أسقطنا النظام.!! وندخل التاريخ من أوسع أبوابه الحرية.. شعب حر فى وطن حر.. أهم.. أهم.. أهم.. أهم المصريين أهم.. أهم.. أهم.. أهم المصريين أهم.. ملحة فى عينك ياللى ماتصلى على النبى

لم تكن هذه ثورة سياسية لكى تنتهى بإعلان نظام جديد للحكم، ولاثورة اجتماعية لكى تنتصر بتقويض شكل للملكية، ولا ثورة تحرر وطنى لكى تجلى استعماراً، إنها ليست أيا من ذلك، وكل ذلك وأكثر لم نكن أمة وسنصبح خير أمة أخرجت للناس..!! إنها تتجه لأن تصبح عملية مركبة سياسيا واجتماعياً وثقافيا وأن تطرح الأسئلة الكبرى للوجود، ولهذا نحتاج نحن إلى طرق جديدة للتفكير ووسائل جديدة للتدخل والتفاعل والتعلم من جديد بأن نمشى كمصريين!! إنها تشبه قيامة المسيح وفتح محمد وخروج موسى وموت عبد السميع..!! ولايمكن فهمها فى أكبر مظاهرات فى تاريخ البشرية فقط ولكن أيضا فى أكبر حملة لتنظيف الشوارع عرفها العصر الحديث وأكبر تآخ بين الجنود والشعوب عرفه الحكايات وأكبر استعادة للذاكرة عرفها المصريون.. إننا نولد من جديد..!!

الشئ الذى بدأنا القيام به هوالثورة الشاملة التى عليها أن تعرّف بلادنا من جديد بأنها البلد الذى ربما يقع على حوض نهر النيل ويسكه عشرات الملايين ويتكلم العربية ويطل على بحرين، كل هذه تفاصيل، لكنه بالتأكيد البلد الذى اخترع الثورة الشاملة في القرن الحادى والعشرين..!!

ليست عملية التنظيف الصباحية سوى عملية رمزية، والكنس الذى يقوم به المواطنون ليس لبقايا ونفايات معركة الأمس فقط، إنها عملية مستمرة لإزالة آثار سنين عجاف، أنت لاتكنس مرة واحدة ولاتستحم مرة واحدة، أنت تكنس باستمرار وتستحم حتى الموت، ولأنك شعب فأنت لاتموت، واستحمامك وكنسك هوالى ماشاء الله، إنك تزيل الوسخ لأنك قد قررت أن تكون نظيفا، لقد شكلت مفهوما آخر لوجودك: أنا إنسان نظيف، ولن يكون هناك معنى للنظافة إلا كفعل اجتماعى وأخلاقى وسياسى، عملية مستمرة للتهيئة لاستقبال صباح جديد يأتى دائما بالمدهشات، وهى ليست منوطة بهيئة معينة كعملية إزالة آثار العدوان التى اخترعتها الناصرية بعد النكسة كغطاء أيدلوجى لاستمرارها فى الحكم وانتهت بالعبور، والحملة الأيدلوجية التى كانت شعاراتها صبرنا وعبرنا – وعاش اللى قال للرجال والضربة الجوية – التى تمخضت عن بطل العبور وصاحب الضربة التى نشك فى حدوثها أصلا، إنها العملية التى فهمها سيد حجاب كما ينبغي: ياخوفى فى يوم النصر تيجى سينا وتروح مصر. لقد أنجز الجهاز إزالته، وحصل على حق تقرير مصيرنا بحكاية أغلبها أكاذيب، وسنظل نكنس ونكنس حتى نزيل الآثار الكارثية لحكايته، كيف ابتدأت حكايتنا التى لم تنته بعد

كقصة حب عادية بدأت بانتظار غير متوقع كصربة رعد فى سماء صافية!.

الطريق إلى ٢٥ «جمعة الغضب»

خالد سعيد شاب عادى جداً أكمل تعليمه وأنهى تجنيده ولايعمل كبقية جيله، ولكنه ليس مضطراً لبيع أى شئ فى المقاهى كما يفعل نظراؤه، لأنه من عائلة مستورة ما زالت تفعل كأغلب العائلات: تعيل أبناءها حتى بعد سن الثلاثين، لكن خالد أيضاً شاب «روش» لأنه من كليوباترا الحي الذى يتوسط سبورتنج وسيدى جابر وتسكنه الطبقة الوسطى القديمة من مهنيين –مهندسين وأطباء ومحامين– محترمين وجار عليهم الزمان فى سنين مبارك التعيسة، والحى كانت غالبية سكانه من اليونانيين وبعض أشهر العائلات اليهودية المشهورة، حدوده تتماس مع مانة فدان خضراء لأيقونة الأسكندرية الكولنيالية نادى سبورتنج الذى أصبح فيما بعد مقام المجتمع السكندرى الراقى وليس الثرى، وعلى محطات ترام كليوباترا وأسبورتنج ولدت قصص الحب التى لاتنتهي بالزواج، قصص حب باريسية الطابع تحدث هنا، والسور البحرى للنادى مزين برسائل العشق والغرام لشباب روش وبنات قداره. خالد شاب عصرى له إخوة أمريكيون، ويعرف كيف يستخدم الوسائل الحديثة للاتصال وكمان يعمل دماغ، قام الشاب خالد بتصوير ضابط المباحث وهويقوم بتوزيع الحشيش، الذى استولى عليه، على مخبريه فى القسم، ووضع خالد الفيديوعلى اليوتيوب، ترصد الضابط والمخبرون الشاب خالد أثناء خروجه من سيبر كافيه الحى لكى يضربونه حتى القتل ثم يضعون فى فمه كيس بانجولزعم أنه كان يحاول ابتلاعه فأدى إلى وفاته، لكن جميع الشباب كانوا قد رأوا الجريمة، وتأسست كلنا خالد سعيد، ويوم الوقفة الاحتجاجية أمام مسجد سيدى جابر والتى حضرها كثيرون من المعارضة السياسية اقترب منى ضابط المباحث العامة الذى يعرفنى وتمتم: الجنازة حارة والميت كلب!! لم أستطع أن أصفعه وقلت له: لايوجد كلاب.. لاعيالك ولاعيال الناس!! لقد بلغ السيل الزبى ولم يعد ممكناً الاستمرار في احتمال هذا الإذلال.. ماحدث لخالد مادياً حدث لعشرين مليون شاب رمزياً، هؤلاء هم من امتلأ بهم الميدان.

كانت الشهور الأخيرة قد شهدت معارك كبرى فى الملاعب بين الألتراس وبين الشرطة الغاشمة تدرب خلالها الشباب على فنون مواجهة الأمن المركزى، وكذلك أتوا معهم بالأهازيج الكروية التى حولت الشعارات السياسية إلى فن شعبى أصيل وممتع وحى بكل المعدات اللازمة للتجريس من مزاهر وطبول، ولقد أسقطنا النظام على إيقاع الواحدة ونص، وجعلناه قبل أن يسقط مسخرة أمام البشرية جمعاء.. حاللوا.. يا حاللو!!

كانت الأعوام الأخيرة حافلة بالإذلال: حادث العبارة ثم هروب الجانى أضنى فؤاد أهل الصعيد، الاعتداء على طلبة جامعة عين شمس بواسطة بلطجية داخل الحرم، ثم الاعتداء على الأساتذة بنفس الطريقة، وجاء المشهد المرعب لانتخابات المجلس الأخيرة

والنتيجة التى عبرت عن الازدراء الكامل للمصريين من قبل لصوص وقوادين وقطاع طرق يسمون أنفسهم الطبقة السياسية الحاكمة، وخرج رئيس البلاد بغباءه المعهود لكي يعلق علي المعارضة: خليهم يتسللوا!!، وكان الوريث قد أحاط نفسه بشذاذ الآفاق الذين يأخذونه إلى الأماكن الفقيرة لكى يوزع أشياء تافهة، ووعودا جارحة للكرامة، وصورة مبتذلة عن الحكم والثروة، وأتت الغيرة من الشجاعة التونسية لكى تضع المصريين فى المشهد الأخير، واستجمعوا ذاكرتهم المقموعة وتوكلوا علي السميع العليم..!.

حرب المواقع والحرب المتحركة

منذ انهيار خطوط الخنادق فى الحرب العالمية الأولى تحولت نظريات الحروب والثورات بعيدا عن استخدام مواقع ثابتة فى أية مواجهات استراتيجية قادمة، لقد أخذت المتاريس تختفى فى المواجهات فى ثورات القرن العشرين، وأصبح المعسكر الذى يتمترس هو الخاسر فى المواجهات الحديثة، لذلك لم أطمأن عندما علمت بنية الاعتصام فى الميدان، فالموارد المتاحة من أحجار، والتموين والخدمات الأخرى محدودة، وإمكانية إحكام الحصار على المعتصمين سبق أن شاهدناها فى مشهد الطلاب –١٩٧٢– وهو مانسميه الكعكة الحجرية وهو فى حقيقة الأمر خطأ تكتيكى سافر، ومشهدية دراماتكية خاصة بالطلاب، والاحتجاجات المهزومة، والأغانى ذات الإيقاع الجنائزى، وأنا لا أحب تكرار ماحدث، واعتبرت الأمر برمته سيطرة نوستالجية على الأدمغة، ولهذا توجهت إلى الأسكندرية حيث الوضع أفضل بالنسبة لى وكذلك بالنسبة لثورة، لقد بدأت القنابل المسيلة للدموع قبل أن تنتهى الجموع من الصلاة فى القائد ابراهيم، وبدا فى أول الأمر أن الوضع سينتهى بحرب مواقع حول الجامع، الشباب الجديد الألتراس هم الذين تمكنوا من فك الحصار وبداية حرب عصابات فعالة جداً فككت تشكيلات الأمن المركزى، ثم تجمعت فى طابور متحرك كبير– مظاهرة – أخذت تجوب المدينة وتفكك فى طريقها أدوات القمع ومراكز سلطة الدولة، وتجمع قوى أكثر، وتستعرض القوة أمام الجزء الذى كان مايزال مترددا من السكان، لقد تم تنظيف المدينة من البوليس قبل أن يصدروا القرار بسحبه من الشوارع، لقد انتهى اليوم بانتصار مؤزر شاهدته كل المدينة من البالكونات ولم نكن فى احتياج لأى إعلام سوى لتشجيع المدن الأخرى ومخاطبة العالم. وتبقى من المظاهرة مجموعة رمزية للاعتصام بميدان الشهداء فلسنا أقل من العاصمة..!.

فى عواصم الأقاليم لم يختلف الأمر كثيراً عما حدث فى الأسكندرية سوى فى حجم المظاهرات، ماعدا السويس التى تمت فيها المواجهات العنيفة وحروب الشوارع التى سقط فيها عشرات الشهداء والقتلى من الجانبين وهى أمور برع فيها السويسة خلال الحرب مع الاسرائيليين، وكذلك كان المشهد فى العريش وشمال سيناء مدموغا بتقاليد الحروب والمواجهات المسلحة مع الدولة.. لقد انهزمت الداخلية وانسحبت، وكانت

مظاهرات الأيام التالية أساسا عملية تعبئة
أوسع واستعراض للمواقف والشعارات،
مشاركة ملحوظة للطبقات الوسطى الميسورة،
وكانت مظاهرة الأسكندرية الراجلة يتبعها
مظاهرة أخرى من السيارات حديثة الطراز
مملوءة بأفراد الأسر الميسورة وتحمل
للمتظاهرين كل مالذ وطاب من طعام
وشراب وأخبار، وفى نهاية المظاهرة يتم
الرجوع بتقسيمها إلى أربع: مظاهرة للراجعين
شرق وأخرى غرب واثنتين شمالا وجنوبا
والبقية تعتصم بالمحطة..!!

المشهد متكرر فى الأيام التالية حتى يبدأ
التاكتيك البوليسى الجديد عبر عصابات
البلطجية المسلحين بالسيوف والمواد الحارقة
واللذين تم تجميعهم بواسطة أعضاء مجلس
الشعب من الحزب الوطنى مع ضباط
المباحث الجنائية ومباحث أمن الدولة، وهوما
أدى إلى موقعة قنال السويس فى الأسكندرية
وموقعة الجمل فى ميدان التحرير يوم ٢٨ يناير
وهواليوم الفاصل فى انتصار الانتفاضة.

الجيش والشعب

لم تكن الجمعة الأولى لمسيرة التحرر التى
بداها الشباب، مجرد موعد آخر لمظاهرة
سلمية، لكن الهجوم المبكر للأمن على
الخارجين لتوهم من المساجد وانتهاك المقدس
قد أدخل عنصرا محرضا جديداً هوعدم
احترام الحالة المسالمة للخارجين لتوهم من
رحاب الله، لقد اختلط الهلع بالحنق عندما
انفجرت قنبلة الغاز المسيلة للدموع على
أبواب القائد إبراهيم، وكانت صرخات النساء
هى الموسيقى التصويرية لمعركة تم القضاء
فيها على قوات الأمن المركزى، وأحرقت
مركباتهم، وأصبحوا يهيمون على وجوههم
فى الشوارع، وأسر الضباط الذين نكل بهم
وبدأت بعد ذلك المرحلة الهائلة لتدمير مراكز
الحزب الوطنى والمباحث والمحافظين اللذين
أصبحوا بلا مأوى، وخلال هذا اليوم الحرج
لم تتعرض أية مراكز للبعثات الأجنبية التى
مر بها المتظاهرون لأى هجوم، ولم تتعرض
أى من دور العبادة لأى مساس، كان
المصريون يعرفون المهمة التى خرجوا من
أجلها ولم يكونوا على استعداد لتشويه
عملهم وهواسقاط النظام، وفى المساء كانت
الشوارع نظيفة تماما من البوليس، وكان
التليفزيون الرسمى يتحدث عن أحداث
شغب ويذيع برامج عادية، ثم تحدث مبارك
ليعلن إقالة حكومة نظيف وتعيين عمر
سليمان نائبا وأنزل الجيش للشوارع، وفرض
حظر التجول الذى لم يطبق إلا عليه فى
قصر العروبة.

كان الخطأ الذى ارتكبه حسنى مبارك إنزاله
دبابات وجيش من المجندين وضباط أتى
معظمهم من خلفيات اجتماعية متواضعة
وهم أكثر حنقاً من المدنيين على البرجوازية
الجديدة الفاسدة رغم أن النظام حاول رشوة
كبار الضباط ببدل الولاء لكن التوزيع غير
المتساوى للعطايا كان قد أوجد شروخاً هائلة
فى البنيان، كما أن العديد من الضباط
اللذين بلا ظهر كانو يحالون على المعاش فى
سن مبكر ولايتحصلون على المنافع التى
يحتكرها الواصلون، وعندما بدأت الأحداث
كان رئيس الأركان مع القادة الرئيسيين
بالولايات المتحدة، وعندما أطل العسكريون

على المدن كانت قد أصبحت فى عصمة
الثوار،لقد بدت الدبابات والعربات المصفحة
فى أول الأمر كوسيلة لتنظيم المرور ثم تحولت
الى حوائط لكتابة الشعارات الثورية، ثم
تحولت إلى مواقع لأخذ صور تذكارية ثم
للآذان فى الصلوات المختلفة وأماكن للنوم
على سيورها فى ميدان التحرير،وبدأت
قصص حب بين بعض المعتصمات وضباط
شباب..!! لقد تآخى الشعب والجيش وكان
هذا هوالخطأ الهائل لنظام مبارك والحل
العبقرى لثورة سلمية - الجيش - والشعب إيد
واحدة- عفارم ياشعب حويط- وعندما أتى
قادة المجلس الأعلى للقوات المسلحة
لاستطلاع الوحدات وجدوا العساكر
والشعب سمن على عسل.ولم يكن أمام
الجنرالات أن يفعلوا إلا مافعلوه وإلا لتمزق
الجيش.

الخطأ الثانى للفريق الذى أدار العمليات
الرئاسية هى التنازلات الشحيحة والمتأخرة
والتى أعطت الانطباع بالضعف
والخديعة،وكل ظهور للرئيس كان يثير الحنق،
لقد اكتشف المصريون أنه رجل عجوز
مخرف يصبغ شعره، وأنه مجرد خيال مآتة
يحكم آخرون من وراءه، وأنه فى هذه السن
المتقدمة أمر بإطلاق الرصاص على شباب فى
عمر الزهور..!.

موقعة الجمل (الأربعاء الدامى)

الوضع الهش لميدان التحرير من الناحية
العسكرية والممتاز من الناحية السياسية، حيث
أن الميدان تسهل محاصرته لكنه فى نفس
الوقت محاط بكل مراكز الدولة والسفارات
الكبرى، ونقطة تقاطع كل وسائل المواصلات
ومركز لكل وسائل الإعلام المحلى والدولى،
والمعنى الرمزى لكل الحركة، ولوتم إسقاطه
من قبل القوى الرجعية لانهارت الحركة
كلها، وكان التكتيك الذى اتبعه النظام
هوالأمثل..! عصابات مدنية مسلحة تأتى من
اتجاهات ميدان عبد المنعم رياض وميدان
سليمان، ودون تدخل من دبابات الجيش،
ويفترض أن تقوم بنجاح إجلاء عدة آلاف
من المعتصمين بعد إصابة عدة مئات منهم
سواء بالأسلحة النارية أوالبيضاء أو
المولوتوف، ولم تضع الخطة فى اعتبارها
وجود قوى بالميدان منظمة ومدربة وخاضت
معارك مشابهة منذ وقت فى الأحياء
والملاعب.. الميدان هواستاد بدون مدرجات!!
وهذه القوى المدربة هى شباب الأخوان
والألتراس، ولقد كانت معركة مجيدة أسر
فيها الميدان العشرات من البلطجية، واتضح
أن بعضهم من البوليس اللذين كان يقودهم
فى الموقع أعلى مستوى أمنى فى البلاد
نتيجة المعركة سياساً كانت هائلة، لقد
اتضحت أمام المجتمع الطبيعة الاجتماعية
لقوى الثورة المضادة والطبيعة الفكرية للنظام
القائم- نظام الجمال والخيول والحمير- بينما
يقطع الإنترنت وشبكات التليفون المحمول
عن الثوريين العصريين، يستخدم الوسائل
المشابهة له فى حملته الغادرة، وسيذكر
التاريخ حسنى مبارك ليس بوصفه قائداً لحرب
أكتوبر ولكن كجنرال موقعة الجمل المجيدة
وصاحب الفم الذهبى الذى كلما فتحه
انقلبت جموع جديدة ضده، وتحولت قوى
دولية كانت تعتبره حليفها إلى السعى حثيثا

للتخلص منه مثل حصان أوجمل أوحمار نافق.....!!

ألهبت الموقعة خيال العامة اللذين ماثلوا بين رؤوس النظام والحيوانات المستخدمة، وحدثت انتقالة وجودية جديدة، فبعد الانتقال من الخوف إلى الغضب إلى التحدى أصبح الجمهور الآن يحتقر النظام، وظهر هذا بوضوح فى الشعارات وفى الهدوء الذى خيم على سكان التحرير والشعور بإمكانية الانتصار القريب، وبدأت خطب الرئيس السابق التافهة، والتنازلات التى يقدمها فى كل مرة تزيد من رغبة المواطنين فى التخلص من هذا الرجل باعتباره عاراً قوميا، وعندما اعتلى المسرح نائبه المعين عمر سليمان لم يخضّ أويرعب أحداً إلا رجاله فى الصحف القومية ومحطات الأخبار الذين يدعون زوراً أنهم صحافيون ومذيعون وخبراء استراتيجيون..! بؤس مايدعون..! «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون».

احتلال شارع المجلسين ووصول الجنرالات

بعد الأربعاء ٢ يناير أدرك المجتمع من أقصاه إلى أدناه أن البؤرة المعتصمة فى ميدان التحرير لواندحرت فإن كل عملية التغيير مهددة بالانهيار، وأن انتقام النظام سيكون مريعا، وأن الأمر قد تخطى أية إمكانية للحلول الوسط. ليلتها بات كل مصرى يتقلب فى فراشه على جمر النار، وسؤال واحد يقض مضاجعه: كيف يصل المدد للميدان الذى لم يعد أمامه سوى الانتصار، وكان لوجستك جهاز الأخوان حاضرا فى كل عواصم الأقاليم لحمل التعزيزات من أحرار وغير أخوان أتوا على كل ضامر من كل فج عميق حاملين زادهم وآمالهم وآلامهم.. وفى الصباح كان على أن أجد وسيلة تنقلنى الى القاهرة بأى ثمن، فالأمر سيحسم هناك، والأسكندرية تمام التمام،وعلىّ أن أستعد للنقاش والسجال حول أى نظام جديد ينبغى لنا بناءه،وهونقاش ضرورى، وغير ممتع على الإطلاق، ولكن الإخلاص فيه أكبر وفاء للذين استشهدوا دون أن يسألوا انفسهم عن الربح والخسارة المادية أوالسياسية.. إنهم فقط كانوا يدافعون عن الكرامة التى ربما لايجيدون تعريفها أوالحديث عنها!! عندما زاد المدد القادم من الأقاليم من فلاحين شباب ونساء وشيوخ ولم يعد الميدان يسع المريدين انتقل جمهور عجيب من التحرير إلى شارع المجلسين وهوجمهور من مصر فى العمق لايتحدث مع المراسلين ولن يرجع من المولد بلا حمص للأبناء والأحفاد، ولا يخشى أن يستشهد هنا بالقرب من مكاتب وزارة الصحة التى زارها مرارا باحثا عن علاج لقريب من الفشل الكلوى أوالتهاب الكبد الوبائى.. عندئذ ظهر الجنرالات عند رأس الشارع وخرج لهم الفلاحون ليناقشونهم، وأخذ الجنرالات يتفحصون منطق واصرار هؤلاء اللذين يماثلون أخوالهم وأعمامهم وآباءهم وأمهاتهم..! -الكليات الحربية يلتحق بها منذ ثلاثين سنة أبناء الريفيين الفقراء- وكانت المحادثات قصيرة وكانت الرسالة السرية واضحة: خلصونا من هذة الجثة إذا كنتم أبناءنا حقاً، ورجع الجنرالات وقد تلقوا

الأوامر من الرياسة الجديدة.....!!! كانت الإقامة فى شارع مجلس الشعب فرصة عظيمة لإجراء حوار عميق بين قوى وتيارات..! مثلاً بين عائلة سويف اليسارية من الزمالك-أهداف وليلى وأبناءهم-وعائلة مطاوع من الدلنجات- الحاج يوسف وابنيه سعد وكامل وزوجتيهما نرجس وابتسام وأبناءهم الستة- لقد تأكد الطرفان أن الخلافات بين العائلتين فى أمور هامة لايمنع التعاون على إسقاط النظام ولايمنع النسب رغم أن العائلة الأولى لايؤدى أفرادها الصلوات الخمس وبناتها لسن محجبات..!

استمرت الجمع فى التوالى لكى تؤلف روزنامة للثورة: جمعة الصمود وجمعة الرحيل وجمعة الانتصار وجمعةالتطهيروكانت الأيام والساعات تزيد الميدان تماسكا وتنوعا وأصبحت كل الأيام مليونية.فى الأركان المائة للميدان وضعت كل جماعة حملة: جماعة الفنانين جعلت السور الحديدى الذى يحيط الميدان نفسه معرضا، وجماعة المسرحيين أقامت مسرحاً، وجماعة الحلاقين افتتحت صالون الثورة، وأصبح الميدان كله جماعة للمبدعين تؤلف الشعارات وتلحنها وتؤديها، والأمن الغذائى للجميع توفر عن طريق أفران البطاطا المشوية التى أحاطت بمداخل الميدان يتزود منه القادمون والمغادرون، معسلة وسخنه يابطاطا.. المليون الذى توافد كان بحاجة إلى دورات مياه تم إنشاؤهاوتجهيزها خلال ساعتين ورسم حوائطها وامدادها بالصرف والمياه وافتتاحه بواسطة مهندسين وعمال واستخدام الدورات العمومية لاستخدام النساء.. حتى الاستحمام كان ممكناً فى عشرات الشقق التى تحيط بالميدان والتى فتحها أصحابها لاستخدام الثوريين!!.

أتى المجلس الأعلى للقوات المسلحة على دفعات لكى يستطلع الموقف خاصة بعد حصار قصر العروبة بآلاف المتظاهرين، وخروج النقابات المهنية بمظاهرات ضخمة متوجهة إلى الميدان..المهندسين ثم المحامين ثم نقابات المهن الفنية، وصنع الأطباء وحدهم ملحمة المستشفى الميدانى الذى يعمل ليلا ونهارا وبه كل التخصصات، والمقاولون من أصدقائنا نسوا قوانين الربح والمكسب والخسارة وعبر المكالمات أرسل الموردون آلاف البطاطين ومئات الآلاف من أمتار الكابلات ومن المشمع والبلاستيك.. ياداخل مصر منك ألوف، لقد أصبح ميدان التحرير مصر مصغرة، وعندما اكتمل المشهد بدأ السينمائيون يصورون على ألحان صوره.. صورة.. صوره كلنا كده عايزين صوره.. صوره للشعب الفرحان تحت الراية المنصوره.... يا زمان صورنا يا زمان..!.

التحالف الكبير

لم يكن ماجرى وليد حظ سعيد فقط، أوعناية إلهية حملتها وجوه القادمين من الحقول .لقد اجتمعت شروط التحالف الكبير لثورة الكرامة فى الشهور التى سبقت، وعلى عكس المأثورات فى الثقافة السياسية والتى تعتبر التحالف بين طبقات وضد طبقات، كان تحالف ثورة الكرامة المصرية يضم شرائح وطوائف من شتى طبقات المجتمع، والتى ترى أن الفساد والقمع ليسا ضروريين لازدهارها ونموها وأن المعيشة الكريمة والرفاه

الشخصية ممكنة دون نهب عمل الآخرين، وأن هناك مصلحة مشتركه في وجود تعليم عام لائق، ومستشفيات عامة تقدم خدمات فعلية ونظام للمرور يوقف نزيف الأسفلت، وموظفين عموميين دون رشاو..! في الحقيقة لقد اجتمع وتوافق المجتمع لمواجهة أوليجاركيه اقتصادية وسياسية وهذا هو سر استسلامها السريع، دون مواجهات مسلحة، ودون حرب أهلية كانت تندلع في كل الثورات السابقة، وليست الحالة التى تدخل بها الجيش إلا مرآة لهذا التحالف، كان التعبير السياسى عن هذا التحالف الكبير، هذا الائتلاف الواسع الذى مثله من ناحية ائتلاف شباب الثورة من شباب الأخوان مرورا بالليبراليين وحتى اليسار وجماعة أنصار السنة والجمعية الشرعية، بدءا من رواد الحانات حتى رواد المسا جد في الهزيع الأخير من الليل...طبعا لايمكن إنكار المسألة الجيلية فالشباب من كل الفئات الاجتماعية هم الذين يعانون من الركود الكامل الذى صارت إليه بلادنا تحت ديكياتورية مبارك وفساد حزبه، وطبيعى أن الرغبة فى مجتمع دينامى مسألة حميمة لدى الشباب، وكذلك المسألة الجديدة الفارقة هى اتساع استعمال الجيل الجديد لوسائل الاتصال الحديثة من الشبكات الاجتماعية على النت حتى الرسائل القصيرة على المحمول. لقد أتاح هذا لهم أن يقارنوا إمكاناتهم بغيرهم، والتى هى دون شك منافسة على الرغم من الشروط القطيعة التى يعيشون فى ظلالها،لقد أتت الثورة التونسية لكى تؤجج غيرة المصريين الثورية وخاصة عندما تحدثت بعض وسائل الإعلام بأن رد فعل الشباب التونسى ضد القمع ناتج عن ارتفاع المستوى التعليمى للمعاهد فى تونس، وربما كانت الدوافع التى أدت إلى مأساة مباراة مصر والجزائر والاستغلال الإجرامى للمشاعر الوطنية من قبل معلقين رياضيين وصحفيين والسيد علاء مبارك.. لقد انقلب لتؤدى دوراً فى هذا التمرد المجيد...الى يسمح لأحد بأن يسبقنا فى الثورة نحن تاج العلاء فى مفرق الدهر...ألا فى هذا فليتسابق المتسابقون ...!!.

الائتلاف السياسى الذى تكون هوكذلك لايمكن فهمه من الكتب والنظريات القديمة، لقد كانت هناك جماعات من كل التيارات مع الثورة وجماعات من كل التيارات تخشاها، وبمرور الوقت اضمحلت الأخيرة وانزوت إلا أخطرها وأضلها سبيلا الجماعة السلفيةوالتى أفتى شيوخها منذ البداية بمحرومية الخروج على الحاكم المسلم، ثم عادوا بعد الانتصار لكى يحاولوا كسر التحالف الكبير بإثارة مسألة إسلامية الدولة حتى يثيروا مخاوف الأقباط، وهذه الجماعة كانت دائمآعلى ارتباط بأجهزة الأمن فى النظام القديم....!! وهم يخسرون أمام هذا التسونامى الديموقراطى الذى شكل التحالف الكبير وائتلاف قوس قزح البديع الذى حقق الوحدة الوطنية الحقيقية والتى أصبحت التعبير عن الاشتراك فى الصلاة فى نفس المكان بعدما استشهد الأبناء فى نفس الموقعة ... دفاعاً عن الكرامة المشتركة التى هى من وصايا المسيح ومحمد عليهما السلام..... !.

الليلة الكبيرة!

لم يكن الخطاب الثالث لحسنى مبارك سوى استمرار للمسار الكارثى الذى سار فيه منذ بداية الأحداث، كما لوكان هناك إرادة قدرية تدفعه نحوجرف هاو،إنها نفس سياسة تقديم التنازلات بعد فوات الأوان، وكان فى آخر خطاب له قد قدم آخر مالديه وهوالتنازل عن أداء كل صلاحياته لنائبه الذى عينه منذ أيام قليلة عمر سليمان..والذى عمل من سموا أنفسهم مجلس حكماء على أن يباشر مهمات مبارك حتى انتهاء ولايته بعد ستة أشهر.، ولم يرض التحرير،وأدرك الضباط الذين كانوا يتوافدون ليلا أن الوقت قد أزف لكى يأخذوا الأمر بيدهم باسم الشعب،وحدثت محاولة اغتيال عمر سليمان،وأخيراً خرج الرئيس السابق لجهاز المخابرات ووراء ظهره تماما ضابط شاب يراقبه ويده على الغدارة .....قرر محمد حسنى مبارك ترك مسؤلية رئاسة البلاد للمجلس الأعلى للقوات المسلحة،وتحولت ليلة أحد عشر فبراير سنة ألفين وأحد عشر إلى الليلة الكبيرة – ليلة الجلوة – وخرجت مصر عن آخرها ترقص وتغنى، وكان بالميدان وقت الإعلان مايزيد عن المليونين،وكان هؤلاء المصريون الجدد يحققون انتصارهم الأول فى العصر الحديث، لقد كان يماثل مولد أمة،.لم ينم أحد هذه الليلة وخصوصاً أن صيغة التنحى للمجلس العسكرى تثير المخاوف،وبالذات في بلد عانت لأكثر من نصف قرن من حكم العسكر الذى كانت نتيجته الوحيدة المنطقية الركود المباركى التعيس. كان نصف أرواحنا فرح ونصفها الآخر نهباً لقلق مرعب،وكأنك ياأبوزيد ماغزيت..!!لقد نهرنى أحد الأصدقاء قائلاً لماذا الوجوم؟؟أجبته: حتى يطمان قلبى وأعرف الشروط التي يتولى بها المجلس العسكرى السلطة..... الصباح رباح لكن مين يجيله نوم؟؟؟

خاتمة

أياً كانت المسارات التى ستأخذها الأحداث فى الأيام القادمة، لقد استيقظ المصريون ولن يدخلوافى الكهف بعد الآن، لقد عرفوا ليس فقط قوتهم ولكن جمالهم الخاص كشعب فريد.. وستظل أيام الخامس والعشرين من يناير ومابعدها تمتلك القوة الرمزية القصوى فى حياتهم،وسيصبح الحج إلى الميدان حيث سينتصب نصب الشهداء،المكان الأكثر جذباً لروح المصريين التى أصبحت حرة ولأول مرة منذ فجر التاريخ...وأياً كانت التغيرات السياسية التى فى سبيلها للحدوث والتغيرات الاجماعية التى ستبعها والتى ستعتمد على موازين القوى التى تتكون الآن والتى علينا ألا نوفر جهداً فى جعلها تميل لصالح الشعب أبوالشهداء الفرحين ...أياً كان حجم التغيرات تلك فإن تغيراً أكيداً قد حدث ستكون تداعياته الثقافية واسعة المجال، لقد استرد المصريون شعورهم بالكرامة والاحترام وسيقف هذا المنجز الهائل سدا منيعاً أمام أى انحدار سياسى أواجماعى محتمل...ارفع رأسك فوق أنت مصرى.

ملحق بعد الكتابة:
الآن أو أبدا !!

تبدأ الثورات بإسقاط الطاغية، ولا تنتهى حتى تؤسس نظاما جديدا، وفى حالتنا فإن

إعلان تنحى حسنى مبارك عن حكم البلاد هومجرد البداية، وهوما يعنى انتقال السيادة من الديكتاتورية إلى الشعب الثائر. «السيادة الشعبية» ليست مجرد جمهور من عدة ملايين يتجمع فى ميدان التحرير وميدان جامع القائد إبراهيم وعدة ميادين أخرى فى عواصم الأقاليم ثم ينفض.. إنما ينبغى أن تتجسد فى جسم وهيكل منظم، لقد قامت لجان الأحياء بدور هام فى منع الفوضى ومواجهة اللصوص لكنها لجان ليست سياسية، والمطلوب الآن هوتجسيد السيادة الشعبية فى أشكال سياسية تقوم بمتابعة وتنفيذ برامج الثورة الديمقراطية، ولا يمكننى ولا يمكن لأحد أن يخترع هذا الشكل وانما هومتروك لمناقشة ديمقراطية واسعة بين الفاعلين المستديمين فى الثورة التى بدأت وتتطور.

إن المهمات المفترضة والتى تتغير يوما بيوم لهذا الجسم الديمقراطى والمجسد للسيادة الشعبية هوالتدخل عبر التعبئة وعبر الوسائل الأخرى للعمل السياسى لشل قوى الثورة المضادة الموجودة والتى أخذت تفيق فى كل مؤسسات الدولة بعد صدمة إزاحة رئيسها. إنه اقتراح بتكوين لجان متابعة وتطوير الثورة فى كل المؤسسات حتى يمكن الحفاظ على الملكية العامة للشعب ضد أى أعمال تخريبية يقوم بها أعوان النظام السابق ، وضمان التسيير الذاتى لتلك المؤسسات لتلبية الاحتياجات الجماهيرية وتقديم الفاسدين والمرتشين إلى القضاء وغل أيديهم عن إحداث أى اضطراب فى العمل والإنتاج والخدمات.

إن مراقبة حكومة تسيير الأعمال ثم الحكومة الانتقالية والعمل على استبعاد أركان النظام السابق من كليهما هومهمة عاجلة ينبغى أن تقوم الهيئة الممثلة للسيادة الشعبية القيام بها وذلك عبر مركزية الهيئات المحلية فى تنسيق وطنى له ممثلوه المعروفون والمتحدثون باسمه واجتماعاته العلنية

وكذلك التنظيم الطوعى للجماهير فى اللجان المحلية ودون أى استبعادات ماعدا عملاء الأجهزة الأمنية البائدة.

لا يمكن لهيئة السيادة الشعبية أن تنتظر لكى تنشر رسالتها عبر الاتصال العشوائى بالصحف ووسائل الإعلام المحلية والدولية ولكنها ينبغى أن تنشئ قنواتها الخاصة (صحيفة وراديوعلى الأقل) تنقل عبرها مواقفها وتوجهاتها وتتصل عبرها بالجماهير والعالم الخارجى.

إننى لا أتوقع أن تقوم الثورة المضادة بأى أعمال هجومية حاليا، ولكنها ستعمل بخبث على جر الفاعلين الثوريين إلى جلسات للحوار وصراعات جانبية، ولاتوجد طريقة لمنع ذلك سوى التأكيد الدائم والمستمر على الأهداف العاجلة للثورة المصرية.

وهى كما أعلن عنها مرارا وتكرارا منذ ٢٥ يناير:

١ ـ إسقاط النظام الديكتاتورى.

٢ ـ عقد جمعية تأسيسية منتخبة على أساس قواعد جديدة ديمقراطية وثورية تكون مهمتها الوحيدة وضع دستور جديد يعبر عن الجماهير والثورة.

٣ ـ تنحية كل أعوان النظام السابق من إدارة المرافق الحيوية فى البلاد.

٤ ـ التأكيد على الطابع السلمى والانتقالى للمرحلة الحالية من الثورة

٥ ـ تأسيس جمهورية ديمقراطية تتطور خلالها العمليات السياسية والاجتماعية الممثلة للجماعات والطوائف المختلفة وتضمن حق التنظيم وحق التعبير.

٦ ـ التأكيد على أنه لا تفويض لأى كان حتى يتم انتخابه من جمعيات عمومية لمواطنين منظمين ووفق تفويض محدد

لقد وضعنا التاريخ أمام مهمة غير مسبوقة فى بلادنا وسبقتنا إليها بلاد أخرى فى القرون الماضية وهوتأسيس نظام ديمقراطى، ولقد أدت الطريقة التى حكمت بها بلادنا على تفريغها من أية أشكال نقابية أوتمثيلية أوسياسية فعالة لكن ما لم يتكون على البارد فى عدة عقود يمكن أن نكونه على الساخن فى أيام وأسابيع قليلة.. إن المطلوب الآن هوأن نلفظ أى نماذج مسبقة، وأن نفتح أعيننا وآذاننا وقلوبنا وعقولنا على إيقاع الحياة، وأن نخترع جهازا حيويا للمناعة والسيادة الشعبية.

الثورة لم ولن تتم قبل إنشاء أجهزة الديمقراطية ودفن أجهزة الديكتاتورية، ومن الآن حتى رؤية ذلك أمام ـ الجميع ـ المواطنين الأحرار مهمات يومية دائمة هو خلق ونشر الوعى بالمهام والأخطار الملحة ودون الانسياق وراء الرغبة فى الراحة والاسترخاء أوالاستفزاز. لم تنته المعركة بعد، فليلزم كل منا موقعه حتى نرى المولود الجديد (الديمقراطية) وهو يضحك ويتكلم ويستطيع الحياة

ليس ما سبق من اقتراحات يدعى صاحبها أية ولاية أوقدرة خاصة على الاستنباط لكنه محاولة للاجتهاد وتحمل المسؤولية السياسية والثورية، وهوبالطبع قابل للنقد والتعديل والدمج مع اقتراحات أخرى، ولكنه مدفوع ليس بتقريظ ما فعله شعبنا وهوهائل لكن إتمامه على النحوالذى يحقق أهداف ومصالح الثورة الشعبية الظافرة، وهولهذا متوجه إلى المواطن الثورى وإلى كل القوى السياسية المؤيدة للثورة والتى عليها أن تتضافر لتحقيق المهمات العاجلة.

إننى أتوجه إلى الإسلاميين واليساريين والليبراليين والبدون على قدم المساواة: إن الصدق والإخلاص فى تحقيق هذه المهمات التى وضعتها لنا الثورة الشعبية هوالذى سيعيد تفنيط هذه القوى والقوى الأخرى التى ستستجد، ولا يوجد الآن معايير أيديولوجية سابقة، فهناك إسلاميون مع الثورة وإسلاميون يعيقونها، وهناك يساريون مع الثورة ويساريون يعيقونها، وهناك ليبراليون مع الثورة وآخرون يعيقونها.

إن المقياس الجديد ليس أيديولوجيا ولكنه مقياس واقعى وعملى: من يريد أن يطور العملية الثورية الجارية ومن يريد تجميدها، لقد أصبحنا فسطاطين واحد ينظر إلى الخلف ويتردد والآخر إلى الأمام ويندفع.

فإلى الأمام سر والله الموفق ■

الوداع يا نظريات تبرير الاستبداد

كيف فشل مفكروالسلطة في تخيل أن الثورة الديمقراطية المصرية ممكنة؟

سامر سليمان

في نهاية عصر مبارك دخل إلى هامش عالمه مجموعة من أساتذة وباحثى العلوم السياسية والاقتصادية من خريجى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. على رأسهم على الدين هلال، عبد المنعم سعيد، يوسف بطرس غالى، محمود محيى الدين، صفى الدين خربوش، مصطفى علوى وغيرهم أقول أنهم كانوا على هامش نظام عالم مبارك ونظامه لأن نظام مبارك هوفى الأساس نظام بوليسى، يعتمد على آلة القهر التى تسيطر على الأجساد أكثر بكثير مما اعتمد على آلة الإقناع التى عملت بقدر أوبآخر فى عصر عبد الناصر والسادات.

هذه الكتيبة من خريجى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية كان لها هامش تلعب فيه فى نظام مبارك البوليسى، هوهامش الأفكار. هؤلاء التحقوا بنظام مبارك بالطبع بناء على روح عملية أوانتهازية. هم أصحاب كفاءات لا شك فى ذلك. من ينكر ذكاء وكفاءة على الدين هلال وعبد المنعم سعيد ويوسف بطرس غالى ومحمود محيى الدين؟ هم انتهازيون من أصحاب الكفاءات. وقد حلوا محل عناصر محدودة الذكاء والقدرة. عبد المنعم سعيد مثلاً حل محل إبراهيم نافع صاحب المقالات عديمة الطعم والرائحة، الذى شاع عنه نكتة أن كتابه أكثر من قراءه، أى أن عدد الذين يكتبون له أكثر من عدد الذين يقرأونه.

لماذا التحقت هذه العناصر الذكية بنظام مبارك الغبى؟ بسبب الانتهازية؟ طبعاً. ولكن هؤلاء هم انتهازيون أذكياء. والانتهازى الذكى يلتحق بالمعسكر القوى وليس المعسكر الخاسر. فى الحقيقة هؤلاء كان لديهم حسبة خاطئة. هم أكثر الناس إدراكاً لغباء وضيق أفق نظام مبارك البوليسى، لأنهم وإن كانوا على هامش النظام فهم قريبون من المطبخ بشكل كاف لكى يدركوا عمق السوس الذى ينخر فيه. حساباتهم الخاسرة نابعة من عدم إدراكهم أن هناك شىء اسمه قوة الشعب، أن هناك مراكز قوة تتشكل أحياناً خارج جهاز الدولة لكى تصنع حركة جارفة فى المجتمع وتصبح طرفاً فى المعادلة

السياسية. قد يذكر بعضنا مقالات عبد المنعم سعيد منذ عدة شهور الذى تحدث فيها عن الهامش السياسى، أى عن كل حركات مناهضة النظام الحاكم الموجودة خارج الأحزاب الرسمية ومجلسى الشعب والشورى، والتى اعتبرها جماعات من المراهقين أوالمجانين.

هناك أهمية قصوى الآن ليس فقط لإدانة هؤلاء على أرضية الانتهازية، ولكن أيضاً لدحض نظرياتهم العلمية المزيفة عن قوانين التغيير. بالنسبة لهم التغيير لا يأتى إلا من الدولة، من تفاعلات داخلها. ومن هنا حاولوا الدخول إلى المطبخ السياسى. لم يلعبوا لعبة التغيير من الدولة فقط ولكنهم فكروا أنه يمكن اللعب أيضاً من داخل النظام. فالتفوا حول جمال مبارك ابن الرئيس المتعلم والمطلع على العالم الخارجى أكثر من والده. اعتقدوا أوادعوا أن الطريق الوحيد للتغيير هوالالتفاف حول ابن الرئيس لكى يفوزوا بالسلطة السياسية بواسطته ومن ثم يستطيعون تطبيق برنامجهم. بالطبع، الشخصى هنا يتداخل مع الموضوعى، والانتهازية تتداخل مع طريقة التفكير. ما يهمنا هنا هومناقشة النظرية الكامنة خلف تحركات هؤلاء الأشخاص، أوالنظرية المبررة لتحركاتهم إذا اعتبرنا أن النظرية مجرد تبرير لممارسات انتهازية.

التنظير للاستبداد فى مصر والدفاع عنه باعتباره شىء حتمى ممكن أن يأخذ طبعة شعبية من نوع الشعب المصرى ما ينفعش معاه إلا الكرباج، كما أنه يتخذ فى بعض الأحيان طبعة أكاديمية. فى نسخته الأكاديمية غالباً ما يقوم تبرير الاستبداد على نظرية كارل فيتفوجل الشهيرة بنظرية الدولة النهرية. صنف فيتفوجل فى كتابه الشهير، الاستبداد الشرقى(١)، مصر كحالة مناصلة من المركزية السياسية المبنية على حتمية جغرافية، وهى تمركز مصدر الحياة فى نهر النيل، مما يجعل سكان البلاد سجناء للسلطة المسيطرة على شريان الحياة هذا. وهوالأمر الذى يختلف عن حالة البلاد التى تعتمد على الأمطار. فهنا يصعب على سلطة مركزية أن تستبد لأن شريان الحياة يأتى من السماء ومن ثم تصعب السيطرة عليه. كانت خلاصة فيتفوجل هى ما يلى: عندما يكون سكان البلاد معتمدين على الأنهار، لا على الأمطار، ستجد السلطة السياسية هناك مركزية، بل استبدادية. إنها فكرة منطقية جداً، ولكنها تعرضت لانتقادات عنيفة.

أولاً لأنها تقوم على حتمية جغرافية، أى اعتبار أن الجغرافيا هى العامل الوحيد الفاعل فى تحديد طبيعة المجتمعات واليه يرجع كل شىء. ثانياً، أن نظرية الدولة النهرية فى تطبيقاتها على تاريخ مصر تتجاهل الكثير من الثورات الشعبية والكثير من أحداث التمرد التى قام بها السكان ضد الحكومة المركزية. هنا يجب الإشارة إلى الكتاب الهام جداً لجابريل باير دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة (٢) التى فند فيه بالمعلومات مقولة أن الشعب المصرى لا يتمرد. النظر لتاريخ مصر باعتباره سلسلة طويلة من الاستبداد السياسى التى يخضع لها سكان البلاد تقوم على منهج خاطئ فى قراءة التاريخ يركز على تاريخ الحكام

ويتجاهل تاريخ الشعوب. والحقيقة أن جهود مراجعة تاريخ مصر لبيان دور الشعب المصرى فى مقاومة الاستبداد لا تنحصر فى علم التاريخ والعلوم الاجتماعية، بل نجد أيضاً محاولات فى الكتابة الأدبية نذكر منها على سبيل الخصوص هنا الرواية الرائعة لسلوى بكر«البشمورى» والتى تعرضت فيها لثورة الشعب المصرى على طغيان السلطة العربية واستنزافها للشعب فى عهد الخليفة المأمون، وهى الثورة التى كانت من القوة بحيث اضطر المأمون للزحف بنفسه على رأس جيش لإخمادها. ثالثاً، يمكن قبول أن يكون لنهر النيل دور فى المركزية والاستبداد فى مصر الزراعية، أى تلك التى كان مصدر ثروتها الأساسى هوفلاحة الأرض. ولكن منذ القرن التاسع عشر يترك القطاع الزراعى مكانه كمصدر الثروة لتحل محله الصناعة والتجارة والخدمات التى يعمل بها معظم أبناء الشعب المصرى فى العقود الأخيرة. لذلك فالبحث عن جذور الاستبداد المصرى المعاصر لا يجب أن ينطلق من الجغرافيا ولكن من السياسة والاقتصاد.

بالطبع تظل الدولة فى مصر الحديثة لها أهمية استثنائية وتظل هى مصدر أساسى لتغيير المجتمع وتحديثه، لكن ليس صحيحاً أبداً أن المجتمع هنا غير موجود أوغير فاعل، بل هوكثيراً ما يأخذ مبادرة التغيير والتحديث. فحتى تجربة محمد على فى تحديث مصر والتى قامت على قيادة الدولة لعملية التغيير يتناسى البعض أنها أتت أساساً بمبادرة من الشعب المصرى ونخبته، ألم يأت محمد على إلى الحكم بناء على اختيار علماء الأزهر وبعض قيادات الشعب له؟ وإذا انتقلنا للقرن العشرين فسوف نجد أن الحدث السياسى الأبرز فى مصر الذى أوصل البلاد إلى بدايات الاستقلال السياسى كان ثورة شعبية هى ثورة ١٩١٩، ومن هنا فإن الرؤية الموضوعية المتوازنة لتاريخ مصر لابد وأن ترى التغيير فى مصر باعتباره محصلة التفاعل بين المجتمع والدولة وانه فى بعض الأحيان تأتى المبادرة من المجتمع وفى أحيان أخرى تأتى من الشعب. ثورة يناير ٢٠١١ هى نموذج لتغيير جارف أتى من الشعب وبالذات من قطاعاته الأكثر معرفة ووعياً. لقد أسقطت ثورة ٢٠١١ نظرية أن التغيير فى مصر لا يأتى إلا من جهاز الدولة.

يرتبط بنظرية الدولة المركزية المصرية الطاغية والمسيطرة على كل شىء فكرة أن الشعب هومجموعة من الحيوانات الاقتصادية التى لا تهتم إلا بملء بطونها أوتحسين ظروفها الاقتصادية، وانطلاقاً من ذلك تحدث على الدين هلال مراراً وتكراراً عن نظرية انعدام الطلب على الديمقراطية فى مصر، فهوكان يقول بأن مصر ليس بها ديمقراطية لأنه ليس بها طلب على الديمقراطية. قانون العرض والطلب القادم من علم الاقتصاد النيوكلاسيكى يؤكد أن الدنيا كلها عرض وطلب. هذا القانون طبقه الدكتور هلال على السياسة المصرية فوصل إلى النتيجة السالفة الذكر. طالما أن الشعب لا يطالب بالديمقراطية إذن فهوغير محتاج للديمقراطية. كما يقول المثل الأثير لدى التجار فى مصر «اللى ما معهوش ما يلزموش». وبما أننا لم نذهب إلى السوق

لشراء الديمقراطية، إذن نحن لا نريد حقاً هذه السلعة. ولكن فى الحقيقة أن بقاء السلع على الرفوف دون بيع ليس دليلاً على أن الناس لا تريدها، فى معظم الأحيان تكون الناس فى أمس الحاجة إليها لكنها لا تمتلك الثمن المطلوب؟ لقد كان هناك طلب شعبى للحرية وللديمقراطية، لكن الناس كانت فقراء أمام ثمن الديمقراطية الباهظ؟ هذا ما يسميه عالم الاقتصاد جون مينارد كينز بالطلب غير الفعال، أى الطلب الذى لا يمتلك قوة شرائية؟.

فى ثورة يناير ٢٠١١ تأكد أن هناك طلب فى مصر على الحرية والكرامة والعدالة الانسانية. هذا الطلب لم ينشأ لحظة الثورة، إنه احتياج قديم، لكنه لم ينفجر إلا فى ذلك التاريخ لأن الشعب المصرى لم يكن يمتلك أدوات التخلص من نظام الحكم الفاسد والفاشل، وعندما تراكمت عبر السنوات قدرات تنظيمية جديدة للشعب المصرى، من خلال ثورة الاتصالات والإنترنت أثمرت هذه القدرات فى النهاية عن ثورة نجحت فى هدم دعائم الاستبداد وقامت عن طيب خاطر بدفع ضريبة الدم قرباناً للحرية والديمقراطية

هنيئاً لنا بإسقاط نظام مبارك، وهنيئاً لنا أيضاً بإسقاط كل النظريات المزيفة وغير العلمية التى ادعت أن الشعب المصرى من طينة أخرى غير الشعوب، وأنه لا يثور أبداً، وأن من يرد التغيير والإصلاح فليس لديه من طريق إلا الانحناء لنظام الحكم ومحاولة إصلاحه من الداخل. لقد رفعت الثورة المصرية رأس كل مصرى، وأزاحت عنه ذل وعار الخضوع لديكتاتور فاسد وحاكم فاشل لقد رفعت من رأسنا نحن، باحثى العلوم الاجتماعية – الذين ناضلوا بالفكر ضد كل النظريات والأفكار البالية التى بررت إذلال الشعب وأثبطت من عزيمته. المجد لشهداء الثورة وجرحاها ومعتقليها وكل من قدم الدم والعرق فى سبيلها ■

(*) WITTFOGEL Karl. Oriental despotism. New haven: Yale university press, 1957.
(**) BAER, Gabriel. Studies in the Social History of Modern Egypt. Chicago: University of Chicago Press, 1969.

انتصار الفرد على العصابة

عزت القمحاوي

فى مكالمة تليفونية استغرقت نحونصف الساعة أخذت صديقة جزائرية تجادلنى حول الأسباب التى تقف وراء الانفجار الثورى فى العالم العربى.

الصديقة – التى لا أشك فى دوافعها – كانت مقتنعة تماما بأن وراء الأكمة ما وراءها، وتفترض أن الجديد الذى جاء به أوباما الذكى هوتثوير المجتمعات العربية بدلاً من غزوها، تطرح ذلك مع التأكيد على أنها منتبهة لعدم الوقوع ضحية لسيناريوالمؤامرة.

وكان من رأيى أن ما يجب أن تنتبه إليه هوعدم الوقوع فى فخ تضخيم قدرات الآخرين باعتبارهم كاملى المعرفة وكاملى القدرة، قبل أن نتحفظ على أسلوب التخوين للثائر.

لم أحدثها عن وجودى بين الثوار ومعرفتى الشخصية بزيف ادعاءات النظام، وقد سقطت سريعا على كل حال، لكننى دللت على أن الثورات العربية بعيدة عن التأثير الأجنبى بعد المشرق عن المغرب من خلال العشوائية الواضحة فى ردود الفعل الغربية على الثورتين التونسية ثم المصرية. وكانت العشوائية أوضح ما تكون فى الردود الأمريكية التى اتخذت شكل المسرح المرتجل صعودا وهبوطا فى اللهجة مع كل تغير فى توازن القوى بين النظام والثوار

بعد المكالمة تأجج الوضع الليبى واليمنى والبحرينى، وقد بات فى حكم المؤكد أن العام ٢٠١١ لن يكتمل وعلى الأكثر نصف ٢٠١٢ حتى تتحرر الأرض العربية من كل صيغ الحكم القائمة الآن، بما فيها الطائفية اللبنانية المخادعة بمظهرها الديمقراطى الخبيث

هى قضية وقت وترتيب: أية دولة ستسقط أولا. وهذا الترتيب يحدده توازن القوى على الأرض بين المستبدين والثوار. يبقى بعد ذلك سؤال العمق فى التغيرات، وهويتعلق بهذا التوازن نفسه بالإضافة إلى حجم المدنية فى بنية هذا المجتمع أوذاك، والمتمثل فى البنية الاجتماعية والتركيبة الطائفية وقوة النقابات وحجم انضباط مؤسسات الجيش والقضاء.

ربما كانت ثورة البوعزيزى فى تونس مفاجئة للقامع والمقموع بأكثر مما كانت الثورة

المصرية التى كان مخاضها طويلاً فى شكل احتجاجات سياسية عبر حركة كفاية صاحبتها اعتصامات مطلبية اقتصادية طوال خمس سنوات ثم حملة توقيعات البرادعى التى وصلت إلى المليون توقيع على المطالب السبعة للتغيير، لكن تناسخ الحالة الثورية وامتدادها إلى الدول الأخرى مدهش ويدعوللتأمل.

قفز شعار الشعب يريد إسقاط النظام من تونس إلى مصر متخطيا الأرض الليبية التى يحكمها نظام أكثر مراوغة وهونظام اللانظام. كان العقيد القذافى يصحح للصحفيين صيغة النداء عندما يخاطبونه بـ السيد الرئيس إلى صيغة الأخ العقيد قائد الثورة الذى لا يحكم.

واذا استعرنا المثل الشعبى المصرى عن اللص البارع الذى يختفى فى الكراكون (قسم الشرطة)، كان القذافى يختفى طوال ٤٢ عاما كقائد ثورة وسط جماهير تحكم نفسها بلجان شعبية، معلنا عداءه للديمقراطية ديمو..كراسى بترجمته الفكاهية: الدهماء على الكراسى.

لكن الثورة فى ليبيا كشفت مخاتلة صيغة الثورة الدائمة التى أعفت النظام من أى استحقاق ورسخت عصابة عائلية على طريقة المافيا الإيطالية فى حكم البلاد. عاد شعار الشعب يريد إسقاط النظام بعد أقل من شهر إلى الأرض التى قفز عليها وتجاهلها فى البداية.

والغريب أن تتحدر بنية السلطة العربية بالكيفية نفسها فى كل البلدان التى دفعت أثمانا باهظة لتحررها من الاستعمار، وتحولت كلها معًا من صيغة الدولة إلى صيغة الإمارة. وأعدت كل جمهورية وارثا من أسرة الرئيس الإبن، الزوجة، أوالأخ، وكان لابد لهذا الهدف من شبكة مصالح ضيقة تسنده وتدير البلاد بروح العصابة.

وقد خصت الجماهير العربية الثورة المصرية بقدر مضاعف من الفرح لم تقابل به الثورة التونسية التى فجرت شرارة التغيير، بسبب الوعى المترسخ بمحورية دور مصر فى الصعود والاضمحلال. ومن يراجع هذه الحقبة الآفلة سيدرك أن اتفاقية كامب ديفيد كانت السبب الأساسى وراء استقرار السلطة العربية وتحويل بُنى الدول إلى بُنى العصابات.

بلا أدنى شك، كان زرع إسرائيل فى المنطقة العربية عاملاً أساسيا فى تأخير التحول الديمقراطى، حيث لا صوت يعلوعلى صوت المعركة. لكن غياب الديمقراطية فى البلاد المحاربة تعوضه الحرب، فالحرب أيضا تغير وتطهر بعض الجراح ولوبالكى.

قامت حركة الجيش بمصر عام ١٩٥٢ على أكتاف الضباط الذين واجهوا الموت فى الفالوجا لأنهم أدركوا أن هزيمتهم سببها فساد النظام، ثم أوشك عبدالناصر على التنحى بسبب النكسة، وعندما عدل عن التنحى أطاح ببنية نظامه العسكرى، كما كان نصر ١٩٧٣ سببا آخر للتغيير، بخروج قائد مثل سعد الدين الشاذلى لاختلافه مع السادات والدفع بقائد آخر مثل مبارك إلى الصفوف الأمامية من بنية السلطة وإزاحة غيره.

وجاءت كامب ديفيد لا لتغير معادلة الحرب إلى معادلة سلام، بل لتوقف شريط الصورة

على صيغة سلام منقوص لم يسترد كامل الأرض العربية.

عطلت الاتفاقية الإمكانية العملية للحرب ولم تعد كامل الأرض، فأبقت على المجتمعات العربية مرهونة لخطر حرب لن تقوم وديمقراطية لا تأتى لأن الأرض لم تعد.

هكذا ركدت السلطة فى سائر الدول، بينما عبر الموات عن نفسه لبنانيا فى شكل حركة مفرطة للطوائف (عصابات بدلاً من عصابة واحدة) تسيدها حزب الله الذى تقدم نائبا عن الجيوش النظامية المعطلة، بالعا المجتمع اللبنانى كهدية على حراسته لطموحات الشعوب العربية.

باختصار، الثورات عربية خالصة يجمعها تطور الدولة العربية باتجاه العصابة فى ظل حالة اللاسلم واللاحرب الجديدة. وهذا ليس مسبة، لكنه توصيف لنمط من التنظيم له قيمه المعروفة وهى التضامن المطلق بين أعضاء العصابة والرفض الكامل لوجود الأغيار وعدم الاستعداد للتفاوض أوالشراكة.

وهذه بالمناسبة حالة الدولة الإسرائيلية فى مواجهة العرب، وهى حالة العصابة المصرية والعصابة التونسية وغيرهما من العصابات التى سقطت أوتنتظر. وقد تناولت مرارا على مدى السنوات الماضية أسلوب العصابة المصرية فى النهب الذى لا يشبه حالات نهب الأوطان، بل طريقة قاطعى طريق يفرغون شاحنة سطوا عليها.

ومن محاسن المصادفات التاريخية أن الأنظمة كانت تتوغل باتجاه بنية التشكيل الإجرامى، فى الوقت الذى تمضى فيه المجتمعات باتجاه معاكس تماما، نحوالفردية وحرية الأفراد فى مواجهة سلطة العائلة

ولا يمكن أن ننفى دور قلة من الكتاب ممن يمتلكون وعيا حديثا فى تشكيل وعى الشباب بفرديتهم وأجسادهم، لكن المساهمة الأكبر جاءت من الخارج بفضل شبكات التواصل الاجتماعى، وهذا هوالدور الأهم للمدونات ثم الفيس بوك، قبل دور التعبئة، الذى تنسبه إليها كل التحليلات، لأن أية دعوة للتعبئة لا تنجح إلا فى أوساط مقتنعين بها

وكما يقولون، فالعبرة باخواتيم. كان خوف الكثير من الكتاب من قيم العولمة فى بداية التسعينيات شديدا، وكانت هناك تحسبات من وقوع الشباب العربى أسرى قيم الاستهلاك والخفة الاستعراضية، بينما كان نظام العصابة يضخ بأجهزة الكمبيوتر ويسهل امتلاكها، ليس بوصفه أداة تنوير؛ بل بوصفه بضاعة مطروحة على المجتمع الذى حجزت له العصابة دور الزبون، وتريد أن تكسب من وراء بيع الأجهزة وخدمات الاتصال الحديثة يستوى فى ذلك التليفون المحمول والكمبيوتر

وكان الختام على عكس التخوفات التى أصابت النخبة الثقافية وبعيدا عن تصورات العصابة التى إن رأت الشعب لا تراه إلا بوصفه زبونا.

جاء الانفتاح على العالم بوعى بالذات وبالحرية الفردية، والأهم من ذلك الوعى بمستويات أعلى من التطلع الإنسانى الذى يتخطى مطلب الخبز.

واذا شئنا تحديد لحظة بدء للثورة المصرية فهى تبدأ من موت خالد سعيد على أيدى عناصر الأمن، وأيقونة الثورة ليست صورة واحدة بل صورتان: صورة الشاب (الصبى

تقريباً) الوسيم، والصورة الأخرى لفكه المهشم ووجهه المنتفخ بعد قتله.

وكان المشهد المؤسس للثورة المصرية هومظاهرة الحداد المدهشة على كورنيش الإسكندرية، حيث آلاف الشباب يرتدون الأسود ويعطون ظهورهم لمصر ووجوههم للبحر بكل ما يعنيه البحر من تطلع إلى البعيد ووعى بوجود عالم آخر تعلموا منه قيم الحرية وكرامة الجسد الإنسانى.

وكانت الفئات التى نزلت يوم ٢٥ يناير هى الأبعد عن الاحتياج المادى القاهر، لكنها تعرف معنى الإهانة فى أن تقف رهينة فى الشارع لكى يمر موكب تافه من التوافه أوأن تزور الانتخابات غصبا وبشكل علنى ولا يتم التراجع أوالتصحيح، بل إنها تستشعر الإهانة فى ترك المدن العريقة كالزريبة، بينما اخترعت ذهنية العصابة المدن المعزولة بأسوار.

هذا الوعى هوالذى خلق آلية التطوع فى ميدان التحرير للإعاشة وتفتيش الداخلين بتهذيب وتنظيف الميدان، وبعد نجاح الثورة الاستمرار فى طلاء الكبارى وتجميل المدينة، باختصار قام الشباب المعتز بفرديته بعمل كل ما كان ينبغى على النظام أن يفعله لوكان نظاماً ديمقراطياً.

ورغم أن الحالة المدنية قديمة وعميقة فى المجتمع المصرى بأكثر مما هى فى أى مجتمع آخر، إلا أن تناغم العائلة فى الرأى والتوجهات كان موجوداً حتى وقت قريب؛ فكانت هناك عائلات إخوانية تلتزم فى تصويتها واقتصادها وزيجاتها بنفسها وبالعائلات الإخوانية الأخرى، وكانت هناك عائلات يسارية وأخرى ليبرالية وهكذا، لكن فى هذه الثورة شهدت مشاركة عدد من أبناء الفاسدين فى الصحافة والحزب وأجهزة الأمن فى صفوف الثورة.

لم يشمل الخروج على قرار العائلة بيوت الفساد فحسب، لكن جدل القديم والجديد شمل المجتمع كله. وباستثناء الأسر الشابة التى اندمج فيها الأب والأم مع الأبناء رؤية وتفكيرا كانت الأغلبية من الآباء المقرة بالمظالم ضد مشاركة الأبناء بدافع الخوف، لكن إرادة الشباب كسرت خوف العائلة وخرجت لتسحب الآباء والأمهات خلفها، ولومن باب القلق على الابن والبنت خصوصا عبر الهدية التى منحها النظام للثورة من خلال قطع الاتصالات.

وقد تجلى التصادم بين القديم والجديد فى خطاب عمر سليمان حول مبارك الأب، وتقاليد المجتمع المصرى التى لا ترضى بإهانته، وهوذات الخطاب الذى صاحت به النساء المأجورات أونساء العصابة فى اتصالات مع التليفزيون المصرى، وقد أثر هذا الخطاب القديم فى المنظومة القديمة التى لم تزل تؤمن بسلطة العائلة بينما لم ينطل على الواقفين فى ميدان التحرير، وهم عقل الثورة الجديد الذى أطاح بسلطة العائلة قبل الإطاحة بسلطة العصابة ■

ثورة ٢٥ يناير.. عودة الأمل

كريم عبد السلام

تمهيد

يخطئ من يظن أن ثورة ٢٥ يناير كانت بلا مقدمات ولا آباء مؤسسين على مدى السنوات العشر الماضية على الأقل، سبقوا إلى تمهيد الأرض والتضحية بالأمن الشخصى والمكتسبات الشخصية ومواجهة العسف والظلم فى زمن تجبر الحاكم ونظامه وأجهزته الأمنية التى فاقت فى وحشيتها زبانية جوانتاناموأبوغريب.

يخطئ من يظن أن ثورة ٢٥ يناير كانت ثورة شبابية دعا إليها الشباب وخرج فيها الشباب وضحى فيها الشباب وحدهم، فقد ضمت الثورة كل أطياف المجتمع المصرى من المدينة والريف والصعيد، كما ضمت مختلف الفصائل السياسية من اليمين واليسار والناصريين والإخوان، وجمعت أيضا بين المسلمين والمسيحيين وبين العامة البسطاء والنخبة المثقفة.

كما كانت المظاهرات ضد الفساد والتوريث والدعوات الاحتجاجية المنتظمة، والاعتصامات الفئوية والعمالية فى القاهرة والمحافظات، والتى استمرت شهورا على رصيف مجلس الشعب ووصلت ذروتها بإقدام المحرومين والمظاليم والمهمشين وضحايا سياسات الفساد المنظم على الانتحار حرقا اقتداء بالشهيد التونسى محمد بوعزيزى، أمام مجلس الشعب وفى الأحياء الفقيرة من عشوائيات القاهرة والإسكندرية، كانت مؤشرات على أن الغضب الشعبى قد وصل إلى الحافة وأنه فى سبيله إلى الفيضان الغاضب ليجرف ما أمامه من فساد وظلم وركود، وأنه أى هذا الغضب الشعبى لم يكن ينتظر إلا شرارة تشتعل لينهض المارد المصرى ويكسر القيود التى ظل الأقزام المفسدون يكبلونه بها وينهشون جسده ظنا منهم أنه فارق الحياة وأنهم خالدون .

يخطئ من يظن أنه الوحيد الذى يحق له التعبير عن هذه الثورة العظيمة بحكم ظهوره فى هذه القناة أوتلك، لأن طبيعة الثورة كما لمسناها فى القلب لم تكن أبدا الميكروفون والمنصة اللذين اخترعهما بعض المنظمين من المحسوبين على نشطاء الإخوان وحددوا أولوية

الصعود إليهما أثناء الثورة، لتكون بمثابة تأطير للخطاب الثورى الذى يطالب بإسقاط النظام، وبالتالى لن تكون هذه الثورة أبدا ملكا للذين يسعون لاختزالها فى هذه الحركة أوالائتلاف أوالتجمع أوالحزب أوالأفراد كثيرى الحديث لوسائل الإعلام باعتبارهم قيادات الثورة، لا ،فالذين خرجوا إلى الثورة أكثر من عشرين مليون مواطن فى القاهرة والمحافظات، لم يكونوا كلهم من نشطاء الفيس بوك، ولم يكونوا فى غالبيتهم مسيسين أوأعضاء فى أحزاب مشهرة أوحركات احتجاجية، ولم يتلقوا دورات فى المشاركة الإيجابية من منظمات المجتمع المدنى، لذا فالحقيقة المجردة فى هذا الموضوع أن تلك الثورة العظيمة التى ألهمت العالم ورفعت رأسنا بعد طول انحناء، هى ثورة جميع المصريين، أولئك الذين تعرضوا للظلم والقهر والكبت والإضعاف والتهوين من شأنهم وطاقاتهم على مدى أربعة عقود أوأكثر، هى ثورة الذين شاركوا بانتظام فى تجمعات القاهرة والمحافظات وكذلك المتعاطفين الذين زاروا المظاهرات فى الميادين، هى ثورة الشهداء العظام الذين فقدناهم والجرحى الذين أصيبوا وهم يدافعون عن الفكرة النبيلة للتحرر، وكذلك ثورة الشيوخ والنساء الذين حملوا الأطعمة والبطاطين وزجاجات المياه للمرابطين فى الميادين، مثلما فتحوا بيوتهم ومحالهم القريبة من مواقع المصادمات لتكون المأوى والمشفى للمصابين والعالقين من الثوار والثائرات.

وأخيرا فى هذا التمهيد، يخطئ من يظن أنه قادر على القفز كالبهلوانات على ما حققته الثورة من مكتسبات، قياسا على عصور سابقة، لأن مكتسبات هذه الثورة ليست مثل ثورة ١٩٥٢ ولا ثورة الطلبة المغدورة فى ١٩٧٢ أوثورة ١٩٧٧ ،لأن ثورة ٢٥ يناير هى فى جوهرها انتفاضة ضد اليأس والركود الذين غرقت فيهما الحياة والمجتمع المصريين، ثورة لاستعادة الأمل والضمير والفعل والتأثير، لم تكن ثورة القمة كما حدث فى ١٩٥٢ ، حيث امتلك العسكر زمام الأمور ووضعوا الناس أمام الأمر الواقع، لا، هنا نحن أمام هبة شعبية نقية خرج فيها الناس بمختلف فئاتهم ليسقطوا الشرعية عن حكم ونظام فاسدين .

الشعب هنا فى هذه الثورة لا يمتلك السلطة لكنه يمتلك الأمل فى إصلاح اعوجاجها، لا يمنح مكتسبات لكنه يملك قاعدة أولية للمحاسبة والمراقبة، لذلك على رجال كل العصور وبهلوانات الحياة السياسية أن يمتنعوا، يعتزلوا أويتطهروا علانية ليشهدوا بداية وضع النقاط على الحروف فى الحياة السياسية المصرية، وأركانها برلمان منتخب حقيقة دون تزوير، وتحت رقابة مصرية ودولية، وفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، وحكومة تتشكل بناء على أجندات شعبية، على أن يكون الشعب متيقظا عارفا بمكتسباته وبدوره فى حماية حقوقه عبر مختلف آليات المراقبة والمحاسبة.

ماذا بعد ٢٥ يناير؟

السؤال الكبير المفتوح، الآن هو ماذا بعد نجاح الثورة؟.

حتى هذه اللحظات التى أكتب فيها، أى بعد مرور شهر على انطلاق ثورة ٢٥ يناير،

مازلنا جميعا أسرى الدفقة الاحتجاجية العظيمة للثورة، أى الخروج إلى حى الأربعين فى السويس مشعلة الثورة وميدان التحرير فى القاهرة، ومسجد القائد إبراهيم فى الإسكندرية وغيرها من ميادين المحافظات لإعلان الاعتصام حتى إسقاط النظام ورحيل الديكتاتور، وها هوالنظام قد تهاوى وسقط وهاهوالديكتاتور قد رحل إلى غير رجعة ،فماذا بعد ؟.

هذا هوالسؤال الصعب الذى يقتضى منا التفكير فى خلق كيانات دائمة تتواءم مع القانون وتمتلك القدرة على المحاسبة والرقابة على السياسات والأداء الحكومى، أيضا استغلال هذه الروح العظيمة للثورة فى تعظيم ثقافة التطوع للمساهمة بالجهود، وقد رأينا كم هى جبارة وفاعلة فى إعادة بناء هذا البلد.

نعم هناك أحزاب وكيانات وائتلافات تشكلت بعد نجاح الثورة تضم وجوها معروفة من الكتاب والفنانين والسياسيين،أى من النخبة الواعية التى نظمت وقادت المظاهرات المليونية، وهذا مطلوب بشدة، لكن ماذا عن طاقات الملايين الذين كانوا الكتلة العظيمة المستجيبة الهادرة فى الميادين ؟.

ألم يلتفت أحد إلى أن عددا ملحوظا من هذه الكتلة العظيمة المتماسكة تفتت بعد نجاح الثورة إلى عشرات من الاعتصامات والاحتجاجات الفئوية دون ضوابط ودون عقل ينظمها ويعرض مطالبها، كما شهدت هذه الاحتجاجات تجاوزات وأحيانا جرائم ؟.

ألم يلتفت أحد إلى الإعلان الذى أبداه مئات من الشباب عن فائض الطاقة المهدرة، عندما سارعوا بعد نجاح الثورة إلى تحويل طاقة الثورة إلى طاقة تنظيف وتجميل للشوارع والأحياء فى القاهرة والمحافظات؟

أقول إن الملايين الذين خرجوا يهتفون بأن الشعب يريد إسقاط النظام، كثير منهم من المحرومين الباحثين عن حقوقهم الأولية، وكثير منهم مقهورون مقموعون باحثون عن وجودهم وذواتهم، وكثير منهم فقراء مع سبق الإصرار والترصد، أى جرى إفقارهم دون وجه من الحق أوالعدل،وهؤلاء يبحثون عن الكفاف والرزق الحلال بغضب وحماس، وكثير منهم مرضى مع سبق الإصرار والترصد، ويبحثون عن العلاج والدواء وهوحق طبيعى لهم منعوا منه بدافع الفساد والإفساد وهم يبحثون عنه بغضب وحماس، وكثير منهم عاطلون عن العمل بفعل السياسات المجرمة والعميلة والفاشلة التى أدت إلى بطالة عمال وفنيين وهم مازالوا فى أوج عطائهم بدعوى الإصلاح الاقتصادى، أومنع فرص العمل عن غيرهم من الشباب المتعلم الذى لا يجد إلا عملا عشوائيا لا يتناسب مع ما تعلمه، وهم يبحثون عن حقوقهم بغضب وحماس.

لكن هذه الفئات والنماذج الغاضبة المتحمسة جميعها، تملك فائضا هائلا من الطاقة والخبرات المعطلة وغير المستغلة وهنا تتمة السؤال الذى بدأنا به، وأعنى كيف تتحول ثورة ٢٥ يناير إلى مجموعة من الآليات والأطر الدائمة فى خطوة أبعد من الاعتصام فى ميدان التحرير وغيره من الميادين دون إسقاط خيار الاعتصام المليونى كلما اقتضت الحاجة فعليا لتقويم السلطة

المفوضة بتنفيذ أجندة الشعب المصرى؟.

قبل التصدى للإجابة عن هذا السؤال الجوهرى أجد من الضرورى طرح عدد من الأسئلة المرشدة والمحددة لطرائق التفكير والعمل خلال هذه المرحلة الثورية أى حالا، وما بعدها أى على المدى الزمنى القصير، مع الانتخابات الرئاسية والبرلمانية المقبلة، وأولها أن ثورة ٢٥ يناير خرجت من القواعد الشعبية وبدون كوادر سياسية حقيقية رغم انضمام عدد من النشطاء والسياسيين إليها فكيف تبنى الثورة كوادرها السياسية؟.

كيف تبنى الثورة خطابها فى مرحلة ما بعد تنفيذ المطالب ومعظمها جارى تنفيذه بالفعل، بحيث لا تكون رد فعل على حالة الاستقطاب السياسى التى خلقها نظام مبارك، وحتى لا تكون رد فعل سياسى انتقامى، أوتتمترس فى المربع رقم واحد أى ميادين الاعتصام وترك السياسة للوجوه القديمة؟.

كيف تحصن القوة الغالبة للثورة من أخطاء الحكم الشمولى السابق، بحيث لا تبنى آليات الاستبعاد الطائفى أوالمذهبى أوالسياسى، ولا تلجأ لوصم المختلفين مع خطابها حال تشكله وتخوينهم ونزع المصرية عنهم، وصولا إلى اعتقالهم أونفيهم ؟

كيف يتم نشر الوعى بين الملايين الذين التفوا حول الثورة وأسهموا فى إنجاحها، أن الغضب الشعبى يمكن أن يحمل الأمل فى الغد لكنه قد ينحرف إلى الفوضى والمذابح والحرب الأهلية ؟.

كيف يمكن أن يتم التوعية لدى الملايين الملتفة حول الثورة بأن ثورتهم يتربص بها فاسدون ورجعيون ومخبرون نظاميون وانقلابيون ؟.

مشروع إجابات

نحن لدينا مجتمع مدنى يضم ٢٦ ألف جمعية أهلية معظمها غير فاعل أويتعرض للإفساد لتكون مجرد سبوبة للقائمين عليها، ويضم عددا من النقابات المهنية المعطلة والمخربة بالقانون المشبوه رقم ١٠٠ ، الذى تم وضعه خصيصا لضمان السيطرة على النقابات أووضعها تحت الحراسة وتجميدها، ويضم كذلك عددا لا بأس به من المنظمات الحقوقية التى عمد النظام السابق على تشويهها ودمغها بالعمالة وتلقى التمويل الخارجى، رغم أن التمويل الخارجى يمر عبر المؤسسات الحكومية أولا، ناهيك عن الأحزاب السياسية التى باتت فى حاجة ماسة إلى ثورة موازية لإسقاط المعارضة الداجنة التى كانت جزءا من النظام السابق باعتراف النظام وأحزاب المعارضة معا.

أقول إن لدينا مجتمع مدنى خامل بعيد عن الفاعلية، مع أنه الضلع الثالث الضرورى فى أى مجتمع، مع القطاع الحكومى والقطاع الخاص، وعليه تقع تبعات كبرى فى التثقيف والتوعية وتوظيف فائض الطاقة لدى أفراد المجتمع لصالح عملية التنمية على الأرض، فى الأحياء الفقيرة والعشوائيات قبل الأحياء والمدن المخططة والمتماسكة، وذلك بنشر وتأطير ثقافة التطوع، بدءا من التنظيف والتشجير والحفاظ على البيئة وصولا إلى محوالأمية والتكافل الاجتماعى وإدارة القطاع الهائل من الصناعات الصغيرة.

كما تقع على عاتق المجتمع المدنى

ومنظماته عبء نشر الوعى بالحقوق والمطالبة بها بطرق قانونية، وهوالوعى الذى كان غائبا عن الغالبية العظمى عندنا لسنوات طويلة، وحتى فى الثورة تركزت المطالب فى إسقاط النظام ومحاسبة مجرميه، لكن التوعية بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وفق الإعلان العالمى لحقوق الانسان والعهود الدولية الأخرى،وتدريب المواطنين على المطالبة بها شئ آخر،أيضا على منظمات المجتمع المدنى واجب الحشد والتوعية بالحق فى المشاركة الإيجابية والمراقبة ونحن على أعتاب انتخابات برلمانية ورئاسية.

من هنا أقول إن على طليعة ثورة ٢٥ يناير أن تبذل كل جهودها، مجتمعة أومتفرقة، لأن طلائع الثورة لا يمكن حصرهم فى أفراد أومجموعات بعينها فى القاهرة، بل توزعت بين القادة والمنظمين على الأرض فى جميع ميادين المحافظات، وليس فى ميدان التحرير وحده، أقول إن عليهم توعية الملايين التى شاركت فى الثورة بإشهار عشرات الآلاف من الجمعيات الأهلية فى كل حى من أحياء المدن المصرية التى خرجت منها المظاهرات فى ٢٥ يناير مثل السويس أوحتى التى تأخرت فى الخروج والمشاركة، أو تلك التى لم تخرج منها فعليا مظاهرات إلا بعد التنحى .

ما أهدف إليه أن تكون ملايين الثورة فى أسرع وقت هى عماد المجتمع المدنى المصرى الجديد، أن ينشئ الثوار جمعياتهم الأهلية لإعادة البناء فى المجتمع وأن يعملوا على تأهيل الإنسان المصرى الجديد بعد الثورة حتى يقاوم ويواجه الفساد الصغير فى مجتمعه المحلى أوالاستبداد الصغير والبلطجة فى مجتمعه المحلى أيضا، وأن يوظف عن اقتناع فائض الطاقة فى شارعه وحيه وقريته للعمل التطوعى لصالح مجتمعه

ما أهدف إليه أن تكون ملايين الثورة عبر جمعيات خدمة المجتمع والمنظمات الحقوقية قادرة على المشاركة بقوة فى الانتخابات المقبلة، باختيار المرشح وفق برنامج واضح مقبول منهم، والمشاركة بالتصويت ومراقبة عملية الانتخابات، ومتابعة تنفيذ برنامج المرشح المختار ومحاسبته بعد نجاحه.

إذا نجحنا فى تحويل ملايين الثورة إلى أعضاء فى آلاف الجمعيات والمنظمات الأهلية الفاعلة، تمثل القاعدة لمجتمع مدنى قوى، سنضمن بالتأكيد حياة سياسية دينامية حية وفاعلة، وسرعان ما يفرز هذا التفاعل الحى كوادر جديدة قادرة خلال سنوات قادمة على انتزاع جذور نظام مبارك من الأرض وهى خطوة أصعب وأهم من إسقاط الرأس والطبقة العليا من النظام.

على قمة الهرم فى المجتمع المدنى المنشود، تأتى النقابات المهنية والأحزاب السياسية، وبالنسبة للنقابات المهنية، يمكنها فى هذه المرحلة الثورية من إعلان إسقاط القانون رقم ١٠٠ ، وإسقاط وكلاء النظام الذين جثموا على صدورنا فى النقابات، أوعقد جمعية عمومية طارئة لانتخاب مجلس إدارة جديد يمثل ما يريده المهنيون فى نقابتهم، وقد تم ذلك جزئيا فى نقابة الصحفيين،بدفع مكرم محمد أحمد إلى الاستقالة، وكذلك فى نقابة المهندسين التى اتخذت خطوات جريئة للخروج من حالة التجميد الأمنية المفروضة عليها دون مبرر، والأمر نفسه فى نقابة المحامين

ومن المنتظر أن تلعب النقابات المهنية فى العهد الجديد دورا مؤثرا فى الحياة السياسية، عن طريق المشاركة فى وضع السياسات بحكم تخصصها مع الحكومة المشكلة، وتدعيم أوضاع المنتمين إليها، وتدريب الكوادر النشطة على العمل العام.

أما على مستوى الأحزاب السياسية، فليس من الضرورى انتظار قانون الأحزاب الجديد، الذى ينظم عملية إنشاء الأحزاب، حسب مطالب الثورة، بمجرد الإخطار للمحكمة الدستورية العليا والجهاز المركزى للمحاسبات، ويمكن كسبا للوقت أن تتشكل الأحزاب السياسية عبر أحكام قضائية، كما هوالحال مع حزب الوسط الذى تم رفضه من لجنة شئون الأحزاب على مدى خمسة عشر عاما، ثم أصدرت المحكمة الإدارية حكمها ببطلان القرارات السابقة للجنة التى حالت دون إنشاء الحزب، وقدمت فى حيثياتها ما يفيد التأكيد على عدم وضع العراقيل أمام إنشاء الأحزاب السياسية، وتيسير إشهارها، الأمر الذى يمكن الاستناد إليه قانونا عند إعلان تأسيس الأحزاب الجديدة قبل انتخاب البرلمان الجديد وقبل إقرار القانون المأمول الخاص بإنشاء الأحزاب.

إذن نحن أمام استزراع للأمل الذى حملته ثورة ٢٥ يناير إلى جميع المصريين وألهمت به العالم، أمام أمل أن تكون هذه الثورة أكبر من مجرد فورة غضب بعد طول سكون، وأن تتحول إلى ثورة مدنية دائمة تعمل على تحقيق الحلم الغالى بدولة مدنية عصرية.

الأمل المنشود أن تتحول الاعتصامات فى الميادين إلى نقلة أبعد فى كل حى ونجع وقرية وواحة ومدينة صغيرة على الأطراف، أن تكرس لخطاب مدنى يقوم على التعددية والاختلاف والقبول بالآخر، لا على انعدام الثقة والتخوين والوصم والاستبعاد، فما نراه حاليا من انتشار ثقافة التصفية والاغتيال والتخوين هوأول الأخطار التى تحيق بالثورة ومكتسباتها، وأول الشرور المغوية التى يجب الالتفات إليها والحذر منها.

خطاب ٢٥ يناير ينبنى بالضرب على يد أصحاب خطاب الكراهية والانقسام والتخوين، كما ينبنى بتجاهل الدعوات الانتقامية من رجال العصر السابق، والتى قد تحرف الثورة ومكتسباتها إلى حروب أهلية ومذابح، وبالمناسبة فإن الحذر من خطابات الانتقام لا يعنى أبدا التساهل أوعدم محاسبة المفسدين النهابين اللصوص الهاربين وسارقى ثروات مصر من الأراضى والأصول وسماسرة القطاع العام المنهوب بسياسات الخصخصة غير الرشيدة، فهؤلاء جميعا يجب أن يحاسبوا حسابا عسيرا بالقانون، مثلما يجب محاسبة جميع من أمر أونفذ إطلاق الرصاص المطاطى والرصاص الحى وقنابل الغاز المحرمة على الثوار، فهذا الحساب العادل للمجرمين واللصوص، يختلف كثيرا عن إطلاق نزعة الانتقام من رجال النظام السابق عشوائيا الأمر الذى يؤدى فى نهايته إلى القتال على الهوية.

خطاب ثورة ٢٥ يناير يجب أن ُينى بالعمل فى القواعد الصغيرة فى البيوت والمدارس والجمعيات الأهلية بأن تكون الأولوية للفكرة اللامعة والإنجاز الذى ينفع الناس، وليس للشخص على أساس دينه

أوقبيلته أوعائلته أونفوذه أولونه أونوعه، كما يجب أن ينبنى فى قمة الهرم فى النقابات والأحزاب بتأكيد ثقافة العمل والمشاركة على أرضية الاختلاف، وأن يكون الحوار الخلاق هوالآلية التى يمكن الوصول عبرها إلى صيغة للعمل معا والحياة معا ■

مشاهد من قلب ثورة العصف العظيم:

(ثورة اللوتس انطلقت والطابور الخامس لن يوقف زحفها)

محمود قرنى

١ - سلطان التاريخ

هكذا كتبت جماهير الشعب المصرى، بسلطان أقدم دولة عرفها التاريخ، نهاية لنظام الطاغية المخلوع حسنى مبارك. إنها إرادة شعب عريق ؛ شعب أذله الفقر والقمع والمرض، لكنه أبى أن يظل بمقدراته العظيمة رهينة فى يد مجرم سفاح ولص، فقرر أن ينتزع حريته إلى الأبد ؛ ليبنى دولة المجد الذى زال بأيدى حكم العائلة غير الكريمة، العائلة التى زينت لمبارك أن مصر ميراث دان له ولسلالته من بعده، فتصرف بها كما يلهوأخرق بجوهرة لايدرك من عبقرية تكوينها شيئا.

هكذا خرج المصريون إلى ضوء الشمس، ليعيدوا تأمل أرواحهم فى ساحة الحرية.

إن صورة مصر مساء الحادى عشر من فبراير سوف تستعصى على كل وصف، ومع ذلك سيظل الحالمون بلحظة التغيير يتذكرون تلك الملامح التى اصطبغت بها وجوه المصريين أسفل أضواء ميدان التحرير، وكيف استعادت مصر روحها مع انطلاق شرارة الثورة فى الخامس والعشرين من يناير الماضى.

من يصدق أن الموظفين فى الدواوين الحكومية توقفوا تلقائيا عن طلب الإكراميات والرشاوى، من يصدق أن السائقين توقفوا عن استغلال المواطنين فى أقصى ساعات الأزمة، من يصدق أن المصريين يعانق بعضهم البعض دون سابق معرفة، ومن يصدق أن المصريين عادوا لترديد مقولة مصطفى كامل لولم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا

الثورة الآن أكبر من كونها تقصدت خلع رئيس فاسد، وأكبر من رموز نظام اعتمد على تغذية الطابور الخامس بدماء المصريين، بل هى تتعدى ذلك لتتحول إلى تعبير رفيع عن إرادة شعب قرر أن يعود إلى مقعد القيادة، شعب ملهم بتاريخه وحسه الحضارى، خرج الشعب ليقول باختصار: إن من أسسوا أقدم دولة فى التاريخ مكانهم لابد أن يبقى فى المقدمة، اما من أرادوا لهذا الشعب أن يكون فى المؤخرة فسوف يكون مكانهم فى مزبلة التاريخ، وقد كان

إن رموز النظام الفاسد الآن لايجدون مكانا يؤويهم، ليس ثمة مكان آمن بالنسبة لهم.

لقد حكى لى مصدر مقرب من الدوائر الحكومية أن أحمد عز، أحد كبار اللصوص وعشرات غيره من رموز النظام البائد، كانوا يتنقلون متنكرين إلى أكثر من مكان فى اليوم الواحد قبل حبسهم، لأنهم لايستطيعون تأمين حياتهم رغم أنهم يملكون عشرات القصور والشقق والفيللات، فما الذى سيفعله هؤلاء اللصوص بمئات المليارات التى سرقوها بعد أن أسرفوا فى الولوغ فى دم الشعب.

هذا هوحكم التاريخ وحكم الشعوب التى لايعرفها الأوغاد، هؤلاء الذين يتصرفون كضباع لاتتشمم أنوفها سوى الرميم، لأنهم لايملكون شجاعة المقارعة وفنون النزال، هم يتخفون خلف واجهات ناعمة وملساء ومكاتب فاخرة، وبزات أنيقة وشعر مصفف، وسحنات لامعة مظفلطة ومع ذلك تظل رائحتهم الكريهة تسبق خطواتهم، تلك هى الرائحة التى ظل يتشممها الشعب المصرى طيلة ثلاثين سنة.

لقد كتبت ثورة الخامس والعشرين من يناير نهاية لتاريخ الإنكشارية من المأجورين، ولتاريخ المماليك الجدد الذين أتوا من الرحم نفسه، لكنهم أرادوا لإخوتهم أن يكونوا عبيدا لإحساناتهم، أن يكونوا خدما فى بلاط هم سادته.

وقد كان البلاغ بنهاية حسنى مبارك لحظة تاريخية تعنى نهاية لثلاث حقب من الانحطاط والوضاعة واللصوصية، وبداية لعهد يصنع المصريون فيه مستقبلا يستحقونه ويستحقهم، إنها صرخة شعب يرى نفسه أجدر بمكانة تليق به بين الأمم، مكانة حال بينه وبينها جواسيس وخونة وقطاع طرق ورئيس يسرق لبن الرضيع ليطعم أبناء السفاح من صناع وسدنة الطابور الخامس.

٢- مشروع تسمين عجول المرحلة

من الطبيعى أن تنضم الملايين من أفراد الشعب إلى صفوف الثورة، أى ثورة، بعد نجاحها. هؤلاء المترددون الخائفون من جموع الشعب يظلون بعيدين عن المشهد، يراقبون، لكنهم فى النهاية سيقررون مشاركة جموع الشعب موقفهم الذى يبدوفى النهاية وطنيا جامعا، فيما يحسب الأمر كله ضمن نجاحات الثورة فى اختراق الفضاء العام .

الأمر لا يحتاج إلى برهان. فالمتابع لتفاصيل سير الأحداث منذ انطلاق شرارة الثورة المصرية فى الخامس والعشرين من يناير الماضى سيكتشف أنها كانت تكتسب أنصارا جددا فى كل يوم يضاف إلى أيامها الثمانية عشر.

فبعد أن أطلق رئيس الوزراء الموالى لمبارك، مقولته الأشد سخفا: سنحول ميدان التحرير إلى هايد بارك وسنرسل للمتظاهرين البون بون إذا أرادوا ذلك، توالت الجموع على الميدان بشكل تجاوز الزخم المليونى الذى دعا إليه المتظاهرون، وهوالأمر الذى دفع نائب الرئيس المخلوع عمر سليمان أن يصرح، بعد يومين من تصريحات رئيس الوزراء، بأن الدولة لن تسمح باستمرار التظاهر لأيام أخرى.

واقع الأمر أن نائب الرئيس بل والرئيس نفسه لم يكن باستطاعة أى منهما فض التظاهرات، لأن هذا كان يعنى إصدار الأمر للقوات المسلحة بالقيام بحملة قمع واسعة لايمكن لها أن تؤتى ثمارا سوى عبر تحويل

الوطن إلى بحر عميق من المذابح والدماء، ولا أظن أن كليهما، الرئيس ونائبه، كانا فى وضع يسمح لهما بذلك . فالقوات المسلحة كانت قد حسمت موقفها منذ اللحظات الأولى عندما سلمت بمشروعية مطالب الثورة وتعهدت، بوضوح لا يحتمل أية التباسات، أنها لم ولن تستخدم العنف ضد أفراد الشعب. كان ذلك درءا لمحاولات وضيعة ومترخصة من الطابور الخامس وعلى رأسه نجل الرئيس المخلوع للإيقاع بين الجيش والشعب.

كانت الرسائل جميعها تبعث على الكثير من الاطمئنان، وتشير إلى ثمة نجاحات مؤكدة فى طريقها إلى الشعب المقموع، وهوالأمر الذى ساعد فى ارتفاع وتيرة الاحتجاجات يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة، وانضمت للثورة قطاعات لم يكن فى مقدرة أكثر المتفائلين توقع انضمامها.

ومع ذلك يظل السؤال قائما: هل هذه القراءة تنطبق على تلك النخب التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بالنظام واستكرشت من غدق عطاياه وعملت ضد الثورة لدرجة كانت تهدد بحرب أهلية؟!.

وها هم انتهازيوالمرحلة أنفسهم يعملون بجد ونشاط . ياللهول فقد باتوا بين عشية وضحاها يؤيدون الثوار.. إذن فقد نجحت الثورة . ثورة أيام العصف العظيم، هل يستطيع أحد أن يحصى الاتهامات والمؤامرات التى حاكها هؤلاء ضد الثورة نفسها قبل وبعد الخامس والعشرين من يناير الماضى. وهل من الأفضل أن ننشغل بهم، وهل يظل على الثوار تبعة احتمال الأذى قبل الثورة وبعدها، وإلى أى حد تكون مثاليتهم نحودعوة مفتوحة للتسامح جزءا من أخلاق الثورة، وهل يمكن لنا أن نتصور هؤلاء الكتبة والإعلاميون والصحافيون وهم يئنون تحت وطأة حقائب تحمل فى أحد جيوبها المقالات التى تنهج لاهثة ضد الثورة وفى جيبها الآخر مقالات تسعى لتقبيل أحذية الثوار طلبا للغفران؟!

فمن تابع الأيام الأخيرة للطاغية حسنى مبارك فى حكم مصر يدرك المدى المنحط الذى وصل إليه مشروع تسمين عجول المرحلة، أعنى مشروع إنشاء جمهورية وراثية برأسها الانتهازى الضال جمال مبارك

كان هؤلاء الإعلاميون والصحافيون وعدد كبير من رجال الأعمال يمثلون العنوان الأبرز لهذا المشروع، ومن ثم يفترض أن هؤلاء يتبنون الفكرة الأشد نقضا لمشروع الثورة، وعليه فإن الخطوة الأولى والمنطقية لهم عقب نجاحها تتمثل فى استقالتهم من مناصبهم، وليس من المنطقى، بطبيعة الحال، تحولهم إلى خدام للمرحلة الجديدة، هذا يعنى شيئا واحدا فقط أن انتهازيى المرحلة الفائتة هم انتهازيوالمرحلة القادمة، وهم بكل تأكيد ينسون أن الثورة الطالعة ليست ثورة النظام على نفسه، لكنها ثورة الشعب على النظام هذا النظام الذى استأجرهم فكانوا جزءا من فساده ووضاعة مقاصده، وأظنهم سيبقون على دين أسيادهم، يأبون الخروج الآمن والكريم ويرفضون إلا الخروج المهين المزجج بالعار، وان غدا لناظره قريب.

٣ - مصير مثقف الشعار

لا زال يخالجنى السؤال: هل الدولة الشمولية التى كانت ترعى الثقافة باعتبارها

الابن البكر لفسادها، ذهبت مع ثورتنا الطالعة إلى القبر، وهل سيبقى انتهازيوالمرحلة فى صدارة المشهد يرطنون بالخطاب القديم المعضد بواقع جديد يتنافر معه وينبذه.

أظن أن هذه الدولة بات وجودها محل شك، وسأدفع بتفاؤلى إلى مداه وأقول إنها حتما ستزول إلى غير رجعة، بعد أن تعرت مؤخرات خدمها بشكل مثير للضحكات، وتفاوتت القدرة على البقاء لذوى الياقات البيضاء على الكراسى الوثيرة، فمنهم من سينجح مؤقتا فى وضع الطلاء الجديد على بضاعته القديمة ومنهم من كسدت تجارته بالفعل فبات يحلم بميتة خارقة يتشبه فيها بأبطال الأساطير القديمة.

ومن عجب أن تحولات الخطاب السياسى نحوضجيج الإصلاح السادر بلا طحن خلال السنوات الماضية، قدم لنا مثقفين يعيشون بين ظهرانينا مستعدين لدفع رقابهم، قبل شرفهم، ثمنا للكراسى التى يجلسون عليها، مستخدمين فى ذلك أحط الوسائل للدفاع الباسل عن هذه الأعطيات.

وقد شهدنا فى السنوات الماضية أهم وسائل هذا الدفاع مقرونة دائما بنسبة كل منجز إلى المالك الأوحد للشعار السياسى. وليس علينا أن نضحك عندما نجد موظفا صغيرا، يقف حديثاً على سلم النفاق، ليرد الفضل فى إصلاح بالوعة مجارى إلى تعليمات السيد الرئيس !! لأننا، فى المقابل سنجد المثقف العضوى ، أقصد من كان يقدم نفسه على أنه كذلك، يقف فى كل المناسبات الرسمية وغير الرسمية ليعيد الفضل فى نشأة كرشه المتدلى أمامه إلى الأنعم والخيرات التى تفيض بها السلطة السياسية.

والحقيقة تقتضى الإشارة إلى الاختلاف الكمى والنوعى فى سعى السياسى نحوثراء ذمة الثقافة ومنتجيها. وعبر ما يربوعلى خمسين عاما تراوحت فواتير الشراء صعودا وهبوطا، وانتهت الدولة فى تجليها السيوثقافى إلى قناعات يندى لها الجبين، بحيث باتت منحة التفرغ لمثقف معور لمدة عام واحد كافية لشراء ذمته دهراً بأكمله، وبات طبع الكتاب فضلاً يجب أن يدفع الكاتب ثمنه باهظاً حتى لوكان هذا الثمن يخصم ما تبقى لديه من احترامه لذاته.

إن المسافة بين مسدس جوبلز والعقل السياسى العربى تبدوفى أقصى درجات تقاربها وتلاحمها، فقصة وزير الدعاية النازية مع الثقافة – على شيوعها- لم تفقد دراميتها ومأساويتها أيضاً، فى الوقت نفسه لم يستطع السياسى العربى الذى يملك السلطة، أن يشحذ عقله، لكى يستوعب العديد من التغيرات النوعية، التى أنجزت أفكاراً ومشاريع وقوى سياسية دولية جديدة، وليس غريباً أماء هذا الوعى الأعمى، أن تتحدث السلطات العربية عن كل مناحى الإصلاح وحتميته بل وتخطونحوه بعض الخطى الشكلية المتعثرة، لكن ثمة إرادة حديدية قابضة على منابع الثقافة والمعرفة، لئلا يتشكل العقل العام خارج مفهوم السلطة عن نفسها، وكأن تحديث الدولة يعنى كل شئ عدا تحديث نظام الحكم نفسه، وكأن العقد الاجتماعى المكتظ بالغبن، والمبرم من طرف واحد غالبا. هوقدر الشعب العربى فى كافة الأصقاع، ودائما ما كان النظام السياسى يجد ما يبرر به هذه

الديماجوجيا، فمن وجهة نظره يدوالتحديث فى معظم وجوهه نقيض الاستقرار، والديمقراطية تعنى مزيدا من الفوضى، ويصبح رفض جائزة ذات طابع سياسى رديفاً لقلة الأدب وانعدام التربية. هذا ماقاله بالفعل كثيرون من مثقفى النظام عبر أكثر من أربعين سنة غلب فيها الشعار السياسى على منهج التفكير الحر الذى كان عنوانا فارغا لم يؤد سوى لتكريس النظام البوليسى.

وأغلب الظن أن الثورة المصرية ستدفع كثيرين ممن ترهل لحم أكتافهم بفضل خيرات النظام إلى محارق مختلفة، لا بأس، فعلى الجميع أن يدفع ثمن فعلته، وعلى الأرجح، لن يكون بمقدور هذه الأكاذيب أن تنطلى على أحد.

٤- لملمة قوى اليسار الراديكالى أم عشاء مسموم فى الفضاء العام !!

فى اجتماع بنقابة الصحافيين دعت له قوى اليسار الراديكالى قبل سقوط نظام حسنى مبارك بيومين اثنين، دار الحديث عما يمكن أن يفعله اليسار داخل الطبقة العمالية دعما لثورة الخامس والعشرين من يناير.

الصحيح أن الاجتماع قصد إلى كيفية تصعيد الشعار اليسارى فى أوساط المتظاهرين، بنية إضافة العدد الأكبر منهم إلى سجلات اليسار الراديكالى. بالطبع لم يكن الأمر مفهوما وسط زخم جارف للثورة، التى بدت فى حالة تمدد يتعاظم ويتعمق يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة. وهوالأمر الذى دفع عددا من الحضور للتخلى عن خجلهم فتحدثوا بلا مواربة عن أن المشاركة اليسارية فى الثورة تبدوقليلة الفاعلية، ضئيلة الحضور، فضلا عن محدودية تأثيرها، وهومايعنى أن استنهاض الشعار اليسارى وسط الشعارات غير الأيديولوجية للثورة هومحاولة لفصم عراها، لذلك لم يخجل كل من الشاعر سيد حجاب والدكتور أحمد الخميسى من اتهام اليسار بأن مثل هذا الطرح ليس إلا محاولة لسرقة الثورة.

فهل أخطأ معظم الحضور فى التبرم من هذا الطرح الذى بدا متأخرا، حتى أن عددا ليس قليلا من الحضور ودع الجلسة قبل نهايتها.

ظنى أن هذا الطرح شابه عدة إشكاليات مهمة تعكس أزمة الواقع السياسى فيما قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير، وهوأمر لا ينطبق على فصائل اليسار وحدها، بل ينطبق على كل القوى السياسية التى عملت فى ظل النظام السابق بما فى ذلك جماعة الإخوان المسلمين التى تواجه مأزق التفكك بعد انكشاف الغطاء الكاذب الذى روجه النظام البائد حول قوة الجماعة، وهى قوة تجاوزت واقعها بكثير. الأمر كذلك ينطبق على اليسار التقليدى ويمثله حزب التجمع وبعض الفصائل المتناحرة، وهى تجمعات أساءت لتاريخ اليسار أبلغ الإساءة. ولعلنا تابعنا فى السنوات الماضية حجم التحالف المخزى الذى ربط حزبا مثل التجمع بالحزب الوطنى المنفك بدعوى إبعاد مصر عن المشروع الدينى الأصولى الذى ينتظرها على يد الإخوان المسلمين أوبعض القوى المتشددة مثل الجهاد أوالجماعة الإسلامية، وهى كلها تخوفات ثبت بالدليل الجازم عدم صدقيتها، وظلت

الحقيقة الأكثر سطوعا هى التحالف غير المقدس الذى نشأ بين أجهزة سياسية وأمنية فى الدولة وبعض هذه الرموز، وتكونت عبرها أرتال من المصالح ذات الطبيعة الشخصية والفئوية التى قاوم أصحابها فكرة الانحيار لجوهر فكرتهم ذات البعد الطبقى.

الإشكالية الأجدر بالتوقف هنا أن اليسار الراديكالى بكافة فصائله، وإن اعترف بعفوية الثورة، باعتبارها أقرب للإبداع فى صورته الإنسانية، إلا أن التنظيرات الكثيفة المتواترة حول مفهوم الطبقة ودورها انجرف باستمرار إلى المزيد من الطوباوية، لاسيما فى بحثه عما يسمى بالتجانس بين الكتل البشرية الصانعة للفعل الثورى، دون أن يقنع المنظرون بقيام إجماع شعبى على مطالبية تمثل سياقا عاما، بمقدورها أن تحقق الانتصار الأكبر للطبقة الوسطى وفى القلب منها الطبقة العاملة. هذا يتم دون الانتباه إلى ماينتظر الثورة بعد هبوبها وتحقيق أهدافها الأولى حيث من المعروف أن الأنظمة الباتريركية الأبوية والشمولية تتحالف عادة مع قوة رأس المال التى تكون بالفعل قد سهرت على إنتاج الأنساق المعرفية والقيمية التى يكون قد كتب لها السيادة، لذلك ليس غريبا أن تجد بعض ممن قامت الثورة من أجلهم يذهبون إلى مناهضتها والحض على إفشالها والانتقام منها، باعتبارها تمثل مغامرة لامستقبل لها، وهؤلاء هم الذين يمثلون الوقود الداعم للطبقة الحاكمة فى تحويل مسار الثورة الذى يطمح إلى التغيير الجذرى، حيث يدفعون فى سياقات إصلاحية ستكتفى غالبا ببعض التغيير فى الوجوه دون التطرق إلى هدم جوهر النظام وأبنيته الأساسية وعقله المفكر بطبيعته الانتهازية.

ليس من العيب إذن أن نتوقف مليا أمام ما قاله ميكيافللى فى كتابه «الأمير»: إن الأنبياء المسلحين قاموا بالفتوحات أما الأنبياء المجردين من السلاح سقطوا صرعى.

○○○

من هنا يجدر بنا أن ننتبه إلى أن ثورة الخامس والعشرين من يناير بزخمها غير المسبوق لاتحتاج منا العودة إلى شعارات أشبعها الدهر تكلسا قدر حاجتها إلى الالتفاف حول المطالب شبه الإجماعية للشعب المصرى . ومدى علمى أن أجهزة الأمن لازالت متحيرة فى تصنيف شباب الثورة ومفجروها حتى الآن. وقد حكى اليسارى والمناضل كمال خليل عن سؤال وجهه إليه أحد ضباط أمن الدولة أثناء حبسه لثلاثة أيام فى بداية الثورة حيث قال له: كنتم جيل السبعينيات تعكفون الليالى فى قراءة ماركس وانجلز ثم تخرجون علينا بشعار يسقط النظام، أما هؤلاء الشباب فليس لهم علاقة بهذا التراث، فقط يجلسون إلى الفيس بوك ومع ذلك يخرجون علينا بالشعار نفسه ففى أى خانة تصنفهم ؟؟، كان رد خليل أنه لا يصنفهم فى أية خانة، فأجابه الضابط بأن جهاز الأمن يضعهم فى صفوف اليسار.

ورغم عدم دقة التصنيف بالمعنى المنهجى إلا أنه يعكس جانبا من الحقيقة، حيث يلتف شباب الثورة حول عدد من المطالب التى تؤكد الأشواق العامة لعدد من القيم الكبرى وعلى رأسها العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية، وهوالأمر الذى يراه الدكتور محمد البرادعى، مثالا، يمثل شكلا من أشكال

الاشتراكية الديمقراطية، ومن ثم فإن هذا الإجماع، على المطالب الثلاثة بتفاصيلها التى تنهج نهجا تعدديا، يجب أن يدفع اليسار إلى التحالف المبدئى معها.. فالحديث فى هذه اللحظة عن الكتلة البشرية التى يمكنها أن تمثل كلا متجانسا ضرب من الخيال، بل هى حلم بات يعكس تخلف حركة اليسار عن زخم الثورة المتسارع الذى يدوفى جوهره أكثر واقعية، لذلك فإن دعوة كمال خليل لإنشاء حزب يسارى ديمقراطى تنضوى تحت لوائه كل فصائل اليسار سيمثل أكثر المواقف موضوعية وبرجماتية فى الوقت نفسه.

فالمشكلة الكبرى التى يواجهها اليسار الراديكالى الآن تتمثل فى أنه ظل يمارس العمل السرى على مدار الثلاثين عاما الماضية عبر خلايا محدودة التأثير، افتقدت الفعالية الميدانية والحركية فى معظم الحالات، ومن ثم حدث انكفاء على النظرية وباتت هى الشغل الشاغل الذى أشعل مئات الصراعات لدرجة أفشلت كل المحاولات التى بذلها مخلصون لإنجاز ما يسمى بوحدة اليسار.

مشكلة اليسار فى ذلك ليست فريدة فى طبيعتها أوتجلياتها لاسيما أن المزاج المصرى تغير فى أيام معدودة كما لم يتغير من قبل. لا بأس، فماركس يرى أن ماتتعلمه الجماهير فى أيام الثورة يتجاوز ماتتعلمه فى ماتبقى لها من سنين قادمة وفائتة.

لذلك فإن جميع الأبنية الفوقية التى مثّلت قهرا للشعب باتت تقترب بسرعة جارفة من السقوط، ينطبق الأمر كذلك على كل الأبنية التى تحالفت بشكل أوبآخر مع النظام المنصرم. الصورة الأولى يمثلها الجهاز الأمنى بكل عنفوانه، ويمثل الصورة الثانية كل القوى المعارضة مجتمعة أومنفردة، وهوما يعنى أن ثمة انهيارات قادمة لن تستثنى أحدا

إن الأشواق العامة لدى الجماهير لعقد اجتماعى جديد يعيد الاعتبار للقيم الإنسانية الرفيعة، ويعيد للفرد صوته الخاص هوشوق يتجاوز الصراعات الأيديولوجية التى تبدوالآن كبقايا عشاء مسموم، ليس بإمكانه إلا تذكيرنا بخيانة تزكم الفضاء العام

٥ – جيش مصر العظيم.. بين الأخلاق والسياسة

تسربت أنباء مؤكدة، باتت الآن فى حكم الحقائق، عن أن مبارك رفض، حتى لحظاته الأخيرة، التخلى عن السلطة فهدده الجيش بالاعتقال والمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى.

الرواية لا تحتاج إلى تأكيد. فالرئيس الذى أمر وزير داخليته بإطلاق الرصاص الحى على المحتجين، هونفسه الذى طلب إلى الحرس الجمهورى النزول إلى الشارع لـ مسح الشوية العيال دول حسب تعبير السفاح نفسه. لكن الحرس الجمهورى، فيما يبدو، رفض تنفيذ الأمر. من ناحية أخرى استبق الجيش، حرصا على الشعب، فنزل إلى الشارع لحماية أبنائه من سفاح يتغذى على الدماء. والأمر بالطبع لا يمثل دهشة، فمبارك لم يقدم التعزية لأهالى الشهداء، سوى بعد مرور ستة عشر يوما على استشهادهم برصاص جلاديه وسفاحيه الصغار، وقد بدت التعزية فعلا كريها بالنسبة له وقد شعر بها كل من تأذى بالاستماع إلى آخر خطاب له.

اعتقد مبارك أن كل مؤسسات الدولة رهن

مشيئته، وأن مهمتها الوحيدة حمايته وحماية فساد عائلته، لذلك بدا أخرق، وتصرف بذهول ديكتاتور أعماه اعتقاده بأنه نصف إله. ربما لذلك كانت معالجاته للأزمة متأخرة وبليدة جريا على عادته، فضلا عن صلفه وتعاليه ورغبته التى لا تخفى فى التنكيل بشعب منحه ما لا يستحق.

وعندما أشاع مبارك ورجاله أن الجيش إنما نزل إلى الشارع لتصفية الشعب ، فى الوقت الذى حاول فيه الطابور الخامس الإيقاع بين الجيش والشعب بشتى السبل، أصدر الجيش بيانه الأول ليؤكد على مشروعية مطالب شعبنا العظيم ، حسب تعبير البيان، فى الوقت نفسه أكد البيان على أن الجيش لم ولن يستخدم العنف ضد أى من أفراد الشعب وأن وجوده ليس إلا للحفاظ على الممتلكات العامة والخاصة.

رسالة الجيش كانت واضحة ولا تحتمل الالتباس، لكن اللص غير الظريف، تجاهل الرسالة وتمادى فى غباوته وأنانيته، وأوعز إلى جهازه الإعلامى بالدس والشتائم والأكاذيب ضد نبل مقاصد الثورة ودماء شهدائها الأطهار

كانت بيانات الجيش المصرى تؤكد، بما لا يدع مجالا للشك، أننا أمام مؤسسة تنطوى على القوام الصلب للوطنية المصرية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان اختيارها للغة بياناتها والتوقيتات التى صدرت فيها يعنى أنها على وعى عميق بأزمة مجتمعها، فى الوقت نفسه كانت خطاها خلف خطى الشعب بحيث بدت مواقفها ليست إلا إنفاذا لإرادته كصاحب شرعية ثورية شكلتها خطاه على أرض الشارع فى كل أرجاء الوطن، ومن ناحية أخرى بدت القوات المسلحة محافظة على الشرعية الدستورية ولم تتخذ أية قرارات تستهدف الانقلاب عليها قبل الأوان، من هنا منحت الرئيس المخلوع فرصته كاملة حتى دخلت البلاد إلى العصيان المدنى وبدأت فى الانهيار الكامل.

وهكذا اتخذ الجيش قراره الذى تأخر ثمانية عشر يوما، منحازا لمطالب شعبه المشروعة، ضد إرادة النخاسين والقتلة من أبناء جلدته.

وربما نرصد من هنا المسافة بين بيان جيش مصر فى الثالث والعشرين من يوليو١٩٥٢ وبيانه فى الثلاثين من يناير ٢٠١١ .

فجيش يوليو، الذى تبنى مطلب شعب قهره ملك غشوم واحتلال خسيس، قدم نفسه ككبش فداء لحلم كان يمكنه، بخطأ غير محسوب، أن يودى بضباطه إلى ساحات الإعدام . كان حلم صغار الضباط يتحصل فى الطموح إلى حكم وطنى خالص تقوده طلائع الطبقة المتوسطة ويتبنى فى هذا المعترك منظومة من القيم الإنسانية الرفيعة التى تتحصل كلها فى تحديد أكثر أخلاقية لمفهوم المشروعية بما ترتب عليه من القضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم . هذا المفهوم الذى ظل غائما لسنين ربما لا نعرف عددها، كان يتوفر للبشر بجرعات تكبر وتصغر من وحى طبقتهم الاجتماعية وموقعهم فى السلالة النبيلة للعائلة الحاكمة وبما يملكون من أموال وضياع . كان المفهوم إذن يولد من رحم الكهنوت وقداسة السلالة، بينما كان مفهوم المشروعية الذى بحث عنه

الضباط الحالمون يسكن بين أصابعهم التى لوثها تراب الحقول وفقر الأهل بقاماتهم التى كانت قصيرة أكثر مما ينبغى. كان من الضرورى إذن أن تتحول دفة المفهوم ليكون أكثر إنسانية وأكثر أخلاقية، ومن هنا تغير مفهوم الطبقة، وأصبحت الجدارة، أعنى مشروعية الوجود فى الفضاء الاجتماعى والإنسانى، تتوفر للإنسان بمجرد الميلاد،وتتعاظم هذه الجدارة كلما تحول هذا الإنسان إلى عضوفاعل فى محيطه المجتمعى. كان الجيش لايحمى السيادة الوطنية ومشروعيتها فحسب، بل كان يحمى إرادتها، التى هى إرادة الشعب بطبيعة الحال .

الصحيح أيضا أن محاصصة الجيش فى الحكم ستظل الأقوى والأعمق، لكن ذلك لايأتى من كونه يملك اليد العليا فى الوضع السيادى، فهوبكل تأكيد لم يحسم خياراته الشعبية بقوة سلاحه؛ بل بحمايته لهذه المشروعية التى أشرنا إليها.

استطرادا للمعنى نفسه أصدر الجيش، أقصد جيش الخامس والعشرين من يناير بيانا تاريخيا فى اليوم الثالث لثورة اللوتس أزال الكثير من الالتباس، لاسيما فيما يتعلق بالتسليم بمشروعية مطالب الثوار والتعهد بعدم استخدام العنف ضد الشعب مهما كانت الأسباب. البيان تمت قراءته فى حينها باعتباره رسالة مزدوجة، طرفها الأول الشعب وطرفها الثانى حسنى مبارك. وضوح عبارات البيان واقتضابها كانت تقول للرئيس بشكل لايحتمل الالتباس: تصرف أنت فلم نعد معك. وهوربما ماأكد للشعب المصرى أن الجيش انحاز لما يجب الانحياز إليه ووقف فى المكان الذى يتوجب عليه الوقوف فيه. غير أن مرور أربعة عشر يوما على انهيار النظام وسقوط مشروعيته دون أن يعلن الجيش استيلاءه على السلطة وإقصاء الرئيس وإعلانه تبنى مطالب الثورة نفاذا لموقفه المعلن بات يعنى الكثير، لاسيما إذا ما وضعنا فى الاعتبار نزول وزير الدفاع وكبار قيادات الجيش إلى ميدان التحرير لحث المتظاهرين على العودة إلى منازلهم، وكذلك محاولات التضييق على المتظاهرين واقتطاع أجزاء من الميدان لصالح مركبات الجيش لدرجة دفعته أحيانا لإطلاق الرصاصات التحذيرية فى الهواء لإرهاب المتظاهرين. الأمر عكس تغيرا واضحا فى الموقف أوهكذا بدا الأمر حينذاك، لأنه كان يعنى بطبيعة الحال أن البيان كان مجرد تهدئة للمشاعر الغاضبة، لذلك ظل السؤال حائرا: لمن سينحاز الجيش إذا ماقررت الملايين الغاضبة الاتجاه إلى قصر الرئاسة؟!

لقد وزعت قوات الجيش المياه والعصائر على الثوار عقب تنحية الطاغية، فهل كانت هذه رفعة أخلاقية أم سياسة؟ ظنى أنها الاثنين معا، ومع ذلك لايجب أن نترك أمر ثورتنا فى معطف أحد حتى لوكان ذلك لمن يوزع المياه والعصائر.

٦ - لماذا قبل جابر عصفور الوزارة ولماذا استقال؟!

اندهش البعض من استقالة الدكتور جابر عصفور من منصبه كوزير للثقافة؛ بنفس القدر الذى اندهشوا به عند قبوله لها

فالرجل، حسب سيرة طويلة من الدفاع المسرف والفائض عن الاستنارة، يقبل العمل

فى ظل رئيس قضى على المجتمع المصرى وحطم قدراته وقتل أبناءه بالمرض مرة وبالرصاص الحى مرات، كان قد سقط فى مصر حوالى مائتى شهيد عند قبول جابر عصفور لمنصبه ، والمدهش كذلك أن يوعز الرجل استقالته لأسباب صحية ولا يجرؤ على إعلان أسبابها الحقيقية التى شاعت فيما بعد.

أما ما حدث صبيحة خلع الرئيس فيؤكد أن معالى الوزير السابق شرب حليب السباع كما يقولون، وصار بإمكانه القول أنه استقال لأنه لم ير أملا فى الإصلاح!! هل كان ثمة أمل!؟

إن كان جابر عصفور قد نسى قولة شيخ المعرة، فمن واجبى، كواحد ممن كانوا يقدرونه، أن أذكره بها،

يقول المعرى:

يسوسون الأمور بغير عقل
وينفذ أمرهم فيقال ساسة
فأف من الحياة وأف منى
ومن زمن رئاسته خساسة .

٧ – أنس الفقى:
من شابه أسياده فما ظلم !

هورجل ربعة أسمر اللون معقوف الأنف، لا تبدوعليه أية شاهدة من شواهد النباهة أوالألمعية، فأربابه جمال وحسنى مبارك يختارون خدمهم بعناية.

هووزير الإعلام فى حكومة سفاح خبير، اعتاد الرجل أن ينادى سيدته أم العائلة بـ تانت سوزان ، وهوبطبيعة الحال واحد من الشلة ، ورغم يقين مبارك بأن سحنة الرجل تثير غيظ المصريين جميعا إلا أنه أبقى عليه فى الوزارة الجديدة، فلن يجد أوفى منه كنوز إعلامى لم يقم أدنى اعتبار لأية مهنية أوأخلاقية، وهومايعنى أن الرجل قدم نفسه باعتباره واحدا من جهابذة الطابور الخامس الذى يقيمون ملكهم على دماء الشهداء وجثث الضحايا واتهام الناس بما ليس فيهم بترويج الشائعات المفبركة للإساءة لمن هم أشرف وأنبل من كل سلالته، ثم يشارك فى استنجار البلطجية لقتل المتظاهرين. هذا الكلام ليس من عنديات، بل هوجزء من لافتة حملتها المذيعة هالة فهمى وكانت تتجول بها فى ميدان التحرير وسط المتظاهرين طيلة أيام الثورة الثمانية عشرة، تؤكد اللافتة أن الفقى شريك للبلطجية، وهوالأمر الذى أيده، فيما بعد، عدد كبير من موظفى التليفزيون الذين أجبرهم الفقى على المشاركة فى التظاهر تأييدا لحسنى مبارك. لكنهم اضطروا إلى الفرار وعدم تكرار المحاولة عندما اكتشفوا أن من يتظاهر إلى جوارهم من البلطجية والقتلة.

فهل أخطأ المتظاهر الذين رفع لافتة تقول لمبارك: أبوس رجل أمك إرحل!!

الرجل الربعة ذوالأنف المعقوف، الذى لا تبدوعليه أية شاهدة من شواهد النباهة يقبع الآن فى محبسه وكلكم تعرفون الأسباب.

٨– اللهم اصرف عنا الغلاء والبلاء وأبوعلاء

أظن أن شعارات ثورة الخامس والعشرين من يناير ستحتاج إلى سنوات لتدارسها فبين جدها الشديد بدا الهزل على عدد ليس قليلا من هذه اللافتات. كان الأمر

يدوتعبيرا دقيقا عن طبيعة الشعب المصرى، الذى يمكنه أن يحول مأساة عميقة وكاسحة إلى نكات تثير ضحكات المارة.

أما هذا العنوان «اللهم اصرف عنا الغلاء والبلاء وأبوعلاء» فكان آخر الشعارات التى رأيتها فى ميدان التحرير. كان ذلك قبل أن يعلن النائب السابق عمر سليمان تخلى الرئيس عن منصبه ربما بأقل من ساعة.

كانت اللافتة تقبع على صدر صبى لم يتجاوز الخامسة عشرة، وكان الميدان يعج بالعشرات من اللافتات التى لايملك المرء إلا أن يستلقى على قفاه من الضحك عندما يطالعها على صدور وبين أيدى الثوار صغارا وكبارا.

على الجانب الآخر من الرصيف كان رجل أشيب يحمل لافتة تقول لمبارك لوكنت خيارنا الوحيد كنا قطعناك وعملناك سلطة، وآخر كتب له إرحل بالعبرية، ورابع كتب له لوكان عفريت كان انصرف إلى آخر هذه التعليقات التى كانت تمثل نوعا من الهزل الذى يمثل تنفيسا مقبولا لدى المصريين فى مواجهة مصير غامض وصعب لم يكن يعرف أحد مداه، ولم يكن باستطاعة أحد استشراف نهايته.

فى الوقت نفسه كان الميدان يعج بالألم الحقيقى بعد أن علق الثوار صورا مكبرة لعدد من شهداء الثورة، وهم جميعا فى بداية العشرينيات من أعمارهم، شبان فى عمر الزهور تخرجوا للتومن المدارس والجامعات، وكل جنايتهم أنهم حلموا بمستقبل لا يهانون فيه، حلموا بوطن يشبه الأوطان، وطن لايتحول إلى قفص كبير يقلم أظافرهم وأخيلتهم، بل يحولهم إلى خدم فى بلاط اللصوص والخونة والجواسيس

بين هذه الصور شديدة الوطء تبدواللافتات مثيرة الطرافة والغرابة مثل قيام واحد من الثوار بعقد قرانه فى ميدان التحرير، وقد قام المأذون الشرعى بتلاوة خطبة الزواج من ميكرفون إذاعة الميدان، فاصطف آلاف المتظاهرين هاتفين برحيل مبارك والتهنئة بالزواج، أما عريس الميدان فقد أقسم أن زواجه لن يمنعه من الاستمرار فى الوجود اليومى فى الميدان حتى رحيل مبارك عن حكم مصر.

أما أطرف اللافتات التى رفعها أحد المتظاهرين فكانت عبارة عن شهادة امتحان للطالب محمد حسنى مبارك وقد حصل على أصفار متكررة فى الزراعة والصناعة والتجارة والصحة والتعليم وكل المواد الدراسية التى تضمنتها الشهادة التى حملت فى نهايتها خاتما أحمر اللون يتضمن عبارة: راسب وليس للمذكور إعادة .

وقد تعددت أوجه هذه الشعارات الساخرة التى تعلقت كلها بالرئيس وصفاته التى يعرفها الشعب ومنها البلادة وعدم الفهم، فقد كتب أحد الثوار فى لوحة كبيرة قائلا: إرحل يعنى إمشى، ياللى مابتفهمشى ، هناك آخر يكتب على كيس من البلاستيك: إرحل.. إرحل.. الورق خلص دالا أيضا على طول مدة بقاء الرئيس حتى نفد الورق الذى يضم شعارات الرحيل، أما الأطرف بين هؤلاء فهوذلك الرجل الذى حمل زيرا بين ذراعيه، انتظارا للحظة الرحيل

الآن انكسر الزير وبقى الشعب ■

يسقط
مبارك
١٢٠٠
١٢٢٠

الملف

قبل.. بعد.. الثورة

عمرو سليم

بووووم
مصر
رايحة
على فين ؟
منك لله يا شيخ خليت الجهاز يضرب ..
ده برضه يكتب أسئلة
تعجيزية زى اللى
بتكتبها دى ؟!

بحبك ياسوسو ، أُد حبات المطر، أُد أُوراق الشجر ،
أُد عساكر الأمن المركزى اللى ماليين البلد !!

دول ياسيدي رؤساء تحرير الصحف القومية ..
رايحين يركبوا الموجة !

الواد طالع بنص لسان ياسي فتحي .. بيقول ع التليفزيون
تلفز سميفون !

ولو .. برضه مش رايح السعودية !

◆ بدون تعليق ◆

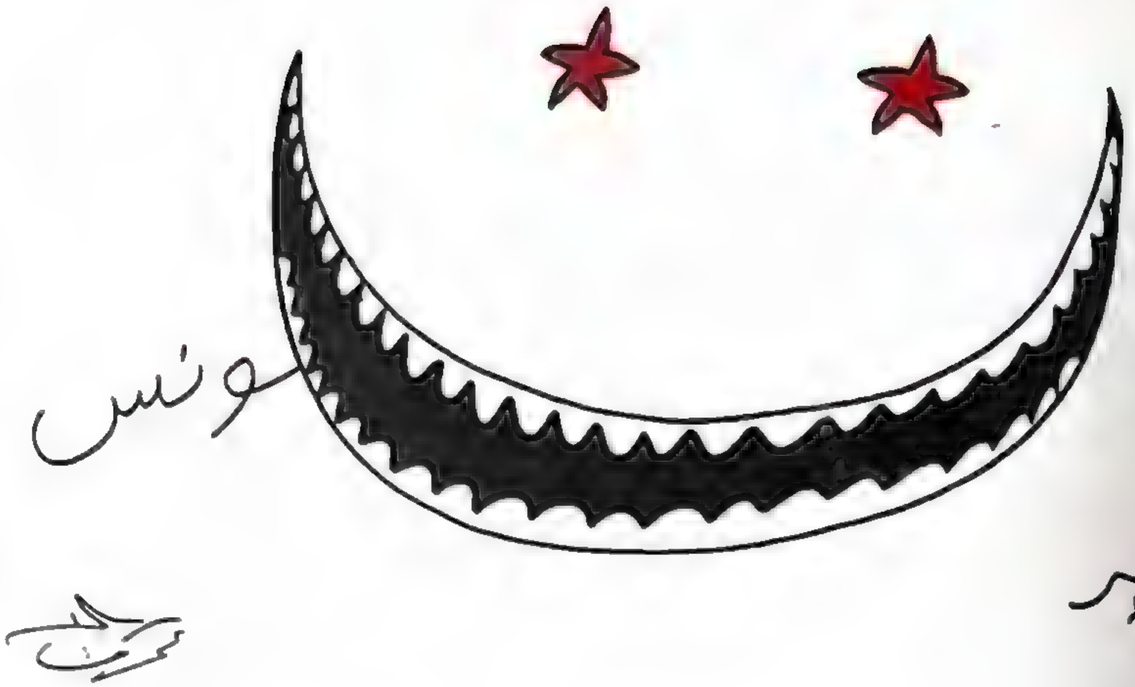

مستحيل السيناريو اللى حصل فى تونس يحصل ..
.. إحنا متعاقدين مع كاتب سيناريو تانى خالص

طمنونا النهارده فى المدرسة .. من حاجة إسمها "عدوى تونس" !

الآن فهمتكم
ياقوة الله ..
ده الحكام بياخدوا
وقت طويل قوى
على ما يفهموا الشعب
ياسى سيد !

أدوات مكتبية
بابا بيقوللك الصمغ
ده مغشوش - عايزين
صمغ جامد من اللى بيلزق
الحكام العرب على كراسيهم
!!

خليهم إتنين قهوة .. فيه ضيف حيشرفنى هنا كمان شوية !
زين العابدين بن على

إجتماع الحكام العرب

الشعب يريد إسقاط النظام
الحمد لله.. ما سمعش النظام!

الشعب و الجيش إيد واحدة
الجيش المصري
ثورة ٢٥ يناير

مسابقة الشهر
عزيزي المشاهد.. حاكم من بين حاجة وعشرين بعد يومين راح يلحق زين العابدين.. حزر فزر يطلع مين؟!
إتصل على أرقام البرنامج واربح معانا!
عزيزي المشاهد.. فكر كويس قبل إرسال الإجابة وماتلعبش في عداد عمرك!

الآن فهمتكم!

حل مجلسى الشعب و الشورى

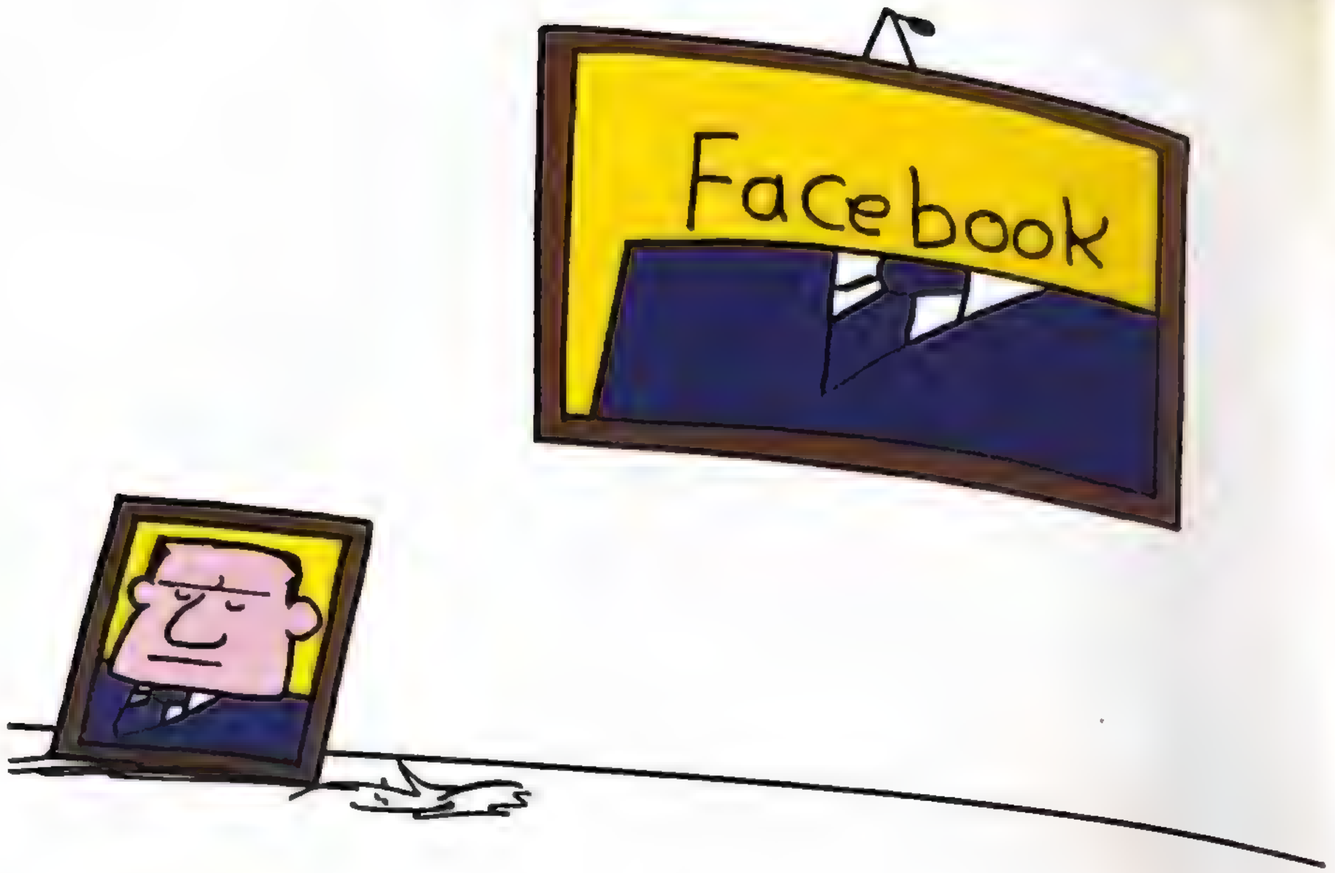

لا ياحبيبتي ماحدش بيتجوز عندنا ولا حاجة.. الفرح
ده علشان أحمد عز
وحبيب العادلى
إتجدت أرصدتهم
وحيتقدموا
للمحاكمة !

تذاكر
تذكرتين محطة
الفيس بوك..
الشهيرة
بمبارك سابقاً !!
إتجاه
التحرير

Facebook

حتى آخر نفس..
هاها!!!ى..
حتى آخر
نبضة في قلبي..
هو هو هي.. آه
ياقلبي..
المجلس سيد
قراره.. هو هو
هو
جمال مجز ثورة
التحديث.. هي هي
هي.. مش
قادرة..
قلبي حيقف
من كتر
الضحك!
هاها!!!!
!!!ى

مفيش مبارك ولا إبنه ولا فترة رئاسية جديدة ولا توريث
ولا أحمد عز ولا حبيب العادلى ولا أحمد نظيف ولا
مجلس شعب مزور ولا حتى فيه مجلس شورى ..

شهادات ويوميات

مصر تعود تحت الشمس:
لقطات سريعة من قلب الثورة

ابراهيم عبد المجيد

يحتاج المرء إلى كتاب ليسجل فيه رؤيته لهذه الثورة الجيدة ولكن لضيق الوقت والمساحة ساكتفى بالحديث عن قليل مما شاهدت فى الأسبوع الأول حتى يأتى وقت أحكى فيه كل شيئ على مهل.

كنت يوم الثلاثاء ٢٥ يناير فى مكانى المفضل فى منطقة وسط البلد. مقهى ريش الشهير أو مقهى زهرة البستان القريب. وعندما اندلعت المظاهرات لم تتدخل فيها الشرطة حتى الساعة الثالثة حين أذيع بيان فى التليفزيون المصرى يقول أن عناصر من الإخوان المسلمين قد اندسوا بين المتظاهرين ويقومون بالتخريب. والذى اندس كان عددا من الشرطة السرية بين المتظاهرين وراحو يقذفون رجال الشرطة بالحجارة لترد على المتظاهرين جميعا . كان واضحا أن الشرطة ستستخدم فزاعة الإخوان المسلمين التى تخيف الغرب لتفعل بالمتظاهرين ما تريد وتستخدم بعض رجالها فى الثياب المدنية لتشعل المعركة ،لكن فشلت الخطة وظل المتظاهرون يتجمعون فى ميدان التحرير.

بعد منتصف الليل قامت الشرطة بهجوم كبير بالمدرعات استطاعت فيه إنهاء المظاهرة الكبرى فى ميدان التحرير، وقبضت بشكل عشوائى على مئات من المتظاهرين وغير المتظاهرين أودعتهم معسكرات للشرطة بعيدا عن القاهرة.وظل هذا القبض العشوائى بعد ذلك ليومين متتاليين. كان فيمن تم القبض عليهم كثيرون ممن أعرفهم من الشباب بعضهم استطاع أن يكلمنى بسرعة من الموبايل قبل أن يصادروه منه مثل الكاتب الشاب محمد الوزيرى المهندس والذى يعمل معى فى دار «بيت الياسمين» للنشر. قال لى محمد بسرعة بالليل قبل تفريق المتظاهرين لقد اعتقلت يا أستاذ وهم ينقلوننا إلى منطقة السلام خارج القاهرة ويضربوننا بشدة وانقطعت المكالمة وطبعا صودر منه الموبايل.

يوم الجمعة. «جمعة الغضب». وصلت إلى منطقة نصف البلد كالعادة فى الحادية عشر صباحا وكانت زوجتى برفقتى فوجدت الشوارع مغلقة بآلاف من قوات الأمن المركزى من كل ناحية. انتهت الصلاة

وكنت جالسا على مقهى البستان القريب من مقهى ريش، فوجئنا بالمصلين الذين أحيطوا بالخبرين والفين حولهم لا يصلون يستفصون بالشعارات المعادية للرئيس مبارك ونظامه من جميع الجوامع القريبة وتراجع عنهم المخبرون الذين وجدوا أنه لا طاقة لهم بهم. لكن المتظاهرين لم يستطيعوا التجمع أبدا في ميدان التحرير حيث تقطع الشرطة ورجالها عليهم كل طريق. كانت النتيجة أنهم انتشروا في كل طرق نصف البلد الهامة ومشيت مع بعضهم وأطلقت قنابل الغاز المسيل للدموع بكميات مرعبة لا يتخيلها بشر. بحيث صار الفضاء في كل الشوارع أبيض ورائحة الغاز تخنق الجميع وظهرت في أيدي الشباب زجاجات الخل وثمار البصل وعلب البيبسى كولا التي تساعد على ضياع أثر القنابل المسيلة للدموع. وكان من قبل قد وصلت لكل مشتركي «الفيس بوك» نصائح من الشباب التونسي باستخدام هذه الأشياء في مقاومة الغاز. أصابني ما أصاب الجميع لكن عمري وقوتي لم يحتملا وكدت أسقط على الارض. قبل سقوطي جريت إلى مقهى «ريش» الذي كان يفتح بابه على حذر ودخلت وأغلقوا الباب. كانت معي زوجتي كما قلت، والكتاب: هالة البدري وغادة الحلواني ثم انضم إلينا سعيد الكفراوي قادما على الأقدام من ميدان السيدة زينب وعيناه مغرورقتان من أثر الغاز. وعشرات من الكتاب والكاتبات في الشوارع لايزالون مع المتظاهرين منهم من الشباب سعاد سليمان ووسيمة الخطيب ومن الكبار مكاوى سعيد والفنانين عمر الفيومي ومحمد الجبيلي وآخرين من الكتاب والفنانين

في المقهى «ريش» رحنا نحاول التخلص من أثر الغاز. هناك سقطت وهناك استعدت قوتي. في المقهى الذي تسرب إليه الغاز رغم إغلاق بابه ظهر أيضا الصحفي البريطاني روبرت فيسك الذي جلس قليلا ثم خرج يتابع ما يحدث.

بعد دقائق خرجت أتابع الموقف. ابتعدت عن منطقة نصف البلد إلى منطقة «معروف» القريبة فوجدت الشرطة تطارد المتظاهرين ويتقدمهم بلطجية ومجرمون تابعين للبوليس. وفي لحظة دخلت إلى إحدى العمارات ومعي زوجتي وبعض الشباب الثائرين وأغلق بوّاب العمارة بابها، لكن البلطجية والقتلة الذين أطلقتهم الشرطة يحملون سيوفا وبلط «جمع بلطة» كسروا الباب خلفنا فصعدنا إلى الدور الثالث ولم ينقذنا منهم إلا شباب العمارة الذين قذفوهم بكل ما يستطيعون واحدى السيدات التي فتحت لنا الباب لنختبئ عندها حتى ينتهي الأمر. اندهشت جداً كيف يطاردونني وأنا في هذه السن ومعي زوجتي ولا يبدو على أني أشترك في القتال. تابعت التليفزيون لدقائق عند السيدة التي فتحت لنا الباب وكانت الساعة الرابعة والنصف تقريبا فوجدت جميع قنوات التليفزيون المصري تتحدث عن تخريب بدأ المتظاهرون يمارسونه، فأدركت أن الدولة ستستخدم طريقتها التقليدية التي اتبعها الرئيس السادات مع انتفاضة عام ١٩٧٧ حين أرسلت الشرطة المتعاونين معها من المجرمين لسرقة محلات شارع الهرم ثم ألصقت التهمة بالمتظاهرين.

ولم تمر ثلاثون دقيقة حتى انسحب البوليس فجأة من الشوارع وبدأت العصابا ت المنظمة تقوم بعملها في حرق ونهب البلاد. كان ما أذاعه التليفزيون المصري عن ذلك هو الشفرة السرية بين وزارة الداخلية والإعلام التي بعدها ينسحب الجنود من كل مكان في مصر ويخلو الأمر للصوص والمجرمين وقطاع الطرق وهم السلاح السري للشرطة التي تسيطر به على الانتخابات البرلمانية والرئاسية وغيرها. استطاع المتظاهرون الوصول إلى ميدان التحرير إذن واستمرت الأخبار تأتي بحوادث السرقة والحرق. حاول البلطجية حرق المتحف المصري الذي أقام حوله المتظاهرون درعا بشريا لحمايته ولقد رأيت ذلك بنفسي، ووقفت مع الشباب العظيم ويحتاج ذلك إلى حديث آخر، وأمسكوا باللصوص الذين حاولوا سرقته وكانو للأسف من رجال الشرطة في زى مدني، أسلمهم المتظاهرون لقوات الجيش التي نزلت إلى الشوارع. كان القلق يأخذني على ابني الأكبر زياد الفنان ومصمم الجرافيك لدار النشر «بيت الياسمين» وإياد الصحفي. ذهبت إلى دار النشر في منطقة معروف متوقعا أن أجدهما أو أحدهما فوجدت رسالة من زياد تقول: «أبي أنا بخير.. اطمئن.. مبروك لمصر».

بكيت أنا الذي أعرف طول عمري أن أبنائي لا علاقة لهم بالسياسة وأنهم مثل جيلهم كله شباب «مكبر دماغه» ولكن الآن ثبت خطأ اعتقادي واعتقاد جيلنا كله.. هاهم الشباب «الكاجوال».. شباب الـ«تيك أواى» يشعلون الثورة. وخرجت ومعي زوجتي والفنان محمد الجبيلي وآخرين قابلتهم أعرفهم ولا أعرفهم ممن جاءوا يتكلمون في التليفون الأرضي يطمئنون أهلهم ويأخذون ما توفر في دار «بيت الياسمين» من زجاجات المياه الفارغة يملأونها بالماء، وكان لحسن الحظ عددا كبيراً لم أتوقعه أهملناه من قبل في المطبخ. أخذوه وانصرفوا إلى الميدان. وخرجنا معهم مرة أخرى. رأينا النار مشتعلة أمامنا في المقر الرئيسي للحزب الوطني وأصوات الرصاص لا تنقطع قرب وزارة الداخلية وتصل إلينا. وأنا مع زوجتي و الفنان محمد الجبيلي الذي صرت أقابله كل يوم بالميدان فيما بعد وظللنا ربما حتى الفجر بين الشباب الثوار. كانت هناك عربة إسعاف قد أتت محملة بالذخيرة لكن اكتشفها الثوار واستولوا على الذخائر، وكانت هناك محاولات من بعض رجال الجيش لمنع الثوار لكن سرعان ما أقلعوا عن ذلك بعد هتافات المتظاهرين: «الجيش والشعب إيد واحدة».

نهار السبت انضم للمظاهرة أطياف من المصريين. مشايخ وفنانين ومثقفين وطلاب.. وكانت السعادة بادية على الجميع، وغابت الشرطة تماما، وبدأ الشباب في الأحياء المختلفة يكونون لجانا شعبية لتحمي مساكنهم وأهلهم من قطاع الطرق والمجرمين الذين أطلقتهم الشرطة من كل مكان. في المساء بدأ البعض يحتشدون حول وزارة الداخلية وكان واضحا أنه لا يمكن اقتحامها لوجود سورها العالي ولوجود الجيش حولها، لكن القناصة فوق الوزارة من قوات الشرطة كانوا يطلقون الرصاص الحي طول الليل مساء السبت حتى صباح الأحد وقتلوا أكثر من

خمسين شابا متظاهرا تلك الليلة. كان إياد ابنى الصحفى الذى تلقى ضربا مبرحا من الأمن المركزى يوم الجمعة هو وعدد من الصحفيين الشباب مثل محمد صلاح العزب وكثير من الصحفيات الذين نجوا من الموت بإعجوبة. كان يناشدنى بـ«الموبايل» - الذى عاد إلى العمل بعيدا عن الميدان لكن لا يرسل الرسائل- كى لا أذهب ناحية وزارة الداخلية حيث الموت والقنص. ولم أكن أعرف أنه يعانى من آلام الضرب المبرح منذ أمس وأنه فى شقة أحد أصدقائه فى وسط البلد، وأخبرته أننى بعيد والحقيقة أننى لم أكن بعيدا. كنت أقف بالليل فى بلكونة شقة أخت زوجتى فى آخر شارع الشيخ ريحان ناحية حى عابدين أشاهد القنص والموت تحتى وعلى يسارى، ولأن موقع الشقة فى الدور السادس كنت مطمئنا أنى بعيد حتى عن الرصاص الطائش للقناصة.لكن ذلك لم يمنع المظاهرات الكبرى التى صارت فى ميدان التحرير الآن من الاستمرار فى الهتاف بسقوط النظام.. بسرعة صارت هناك فى اليوم التالى لافتات صغيرة من الورق العادى وبسرعة بدأت خفة دم المصريين فى الظهور وروح الفكاهة، فظهرت لافتات من نوع كيلو اللحمة بميت جنيه ومتر مدينتى بنص جنيه، يشيرون إلى أراضى الدولة التى وزعها النظام على أصدقائه من رجال الأعمال، تقريبا بلا ثمن،ولافتات مثل إمشى بأه ياعم وخلى عندك دم . وفى صباح الاثنين ازدادت اللافتات الفكهة من نوع إمشى بأه دراعى وجعنى، يعنى لقد تعبت من حمل اللافتة التى هى من الورق و رئيس مستعمل + خلاط بخمسة وعشرين جنيه، فى الوقت الذى لا تتوقف الهتافات الشعب يريد إسقاط النظام والشعب يريد محاكمة النظام ومسلم ومسيحى إيد واحدة، وكان هناك تركيز كبير على هذا الشعار وبدا أن الثورة وليست المظاهرة الآن، قد صارت فى بيت المصريين جميعا ،فامتلأت بالنساء والفتيات ولم تحدث واقعة تحرش جنسى واحدة بين مئات الآلاف من المتظاهرين ولا حادثة سرقة ،وبدأت البيوت التى تحيط بالميدان تلقى لهم بزجاجات المياه المعدنية ليشربوا، وبدأ الكثيرون منهم يخرجون ليشتروا بكل ما يملكون من مال طعاما للجميع، وأتت الأخبار من كل البلاد أن الثوار قد سيطروا عليها واختفت الشرطة، وبدأ الشباب يضحكون مع رجال الجيش ويعتلون الدبابات ويرقصون ويكتبون عليها شعارات تدعوا لسقوط مبارك، وبالليل حين كنت أعود إلى بيت أخت زوجتى فى منطقة عابدين لأنام حيث يبعد بيتى كثيرا عن القاهرة رأيت شباب مصر ينظم الحركة ويفتش كل السيارات ويمسك باللصوص الذين نهبوا المولات والمحلات ويسلمونهم للجيش. رأيت ذلك كثيرا بالنهار والليل ورأيتهم أيضا يمسكون بجنود الأمن المركزى الذين فروا من وزارة الداخلية بعد أن فر منها قياداتها لكنهم لا يضربونهم بل يقدمون إليهم الطعام وكانوا بالمئات لا يصدقون أن المتظاهرين يمكن أن يفعلوا ذلك.ويطاردون أيضا السيارات المجهولة التى صارت تظهر بالليل تطلق الرصاص على المارة، وكانت فى معظمها سيارات مرسيدس وجيب وجراند

شيروكى مما يشير إلى أصحابها من رجال الأعمال الذين قدموها لرجال الشرطة ليثيروا الرعب فى الشوارع. كان المتظاهرون يتعرفون على جنود الأمن المركزى بسهولة حيث خلعوا أحذيتهم وملابسهم الرسمية وحاولوا العودة إلى بلادهم فى الريف.. مساء الأحد خطب الرئيس حسنى مبارك لكنه لم يقدم شيئا للمتظاهرين. لقد غير الوزارة وعين نائبا له هو الفريق عمر سليمان من جهاز المخابرات ورئيس وزراء هو أحمد شفيق ضابط الطيران السابق، لكن كان واضحا أنه لن يغير الدستور ولن يحاسب أحدا ممن قتل الناس أو نهب ثروة مصر فازدادت الثورة، وتقرر أن يكون يوم الثلاثاء هو يوم المظاهرة المليونية، وبالفعل احتشد فى الميدان ثلاثة ملايين على الأقل وراحوا يهتفون بسقوطه ونظامه ويغنون، وانطلقت أغنيات الشيخ إمام وعبد الحليم حافظ ومحمد منير الوطنية وأغنية داليدا حلوة يا بلدى، وكان يوما حافلا بالأمل. كانت الوزارة الجديدة تحوى أكثر من عشرين اسما من الوزراء القدامى الذين أذلوا الشعب وبالذات وزير التموين ووزير البترول ووزير الإعلام الذى كرّس الإذاعة والتليفزيون للجهل والأكاذيب، وكان واضحا أنه لا يمكن الحوار مع هذه الوزارة الجديدة، وهو ما طلبه الرئيس أن يحدث بين المتظاهرين ونائبه. خطب الرئيس خطبته الثانية التى أعلن فيها أنه لن يترشح للرئاسة مرة أخرى، لكنه لم يشر إلى أن ابنه جمال لن يترشح، وأنه سيطلب تغيير مادتى الدستور ٧٦و٧٨، لكنه لم يشر مرة أخرى إلى الفساد والمفسدين وإلى أموال الشعب المنهوبة عبر ثلاثين سنة. ولم يقل كلمة عن الذين قتلوا شباب الثوار ولا عن أهلهم يعزيهم . كان من الطبيعى أن يرفض الثوار الخطاب رغم أن عددا كبيرا منهم قبله وبالذات حين استرق الرئيس عطف الناس بقوله أنه مصرى وسيموت فى أرض مصر. كان من الممكن بدلا أن ينتظر رجال الدولة أن يفاوضهم أحد، أن يذهبوا هم إلى الثوار خاصة فى اليوم التالى لخطاب الرئيس، الأربعاء، ولكنهم منذ الساعة الخامسة يوم الثلاثاء قبل خطاب الرئيس بسبع ساعات بدأوا فى جمع البلطجية والفقراء والمتسولين عند مبنى الإذاعة والتليفزيون ويصرفون لكل منهم خمسين جنيها أو مائة أو مائتين. رأيت ذلك يحدث فى منطقة معروف القريبة من الإذاعة وعند الإذاعة بنفسى . أجل هناك حتى تفرقة بين المجرمين، وجاءتنى الأخبار أن الأمر نفسه يحدث فى مقرات الحزب الوطنى بالقاهرة بالإضافة إلى السكاكين والعصى والسيوف والبلط. وقبل الفجر أطلقوا هؤلاء القتلة على الثوار واستعانوا أيضا بالخيل والجمال لمهاجمتهم، ولقد وصف أحد الثوار مبارك إنه مثل أبرهة الحبشى الذى غزا مكة وأراد حرق الكعبة . أجل ميدان التحرير هو كعبة الثوار فى كل العصور. ثم أطلقوا عليها موقعة الجمل. استمرت عشرين ساعة وخلفت وراءها أكثر من ألف وخمسمائة جريح وعشرات المقتولين وانتشرت الأخبار ولم يتدخل أحد لإيقافها: لا حسنى مبارك ولا نائبه عمر سليمان ولا رئيس وزرائه الجديد أحمد شفيق ولا وزير داخليته الجديد،الذين

كان ممكنا لهم إنهاء المجزرة بأمر المهاجمين من المرتزقة والقتلة بالابتعاد عن الثوار. خلال ذلك صارت بيت الياسمين للنشر ملاذا لابنى زياد وإياد وزملائهما من الفنانين والصحفيين الشباب يخرجون منها وينامون فيها، وكانت دار ميريت للنشر بحكم موقعها ومساحتها وتاريخها هى الملاذ الأكبر للكتاب والفنانين الشبان والصحفيين. كما فتح الفنان محمد عبلة أتيليه الكتاب والفنانين للنوم والراحة، وكان الفنان الجميل أحمد الصعيدى يمضى وقته بطاقة إلهية بين الثورة وبين راحة اللاذين بالأتيليه للنوم أو الراحة. أمضيت الأسبوع الأول بين الثوار فى الميدان بالنهار وحتى منتصف الليل كل يوم ومعى زوجتى يقابلنا خلالها مئات من الكتاب والصحفيين والمناضلين والفنانين ممن أعرفهم مثل الدكتور محمد أبو الغار وأهداف سويف والدكتور مصطفى عبد الجليل وأحمد بهاء الدين شعبان وجمال فهمى وعبد الحليم قنديل وإبراهيم منصور وعبد المنعم رمضان وسيد الوكيل وسعيدنوح وسيد محمود وآمال عويضة ومنصورة عز الدين وعزت القمحاوى وهويدا صالح وهالة البدرى وغادة الحلوانى ومحمد عبلة وطبعا محمد الجيلى وعشرات ومئات ممن لم تسبق لى رؤيتهم أو رأيتهم ونسيت أسماؤهم، شباب سعداء فى عمر الزهور يتعلقون بى ويحتضنونى ويذكروننى بأسمائهم فهم أصدقائى على الفيس بوك بالآلاف. وفى الأسبوع الثانى حيث كانت الحاجة للنوم كبيرة والاستحمام صرت أعود بعد منتصف الليل إلى بيتى فى حدائق الأهرام، وكانت رحلة ليلية لها طعم آخر وتحتاج إلى كتابة أخرى، ولكن برغم العودة المتأخرة رحت أدخل على الفيس بوك خاصة وقد عادت الإنترنت الآن أتواصل مع الشباب الثوار فى كل مكان مما يحتاج إلى كتاب كبير يحوى التعليقات والمناقشات، ويحتاج إلى شخص أكثر حرصا منى وقدرة، ويا ليت الشباب يجمعون هذه التعليقات لتكون أحد كتب الوطن الجديد. وكان للأيام التالية طعم آخر وحكايات أخرى. واكتفى بهذا الآن وأنظر حولى أمامى وفوقى وأتأمل هذه الأيام التى خرجت عن الأرض إلى جمال سماوى لم يعرفه البشر من قبل وأقول لنفسى يا إلهى كل هذا الجمال رغم الموت والشهداء الأبرار.

أجل فى الثورة يتجلى الجمال. فعندما تخرج الملايين هادرة فهى تطرد القبح عن الدنيا. هكذا كنت أشعر وأنا أمشى بين الثوار. كان الشباب يجرون بالجرحى والشهداء وكان الغاز المسيل للدموع يملأ الفضاء فى شوارع نصف البلد يوم ٢٥ يناير. يتفرق الذين كانوا معى بين الجموع وأنظر أمامى فأرى كأننا لا نمشى على الأرض بل فى السماء. ما أراه ليس من فعل البشر. الثوار الشباب الآن يهبطون من السماء ويواجهون شياطين النظام بلباسهم الأسود وبنادقهم السوداء وخوذاتهم السوداء وكل ما فيهم أسود حتى فرّ الشياطين من المعركة. ويا خيبة النظام الذى لم يجد أمامه إلا المجرمين والبلطجية يدافعون عنه حتى تفرق شملهم، فالثوار يجرون إليهم بأجنحة من السماء يعرفون أن الله يفتح لهم أبواب الجنة وكيف لا ينتصر أحباء الله الصغار الذين لم تتلوث أيديهم

بالفساد على مريدى الشيطان؟.

خلت كثير من الأيام من المعارك حقا لكنى كنت كلما ذهبت إلى الميدان ليلا أو نهارا لا يفارقنى شعور أن الميدان ليس على الأرض بل هو معلق بالسماء تحف به الملائكة وتطرد عنه الشياطين بشعارات غابت عن مصر كثيرا، وتصور الطغاة أنها استقرت فى قاع النيل وشواطئ البحار. وبعد معركة الجمل القبيحة، آخر مالدى النظام الفاسد من غباء، صرت أقول لنفسى لابد أن الله الآن سعيد فى السماء. فهؤلاء أبناء الرب الحقيقيون يعلنون أنه قد خلقنا أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا. ما الذى يعنيه شعار الشعب يريد إسقاط النظام وبهاء السخرية إرحل بأه إيدى وجعتنى غير الثقة فى أنها ثورة لن تعود إلى الوراء. هذه القوة هى بنت الاطمئنان، وهذه السخرية هى بنت الاطمئنان أيضا إلى أن هذا النظام تافه وهش، وأن أرواح المصريين عادت إلى مدارها الطبيعى تحت الشمس. أمّة صانعة للحضارة والتاريخ وليست أمّة من العميان والخصيان. كثيرة جدا هى الشعارات السياسية التى لم تعرفها مصر من زمن وتعلن الغضب الكونى، وكثير جدا هى تلك اللافتات المبهجة التى تعلن البهجة الإلهية. لقد بدا أن المصريين لن يعود وإلا بالنصر ويتهجون مقدما فوق السحاب. هذه الثقة ليست بنت الفقر ولا الظلم ولا القمع ولا النهب المنظم للبلاد من قبل النظام الفاسد ونظامه. كل هذه هى الأسباب التى يقرؤها المحللون السياسيون للثورة. لكن الذى كان وراء ذلك كله هو إدراك شباب مصر أن هذه أمّة أخرجها الطغاة عن مكانها وتاريخها الذى يقول أنها كانت دائما تحت الشمس، ولا بد أن تعود لمدارها الحقيقى فى ملكوت الله. لقد عادت الشمس إلى مستقرها وعاد ذهبها يملأ سماء مصر واستقرت الأرض فى دورانها الطبيعى بعد أن شوهها الطغاة وملأوها بالظلم والظلام ■

الثورة بين الأحلام والفوضى المستقرة!

قصة التحول من جثة حية إلى إنسان يعيش

إبراهيم فرغلى

أظن أن المشاهد التى مرت بها مصر منذ يوم ٢٥ يناير الماضى تكفى لكتابة ألف ليلة جديدة، من الحكايات الغرائبية، وتجسد فى الوقت نفسه، لونا من ألوان انضغاط الزمن، من فرط ما أفرزت من أحداث تبدو، فى تجاورها اللامنطقى، كأنها انشطار الزمن الراهن إلى شظايا من أزمنة سحيقة، وأخرى تنتمى للمستقبل، ولعل فى هذا ما يفسر حالة التشتت والتخبط التى يعيشها قطاع كبير من الشعب المصرى الذى تكيف على مدى الثلاثين عاما مع ما يمكن أن نطلق عليه الفوضى المستقرة، التى أفرزها نظام الحكم الراهن على مدى العقود الثلاثة الماضية.

شخصيا لا بد أن أعترف بداية أننى من جيل نشأ على الفردية من فرط ما آل إليه العمل الجماعى من تشرذم، ولأخطاء ارتكبتها أجيال أخرى، حين تم تدجينها من قبل السلطة، ولأسباب أخرى تتعلق بنشأتى وحيدا ومنعزلا، وسوى ذلك، والمحصلة فى النهاية تركيبة جعلتنى أتشكك فى كل مقولة يتفق عليها أو تميل للإجماع، عابرا طريقى الفردى بأدوات التشكك، والحماس المفرط لنقد كل ما ألمح فيه اتفاقا، حتى لو كان، بل وبالضرورة من قبل من يفترض انتمائى إليهم، جيلا وفكرا، قبل غيرهم.

كما أننى مثلى مثل الكثيرين غيرى، نشأت على اعتبار أن السياسة رجس لا يجب الاقتراب منه، بعد محاولات مراهقة كنت أتمتع خلالها بقدر كبير من السذاجة، واليقين فى الأحزاب والنشاط السياسى، حتى لو كان ذلك على مستوى الأفكار، إذ أدركت لاحقا مدى زيف هذا كله، فأضحت السياسة فى التحليل الأخير ترتبط عندى بكل ما هو مزيف؛ بالمصالح الذاتية، بعيون لا يمكن النظر إليها من فرط ما يطل منها من نظرات ماكرة، تظهر غير ما تبطن، وبالادعاء، وأولا وتاليا بالكذب. بل إن من فرط ما تلقاه الفرد من أكاذيب وزيف جعلنى أتوقف حتى عن متابعة الأخبار لفترات طويلة قبل سنوات تجنبا لوطأة الاكتئاب.

صحيح أننى منذ فترة أتابع التغيرات فى

القيم لدى الجيل الجديد، خصوصا عبر الانترنت، ووسائل الاتصال الجديدة، وصحيح أيضا أننى رصدت تحولات وتغيرات فى القيم عبر هذه الوسائط جعلتنى أتوقع أن يكون هذا الجيل الشاب الجديد من مستخدمى الإنترنت هم ورثة ثورة ١٩٦٨ فى فرنسا وبقية أوروبا باعتبارها الحركات الشعبية والشبابية الثورية التى قادت ثورة اجتماعية كبرى على كل الأخلاق البورجوازية السائدة فى أوروبا آنذاك، ووقود التحول فى القيم فى مجتمعات العالم تباعا. فى مقال نشر فى فكر وفن فى العام٢٠٠٨ فى ذكرى مرور ٤٠ عاما على ثورة ١٩٦٨ فى أوروبا.

لكننى لم أكن أتوقع أن يقوم هذا الجيل بثورته بمثل هذه السرعة.

طبعا أعترف أن الكلام الآن فى قلب هذه الأحداث لن يكون بالعمق الواجب، فالصورة اليوم لا يمكن قراءتها فى عجالة، ولا فهمها بكامل الدقة، لكن هناك مؤشرات يهمنى الآن أن أتوقف عندها.

ليلة الثورة كنت قد ودعت آخر ضيوف ندوة مجلة العربى التى عقدت هذ العام، مؤملا نفسى بالنوم بعد أسبوع لم أنم فيه أكثر من ٢٥ ساعة متقطعة. بينما كنت أسترجع لقطات من الأحاديث التى تناولت ما تم يوم الثلاثاء ٢٥ يناير، ووداعى لأصدقائى المصريين وبينهم سيد محمود وأمينة خيرى وأحمد حجازى وغيرهم : أشوفكم على خير فى مصر الحرة..أو أشوفكم فى مصر بعد الثورة.انقطعت الإنترنت فى مصر، وغابت صور كل الأصدقاء على صفحة الفيس بوك، وعرفنا بانقطاع الاتصالات الهاتفية أيضا أحسست أن مصر تعزل عن العالم لأجل مجزرة، وأحسست بشىء ثقيل غامض يمسك بقلبى. وهكذا شرعت فى الاتصال بكل من أعرف من الأصدقاء الأجانب والعرب خارج مصر لمناشدتهم فى إنقاذ مصر عبر بث كل ما يتاح لهم عن أخبار بؤر الغضب بكل الطرق، عبر بث رسالة جاءتنى من أصدقاء فى مصر ليلة الجمعة، وجاءتنى رسائل من الجميع من لندن وسويسرا وفرنسا والبوسنة وألمانيا من أصدقاء كتاب وصحافيين بأنهم مع مصر بأكثر مما أتخيل لكنى مع نهاية يوم الجمعة ٢٨ يناير أحسست أن الأمور تسير فى وجهة جديدة..لم نعهدها من قبل، أحسست أن رياح التغيير قد أقبلت بالفعل، وأن فى الأجواء نسيم ما حرمنا منه طويلا..نسيم الحرية. وتابعت يوميات الثورة يوما بيوم وأنا أشعر بالفخر مبهورا بما حققه هؤلاء الشباب، الذين واجهوا بصدورهم ويقينهم وأرواحهم مارد القهر الجبار فإذا به فأر صغير..فزاعة كانوا ينفخون فيها وتبث الرعب فى قلوبنا جهارا نهارا.. فأزاح الشباب الغشاوة عن عيوننا العمياء ليروننا الفئران خلف قناع الجبابرة.

فرح وبهجة، فخر، كبرياء، وإحساس قوى بأن ما يحدث يفوق الخيال، وأننا أصبحنا على بعد خطوات من حريتنا التى كنت أظنها على بعد سنوات أخرى.

ثم عادت الإنترنت، واستقبلت أول العائدين بفرح، لكنى بعد لحظات..شعرت بالأسى وتمنيت أن تعاود الشبكة انقطاعها، فقد عاد

صوت المصريين عبر الفيس بوك مشخنا بالتشتت، والتباين بين تأييد الثورة وبين الدعوة للهدوء.

اكتشفت أن قطاعا كبيرا من الناس فى مصر لم يعوا ما يحدث..شتتهم غياب الأمن، واختفاء رجال الشرطة، واندياح السفلة من البلطجية والقتلة وسفاكى الدماء وسارقى عرق الناس، وخروج المساجين من السجون، وأذهلتهم الحرائق، وحظر التجول، فاستعادوا لحظات الأمان الوهمية التى كانوا يعيشونها قبل ٢٥ يناير وتمنوا استعادتها بأى شكل حتى لو اقتضى ذلك التشكيك فى شباب الثورة أو الاستجابة لاتهامات الإعلام الرخيص الذى ادعى أنهم خونة، أو مدفوعين من جماعات أجنبية، وغير ذلك من سخافات ساذجة وغبية.

لم يفهم الكثيرون، وبينهم أفراد هنا، من المصرين والكويتيين، أن ما يحدث ثورة شعبية حقيقية، لا تهادن، وليست لها مصالح ذاتية أو شخصية، وأنها ليست وقفة احتجاجية تنتهى بانتهاء اليوم، أو بخطاب لمبارك يقول فيه أنه باق لنهاية ولايته وأنه سيغير الحكومة ويعين نائبا له.

لم يفهم هؤلاء أن هذه ثورة فقد لأجلها ما يناهز ٤٠٠ شابا أرواحهم، لم يفهم هؤلاء جميعا أن هؤلاء الشباب قدموا أرواحهم من أجل مستقبل أبناء هؤلاء الخائفين، وأنهم لم يترددوا فى تقديم هذا الدم وهم يواجهون، بثبات وإباء؛ الرصاص الحى وبلطجية النظام، وقنابل المولوتوف والحجارة والغاز المسيل للدموع وسيارات رش المياه بل وحتى الجمال والخيول، فى مشهد كاشف عن الحقيقة الكبرى لهذه الثورة وهى أنها مواجهة بين قيم العدل والخير والحداثة وبين مسوخ سياسية تعيش بعقليات القرون الوسطى، بل تمتد لعصر الجاهلية.

هؤلاء الشباب قدموا أرواحهم من أجل الآخرين. ولم يكن أيا منهم يتصور ربما أن الآخرين سيبيعون هذا الدم تحت دعاوى وجوب عودة حياتهم المستقرة، فأى استقرار؟.

إن أهم ما تكشف عنه هذه الثورة تلك الفجوة الكبيرة فى المفاهيم التى تحرك وفقا لها شباب الثورة، وبين أجيال أخرى ممن تربوا على السلطة الأبوية الهيراركية التى تقدس كبار السن لمجرد أن سنوات عمرهم كثيرة، أو تقدس الأب من واقع سلطته لا من حيث مدى قدرته على أداء واجباته لأسرته.

فقد بدا جليا أن جيل الثورة يعى جيدا أن المسؤول، كبر أو صغر، يجب أن يحاسب وأن يعزل إذا ثبت تقصيره، وأن تقصيره هذا كفيل بهدم شرعيته، بافتراض أن له شرعية، وأن هيبته تحددها سلوكياته مع أبناء شعبه، بينما الجيل القديم وحشود القلقين يرون أنه قائد وأب لا يجب أن تمس هيبته دون وعى بأنه هو الذى انتقص هيبته بنفسه حين تجاهل مطالب شعبه وتعالى عليهم وحكمهم بقانون الطوارىء الاستثنائى على مدى ثلاثين عاما.

إن هذه الثورة هى ثورة شابة نبيلة فرضت تحضرها من خلال كل سلوكياتها بدءا من نبل مطالبها؛ وهى كلها مطالب تعلى من قيمة القيم الجمالية مثل العدل والحرية، فى مواجهة القبح ممثلا فى الفساد والبلطجة والصياعة

السياسية والاستخفاف بمصائر الناس وأقدارهم على حساب حياتهم بكل ما فيها.
وهى أيضا تكشف أنها ثورة حداثة بكل ما تعنيه قيم الحداثة من الوعى والفهم والنضج، والانفتاح، والتحرر، والاستخدام الأمثل للتقنية الحديثة فى السلوك والتعبير والتنظيم، وبين قيم تقليدية شاخت وانتهت تقوم على الانتهازية والبلطجة وكان مثالها الصارخ يوم نزول بلطجية النظام المأجورين بالخيول والجمال إلى ميدان التحرير.
على مستوى آخر فقد كشفت هذه الثورة النبيلة عددا من الأكاذيب التى كان النظام السابق يروج لها بضراوة وبسببها حكمنا بالطوارىء على مدى ثلاثين عاما، واكتسب دعم الغرب من التأكيد على أن البديل الوحيد لنظامه هو الجماعات الإسلامية أو الإخوان المسلمين، وهو ما ثبت عدم دقته على مدى أيام الثورة حين احتشدت الملايين فى ميدان التحرير بينما لا يمكن أن تميز بينهم المسلم عن المسيحى، وبحيث تجد بين الجموع الفنات جميعا من الفقراء المدقعين والريفيين وأهل المدينة من الطبقات الوسطى والوسطى العليا ومن خريجى الجامعات الأجنبية مع الكتاب والصحفيين والفنانين وسواهم.
إن كل الذين خرجوا للمظاهرات فى القاهرة والاسكندرية والمنصورة والاسماعيلية والسويس وبنى سويف وباقى محافظات مصر بلا استثناء كانوا يسهمون فى صياغة معنى هذه الثورة بكل شعاراتها النبيلة، على يقين بأن ما يقومون به هو السبيل الوحيد للانتقال بمصر إلى مكانها الطبيعى الذى تقهقرت عنه لسنوات بسبب الاستقرار المزعوم الذى ضحك به هذا النظام على الشعب والعالم لسنوات ولا يزال يحاول، وهذا شأنه، لكن المدهش فعلا أن يصدق من اكتووا بهذا الاستقرار المزيف بأنه استقرار أفضل من احتمالات الفوضى.
ولعل كل هذه الأكاذيب قد أصبحت أكثر جلاء لكل المترددين والخائفين، عقب تنحى الديكتاتور، وظهور ركام الفساد والفضائح التى كانت مستقرة تحت نظامه الفاسد.
أعتقد أن عودة مصر لحالة الفوضى المستقرة التى كانت تعيشها سيكون صعبا إن لم يكن مستحيلا، لكن ما تحتاجه هذه الثورة الآن أن يفهم الناس أن الثورة تقدم لهم يدها لكى يستندوا على قوانين وحقوق يتساوى أمامها الجميع وليس مجرد البحث عن كبير، فالكبير هو القانون والعدل والمساواة، وغير ذلك ليس إلا قيما عتيقة أكل عليها الدهر وشرب، وتجرعنا بسببها مرارة الهوان وطرد الكفاءات لصالح أصحاب الولاء غير المؤهلين وكل الخراب الذى عشناه لثلاثين عاما مضت. هذه القيم المريضة - تقول الثورة- أنها الآن بلغت مرحلة الشيخوخة إن لم تكن ماتت فعلا.. فانتبهوا أرجوكم.
وأظن أن المخاوف الآن من المزيفين والراكبين على أكتاف الثوار ممن يرددون بأنهم كانوا هناك، مع الثوار، ليكسبوا بذلك شرعية جديدة، أو يكسبوا بذلك مكاسب أخرى لما حققوه فى العهد السابق، والمخاوف أيضا من ذيول النظام السابق وهم كثر، وهذا بديهى فى نظام تغلغل فيه الفساد حتى النخاع.
بالرغم من ذلك فلا شك لدى من وعى

الشباب الذين قاموا بهذا العمل التاريخى العظيم وقدرتهم على الفرز ومعرفة الكاذبين وأصحاب المصالح من غيرهم.
والتحية واجبة، لهم جميعا، ثوار ثورة ٢٥ يناير النبيلة، ولدماء الشهداء التى بذلوها لأجل حرية كل فرد فينا، ولأجل كرامتنا التى أهدرت لسنوات، ولأجل ما بثوه فينا من أحلام كانت قد ولدت، ولقدرتهم على إعادة الأمل إلينا فى أن الاستقامة ليست غباء وقلة شطارة، وبشكل شخصى، لإحساس فريد أعيشه اليوم بكل قوة وهو أننى تحولت من جثة حية إلى إنسان يعيش ■

إطلالة نفسية على الثورة المصرية

د. أحمد عبد الله

هذه السطور كتبت على عجل.. فى مناخ تختلط فيه الفرحة العارمة، بالنشوة الغامرة، بالأمل الجارف، بالتخوفات المشروعة، والهواجس الخفية، وأحاول هنا تقديم بعض الملامح النفسية فى ثورة شعب مصر التى بدأت، ولم تنته، وأدعو الله مع المخلصين من بنى وطنى أن تستمر حتى تحقق أهدافها وتبلغ مداها.

ثورة ناعمة مفتوحة

هذه ثورة فريدة فى نوعها وتركيبها، ثورة بلا قيادة تقليدية، ولا هيكل حزبى أو أيدولوجى صلب، و لاكاريزما شخصية يلتف حولها الناس، ولانجوم يدور حولهم الشعب، هذه الثورة شعبية فعلا، ناعمة – رخوة، مسامية، ومفتوحة، سلمية، مدنية، وهذه الصفات تحتاج إلى فهم واستيعاب عميق، يبدو مركزيا وأساسيا فى تطوير ما نتج عنها، أى ما هو قائم حاليا، وجاهز للتطوير، ويمكن لنفس الصفات أن تكون عيوبا، تؤثر على النجاح، ويبدو غياب فقه القوة الناعمة، وادراك وتصعيد هكذا ثورات، أى كيف تنشأ وتتحرك، يبدو هذا الفقه لازما للتفاعل مع هذا الزخم الذى سمح للملايين بالمشاركة والإبداع والتواجد والفعل، وسمح بدرجة مذهلة من التنوع الخلاق، والتعددية مع الوحدة، كما أفسح المجال للحرب النفسية لتكون أهم ميادين الصراع الثورى منذ ٢٥ يناير، وحتى الآن.

الحرب النفسية

لعب ويلعب الإعلام بأنواعه دورا خطيرا فى هذه الثورة، وما زلنا نرى الإعلام الجماهيرى من فضائيات وصحف، وكذلك الإعلام المجتمعى الشعبى، وكافة وسائل الاتصال والتواصل، كيف أن هذه المساحات ممتلئة بالشد والجذب بين أنصارالثورة وأعداءها، كما استخدمت وتستخدم الشائعات، والقوالب الفكرية الجاهزة، والمقولات الموجهة، والتلاعب بالعواطف، ومحاولات إعطاء الانطباعات، وخلق الصور الذهنية، وتغيير القناعات، كل هذه الأنماط،

إضافة إلى التخويف، والتهديد، وبث الأمل، أواليأس.. كل هذه الآليات يستخدمها أنصار الثورة وأعداءها على السواء، بحيث أن معركة الثورة تدور فى الأدمغة و المشاعر قبل الواقع وعلى الأرض، بل رآها البعض انتصارا مبدئيا للخيال وقوته، والأمل وطاقته، على القديم وتراكماته، وكثير من أعداء الثورة ليسوا سوى ضحايا تضليل معلوماتى، أو تشويش فكرى، أو ضغوط نفسية، أو معاشية، أو رعب مرتبط بهواجس قد يكون بعضها معقولا، وبعضها مبنى على تصورات أو حسابات خاطئة.

نحن فى الغرب

أبرزت الأحداث أن صورتنا فى الغرب الرسمى والشعبى غير واضحة، وغالبا غير مؤثرة، رغم انتشار المراسلين، وتوالى البث المباشر، لأن الصورة التى يخلقها الإعلام ناقصة، ومتحيزة، وأحيانا متناقضة بالضرورة، يمكن القول بأن حضور الجاليات المصرية فى الخارج يحتاج إلى كثير من الانتباه والتطوير، وأن الانفتاح المصرى شخصيا ونفسيا على المشهد الغربى يحتاج إلى مراجعات، وأن نظرية المشى جنب الحيط، أو المصرى الذى يؤثر السلامة، وينعزل عن السياقات والأنشطة العامة فى مهجره،أو يتعامل معه بوصفه مجرد ملاذ آمن يعيد فيه إنتاج الوطن الأصلى!! كل هذه نقاط تحتاج إلى مزيد من البحث والعمل، والمقارنة بين التفاعل العالمى مع المشهد اللبنانى فى حرب تموز ٢٠٠٦ ، ومشهد ثورة تونس ٢٠١١ ، يؤكد أنه ما يزال أمامنا كمصريين جهدا كبيرا مستحقا لكى نكون جزءا فاعلا فى المشهد العالمى الذى أثبتت الأحداث أننا نقع فى قلبه، كما قال لى صديق باحث أنثربولوجى خلال الأحداث: لم أكن أتصور أن مصر مهمة للعالم، بهذه الدرجة.

الفيسبوك

فى شارع القصر العينى، وفى ميدان التحرير قبل تنظيفه كتب البعض على الجدران كلمة واحدة ومعبرة : فيسبوك، وهو ما تحدث عنه الكثيرون بوصف هذا الموقع الاجتماعى، كان المطبخ والملتقى ومحيط التواصل، والتحفيز، والحشد والاتفاقات، والمخضن الذى احتضن بذور هذه الثورة المدهشة منذ أن نشأ هذا الموقع، ومنذ أن تواجد عليه المصريون بالملايين، وحين أدركت السلطة البائسة فى مصر، متأخرة كعادتها، أهمية هذا الموقع حجبته.. كلنا نعرف القصة، بتفاصيل كثيرة ومهمة، لكن أحدا لم يذكر شيئا لفت نظرى من أن التنوع الفاعل، و الوحدة مع التعددية، تجاور الأصوات المختلفة مع عدم تضاربها، وغيرها من المعلوم عن الفيسبوك بالضرورة، كانت هى نفس ملامح ساحة ميدان التحرير، فما تدرب عليه ملايين الشباب عبر سنوات على الموقع الاجتماعى، وفى الفضاء الأليكترونى، قاموا بإعادة إنتاجه على الأرض، والتحم به الشعب فى كرنفالية تدرب عليها آخرون لم يعرفوا الفيسبوك، ولكن عرفوا الموالد بوصفها نسقا للتجمع الاحتفالى المتوجه لهدف رغم تعدد المراكز والمشاهد فيه، وبدون مبالغة، فإن نوعية الديمقراطية المباشرة التى كان

ميدان التحرير مسرحا مذهلا لها.. يمكن، وربما ينبغى أن تكون ملهمة لكل من يحاول فهم وتطوير هذه الثورة.

الدين و الثورة

بين ترديد مقولة أن الدين أفيون الشعوب، وشعارات الإخوان وغيرهم عن الإسلام الذى هو دين ودولة وسياسة ونظام حياة، ظهر الدين محركا ومتحركا، فاعلا ومنفعلا بمنطق جديد فى هذه الثورة، تكفلت دماء الشهداء باستعادة المخزون الجهادى والروحى لدى ملايين المسلمين والمسيحيين، وقادت عمائم الأزهر القليلة المتواجدة فى الميدان، معركة الصمود المبهر فيما سمى بموقعة الجمل، ولعب الأخوان دورا بارزا فى إنجاح وتأمين البقاء فى ميدان التحرير دون صخب، ولا شعارات، ولا مزايدة، ولا تهويل لدورهم، أو فرض لرؤاهم أو آراءهم.

الإخوان كانوا جزءا من الحالة، مشاركين فى صياغتها، وهامشا على المتن الذى صاغه الشعب، الشعب المؤمن بالله.. إيمانا عميقا وصل المصريون إلى جوهره حين وقف المسيحيون يحمون المسلمين فى صلاتهم، وبعضهم سجد معهم فى مواجهة العربات المدرعة فى معارك جمعة الغضب، لقد كان الدين مختلفا فى تجلياته حين كان مع الثورة، وهكذا يكون فى أفكار مثل: لاهوت التحرير وغيرها، وهكذا يكون قوة دافعة تفل الحديد والرصاص بحديد الثبات المعنوى والسمو الروحى، وهى نقاط مستهدفة من أعداء الثورة اليوم لضرب هذه المعانى، لتعود الأديان لاعبة على الفرقة والتفريق، وتنفصل عن الثورة، بل تنقلب ضدها، كما أريد لها دائما.

البلبلة

عقب تخلى الرئيس السابق تحولت حالة التوحد والتركيز فى المطالب إلى نوع من التنوع الطبيعى فى الاجتهادات والرؤى والأطروحات، ويرى البعض فى هذه الحالة الجديدة نوعا من البلبلة.. حيث تضخ كميات كبيرة من المعلومات، والمبادرات، والشكاوى، والمطالبات، والاكتشافات والتحذيرات، ويحضر النشطاء عددا كبيرا من اللقاءات، وهناك درجة عالية من التشكيك فى كل شئ، وفى كل أحد، وغير ذلك من المؤثرات والإشارات التى ترفع الروح المعنوية، ودرجة التحفيز والترقب، والإثارة والانتباه، وهذا كله محمود ومطلوب، شريطة ألا يزيد عن قدرة الإنسان على الاستيعاب، مما يضغط على أعصاب الناس، ويؤدى إلى الإنهاك والتشويش، وفى مقابل المشاعر المتدفقة والمرهقة صعودا وهبوطا، والأفكار المتلاحقة اللاهثة، يحتاج الناس إلى نوع من التأمل وبعض الاسترخاء الذهنى، وتحفيز للخيال، واندراج فى العمل المباشر المركز، كل فى ملف يختاره، بدلا من استمرار التعرض للقيل والقال، دون تدقيق، ولا تحقيق، ولاعمل يستثمر الطاقة والمشاعر التى تملأ كل الناس.

الفهم و التفهيم

ما الذى جرى؟ كيف استطاع الناس قهر قهرهم وخوفهم القديم؟ ما هى خرائط الواقع الحالى، واختيارات المستقبل القريب؟

يبدو أن الجهد المبذول فى تأطير المعطيات المتدفقة لتتحول إلى إجابات وبرامج عمل، وخرائط ذهنية وحركية،هذه الجهد يبدو دون المستوى بكثير، ما هى الثورة؟ وماذا تعنى؟ ما هى صفات هذه الثورة المصرية؟؟ كيف نفهم ما جرى؟ وكيف نشرحه ونفسره؟ كيف ننظم الإرادة الشعبية المنتصرة فى مسارات لتستمر؟ وفى حضانات لتنمو أكثر وتتضاعف وتكسب بشرا ومساحات جديدة؟ ما هى معايير النصر و الإنجاز؟ وما هى برامج الخصوم؟ وما هى خبرات الثورات الأخرى؟ ونقاط التشابه والاختلاف؟ الرد على الشائعات، ودحض الشبهات، وإطلاق الخيال، وتطوير المبادرات . مساحات ما تزال فارغة، أو تكاد.

هذا الشعب المنتصر يحتاج إلى تضميد جراح روحه المتحدية، واستلهام حكمته الجمعية، والوعى بقوة ال نحن التى تألقت وانتصرت، يحتاج إلى من يتعلم منه، ويحاوره، ويتواصل فينقل خبرات أو يرفع كفاءات، ويحتاج إلى فلترة تدفق الكلام، وزخم المؤثرات.. ويحتاج إلى إصغاء لأصوات موحية، ومعالجة حيثما وجد النقص أو الوجع، ومن كان لديه شئ من هذا فليتكلم، وليصمت الآخرون.. اصمتوا يرحمكم الله ■

الطريق إلى ميدان التحرير

أحمد عبد المنعم رمضان

٢٨ يناير ٢٠١١ – جمعة الغضب

على رصيف شارع التحرير، كان الشارع خاليا تماما من حركة السيارات المتداخلة ورائحة العوادم المعتادة وان امتلأ بروائح غازات أخرى، هذا الشارع الذى لم يخل من السيارات بهذا الشكل المهيب من قبل، كما لم يمتلئ بالأنفاس البشرية والأرواح الحية بتلك الأعداد الضخمة. الشمس توارت خلف غيوم كثيفة، البعض يجلس بجوارى، مفرود الساقين أو حتى القرفصاء، تلطخ الأتربة ملابسنا، منكوش شعرنا ومتقطعة أنفاسنا. البعض مازال واقفا على قدميه متحديا، والبعض الآخر جرى بعيدا. كنا مئات الآلاف منذ لحظات، أما الآن فقد انهار عددنا لأقل من الربع. رائحة الدخان مازالت تعبث بأنوفنا، وكل منا يمسك بمنديله أو يربط كمامته مغطيا أنفه اللامعة احمرارا. العيون كلها دامعة، ولكننا لسنا بباكين، وجوهنا بطعم البيبسى وأنوفنا بطعم الخل. كنا من لحظات نقف وجها إلى وجه الجنود المتراصين بملابسهم السوداء القاتمة، ونحن نرتدى ملابسنا متباينة الألوان، الشارع يضج بكل الألوان الملتحمة. وقفنا وجها لوجه، لا ندرى شيئا عن مصائرنا. قنابل الغاز تنهمر علينا بغزارة مفرطة، الكل يمسك بأنفه، لم نعد نرى شيئا من خلف ستائر الدموع.. تمتد يد أنثوية بزجاجة بيبسى وصوتها يلهث اغسل وشك بالبيبسى، بيودى أثر القنابل ، فأفعل، وتأتينى يد أخرى بقطعة بصل لأنها تداوى العيون، ومماألبث أن أفيق حتى أتلقف قنبلة أخرى بالجوار، تنهمر على أثرها دموعى وتتلاشى رؤيتى، يحترق حلقى وتتقطع أنفاسى، فتمتد يد سمراء بمنديل مبلول ببعض الخل، أنا لا أرى الوجوه، فقط الأيدى... قنابلهم كثيرة لا تكاد تظنها انتهت حتى يفاجئوك بغيرها... هل هذا ما تدفعون فيه أموالنا؟؟ .

أثناء محاربتنا لغازاتهم وهم يتراصون على كوبرى الجلاء الجاثم فوق النهر، (التحرير.. الجلاء.. من اختار تلك الأسماء وكأنهم يوجهوننا؟؟)، كان البعض يحاولون التسلل من على جوانب الأمن المتربص، فينصب

لهم رجال الأمن الكمائن ويتصيدونهم واحدا تلو الآخر، وقفنا بثبات وعزيمة لا يقهران فى شكل صفوف متوازية، كل يمسك بيد من يجاوره، قبضت على يدى شخصين لا أعرفهما عن يمينى وعن يسارى، بعد أن تاه منى صديقاى، صنعنا من أجسادنا سدودا متماسكة متحركة. تفاجأنا بحركة السيارة قاذفة القنابل بشكل مباغت، وهى سيارة ضخمة باللون الزيتى المميز لسيارات الأمن، انطلقت مسرعة متأرجحة بين أجسادنا وهى تكاد تدهسنا بينما نترامى على جنبات الطريق.

بعد هروب السيارة الأمنية، خلا كوبرى الجلاء- من فلول العساكر، فصحنا صيحات النصر وتقدمنا مخترقين النهر بخطى مترقبة، وعيون عادت للإبصار وأنفاس بدأت بالانضباط، الجموع تعبر الطريق بالآلاف والكل عازم ومصر، الكل واثق أو يبدو كذلك... حتى ظهر لنا بالأفق تمركز آخر من تمركزاتهم. الجنود يقفون بالثبات نفسه مثل سابقيهم، أو قد يكونون أنفسهم، المشهد يبدو مكررا، وأعدنا المعركة بالتفاصيل نفسها، كل بدوره، القنابل، الدموع، البصل، البيبسى، الاختناقات والأيادى الممتدة. حتى ظهر اللون الأحمر بالأجواء وبدأ الدم يطهر الطرقات، بدأت الطلقات فى العبث، العيون تتطاير والصدور تخترق والأذرع تتهشم. ما أكاد أفرغ من النظر إلى مصاب محمول على سواعد أربعة رجال حتى يلحق به آخر، لا نعرف هل هو حى أم ميت، ضربات قلبى تلاحقهم والغازات تمنعنى من التحقق من ملامحهم. الحنق والغضب يمتزجان بالخوف والشجون. وقفنا لنصلى، امتزجت دماؤنا بأسفلت الطريق وكأننا نقبله.. الأرض تهتز تحت جباهنا، وشفاهنا تتمتم بدعواتنا الراجية. لم تمنعنا جموع المصابين المتساقطين من الصمود بأماكننا، أحب أن أكون بطلا ولكننى لم أكن بطلا لهذا الحد، كثيرا ما خشيت من الطلقات المترامية والدماء المتطايرة فتقهقرت خلف بعض الجموع، محافظا على موقعى بمنتصف الحشود. فاض الكيل ببعض من الضباط، فانطلقوا بشاحناتهم الضخمة التى تشبه السجون المتحركة، تقدموا نحونا وكأنهم سيدهسوننا، وهو ليس مستغربا بتلك اللحظة، فهرولنا جميعا متقهقرين للخلف، ركضنا سريعا، وتشتت جموعنا.

الآن، أجلس على قارعة الطريق، بعد أن عدت لألاقى أحد صديقى اللذين فقدتهما منذ ساعات، أما الآخر فلم أجده، سأعلم غدا أن طلقة أصابت ساقه. صورة الطاغية العجوز لاتزال تطالعنى بالشوارع والميادين، جمود وجهه وابتسامته المصطنعة، كنا قد تفتتنا وتناقصت أعدادنا ووهنت أجسادنا، النجوم والمشاهير يجلسون بين الفقراء والمكبوتين، لا يلاقون ما اعتادوه من تهافت وترحاب، الكل واحد الآن...، أغلبنا قضى معظم حياته على المكاتب، يطالع صورته متأففا بكل صباح، طالعتها وأنا طفل بالمدرسة وأنا طالب بالجامعة وأنا أعمل بالحكومة، نحن لسنا محاربين، أكثر مجهود بذلته فى حياتى هو لعب الكرة ,وأكثر خطر تعرضت له هو تسلق سانت كاترين، وأكثر هم حملته هو نتيجة امتحان آخر العام...

والآن، أنا بميدان معركة حقيقى، أواجه قنابل خانقة، وأسمع أصوات الطلقات، وأرى الدماء وهى تسيل.

بينما أجلس على أحد الأرصفة المتواجدة بمنتصف الشارع سأل بعضنا البعض بعدما قطع عنا الديكتاتور وسائل الاتصال، الهواتف المحمولة و الإنترنت، وعاد بنا عقودا للوراء، هل يعلم أحد بما نعمله الآن؟؟ هل تابعنا الكاميرات والفضائيات؟؟؟ هل يرانا العالم ويسمع صوتنا؟؟ هل يشعر بنا من بيوتهم، هل وصلهم صوت غضبنا؟؟ هل كنا واضحين بما فيه الكفاية، هل هناك من يتظاهرون بمكان آخر؟؟ هل يضربون، يقتلون، يعتقلون؟؟ هل تقهقروا وفروا؟؟ هل صمدوا؟؟ هل نذهب إليهم؟؟ هل سيأتون إلينا؟؟ هل هززنا العالم؟؟.

دب صوت ضجيج مفاجئ بين المتظاهرين من حولى، التفت إليهم فوجدت بعضهم يصفق والآخر يقفز فرحا، ترتسم على وجوههم المكفهرة علامات بشر وابتسامات برينة، فانتصبت من جلستى، نظفت بنطالى بشكل تلقائى، تسلقت فوق بعض الأكتاف لأرى ما يرون، رأيت حشودا من الناس تتقدم نحونا، لا ألمح آخرها ولا أستطيع تقدير عددها، يزحفون نحونا بحماسة وعزيمة لا تهزمان، امتزجت أنفاسنا بأنفاسهم وتداخلت هتافاتنا، وتقدمنا سويا بأرواح محلقة وبخطى ثابتة وبأيد متشابكة نحو الميدان، ميدان التحرير.

١١ فبراير ٢٠١١

أثناء توارى الشمس باليوم الثامن عشر من ثورتنا على الطغيان، خرج علينا الرجل الضخم بصلعته المهيبة، بنظرة منكسرة غير معتادة، تكلم لمدة ثمانى وعشرين ثانية، وأبلغنا بصوته أحادى النبرة أن الطاغية قد تنحى، قد رحل، قد سقط، قد ذهب، قد انتهى وإلى الأبد.

١٢ فبراير ٢٠١١

نمت مليا بعد احتفالات ليلة أمس، بعد أيام من التوتر والاضطراب، استيقظت متأخرا، تثاءبت فى سريرى، ابتسمت، أزحت الغطاء عنى وبدأت يوما جديدا لم أره من قبل.

هامش:

قلما يحيا الإنسان تلك اللحظات، قلما يشعر بهذا الفخر والزهو، ويود أن يقول لكل من يقابله أو سيقابله فى سائر حياته أنه شارك فى صنع هذا... لقد شاركت فى يوم ٢٥ يناير، يوم الانطلاقة، لقد شاركت بجمعة ٢٨ يناير، نقطة التحول، لقد شاركت بتظاهرتين مليونيتين وأخريين أقل عددا... لقد شاركت فى ثورة ٢٥ يناير ... لقد شاركت فى صناعة التاريخ ■

الأيام الأولي:
٢٥ يناير : ١ فبراير

أحمد زغلول الشيطى

لم أكتب، عن هذه الفترة أى يوميات، أنا أصلاً لا أكتب يوميات، فكتابة اليوميات تتضمن التعامل مع مادة ملتهبة فى طور التشكل، وأنا أفضل الانتظار، لظنى أن الانتظار مدعاة لصفاء المادة من الشوائب، وللمزيد من التأنى والفهم، غير أننى نادم على عدم كتابة ولو ملاحظات للتذكير عن هذه الأيام الأولى، والأحداث غير قابلة لأن تعاد بكامل عنفوانها لأتمكن من اقتناص لحظات تخصنى، بعينى لا بعين كاميرا فيديو أو حتى برواية شهود عيان، المادة هاربة، هى من النوع الذى قد تمضى حياة كاملة دون أن يتكرر، كان يمكننى مشاهدة الثورة من البلكونة فبيتى فى شارع قصر النيل، يطل على قطاع لا بأس به من ميدان التحرير، والمسافة من بيتى إلى الميدان هى بالتقريب على بعد مائة خطوة غربًا، وهى المسافة التى قطعتها ذهابًا وإيابًا معظم أيام الثورة الثمانية عشر، مجتازًا المتاريس والبوابات الأمنية والتفتيش الذاتى عن الأسلحة، و يقع ميدان طلعت حرب «المقر الثانى للثورة» على بعد مائة خطوة أخرى شرقًا. كانت الثورة على مرمى بصرى، وكانت قنابل الغاز حين تنفجر فى وجوه المتظاهرين، يملأ الغاز فضاء شقتى، وأدمع وأختنق به رغم أنى بطبيعة الحال بعيدا عن المظاهرة، توقعت أن يكتسب الأمن المركزى العداوة المستحكمة لربات البيوت مستنشقات الغاز جبرًا داخل مطابخهن، فآلته التى تعمل عند احتدام الأحداث تعمل بقانونها أيضًا، تتقدم أو تتأخر خطوة أو خطوات عن رغبة مديرى الآلة، التى لا تفرق ما بين من هم فى الشارع ومن هم فى البيت، من هم أعداء ومن هم على الحياد، وقد بدأ تطويق الشوارع بوسط البلد بقوات إضافية من الأمن، وبحواجز حديدية إضافية منذ صباح الثلاثاء ٢٥ يناير، وعند الساعة الثانية ظهرا كانت حركة السيارات قد مُنعت تمامًا من الشوارع المؤدية إلى ميدان التحرير، أغلق شارع قصر النيل بحواجز حديدية ما بين جروبى والخطوط الجوية الفرنسية، وأغلق شارع طلعت حرب بحواجز حديدية عند إشارة المرور المؤدية

للميدان للقادم من التحرير، وقد رأيت مظاهرة قوامها حوالى ثلاثة آلاف متظاهر قادمة من شارع هدى شعراوى قاصدة ميدان طلعت حرب، اصطدمت بالحواجز على فوهة ميدان طلعت حرب فاضطرت إلى السير فى الاتجاه العكسى نحو ميدان التحرير، فوجئت بمسارعة قوات الأمن المركزى بإغلاق الشارع بحواجز حديدية وصف من الجنود عند تقاطع شارع طلعت حرب مع شارع البستان وبذلك تم محاصرة المظاهرة التى لم يبق أمامها سوى التفرق أو السير فى شارع هدى شعراوى الذى يفضى إلى شوارع بعيدة عن ميدان التحرير. كانت المظاهرة تردد شعاراتها الرئيسية التى رددتها بعد ذلك كثيراً يسقط يسقط حسنى مبارك، الشعب يريد إسقاط النظام، سلمية... سلمية، على وعلى وعلى الصوت اللى هيهتف مش هيموت... كانت هذه المظاهرة الصغيرة القادمة من هدى شعراوى الساعة الثانية ظهر يوم ٢٥ يناير هى بداية الثورة كما رأيتها، وقد ساءنى يومها أن عمارة الخطوط الجوية الفرنسية كانت خاضعة لعملية ترميم بمعرفة شركة المقاولين العرب، ورأيت بعض عمال الترميم يقفون فى مدخل شارع بار استوريل من ناحية طلعت حرب، يقومون بطلاء قطع حديدية بالبوية دون التفات لشباب المظاهرة، يومها ذهبت إلى دار نشر مبريت وقلت لموظفى الدار إذا التفت العمال إلى المظاهرة ساعتها ستكون المظاهرة مقنعة.

لقد أحالتنى أحداث الأيام الأولى إلى حلم قديم كان يواتينى كثيراً لسبب غير مفهوم فى مراهقتى، فقد كنت أحلم أننى نائم فى بيتنا بشارع البندر بمدينة دمياط، فى الحجرة الكبيرة المطلة على الشارع، تحديداً على سرير أمى، بينما تدور معركة بآليات عسكرية وطائرات وقنابل، حين أستيقظ لا أرى غير معارك قسم الشرطة الذى يلاصق جداره جدار بيتنا، أرى عربات الأمن المركزى تنزل المساجين العائدين من المحكمة أو تنزل المقبوض عليهم من الشوارع فى الحملات الدورية فيما تهرول نساؤهم وأقاربهم وراءهم لرؤيتهم وتبادل كلمات ورسائل سريعة معهم فيما يصعدون سلالم القسم، أستيقظ ليلا على صوت التعذيب بالتعليق أعلى الباب، أو بصعق الخصيتين بالكهرباء، أو بغمر الرأس فى بالوعة المجارى، أو أستيقظ فجراً على صوت هياج شديد، أنظر من النافذة، أرى ضابط المباحث يسير فى مقدمة تظاهرة كبيرة من أهل مدينة دمياط فيما يسير أمامه خمسة شبان عراة مقيدى الأيدى من الخلف، ويطوقهم مخبرو القسم، يتناهى إلىّ أن هؤلاء الشبان هم من اغتصبوا بائعة الفجل فى سوق الجمعة، وتناوبوا عليها، وأن رئيس المباحث أصر على أن يقتادهم عراة فى جميع شوارع دمياط.

كان شباب المظاهرة فى اليوم الأول يصلون إلى حافة الحواجز الحديدية ولا يلمسونها، ويهتفون أمام صف الجنود أمام الحاجز سلمية... سلمية، استطاع الشباب دخول الميدان لأول مرة حوالى الساعة الرابعة مساء بعد عمليات كر وفر وانهاك للأمن المركزى الذى لم يبدر منه أى هجوم، مكتفيا بقطع الشوارع المؤدية للميدان بحواجز حديدية وصفوف من الجنود، وكانوا

يتحركون بحواجزهم تبعاً لحركة جموع المتظاهرين، من اللحظة الأولى فى الميدان أعلن المتظاهرون أنهم سيبيتون ليلتهم فى الميدان، كنت أسمع البعض يتنقدون الشباب ويقولون كيف يختارون يوم إجازة هو إجازة عيد الشرطة موعداً لمظاهرتهم، وأنهم بذلك فقدوا دعم الموظفين أثناء خروجهم من مقار أعمالهم. هاجمتنى آلام القولون فى نحو الساعة الخامسة كانت أعداد المتظاهرين تتزايد قادمة من مداخل الميدان المختلفة ولا أثر قريب للأمن، سرت مندهشاً من هؤلاء الذين دخلوا إلى الميدان، دخلت شارع البستان لأذهب إلى بيتى فى شارع قصر النيل عبر الجراج المفتوح على الشارعين، قابلت عند باب الجراج ثلاثة من قدامى المناضلين، كان رأيهم أن هؤلاء الشباب مجانين وأنه ليمكنهم المبيت فى الميدان لابد من تدبير أمر الإعاشة والمناوبات، سلمتُ وانصرفت، فقد كانت آلام القولون تتزايد، كنت أعرف أن علاجى هو النوم بعد الغذاء، وتناول العلاج لأنعم بالراحة البيتية ثم أعود مرة أخرى لرؤية إلى أين سيفضى الأمر، وهل سيستمر الأمن فى عدم التعرض للمتظاهرين.

فتحتُ علبة تونة وحضرت طبق سلطة وسخنت الخبز وأدرت محطة الموسيقى العالمية وجلست فى الليفنج على الأرض أتغذى، كنت أعرف أنه كان ينبغى أن أحضر طبق شربة دافئ، ولكنه كسلى المعتاد... بعد أن أخذت العلاج ذهبت إلى السرير أغمضتُ عينى، صنعت كل الحيل ليأتى النوم دون جدوى، جربت الدخول إلى الحمام، كان الوضع ميئوساً منه، كنت أفكر فى هؤلاء الأولاد وكونهم لا يعبؤون بأى حسابات، وأتذكر قصتى القصيرة «حصان» فى مجموعة «عرائس من ورق»، وكيف أنه انطلق غير عابئ بالحواجز والقيود قابلا قدره أيًا كان، لأن كينونته تكمن فى هذا الانطلاق وحده، حوالى الساعة ١٢ عند منتصف الليل سمعت صوت إطلاق قنابل وصوت إطلاق رصاص، لم أصدق فى بادئ الأمر، ظننت أن هذا غير حقيقى، كانت الأصوات تتوالى، جريت نحو البلكونة صدمتنى رائحة الغاز بغزارة وسالت دموعى فجأة، تراجعت إلى الداخل لففتُ رأسى بفوطة وعدتُ، كان الشباب يأتون جرياً من ناحية ميدان التحرير وهم يحملون مصاباً ويصرخون فى التليفون المحمول بحثا عن نجدة، والتليفونات لا تجيب بسبب التشويش عليها.

صباح اليوم التالى كتبت النص الذى صدّرت به هذا الكتاب ونشرته على الفيس بوك، قلت إنهم ثوار ثورة غير قابلة للتأسيس، وبالتالى فهى غير قادرة على التكلس والسقوط فى الرتابة

شيئاً فشيئا خلال الأيام الأولى تغير وجه الحياة فى الميدان، هذه العطلة السعيدة جعلتنى أكتب نصاً إنشائياً فرحاً ومبشراً أسميته (سجل مدنى ميدان التحرير)، غلبنى انفعال الحب الواقع فى الأسر، أخيراً رأيت أعقد وأغرب أحلامى وأكثرها سرية مجسداً أمامى كشط الزمن المترهل، القطيعة مع الرطرطة، لقد هربت من الانفعال بإلغاء صوتى الشخصى وهو ما نجحت فى استعادته فى اليوم الثانى من فبراير، رحت أقول وأخبر

الناس أن الآن فى ميدان التحرير، يمكنك استخراج شهادة وفاة، أو شهادة ميلاد، أو بطاقة شخصية، أو تغير محل إقامة أو تغير مهنة فى أقل من ثانية، دون حاجة لأوراق، أو أجهزة كومبيوتر، أو طوابير انتظار، أو تقديم إيصال كهرباء، أو شهادة من اثنين من الموظفين الرسميين، ودون ضامن، أو شهادات فقد، أو محاضر فى أقسام الشرطة، ودون سداد أى رسوم، ودون استخراج أى بيانات من دار المحفوظات، ودون أية صور فوتوغرافية. وكتبت أن الشرط الوحيد المطلوب هو أن تتواجد فى ميدان التحرير بنفسك إن كنت قادراً، أو تتواجد بقلبك، أو بعقلك إن كنت غير قادر، ففى الميدان فى هذه اللحظة بالذات يقوم رواد الميدان اللذين وفدوا إليه يوم ٢٥ يناير٢٠١١ بإنشاء وتشغيل أكبر مكتب سجل مدنى فى مصر، هو سجل مدنى ميدان التحرير، القائمون عليه أنت بالتأكيد تعرفهم، هؤلاء شباب فى العشرينيات، خريجو جامعات ومدارس ومعاهد متوسطة، وأنهم يرغبون فى تحرير شهادة وفاة للسلطة الشانخة، وتحرير شهادة ميلاد للجميع، حتى لمن يختلفون معهم، هنا والآن، وقلت إنى رأيت شهادات ميلاد لسيد درويش وعلى عبد الرازق وطه حسين... الخ، وشهادات وفاة لمن يريدون تثبيت اللحظة ولمن يكرسون للخوف والإرهاب. وهكذا ذاب صوتى الشخصى ولم أقتنص لحظة واحدة من الثورة، نشرت هذا النص على صفحتى فى الفيس بوك يوم ٣ فبراير رغم أنى كتبت النص يوم ٣١ يناير، كان علىّ السيطرة على انفعالى لأستطيع رؤية هذا الشىء الذى ولد أسفل البلكونة، لأستطيع أن أرى تفاصيله، تحولاته، ترددات روحه، غير أنى كنت فرداً بعينين فقط، وبقدرات محدودة فى النهاية، ولا يمكننى الإحاطة بهذا الشىء وحدى، وأن على الجميع أن يحكى حكايته ليمكن مقارنة ما حدث. بدءا من ٢ فبراير بدأت اليوميات لكن هذا لا يعنى أنى قلت كلّ ما شاهدت، فالذاكرة تخون، قلت ما استطعت حتى عن الأيام الأولى ضمن اليوميات... أذكر فى يوم ٢٩ يناير كان أحمد اللباد قد صمم عدة لوحات بالأبيض والأسود للاستخدام فى مظاهرة التحرير، وجاء بها إلى دار ميريت للنشر، كانت كلها مثبتة على ورق مقوى، وتخطفها الأصدقاء، بقيت واحدة، تلك التى تحمل العلامة المرورية التى تعنى عدم إمكانية الرجوع إلى الخلف ومكتوب تحتها ذات العبارة ممنوع الرجوع إلى الخلف، على أن أقوى اللوحات كانت تلك التى تحمل صورة مبارك بنظرة جانبية حقود وباعوجاج للفم يعطى إيحاء بشراسة ديكتاتور طاعن فى السن ومكتوب عليها أن تاريخ انتهاء الصلاحية يوم ٢٥ يناير وختم المغادرة وصورة طائرة وتاريخ يناير ٢٠١١ ، علقنا جميعا أن هذه معضلة، فما بقى من يناير يومان هما ٣٠ و ٣١، رحنا نتهكم حول الموعد وأن مبارك لازق فى الكرسى، وقال أحمد إنه سيعدل التاريخ، ولو أننا نريده بعد ستة أشهر ما فيش مانع، هاج الجميع ضاحكين حرام عليك يا راجل، كان علىّ اللباد أن يحدد تاريخ رحيل مبارك عوضا عن مبارك نفسه والثوار، وكانت اللوحة المرورية ممنوع الرجوع

للخلف من نصيبى، أخذتها معى إلى البيت وأنا أنتوى الذهاب بها للمظاهرة فى اليوم التالى.

لم يكن حلماً صحوت فعلًا فى بيتى بشارع قصر النيل على صوت آليات عسكرية وطائرات تحوم فى الجو، كانت الدبابات والمدرعات تعيد تمركزها فى محيط وسط البلد بالقاهرة الخديوية، وكانت الطائرات الهليوكوبتر تدور حول سماء ميدان التحرير دون توقف، إذن هى الحرب، تلك العطلة السعيدة، إجازة من رتابة الحياة اليومية، لقد بدت هذه الآليات العسكرية ديناصورات خيالية تتحرك بين رصيفى شارع قصر النيل الآخذ فى التحول إلى شارع شبيه بشوارع الحرب الأهلية اللبنانية، خاصة وطائرات إف ١٦ تحلق فى الميدان على مستوى منخفض ظهيرة يوم ٣١ يناير، كان هذا الجزء من شارع قصر النيل يتحول ليلا إلى شارع للسيارات الفارهة الأكثر حداثة وللنساء مرتديات الهوت جوب اللائى يكافحن للنزول من الهمر، والشيروكى و والجا جور والمرسيدس دون أن يظهر البانتى الرفيع لمدة تزيد عن الثوانى من نزولهن إلى عبورهن إلى صالة الديسكو أو الريستوران، لقد أغلق الدسكو والريستوران وحتى نادى السيارات، وكنت أعيش هذه العطلة السعيدة التى أزاحت الحياة اليومية إلى أجل غير مسمى، فمنذ اللحظة الأولى الشعب يريد إسقاط النظام، وإسقاط نوعية الحياة اليومية التى تصيبنى بالملل، لقد تلاقيت مع الثورة منذ البدء، فقد استطاعوا تغيير المنظومة اليومية فى الميدان، وصنعوا قطيعة حقيقية تحت بصرى حين أطل من البلكونة.

كانت دار ميريت منذ بدء المظاهرة تتحول تدريجيا إلى مقر للمثقفين والصحفيين والمناضلين، ومركزا يذهبون منه إلى الميدان ويعودون إليه، وكان التليفزيون مفتوحًا على الجزيرة والعربية وبى بى سى طوال الوقت، بدأت تتحدد حركتى ما بين شقتى فى الدور الثالث ودار ميريت للنشر التى نشرت لى كتابين، والميدان، وسوق باب اللوق، وبقاله ثروت بشارع الأنتكخانة، يوما ٢٦ و ٢٧ يناير كنت كلما ذهبت إلى البقال أرى عربات الأمن المركزى مصطفة إلى جوار مبنى حزب التجمع، وفى مدخل شارع كريم الدولة، وسمعت أنهم فى أحيان كثيرة يقبضون على الناس عشوائيا ويدخلونهم إلى العربة، كانت حركة السير طبيعية فى شارعى الأنتكخانة وشامبليون رغم مظاهرتى المحامين والصحفيين أمام نقابتيهما، كنا نتابع فى الجزيرة تغطيتها للمظاهرتين ونبأ القبض على عضو مجلس النقابة محمد عبد القدوس ونقله وزملائه إلى معسكر للأمن المركزى بمنطقة الجبل الأحمر خارج القاهرة، قررنا فى ميريت أن ننزل للمظاهرة حوالى الساعة الثامنة والنصف، اقترحت أن ننقسم إلى مجموعتين حتى لا يُقبض علينا. قال الآتون من شامبليون إنهم يقبضون على الناس وان هناك بلطجية، انقسمنا قسمين، كان معى حمدى أبو جليل، قال إنه بدوى متخلف وإنه لو أخذ قلماً من أى عسكرى أو ضابط فلن يمكنه تجاهل الأمر و لن يسكت على ذلك، وربما استأجر واحدا ليقتل من ضربه، كان يبين خوفه من القلم الافتراضى، ذهبنا

إلى التكعيبة وجدناها مغلقة، سرنا من شارع ضيق على يسار التكعيبة يتعامد على أحد الشوارع المتفرعة من شامبليون، قال لى حمدى بلهجته التى تنتمى لبدو الفيوم والمشربة بقاهرية الإحياء الشعبية وبلكنة مثقفة أنا ماشى معاك علشان أنت محامى، ولم أكن أفضل حالاً منه، لأنى لو حظيت بالقلم الافتراضى فلن أبقى واقفاً على قدمى طويلا، رأينا أفرادا من القوة السرية ينتظرون للقبض على القادمين من الممر، تراجعنا، شعرتُ أن هذه أول مرة يخرج فيها حمدى لمظاهرة، وكنت مثله تقريباً، وكان ما يحدث غريباً وغير معروف إلى ما سينتهي. كان حمدى إلى هذه اللحظة متشككا وكنت أنا أشعر بالهول، فقد عشتُ طويلا إلى جوار قسم الشرطة فى دمياط ورأيت الآلهة التى تحترف التعذيب لأغراض مقدسة، تحيطهم القداسة والمهابة، ولا يمكن تخيل هذا الاجتراء الحاد عليهم، لقد سمعت الشتائم تنهال على السيد الرئيس والسيدة حرمه فى شارع طلعت حرب فى اليوم الأول دون أن تفيض أرواح من نطقوا بالشتائم، فهذا الذى يحتل الفضاء والأرض ويمتلك خاتم السر الأصلى لم يُبدهم فى الحال. قال حمدى إنه مروّح وعند شارع الأنتكخانة افترقنا، وأنا مندهش كيف سيمر حمدى أمام صف عربات الأمن المركزى المتمركز أمام حزب التجمع وحده، بيد أن براءة هدفه من السير، وهى أنه مروّح أعطته شجاعة إضافية، انقلبتُ إلى ممر «أفترايت» عائداً إلى البيت ■

عمال مصر فى قلب الثورة

أحمد عزت

خلال الأيام الأولى لثورة الشعب المصرى المجيدة تسائل العديد من الثوار، عن الإضرابات العمالية، ومع محاولات نظام الرئيس المخلوع مبارك التمكن من ثورة الغضب والقضاء عليها عبر الحرب الإعلامية التى نجحت جزئياً فى تأليب قسم مهم من الشارع المصرى ضد المعتصمين فى ميدان التحرير، تحول التساؤل حول غياب العمال عن ميدان التحرير إلى سؤال ملح، لكن وقبل تنحى مبارك بثلاثة أيام دخل العمال حلبة الثورة بقوة جعلت بعض المتخصصين فى الشأن العمالى يقررون بأن هذه الموجة من الإضرابات كانت بمثابة الضربة القاضية التى أدت إلى انقسام حاد فى مؤسسات الدولة أجبرت مبارك على التنحى.

حيث اشتعلت الإضرابات خلال هذه الأيام الثلاثة فى كافة القطاعات العمالية من القطاع العام إلى القطاع الخاص وامتدت لتشمل العاملين فى مؤسسات الدولة.

كان إضراب عمال المصانع الحربية بحلوان هو الشرارة التى أطلقت موجة الاحتجاجات التى لم تخمد نيرانها حتى الآن، وقد انضم إليهم فى ذات اليوم موظفى الشركة المصرية للاتصالات، وعمال شركة عمر أفندى وغيرها العشرات من الشركات والمصانع فى جميع محافظات مصر، وهو ما بث الرعب فى نفوس القائمين على النظام ورجال الأعمال معاً مما جعل الحكومة تتخذ خطوات استباقية ضد عمال المرافق الحيوية، حيث صدر قرار بإيقاف نشاط الهيئة القومية لسكك حديد مصر لقطع طريق الاعتصام والإضراب أمام عمال الهيئة، لكن لم يجد هذا الأمر نفعاً كما لم يوقف انتشار الإضرابات التى استمرت فى الانتشار لتطال قطاعات حيوية كشركات قناة السويس والهيئة القومية للبريد وعمال شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى وعمال غزل كفر الدوار.

على الرغم من أن مطالب كل قطاع من هذه القطاعات المتعددة كانت تعبر عن مشاكل عماله، وعدم وجود مطلب واحد تتوحد تحت رايته الطبقة العاملة، إلا أن

جميع الإضرابات والاعتصامات العمالية التى شهدتها الأيام القليلة قبل تنحى مبارك أعلنت تأييدها لمطالب الثورة، وهو ما كان يزيد المعتصمين فى ميدان التحرير وفى ميادين مصر الأخرى عزماً وإصراراً على المضى قدماً من أجل تحقيق مطالب الثورة.

كان من أبرز مظاهر الاحتجاجات العمالية محاولات قطاعات عمالية عديدة السيطرة على مقر الاتحاد العام لنقابات عمال مصر، الذى يرأسه حسين مجاور، ذلك الاتحاد الذى يعتبره عمال مصر المنبع الرئيسى لتزوير إرادتهم فى انتخابات النقابات العمالية، فضلاً عن سيطرته على كافة أشكال العمل النقابى، لدرجة يجزم معها عمال من قطاعات كثيرة بأنه لا يمثل العمال أكثر من تمثيله لأصحاب الأعمال وخضوعه للتوجيهات الحكومية بشكل مطلق وعدم تعبيره عن العمال .

كان من أبرز المواجهات التى خاضها عمال مصر ضد الاتحاد العام للنقابات هى قيام موظفى الضرائب العقارية بتقديم استقالتهم من النقابة العامة للعاملين بالتأمينات والبنوك التابعة لهذا الاتحاد عام ٢٠٠٨ وقيامهم بتأسيس نقابة مستقلة لموظفى الضرائب العقارية. شكلت النقابة المستقلة مصدر إزعاج مستمر للاتحاد وقياداته، بل ولوزارة القوى العاملة التى عجزت عن احتواء النقابة المستقلة، وقد ظلت تلك النقابة تناضل – بالإضافة إلى حقوق أعضائها، من أجل إفقاد هذا الاتحاد كل ما تبقى له من مصداقية، وكان سندها فى ذلك أصحاب المعاشات الذين قرروا تأسيس اتحاد مستقل يدافع عن حقوقهم، ثم كذلك الفنيين الصحيين، الذين أسسوا نقابتهم المستقلة على غرار الضرائب العقارية.

فى الأسبوع الأول من ثورة يناير الشعبية المجيدة قررت القطاعات الثلاثة تشكيل اتحاد عمال مستقل، وهو ما شكل خطوة للأمام على طريق تنظيم الحركة العمالية المصرية، حيث تلا الإعلان عن تأسيس الاتحاد المستقل، توجيهه دعوة للعمال لاحتلال مبنى الاتحاد الحكومى.

اليوم يعمل اتحاد العمال المستقل على جذب قطاعات عمالية أخرى لفكرة تكوين نقابات عمالية مستقلة تعمل على تمثيل العمال بشكل حقيقى وتعبر عن مطالبهم.

هناك خطوة لا تقل أهمية عن النقابات المستقلة وهى فكرة حزب العمال السياسى، حيث ترتب على نجاح الثورة فى الإطاحة بمبارك والمطالبة بحرية تكوين الأحزاب السياسية شروع عدد من القيادات العمالية من مواقع مختلفة فى تأسيس حزب عمالى تحت اسم حزب العمال الديمقراطى وقد لاقت المبادرة ترحيباً من قطاعات عمالية عديدة، بادرت إلى الانضمام إلى برنامجه وإعلان المبادىء الصادر عنه والذى جاء فى عشرين نقطة منه أن حزب العمال الديمقراطى يناضل حاليا من أجل حد أدنى للأجور والمعاش لا يقل عن ١٥٠٠ جنيه شهريا لكل العاملين بالقطاع الخاص والحكومى، وحد أعلى للدخل الشهرى فى الإدارات العليا الحكومية لا يزيد عن ٣٠ ألف جنيه شهريا، مع تثبيت جميع العمالة

المؤقتة وصرف إعانة بطالة للعاطلين من ذات الإعلان أن هذا الحزب يدعو إلى احترام العقيدة الدينية لكل المصريين وعدم التمييز بين المصريين على أساس الدين أو اللون أو الجنس ويسعى إلى بناء دولة مدنية تقوم على أساس المواطنة والمساواة التامة بين المواطنين المصريين وضد التمييز والطائفية.

بوجه عام هناك جهود جادة من أجل توحيد الحركة العمالية فى السياق الجديد الذى خلقته ثورة يناير الشعبية كان آخرها قيام اتحاد العمال المستقل بالدعوة إلى مؤتمر عمالى يوم ٢ مارس ٢٠١١ لمناقشة كيفية توحيد الحركة العمالية تحت راية مطلبية واحدة، وقد جاء المؤتمر تحت عنوان مطالب العمال من الثورة وقد حدد ثمانية مطالب رئيسية تتعلق بالأجر العادل والنقابات المستقلة، والحق فى عمل مستقر ودائم، والحق فى الرعاية الصحية للعمال، بالإضافة إلى المطلب الجوهرى الخاص باسترجاع شركات القطاع العام التى تم بيعها إلى مستثمرين أفراد لتخضع لملكية الدولة مرة أخرى.

عمال مصر كغيرهم من الطبقات الأخرى فى المجتمع، هبت عليهم رياح الثورة، وداعب نسائم الحرية صدورهم التى امتلأت بوجع الحياة لسنوات تحت حكم مبارك، اليوم يمتلكون فرصة لبناء نقاباتهم المستقلة وحزبهم السياسى والنهوض بمستوى معيشتهم نحو الأفضل، لا زلنا فى بداية الثورة التى أبطأت خطواتها قليلاً كى تلتقط أنفاسها، لكن المؤشرات تقول أن العمال ينتظرونها حتى تنهض برياحها العاتية مرة أخرى كى يركبون على بساطها آملين فى الحصول على نصيب من حياة حرة وكريمة ■

تنين يكتب قصيدة

أحمد اللباد

مقطع صغير -نسبياً- من وسط القاهرة شبه الكوزموبوليتانية لا تزيد مساحته عن بضعة آلاف من الأمتار المربعة شهد بلورة وترسيخ ثورة رومانسية لا تصدق.

ثورة وقودها الخيال والجسارة والعبث والعند والطفولة والبهجة.

ثورة تغير التاريخ وتكثف الرموز لدرجة الإبهار. وتطوى للأبد طرق التعبير السابقة أو الخارجة.

هناك فى شماله (ذلك المقطع/ الميدان) وعلى تخوم المتراس الأكبر فيه. جانب من كوبرى «٦ أكتوبر» بإسمه التاريخى وملابستهما (الكوبرى والحدث) الزمنيين، تحتله -عند تواجدهم- الفرق الأساسية للبلطجية و«المؤيدين» والخائفين من المستقبل. حرّاس الواقع مع قوات الشرطة السرية. ويفصلهم عن المتراس منطقة حرام «تونسية» دبابات وعربات الجيش المدرعة. ينتصب فى وسطها التمثال قبيح الصنع للعسكرى الأسطورى قائد الجيوش فى معركة الاستنزاف التى مهدت لحرب «٦ أكتوبر» وصاحب الاستشهاد البطولى الساذج فى الخطوط الأولى لجبهة النار مع إسرائيل، يقف فى أعلى منصته الرخامية متجاهلا بظهره محتلى الكوبرى ومواجهاً الميدان مشيراً بيد غير حاسمة نحو الثوار، وفى كفه الأخرى نظارة ميدان مُعظّمة يبدو أنه لن يحتاجها أبداً.

وعلى اليسار -إن كنت داخل الميدان- لذلك المدخل/المتراس يربض المبنى الجهم بلونه الرخيص المترب للمتحف المصرى، والذى يضم فى حيازة خانقة كنوزاً باهظة المعنى، تكاد إحالاتها تنفجر بتوفيقها الخارق للماضى والآتى: أقنعة وتماثيل ذهبية لآلهة ملوك وحكام تتكدس فى جوار نواويس حاذقة البلاغة والتشكيل. ومجسمات مهولة أو منمنمة تكوّن جيوشاً صغيرة من المحاربين والزرّاع والعمال يكاتفون حوائط تسمع من رسومها رفرفة، وخوار، وحفيف، وقرقرة، وغناء، وهمهمة مصلين لا يكفون عن النداء والعمل طوال آلاف السنين. تمائم وأدوات بناء وتطييب، وأقفال أبواب، وأسلحة،

وشباك صيد، وأكفان، ولفافات بردى، وألعاب، وسراتر، وخزانات، وكراسى، ومنحوتات ورسوم لأرباب، ولعائلاتهم، ولنساء لدنات فرعات، ولرجال مسئولين ولأطفال وسيمين، ولأسرى حروب، ولأقزام، ولتماسيح، ولقرود، ولأشجار، ولتلال من الثمار والأسماك والأضاحى، ولملايين من حروف المعرفة المنثورة على كل الموجودات.

متحف من طابقين يصطخب بأزمنة، وتجارب، وحكمة، واشراقات، وتحولات فادحة. لا يتوقف عن الوشاية بمحبة الحياة وتفاصيلها، وبطمأنة -للطيبين- فى بعد الموت. لا تقتصر الدلالات على الحضور الباذخ الثقيل لمواطنى المتحف. تأنى برهة وراقب..

هناك وعبر الشارع ستجد صفاً من الأبنية الغربية الطراز على امتداد الضلع الشرقى بالكامل، بداياتها تصنع مع المتحف المدخل الرئيس للميدان. بنايات تجسدت أوائلها فى مخيلة خديوية مبتورة العلاقة بالعمق الروحى «البلدى» لتمثل صدر الحضور المدينى الأفرنجى الممتد بينها وحتى ميدان «الأزبكية» شرقاً، لتحاصر مدينة راسخة قديمة كانت مدعاة للخجل بزخمتها الشرقية الحرّاقة - على ما يبدو- لتلك العقلية التى تمنت الالتحاق والقبول من الغرب، قرّحها الفساد بمنهجية طويلة النفس، ولطّعها بوكالات سياحة وبازارات مزورة، وبمكاتب وشقق مشبوهة، وبأكشاك سجائر ملفقة، وبإعلانات صرحية جثمت على أسطحها، منتظرة ظلام الليل لتهاجم بأضوائها الفجة عيون الغافلين. وطوال أيام «الثورة» ستلاحظ مستريباً اختفاء تلك الإعلانات وبقاء هياكلها فارغة

فى الأدوار الأرضية لها بث الترهل محلات متنوعة الغرابة تبيع الشنط الرخيصة، والتسالى، ولوازم الموبايل، وتقدم المشروبات بمزاج شعبى. أو تبيع الكشرى مختلطاً بالشاورمة، أو «تسرفس» الوجبات الجاهزة لرواد يشتهون طعم العوّلمة فى «كنتاكى» و«هارديز». تلك العوّلمة التى ظنت أنها نكلت بنجاح بـ «إيزافيتش» و«أسترا» و«على بابا»، ومحت نهائيا ذلك الألق الستينياتى وحلمه التحررى القصير.

لم تكن سهوة العوّلمة بأقل من سهوة الهندسة التى تحيّزت بصرامة فى بدايات القرن الماضى للتخطيط العمرانى الحديث، فسمحت لشوارع «شامبليون» و«قصر النيل» و«البستان» و«سليمان باشا/طلعت حرب» و«شارع التحرير» باختراق صف تلك العمارات، ولم تعلم بأنها ستصير الآن الروافد الأساسية لسيول الحالمين للعبور بعد أن تكون قد «ترشحت» بمصافى المتاريس الممتدة بعرض مصباتها على الميدان.

وفى الجنوب الغربى تقف الجامعة الأمريكية بسمت مبناها الاستشراقى، محافظة بمكر على حضورها الخفيض هناك، متوخيّة -كعادتها- استفزاز الوجدان القاهرى، وبالقرب منها المبنى الطودى لمجمع التحرير، الذى دوّخ المصريين وعنى عندهم السفر والإياب، والعمل والبطالة، والمباحث والشرطة، والرقابة والمنع والإجازة، والملكية وإخلاء الطرف، واستلام المهام أو تسليمها، والميلاد والموت، والجنسية. بينهما (الجامعة والمجمع) انبثقت بداية شارع «القصر العينى»

الجسيم، والذى تمترست عليه أجساد الثوار مع ما اتفق من المخلفات الحديدية والخشبية. ومن الضلع المقابل لمجمع التحرير ينزلق شارع قصير تكوّن بفعل وجود المسجد ودار المناسبات الأشهر فى الناحية الأخرى للشارع، سينقلك اسم صاحبه «عمر مكرم» رجوعاً للبحيرة الصاخبة لفترة نهاية الاحتلال الفرنسى، والمملوكى، والمحاولات البريطانية الأولى فيه، وبداية سيادة مصرية شعبية (إلى حين) نتيجة نضال مصرى ثورى - وباللعجب- شاركت فيه طوائف الشعب كله -بما فيهم «مكرم» وزملائه الأعيان- بلا قيادة محددة، وانتصروا. وأمامه وُضع تمثال للشيخ الجليل المذكور متدثرا عبائته ومواجهاً -هو أيضاً- الميدان رافعاً يده فى حكمة ما. هل تريد المزيد؟. هذا الشويرع يصب وهو متجه للنيل غرباً في ميدان صغير يقف فيه تمثال دقيق لقائد سمى الميدان باسمه. وهو «سيمون بوليفار» محرر أمريكا اللاتينية، ليرى من مكانه ذلك السفارتين البريطانية والأمريكية الحصينتين.

هذا الشارع سده الثوار فى الأساس بسيارة شرطة كبيرة محطمة اغتنموها فى الأيام الأولى، وحوّلوا مسطحات أضلعها الكحلية لمعارض فنية كاريكاتيرية متجددة، وظلوا يتناوبون بحماس التبول فيها، بعدما كتبوا على بابها الخلفى «دورة مياه الثورة».

يجاور المسجد مبنى خافت محتدق للخارجية المصرية تخلبك نوافذه التى كنت تشاهد عبرها ثريات أنيقة الإضاءة متوهجة فى دعة -غير مبررة- لظلال النهارات قبل الثورة. ويطل على امتداد «شارع التحرير» وهو فى طريقه ليصافح مسلماً نفسه لكوبرى «قصر النيل» بأسوده الشامخة.

أعبر الشارع مظاهراً «الخارجية» وتابع بداية الضلع الغربى للميدان، وستجد المبنى الجهم (الذى تملق الطراز الأندلسى) الخاص بالمقر الرئيسى «لجامعة الدول العربية» وما تثيره فى النفس من شجون وذكريات طازجة لهزائم مستمرة، والذى -كان من بخته- أن وقف فى جزء من مكان القشلاق الرئيسى لجيوش الاحتلال البريطانية قبل أن تمحوه ثورة ١٩٥٢. اطوه ببصرك سريعاً- متلاهياً عن الغصة فى حلقك- صاعداً للشمال لتجد مبنى فندق «النيل هيلتون» القديم والذى ظل آمناً محتمياً بلطف القاهريين الذين لم ينسوا له احتماله موقف الأتوبيسات العمومية الصاخبة الملوثة، والتى احتلت الساحة المقابلة لواجهته القديمة الفيروزية التى بقيت نظيفة سنوات طويلة.

هذا الفندق الذى ظل طعام وشراب مقاهى طابقه الأرضى الشهير وعداً لخيال أجيال المدينة الساهرين، وسترى نهايته ملامسة لأسياخ سور حديقة المتحف المصرى دون شارع صغير ينهصر بينهما لينفتح على النيل مقترباً من مبنى الحزب الوطنى المحترق الآن، والذى كان ملكاً للاتحاد الاشتراكى فى عزه القديم. يتحول هذا الفندق تحولاً دراماتيكياً منذ شهور لتنتقل ملكيته مستسلماً لشركة فنادق عالمية عاتية جديدة تقطع صلته بماضيه نهائياً. ومكان موقف الباصات القديم يسوّر -منذ فترة- بسواتر معدنية متعرجة (ستقتلع لاحقاً لتصبح من لوازم المتاريس) موقعاً للحفر ليدشن جراج مهولاً

لركن السيارات تحت الأرض.

وعلى امتداد الميدان تفرقت نخلات وشجرات قليلة، بعضها استثنائى الجمال والموقع، وتناثرت عليه كذلك مساحات هندسية فى كل الميدان تحوى نجيلة وزهوراً خفيفة. واحدة منها فقط تامة الاستدارة فى مكان «الكعكة الحجرية»، تلك المنصة الدرامية الفارغة التى باتت أيقونة لثورية بداية السبعينيات، والذى بشرنا الرئيس المؤمن – فى بداية عهده– بأنها ستحمل تمثالاً للزعيم السابق له جمال عبد الناصر ليخلد باستحقاق. هذا الذى لم يحدث أبداً.

وأزيلت هى نفسها بعد ذلك بسنوات فى عهد الرئيس المخلوع! بغير توقع بأنها بغيابها هذا قد وقرت أكثر فى القلوب.

وفى عمق الأسفلت دفنت تحتها محطة لمترو الأنفاق المار تحت الميدان ذات مخارج شتى. وأسُميت هذه المحطة: «أنور السادات».

اكتمل الآن مسرح الساحة؛ فارفع بصرك –لتستريح من سطوته قليلاً– وخذ نفساً عميقاً وتمتع بجائزة رؤية أعذب وأنصع زرقة سماء ستشاهدها فى عمرك تُسقّف الميدان المسحور فى تلك الأيام الندية.

انضم إلى إخوانك، إلى الملايين التى كست الأرضية، والتى تهدر وقد تشبثت بالثقة والإصرار والأمل والرفض، بدون أى قيادة إلا إلهامها «الشخصى»؛ فاحترمت الجموع الفرد، وانتظرت ابتكاره واحتماله ومشاركته. يشمل الجميع نوعاً من الارتياح والثقة بالنفس بطعم لم يعرفوه من قبل.

وانطلقت شياطين الفكاهة والتخيل مستفزة قدرات الشجاعة والإيثار والتى لامست فى أقصاها أحياناً العدم. والذى ستراه هناك فى جانبه المشرق وهو يخلصك من خوفك وتوازناتك الحريصة، وترائب أولوياتك، وتجليك الجلوة الكبيرة، جلوة تامة لروحك توقن بأنها سترافقك طوال حياتك. تكشف لك جوانب كانت مجهولة فى نفسك ورؤيتك للعالم. سترى حبك وإيمانك، أوكرهك وتحيّزك، فى صفاء الاكتمال بلا شعرة شك. وقدرتك على الاستشهاد من أجل فكرة خيّرة، وفداء من حولك، لأنك تراهم وهم –ببساطة– يتداولون نفس المشاعر.

وتمتلئ بأخوتهم وتفخر بنقابهم، ولحاهم، وسفورهم، وتطيرهم، والحادهم، وفقرهم، ويسرهم، وأخطاء شعاراتهم اللغوية، ودقة وطرافة هتافاتهم.

تسوّل لك نفسك الذهاب أحياناً لتزور بيتك، لتغتسل أو ترتاح قليلاً، أو لتستبدل ملابسك. وإذا أمنت لطرف من النوم المشتهى. تأكد أنك ستنفر بعد دقائق، يأكلك التوتر ويزنّ فى صدرك القلق، وبجدية محرقة تسأل روحك: كيف طاوعك قلبك على ترك هذه الملايين «وحدها»؟.. وماذا تراها ستفعل الآن بدونك؟

وتلهث وأنت فى طريقك ملتاعاً لتأخذ مكانك فى الميدان، مجاهداً فى إخفاء علامات الندم والأسف عن المختصين بالتفتيش، أو مراجعى الهويّات على المتراس.

فى كل مرة يبهرك ذلك الحشد المهول فى الساحة، وكأنك تراه لأول مرة. وإذا حظيت بفرصة اعتلاء مشرف مطل عليه (أعتقد أن سطوح «بيير سيوفى» سيكون الأمثل فى

ذلك) –وخصوصاً فى الأيام المليونية– ستستوعب مشهداً متكاملاً لجسد تنين خرافى مهول، تراه وهو ينكمش ويتمدد فى الحيز الضيق عليه، يحاول فى أحيان نفض رأسه المحشورة بين «كتاكى» وقوس «المجمع»، أو يلم ذيله –أحياناً أخرى– عند المتراس الشمالى إذا لسعته قنابل المولوتوف والرصاصات الحية والمطاطية. ويبسط أذرعه بحساب –كلما أمكن ذلك– بطول الشوارع المفضية لوسط المدينة. أو هو يتموج زاحفاً حول نفسه ليفرّج عن نوبة من نوبات غضبه، أو ليدرب عضلاته المشدودة، أو حتى بفعل النزق أو طرداً للملل فقط.

عندما تنزل وتمعن عن قرب فى تفاصيله، وتمشى وسط الجموع تطمئن على اليفط المطبوعة، أو على مخطوطات الجرافيتى التى لفحت الجدران والأعمدة، وعلى صور الشهداء والرسوم التعبيرية الزاعقة، أو الساخرة، وتسمع الجنير وتتأمل الرايات المجدفة فى الهواء، وترى ملايين القبضات الملوحة، والعروض الجمعية الارتجالية المتحررة، وفى سورة هتافك وهياج تصفيقك تستبين لك الحقيقة كاشفة، تامة بكل ثقلها.

انضغطت لحظات الزمن بتفاصيل المكان؛ فكانت أيام «قيامة» فعلاً.

وتقاطعوا أمامك هناك مندمجين بالجموع: فراعين بأجساد لوحتها الشمس فى ملابسهم مجدولة الألوان، ومماليك على خيول استعراضية، وحواة، ورعاة إبل، ورجال وقورين بطرابيش قانية، وزعماء، وعساكر كاكية مموهة، ونساء أرستقراط فارهات يرفعن كؤوساً فى نخب الثوار، وصبية مقاهى، وسيّاح، ومهاويس، وتلامذة، وبوهيجية، وأزواج عديدة من المحبين، وصيّع، ورواد فضاء، ومغنين، وشيوخ حاسرين ومعممين، وأطباء شباب فى أردية بيضاء، وشهداء، وأهاليهم الشهداء، وفلاحين فى جلاليب الواجب، وكهول بزوجات يخبن فى إسدالهن، لاهثات من جر أطفالهم العنيدين.

كان الكل هناك..

وكانت ثورة لابد منها.. بالضبط هنا.. وتماماً الآن.

يتلاشى الصوت تدريجياً.. ويتبدى التنين، وهو يغمز لك بمكر معابثاً، وتتأكد أنه لن يغادر إلا مبتسماً راضياً، بعد أن يكون قد دوّن قصيدته كاملة ■

ثورة بارتي

أسامة الحداد

تحتفل الشعوب بالثورات بعد نجاحها، ويغنى الناس لحريتهم ويتبادلون النكات بعد الوصول إلى هدفهم، المصريون غيروا كل هذه المفاهيم فكما حطموا كل التحليلات السياسية والاجتماعية وأسقطوا كل النظريات بصيحة واحدة «الشعب يريد إسقاط النظام» كانوا يغنون فى ميدان التحرير ويلعبون الكرة ويتظاهرون..يعلنون احتجاجهم فى الفجر وهم يمارسون تمارين الصباح، كانت الفرحة مع صوت شادية يا حبيبتى يا مصر بتحطيم الخوف، وطرد الأشباح التى سكنت أجسادنا جميعاً من عجز عن الفعل،متوارثة من السلطة... كانت الثورة تتقدم، والنظام برئيسه المخلوع يتراجع كل لحظة، ويؤكد فقدانه للشرعية التى اكتسبها بمرتزقة الشرطة، ونباح إعلام زائف، ومضلل يحكى عن إنجازات لا وجود لها.

كان ميدان التحرير أشبه بمولد أحد الأولياء فقد فرض المصريون شخصيتهم على الثورة، فباعة الكشرى والسجائر متواجدون، وصبية يصنعون الشاى فى أكواب بلاستيكية، وأطفال يتظاهرون وسط الجموع الغفيرة، والبالونات فى أيدى بعضهم، وهم يرددون شعارات واضحة المعالم ضد الحكم المركزى، وفساد السلطة، ولن يوجد شعب فى العالم يخرج بكل هذه الأعداد المليونية، ويضحك وسط حياة شديدة القسوة: فالطعام قليل، وبلطجية النظام يحاولون كل لحظة إفساد الثورة، والدبابات تنتشر حول الساحة الكبيرة، ودورات المياة نادرة، والغالبية تنام على الأرصفة، أو تحت خيم صغيرة بلا غطاء، كانت أسر كاملة تنام وسط الصقيع، والبعض كان يلجأ إلى التدفئة بإشعال قطع صغيرة من الخشب يستدفئ بها مع آخرين يتعرف عليهم فى الدائرة المحيطة بالنار، ووسط كل هذا شباب وفتيات يكنسون الميدان، وشاب ملتح يدفع عربة قمامة لجمع المخلفات، وهو ينادى تبرع لمبارك، أليس من العجيب أن تكون كل هذه الفكاهات والتعبيرات الساخرة وسط الحصار الأمنى، وشائعات الإعلام طوال أسبوعين،و ضربات

النظام.

المستميتة إجهاض الثورة، وصور الشهداء المخلقة فى فضاء الميدان تتزايد لتمنحنا الأمل فى التخلص من نظام مركزى فاسد يهين المواطن كل لحظة، والثورة كانت تتقدم، والسلطة تتراجع.

سبعة عشر يوماً كانت كفيلة بالتخلص من رأس النظام الذى تصور أبوته للمصريين رغماً عنهم فكانت البداية التى فوجئت بها يوم الثلاثاء ٢٥ يناير. الساعة قد جاوزت الثانية ظهراً بدقائق قليلة، وأنا أخرج من محطة المترو فى الإسعاف، وظنى أن المتظاهرين لن يتجمعوا قبل ساعة لتشق أذنى الهتافات المدوية من أكثر من عشرة آلاف مصرى يهتفون، وأرى حشوداً من جنود الأمن المركزى بزيهم الأسود يحاصرون مجموعة على سلم دار القضاء العالى، ومئات الجنود يحاصرون باقى المتظاهرين فى بداية شارع فؤاد تاركين لمن يريد التظاهر فرصة وحيدة بالقفز من فوق جزء من الحواجز الحديدية لا يتجاوز النصف متر، ووجدتنى أقفز إليهم، وأهتف معهم من أجل التغيير، والحرية، والعدالة الاجتماعية، ومع الوقت، وعبر هذا المدخل الضيق تضاعف العدد، كان شباب من شبرا، وبولاق أبو العلا، وكهول من المهنيين ينضمون من كل الأطياف السياسية، والفكرية، وأغلبهم من المستقلين، وقد انتشر ضباط الشرطة برتب مختلفة، ومن بينهم عقيد لا يمكننى نسيان وجهه إذ أمر أثناء الصلاة بتضييق المساحات، وتحرك كردونات الجنود بشكل منظم حولنا لتصبح الحركة عسيرة، ويصطدم المصلون فى ركوعهم، وسجودهم بالواقفين حولهم، ونشعر جميعا بالاختناق، وأيضاً الحبة لبعضنا البعض، وتكاتفنا من أجل الحرية، وهو الإحساس الذى افتقدناه بفعل نظام يحاول تفتيت الشعب، وإرهاقه فى صراعات صغيرة، وأنواع عجيبة من الفساد تتعثر فى كل زاوية وتتوحش فى كل خطوة ليصبح الجميع فاسدين، وفى اللحظة التى تصورت أننى سأموت مختنقا كان المئات يهتفون بميدان الإسعاف بشارع رمسيس، ونجحت أنا، ومن معى فى الانضمام إليهم، وهنا بدا عنف جديد يتحرك المصفحات، واستخدام عصى خشبية من مئات الجنود، وبادلهم بعض الشباب القذف بالحجارة فهربوا لتتقدم المصفحات، كانت بداية معركة غير متكافئة اضطررنا معها للهروب إلى الشوارع الجانبية، وتم القبض على عدد كبير من المتظاهرين، وعجزنا عن هدفنا بالذهاب فى مسيرة للانضمام لأخواننا فى ميدان التحرير، ولكن الخوف كان قد تلاشى، واقترب الأمل فى الحرية من قلوبنا وبدأت الشروخ تتسلل إلى الصنم الحجرى، وأيقنت أن الثورة لن تنتهى، وأن الرئيس المخلوع قد فقد شرعيته.

ومن مقهى البستان حيث كنت أجلس يوم الأربعاء وأنتظر الخامسة للتحرك بعد خسارتى فى لعبة النرد، والتى عوضها مشاركتى فى لعبة الكر والفر، مع كلاب السلطة الفاشستية، والذين حاصروا المئات فى شارع شريف، وكنت، وبعض أصدقائى من بينهم، وتعدوا بالضرب على الجميع حتى الفتيات بعنف وقسوة لا مثيل لها من قوات خاصة تتميز بقوتها البدنية المفرطة وغبائها، وبرغم

ذلك استمر الهتاف بسقوط النظام، كنا ندخل الشوارع الجانبية بوسط القاهرة، وبعضنا يرتاح على المقاهى قليلاً لنبدأ من مكان مختلف بلا اتفاق بيننا.

لتبدأ المظاهرة أو بالأصح المسيرة من شارع مختلف، وهم يبحثون عنا فى لعبة نجحنا فى إرهاقهم بها، وعدت إلى البيت بعد منتصف الليل، وأنا متعب من ضربة ضابط على كتفى وساقى تؤلمنى من المجهود الذى لم أعتده، لأستريح استعداداً ليوم الغضب الذى كان معركة انتهت بهزيمة المرتزقة من جنود الشرطة، وكانت الآف تتحرك من كل أنحاء القاهرة برغم قنابل الدخان، والقنابل المسيلة للدموع التى انهمرت على رؤسنا عبر ما يزيد عن أربع ساعات، وطلقات الخرطوش والرصاص المطاطى وخراطيش الخرز التى رأيت المصابين بها وقد فقدوا أعينهم.....

كانت دفعات متتالية من قنابل الدخان تتوالى، والخل، والبصل، والكوكاكولا وسائل إنقاذ سريعة برغم حالات الاختناق، وكان هناك صبى لا يزيد عمره عن الثانية عشر مختنقا، وحملته لأحد المحال بباب اللوق، وأفاق بعد قليل ليشارك فى الثورة، كان وجهه مبشرا بالأمل، وهو يصر على البقاء وكنت قد اعتدت على قنابل الدخان ولم يعد ذلك التأثير البشع يعاودنى، وكان الكثيرون مثلى نتبادل النكات حول إدمان غازات الشرطة، وهى الابتسامات التى اختفت فى شارع صبرى أبو علم، وعند زهرة البستان، وميدان طلعت حرب كانت المعركة شديدة الشراسة، والإصابات عديدة، ولكننا انتصرنا، وأجبرنا الشرطة على الهروب بعد أن خلع ضباطها بسطوتهم ملابسهم العسكرية خوفا ممن اضطهدوهم طويلا لصالح سيدهم.....

كان المرتزقة يخفضون أعينهم، وهم يهربون من الشعب الذى فرضوا عليه الإتاوات، ومارسوا ضده كل أشكال القمع، وكانت الثورة تتطور، ومبنى الحزب الوطنى على كورنيش النيل تتصاعد منه ألسنة اللهب، وأرى شعباً جديداً تخلص من كل ما زرعه النظام داخله، لم نر التحرش الجنسى ولا نشل أحد ولم تحطم سيارة بخلاف سيارات الشرطة.. سيارات الجلادين أعداء الشعب، ولم يقترب أحد من متجر واحترم الجميع دور العبادة، فى سيمفونية للحرية غنينا للشهداء فيها فرحاً وابتهاجاً بعرسهم السماوى.. سلاماً على شباب ٢٥ يناير وشهداء ثورة اللوتس وستكتمل المسيرة إلى أن تسقط كل المسوخ التى عذبتنا لنكتشف أخيرا أنها كانت وهماً صنعته أبواق إعلامهم المضللة، سلاماً على كل الشرفاء لتواصل احتفالنا ب ثورة بارتى نواصل الكفاح بلا فواصل ■

مشاهد من ذاكرة غير مرتبة

باسم عبد الحليم

تبدو صورة الثورة أمامى بانورامية للغاية، متسعة وشاسعة وجامعة لتناقضات كثيرة شأنها فى ذلك شأن كل الصور الكبيرة - تناقضات بعضها يثير القلق وبعضها مدهش وبعضها يبعث على الفخر -، وتبدو تفاصيل تلك الصورة دائما بعيدة، عصية على الإدراك الشامل.

إذا سألتنى عن أول أيام انضمامى لمظاهرة الميدان فلن أجد إجابة محددة، هل كانت قبل ٢٨ يناير أم بعده؟، سأتذكر أننى كنت فى الميدان حينما قذفت قوات الأمن المركزى القنابل المسيلة للدموع واستنشقت بعض الدخان، سأتذكر أيضا متابعتى للأحداث بعدها فى أماكن متفرقة ليس أولها المقاهى وليس آخرها مقر عملى، سأتذكر أيضا مبيتى فى العمل فى أول ليالى حظر التجول، سأتذكر انضمامى بعدها بشكل دائم لمظاهرة التحرير وبقائى لعدة أيام متصلة تجاوز الخمس ليالى مبيت فى منطقة وسط البلد، وفى عدة أماكن: مقر حزب التجمع، أتيليه القاهرة، مقر الناصرى، قهوة أفتر إيت، وسأصدقك فى عدة ليالى قضيتها فى سريرى الدافئ، لن أدعى أننى كنت مشاركا فى الثورة منذ بدايتها وحتى النهاية كما سيفعل كثيرون، سأكون شجاعا وأعترف بهذا.

هل سأكون شجاعا أيضا وأعترف بتضارب مشاعرى تجاه الثورة ؟

وهل سأكون متناقضا إذا اعترفت أيضا بسعادتى بما يحدث، سعادتى التى كان دائماً ما يشوبها خوف وقلق ؟

مشهد ١

لا هم بالكثرة التى تثير الذعر، ولا هم بالقلة التى تبعث على الطمأنينة

جلسوا فى دائرة شبه مكتملة حول مطربهم يغنون، الجلسة التى كانت استراحة قصيرة على المقهى من مظاهرة الميدان كانت واعدة بشكل ما، مع وجود المطرب والعواد انساب الغناء صافيا رقراقا، تعالى كرنفال الأصوات حتى طغى على همس المناقشات الجانبية، ومع تتالى الأغنيات الوطنية ذابت الأصوات الفردية فى غناء جماعى محتشد

بعد عدة أغنيات كان الهدوء مقدرا، جلس المطرب ليستريح قليلا وعاد النقاش مرة أخرى، هنا بدأ شعور القلق ينمو بداخلى.
مع احتساء أكواب الشاى وفناجين القهوة ظهرت آراء وآراء أخرى، كلام عما حدث وكلام عما سيحدث، اتهامات هنا وهناك لأشخاص هنا وهناك، أسماء لشخصيات عامة وخاصة تقال باعتبارهم من أعداء الثورة والمخبطين، حتى وصل الحديث لنهاية متوقعة: قائمة سوداء.
هنا اعترضت على ما يقال، وغادرت الجلسة فى هدوء.
لماذا اعترضت ؟.

مشهد ٢

فى مفارقة مثيرة للتأمل بعد الخطاب الأخير للرئيس: تبينت أن الرجل الذى لا أطيقه وأتمنى أن يرحل، هو ذاته الرجل الذى أترقب كلماته بنفاد صبر.
ما علينا
الخطاب كان محبطا، استمعت إليه فى مقر التجمع وسط ضوضاء زحام شديد فشلنا فى إسكاته فأدرت الراديو الذى معى ووضعت أذنى على سماعته، الرجل ظل يتحدث ويتحدث عن تاريخه دون إفادة واحدة، اللهم إلا قراره بتكليف نائبه بأعمال رئيس الجمهورية.
كان المهم بالنسبة لنا هو: هل سترحل ؟.
لم يجب.
بمجرد انتهاء الخطاب بدأت ردود الفعل، الكل غاضب والكل مشحون، والكل يريد الخروج للميدان.
ووسط كل هذا، ولأول مرة منذ بدء الأحداث، خرجت منى سبة كبيرة جدا فى حق الرجل العجوز، سبة لو أحاطت به لأخفته عن العيون.
كنت أشارك فى التظاهر والهتاف، لكنى لم أكن أسب الرجل.
نزلت من المقر برفقة أصدقائى متجهين إلى الميدان، تم تفتيشنا والكشف عن هوياتنا الشخصية عدة مرات حتى استطعنا الوصول، اعتدت هذا التفتيش حتى الفته، لم يكن ثمة تغير كبير فى حالة الميدان، الهتافات ذاتها والغضب ذاته، اللهم إلا مزيدا من الحماسة ومزيدا من الرغبة فى رحيله هو:
ماذا كان يدور فى رأس الرجل العجوز؟
لقد حارب فى حروب عدة، عسكرية وغير عسكرية، حلق بطائرته وعلم كثيرين التحليق بطائراتهم، صار نائبا لرئيس جمهورية وحكم كرئيس جمهورية، رأى وسمع وتذوق أشياء عدة، صرح وخطب وقابل، ماذا كان يدور فى رأس الرجل؟
الميدان على اتساعه كان ضيقا للغاية، وعلى ازدحامه كان خاليا، غامت التفاصيل أمام عينى، كنت مدركا - بعقلى- أنه قد انتهى، لكن انفعالى كان أكبر من أى إدراك مرة أخرى: هو
شغلنى مبارك كثيرا منذ بداية الثورة، كنت أدرك عناده الشديد وإصراره على عدم الرحيل إلا بطريقته، لكن ماذا عليه من كل هذا ؟،
فعلاً: ماذا كان يدور فى رأس الرجل؟.

مشهد ٣

كشرى الثورة، شاى التنحى، باعة الأعلام والحلويات، والهتافات: الهتافات المدوية الصاخبة بالسقوط، سقوط النظام تارة والرئيس تارة أخرى، والمناقشات، والدموع، الدموع الغزيرة.
الألوان الثلاث الأساسية للعلم المصرى تسيطر على الميدان، الأحمر والأسود وبينهما بياض، بياض ناصع.
بالقرب من مدخل الميدان نصبت شاشة كبيرة تعرض خطاب نائب الرئيس، يتحدث إلى الشعب المصرى عقب تكليفه بالمهام، وقفت أشاهد دون حماس، فى عدة أماكن بالميدان نُصبت شاشات مماثلة، ازدحم عليها آخرون يشاهدون ويهتفون.
مشاهدة جماعية، وهتاف جماعى.
هل حدثتك عن القراءة الجماعية للصحف ؟ وشحن الموبايلات الجماعى ؟.
شاهدت شحن الموبايلات الجماعى لأول مرة داخل حزب التجمع، عدة موبايلات تنتظر دورها فى الشحن على شاحن واحد لا نعرف تحديدا صاحبه، داخل الميدان أيضا كان هناك مركز لشحن الموبايلات، بالقرب من مطعم هارديز، عدة مشتركات كهربائية موصل بها عدد ضخم من الشواحن تنتظر من يستخدمها.
و الطعام الجماعى.
بسهولة يمكنك الحصول على سندوتش جبنة من أى مكان تدخله، خلال أيام الثورة التهمت عدة ساندويتشات فى عدة أماكن: اثنان فى دار ميريت، وواحد فى التجمع وواحد فى الأتيليه.
لأ يا سيدى، ما لحقتش الكنتاكى.
كانت فكرة مضحكة جدا بالنسبة لى، بالنسبة لشخص لم يأكل منذ أيام سوى سندوتشات الجبن والفول والطعمية وعلب الكشرى، وإذا وجدت الفلوس فلا بأس من سندوتش كفته بـ٥ جنيه من عند أبو خالد، كانت تبدو فكرة توزيع وجبات الكنتاكى على المتظاهرين فكرة مضحكة، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن جميع مطاعم الوجبات السريعة المطلة على الميدان كانت مغلقة أو يتم استعمالها استعمالات أخرى، فمن أين يأتينا الكنتاكى إذا ؟.
سقياً لعهد المسبك والمطبوخ.

مشهد ٤

ما جذبنى إليه بالتأكيد ليس شعره المجعد الطويل فى كومة حول رأسه على الطراز السبعينى، وليس نحوله الشديد أو كوفيته الملتفة حول عنقه، بل تلك النظرة المتأججة فى عينيه.
فى حلقة التففنا حول نار أشعلناها كيفما اتفق بالقرب من مجمع التحرير، كان يرغب فى الحديث مع المجموعة، كنا مجموعة من الأصدقاء وهو أيضا كان أحدنا، حدث هذا تحديدا فى ليلة أول مظاهرة مليونية فى ميدان التحرير، تلك الليلة التى ختمها الخطاب الأول لمبارك، ذلك الذى أعلن فيه عدم ترشحه للفترة الرئاسية القادمة.
بدأ يتحدث، طريقته الجادة فى الكلام جذبت انتباهنا وأجبرتنا على الإنصات، كان ما اقترحه هو أن نتوجه فى اليوم التالى بمظاهرتين حاشدتين إلى مبنى ماسبيرو

والقصر الجمهورى، وقال أن العمال القادمين من مدينتى المحلة والسويس هم من خطط للقيام بالمظاهرتين وعلينا أن ننضم لهم، وأن هناك آخرين غيره يعرضون الفكرة ذاتها على مجموعات أخرى.

لم تلق الفكرة قبولاً منا، اعتبرها أغلبنا تصعيدا غبيا وغير مجد، لكن ما لفت انتباهى هو مدى سيطرة تلك الفكرة على عقله، وحزنه العميق لما لاقته الفكرة من رفض.

جلس صامتا وغابت عيناه فى ألسنة اللهب، وبدت على وجهه ملامح إحباط ناصعة.

يمكنك بسهولة أن ترى اليأس وقد بدأ يتسلل إلى رأسه، ستراه وهو يحيط بعظام جمجمته ويدخل من أنفاق أنفه وأذنيه،بقاءه الذى استمر لأيام طويلة وصل به إلى حافة لا يمكنه الرجوع عنها ولا يمكنه القفز من فوقها.

عند هذه النقطة توقفت قليلا لأتأمل حال الواقفين فى الميدان.

ورأيت الأمر على النحو التالى:

كلما طالت مدة بقاء هؤلاء فى الشارع كلما علا سقف مطالبهم، وثمة مسافة زمنية تفصل بين حالة الشارع ورد فعل النظام قدرتها تقريبيا بخمسة أيام.

ما كان يمكن أن نقبله من مبارك قبل خمسة أيام: لا يمكننا قبوله الآن.

مما كان يشى بكارثة.

بالطبع مخطط المظاهرتين لم يتم، جاء خطاب مبارك ليقلب الوضع رأسا على عقب.

ما قاله الرجل العجوز، وبرغم استعدادى شخصيا لتقبله كوسيلة لانتقال السلطة سلميا، لم يكن مقنعا للمحتجين، باتوا مقتنعين أن النظام يصر على المراوغة، وأن ما يسعى إليه هو مهلة لإعادة توفيق وضعه، والقائنا جميعا فى المعتقلات.

والقائنا فى المعتقلات، أى فكرة هذه ؟ من يمكنه أن يلقى كل هؤلاء فى المعتقلات ؟.

معظم ردود الفعل حول الخطاب جاءت سلبية، فمن فقدان الثقة فى تنفيذ الوعود إلى اعتبارها مؤامرة لقمع الثورة، إلى التساؤل عن الضمانات، حتى عندما كان يطرح وجود الجيش كضامن كان هذا الطرح لا يلقى قبولا من الناس.

بعدها كان خطاب أوباما.

كان لظهور أوباما وبيانه الذى طالب فيه بضرورة انتقال السلطة فى مصر (الآن) ردود فعل متباينة بين صفوف المتظاهرين المعارضين: – هلل البعض تفاؤلا بالبيان باعتباره أداة ضغط على مبارك وأكدوا على كلمة (الآن)، وعلى النقيض رفض البعض الآخر تدخل أمريكا وظهورها كمساند وداعم للثورة المصرية مؤكدين أنها خطوة فى تنفيذ أجندة خاصة بالولايات المتحدة فى المنطقة، وأصروا على رفضهم للتدخل الأمريكى، وعلى أن الثورة مصرية خالصة، نابعة من شباب مصر، ويجب أن تظل كذلك.

ابتسامة واسعة: لطيف.

مشهد ٥

هتافٌ هادر وأنت تذوب داخله، لا تستقر

فى مكان، تدور فى الميدان كأنك عصفور يقف على كل شجرة ليغرد مع باقى العصافير قليلا، تهتف هنا وتغنى هناك، تناقش هنا وتلقى نكتة هناك، وتردد بلادى بلادى مع جمع من الشباب فتشعر بكيانك كله يتحد معهم

فى لحظة تجد نفسك أمام نصب تذكارى صغير التفت حوله صورا للشهداء وأرواحهم شموع مشتعلة، تقف دون حراك ناظرا إلى وجوههم، تتأمل فى أسباب الحياة والموت فتدوخ وتسأل فلا تحر جوابا، فتستسلم لحزن أسود يلف وجودك، وتكتم دمعا يشتعل فى عينيك.

مشهد ٦

الحجارة تلقى فوق رأسك وأنت تعبر الشارع، شارع قصر النيل، الحجارة تصيب أناسا وتسيل دماءهم.

لا عقل فيما يحدث.

أنت تسير وسط كل هذا، تشاهد بعينيك هاتين دماءً وتدميراً، تشاهد البنزين يفرغ من خزانات السيارات الواقفة فى الشارع وقد تحول لقنابل مولوتوف بأعداد ضخمة فيصيبك القلق.

قرميد الرصيف المحطم سيعيقك فى المشى، نزعه المشتبكون لاستعماله فى المعركة، أكشاك صغيرة محطمة، الاشتباك يتراوح بين تصاعد عنيف مسيطر ولحظات هدوء قليلة، تهدأ المجموعتان لاستعادة طاقتها وتعويض ما خسرته، ثم تعاود الاشتباك من جديد.

أنباء عن حريق فى المتحف المصرى، أنباء عن سقوط ضحايا، والعدد يزداد، وأنباء عن اعتقالات.

أنباء أنباء أنباء

و أنت لا تعرف شيئاً ولا تثق فى شئ.

أحيانا كان يتصاعد هتاف إيد واحدة فتهدأ الأمور للحظات ويشارك الجميع فى الهتاف لمصر، وسرعان ما يعود الوضع لما كان.

يستمر كل هذا لعدة ساعات، ويزداد الوضع عبثية حتى يصل لمرحلة الاشتباك العشوائى، مجموعات تشتبك دون تميز.

أى جنون هذا ؟.

مشهد ٧

وقف السيد النائب مرتديا بدلته الكحلية ليلقى خطابه، لم يكن الخطاب طويلا لأنه لم يعد هناك ثمة كثير مما يمكن أن يقال، فى نبرة أسى هادئة أعلن عمر سليمان تخلى مبارك عن كافة سلطاته وتنحيه عن منصبه، وفى لحظة: تنهيدة عميقة طويلة، ثم انفجرت الهتافات بالفرحة، خرج الناس من كل مكان ليغنوا ويرقصوا، بدت شوارع وسط البلد والميادين الكبيرة بوجه جديد، وجه مشرق بالراحة أزالت عنه الفرحة غبار أيام عدة من الحزن والقلق، ستكون البداية من هنا، من هذه الوجوه المشرقة تحديدا.

مشهد ٨

من بين أشياء وأشياء رأيتها وعايشتها، لحظات مخيفة ولحظات أخرى دافئة، وبالرغم من أى شئ قد يكون أسعدنى أو أحبطنى أو أقلقنى، يبقى قلب ميدان التحرير دائما هو الأكثر جمالاً وألقاً، يبقى الأكثر

روعة.

ما شاهدته فى ميدان التحرير خلال تلك الأيام الصعبة لن أنساه فى حياتى، هناك كثير مما يمكن أن أتذكره، كثير جدا حتى أننى لأضل داخله، كثير لابد أنك رأيته مثلى وعايشته مثلى إذا تواجدت هناك فى أى من أيام الثورة.

لابد أنك - مثلى- قابلت أصدقاء قدامى لم ترهم من زمن، ولابد أنك صادفت من يسألك عطشان؟ ويمنحك زجاجة ماء لتشرب، لابد أنك قابلت غرباء اقتسموا معك خبزهم القليل، لابد أن هناك أيد لا تعرفها ربتت على كتفك مشجعة ومؤازرة، لابد أن كثيرين رأوا بطاقتك وفتشوك مع ابتسامة واسعة تغمر وجوههم وأدب جم يسم طريقتهم، كانوا يطلبون بطاقتك وهم يعتذرون قائلين معلش، الظروف، فى قلب ميدان التحرير - أكثر الأماكن أمانا فى العالم - لن تشعر أبدا بالغربة.

ختام

أصدقائى الأعزاء، بالرغم من كل خلافاتنا، صدقونى، كنتُ معكم دائما على قدم صف واحد، سأعى بالتأكيد اختلافنا وخلافنا، لكننى لن أحذفكم من داخلى بسهولة.

الآن، وبعد أن انتهى كل شئ أو لعله بدأ - سنعرف كلنا أننا كنا دائما فى خندق واحد، وسنعى أن ما يتعين علينا فعله فى مرحلة كهذه هو أن نتكلم، كلنا، بلا توقف ولا مواربة، نتكلم كثيرا، نتكلم حتى الثمالة كلٌ منا فى مكانه عليه شئ ليفعله، شئ ليقوله أو يكتبه أو يبنيه، عليه أن يحيا سعيدا ويعمل سعيدا، عليه أن يبتهج.

سأقول فى يوم من الأيام لابنى أننى كنتُ هناك، فى يوم القيامة، وأننى رأيت وسمعت، وأننى انفعلت وبكيت، وأننى كنتُ حراً كطائر.

نعم، سأغرق مرة أخرى فى تفاصيل حياتى اليومية، ربما أتزوج أيضا وربما أنجب، سأعمل وأكتب وأصادق، وسأنشغل عما كان بما سيكون، وان كنت أشك أننى سأنسى أيامنا تلك، سأتذكرها بحنين كلما عبرت من ميدان التحرير ■

إبداع شعب

جميل شفيق

حالة من الدهشة والترقب والانبهار والحيرة والخوف والفرح والقلق والحزن، مازالت كل هذه الانفعالات تنتابنى منذ بداية الثورة فى ٢٥ يناير حتى الآن.

واليوم أحاول أن ألملم هذا المشهد الأسطورى والملحمى الذى عايشته فى ميدان التحرير حتى اليوم.

لنبدأ بواقع الحال الذى كنا نعيشه قبل ٢٥ يناير ٢٠١١:

مجتمع ممزق.. فتن طائفية.. فساد.. أمراض.. أوبئة.. اكتئاب.. تشاؤم متعايشة مع الفساد والقهر والظلم والفساد، ليس فى السلطة فقط بل فى كل خلايا المجتمع، فتنة بين الفرد وذاته، فساد فى الصحافة، فى الثقافة بكثير من نخبها وفى الفنون الأخرى، وعجز النخب السياسية والفكرية فى وضع بوصلة للمجتمع.

انقسمت مصر إلى نصفين:

عصابة استطاعت أن تؤمم أقدم دولة فى التاريخ لصالح فئة قليلة لها مصالح مشتركة فى نهب البلاد، تتمحور حولها عصابة الحزب الوطنى بإعلامه ومثقفيه وأحزاب المعارضة التى تكمل الديكور لديمقراطية النظام، أحزاب ورقية ومعارضة إعلامية تشبه «الندابه» كلام معارض لا يجيب ولا يودى وكل هذه القلة تنعم بسفاهة وشره استهلاكى فاجر..

من جانب آخر هناك أغلبية الشعب المصرى بكل فئاته مهمشة ومحروقة من هذه الثروة، وهي فقط تراقب مكتئبة ومغلوبا علي أمره بقهر النظام البوليسى الذى يحكم مصر، وأصبح المشهد محبطا، وشعب عاجز على التغيير يزداد فقراً وجهلاً ومرضاً يوم بعد يوم.

فجأة انفجرت الشرارة ـ وصحونا من هذا الكابوس الرهيب على مشهد عجيب لم يتوقعه أحد. ابتداء بمظاهرات الشباب يوم ٢٥ يناير، شباب يرفع شعارات جميلة: أولاً سلمية، مظاهرات سلمية تطالب بالإصلاح فى البداية تعاملت معها قوات الأمن بتحفظ حتى بدأت تستقطب الكثير من أبناء الشعب، وكان المشهد المرعب حينما ظهرت

أنياب قوات الأمن وبدأ قتل الشهداء الذى أشعل الثورة الحقيقية، وتعمقت غضبة الشعب المصرى كله وبدأت الملايين تخرج وتنضم للثورة، وارتفع سقف المطالب وتوحد الشعب كله على مطلب واحد وهو إسقاط النظام، وسقط رأس النظام ثم توالت الأحداث.

لا أدعى أننى من شباب الثورة ولكنى من الملايين الذين اجتذبهم وهج الشباب الذين توحدوا معهم وكنت مشاركاً بالمراقبة والتأمل فى مقر الصديق بيبر سيوفى فى الدور التاسع المطل على ميدان التحرير وقد تعمدت المبيت عنده بعض الليالى لكى أتابع المشهد لحظة بلحظة على مدار النهار والليل لكى أكون قريبا من هذا المشهد الأسطورى الذى عايشته بالفرحة والخوف والحب لحظة بلحظة.

أخيراً بدأت أجمع المشاهد على مدى أيام الثورة، المشهد الجامع بكل أحداثه وتصاعده من يوم ليوم من الملايين التى انتظمت فى أجمل إبداع فنى فى تاريخ البشرية الحديث ـ لوحة عظيمة بها كل مقومات العمل الفنى (الوحدة فى الكثرة) مشهد ملحمى وأوبرالى وسيمفونى وتشكيلى بارع ـ هدير من الأصوات البشرية هنا وهناك ـ أغانى ثورية، فى جانب آخر فنانون من رحم الشعب يشكلون إبداعات فنية بالأحجار الذى قذفهم بها بلطجية الحزب الواطى وفنان آخر استعمل أكواب البلاستيك الفارغة لتشكيل شعارات وطنية فى أشكال جميلة ـ رسامون هنا يعبرون بالكاريكاتير، شعراء وملحنون فى اللحظة ـ مشاهد تمثيلية فى مكان آخر ـ شباب يحمل أحد المصابين للتوجه به للمستشفى الميدانى ينساب بسهولة داخل هذه الكتل البشرية

شباب آخرون يقبضون على المتسللين من بقايا الأمن السرى بملابسهم المدنية ويحمونهم من غضبة الجماهير ويسلمونهم لقوات الجيش.

كل هذه الملايين خلقت نظاماً تلقائياً يسيطر عليه روحاً واحدة دون قيادة، ولكنها قيادة الروح التى وحدت الجماهير فى هذه الملحمة بروح ثورة ٢٥ يناير التى أبدعت هذه اللوحة التاريخية التى شكل خطوطها الأولى أجمل ما أنجبتهم مصر من شباب واع له بصيرة ثاقبة وهدف محدد هو حب مصر، ونقلها من حالة التخلف والوهن إلى وضعها اللائق على خريطة العالم المعاصر.

وكانت اللمسات الأولى فى اللوحة من البقع الحمراء من دم أعز الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم من أجل خلاص مصر.

واللوحة لم تكتمل بعد ولكن العمل بها مستمر فى الميدان بكل مكونات الشعب المصرى.

وإذا كان شباب الشعب هو من بدأ اللوحة بقى أن يكملها كل الشعب ليوقعوا فى النهاية: الشعب الشباب ◘

الورد يريد ...

جيهان عمر

الأربعاء، ٢٦ يناير:

غدا فى الثانية ظهرا، اعتصام للأدباء والفنانين أمام دار الأوبرا هذا هو نص الرسالة القصيرة التى وصلتنى على الهاتف.

لوحة الاكواريل تسقط لأسباب مجهولة من على جدار غرفة المعيشة، فى نفس اللحظة التى أفتح فيها تلك الرسالة.

اللوحة التى رسمها الفنان جلال الحسينى عام ١٩٩٤، ملينة بزهور الإيروس التى تتلون بالأبيض والبنفسجى والأصفر، هكذا وبلا أى سبب فاجأتنى بسقوطها.

هذا السقوط المفاجئ والتراجيدى جعلنى أذهب لجمع الزجاج المتهشم على أرضية الغرفة، كنت أجمعه بحذر شديد خشية أن يخدشنى زجاج الإطار.

انتهى يوم الأربعاء وأنا على الحياد بين الرسالة التى وصلتنى، وحادث اللوحة التى أحبها...

الخميس، ٢٧ يناير:

اللوحة تستند على الجدار فى عتاب صامت، لمحتها وأنا أغلق الباب ذاهبة إلى الاعتصام، فقررت أن أمررها لصانع البراويز القريب من بيتى. يستوقفنى ضابط أسفل المنزل، يطلب أن أريه اللوحة التى أحملها، ظهرها الأبيض إلى الحياة والناحية المرسومة والمغطاة بجريدة على عجل إلى ناحيتى، ينظر إلىّ فى ريبة، إذ ليس منطقى أن أضحى بلوحة أصلية لأستخدمها كلافتة فى المظاهرات! هذا ما رجح الاحتمال الثانى لدى الضابط وهو أننى امرأة مغيبة منهمكة فى مشاكلها الصغيرة وغير عابئة بما يجرى حولها.

أعجبنى دور المشكوك فى أمرها وأنا أحمل اللوحة، فكنت كلما مررت بجانب عربة للأمن المركزى أتصنع اللامبالاة وأبتسم ابتسامات باردة، وهم يلتفتون لمراقبتى.

أقابل صديقى سليم، الفنان التشكيلى فى وسط البلد، هذا المكان الجامع الذى قد تقابل فيه كل الأصدقاء دون الحاجة لأية مواعيد، أخبره عن محل البراويز الذى وجدته مغلقا، وعن الاعتصام الذى سيبدأ

الآن، ليقول لى ليس هناك اعتصام من الأساس، وأنه عاد لتوه من الأوبرا ولم يجد هناك سوى أربعة أشخاص!.

يتطوع سليم لمرافقتى إلى محل براويز آخر بجانب أتيليه القاهرة، الذى سنعبر إليه من خلال شارع محمود بسيونى المطل على ميدان طلعت حرب لنكتشف اصطفاف عدة عربات للأمن المركزى وضباطًا كثر يجلسون على مقاعدهم فى حالة انتظار، متوثبين لاستغلال أقل فرصة تخرجهم من حالة السأم فى تلك الظهيرة. استفزهم شكل اللوحة التى تقترب، فمدوا أعناقهم فى كل ثم قام أحدهم للتأكد من طبيعة هذا الجسم المشوه.

تهاتفنى صديقتى الناشطة، فأجد فرصة كى أسألها عن مغزى الرسالة التى لم يلبها أحد! فتقترح علىّ أن آتى إلى مقهى كونست حيث تجلس الآن.

كانت تصافحنى وهى تعتذر لأن الهواتف قد تكون مراقبة وأنها لم تتمكن من الإجابة عن تساؤلى من خلال الموبايل، قالت: إن هناك بعض الرسائل ستأتى لمجرد التمويه.. لكن التظاهرة الكبيرة غدا الجمعة، والأمن أغلق مقرنا، ولهذا أنا انتظر بعض أصدقائى للترتيبات النهائية فأخبرتها بأننى سأنتهى من قهوتى وأغادر، واذ بفتاة أخرى تدخل بصحبة شابين، نظروا إلى صديقتى باستفهام، فقالت :أمان.

كانت عيونهم تلمع بالحماسة والأمل يفيض حولهم على المنضدة، كنت أخجل من يأسى وتشاؤمى. وجدت نفسى قد اشتركت فى الحوار بعد تفصيلات مثيرة، سألتهم: أخبرونى عن أسوأ السيناريوهات.

فردت الفتاة: إن قائدهم يرجوهم أن ينتبهوا لأنفسهم جيدا، وأنه أخبرهم بخطورة الوضع ونية الأمن استخدام الرصاص الحى للموت، وها أنا واجمة أبحث فى نبراتهم عن ذرة خوف واحدة ولا أجد. قالت صديقتى بأنها تفكر بإقامة مركز للمعلومات كبديل عن المقر المغلق، والتفتت إلىّ، لتسألنى، إن كنت أمانع بأن يكون هذا المقر فى بيتى.

قلت :لا أمانع بالطبع...

قالت لهم إن بيتى له موقع إستراتيجى، وأخبرتهم أننى مصورة أستطيع تسجيل ما يحدث، فيديو وفوتوغرافيا، حيث ستتولى هى توصيله للآخرين!

بيتى بديل للمقر ...

لم أستطع النوم حتى الصباح.

جمعة الغضب، ٢٨ يناير :

ساعتان فقط من النوم، حلمت أثنائهما بأننى أمر فى أحد الصباحات المبكرة على جثث كثيرة متفرقة أسفل منزلى، وبقايا دخان يتصاعد.. أبحث عن نفسى فلا أجدنى.

أنظر إلى الهاتف لأعرف الوقت فأجده بلا شبكة.. أفتح اللاب توب فأكتشف المؤامرة! من الشرفة أستطيع أن أرى شارعىْ رمسيس وأحمد عرابى. عساكر بهراوات حديدية، ضباط ومخبرون فى ملابس مدنية بهراوات خشبية وبأعداد كبيرة، كلهم يستعدون لملاحقة المتظاهرين القادمين من أماكن

متفرقة مثل رمسيس. شبرا، والقللى، كانوا يمنعون الجميع من الوصول إلى الميدان، بقنابل كثيرة مسيلة للدموع كان دخانها يصل إلينا نحن المعلقون على الشرفات المطلة عليهم، كان الشارع أشبه بساحة حرب كبيرة تدور بين طرفين: الأول مسلح بجميع أنواع الأسلحة والآخر لايملك سوى فكرة وإرادة وبعض الهتافات.

امرأة فى منتصف العمر تصرخ فى العمارة المقابلة بعد سماعها وابل طلقات الرصاص حرام عليكو إنتو بتحاربوا إسرائيل.. دول ولادكو يا ولاد الكلب .

صوتها الأمومى كان جهوريا وغاضبا، التفتت كل العيون إليها حتى المتظاهرين فى الأسفل فالتقط مشاعرها متظاهر شاب فى هتاف جديد وهو يشير إلينا يا أهالينا انضموا لينا ليرد الجمع من ورائه وهم يختنقون من الغاز يا أهالينا انضموا لينا وكفنجان القهوة ذاك الذى كان كفيلا بجعل شقتى مقرا بديلا، كانت تلك الصرخة كفيلة بجعل المعلقين على شرفاتهم يلبون النداء. التقت عيونى تقابل عيون جارتى، أومأنا معا تجاه المظاهرة كإشارة للنزول قبل أن نلتقى أمام باب المصعد، نظرت إلى يدى التى تحمل الخل والكولا والمياه بتعجب، ثم قالت: ثانية واحدة حجيب زيك.

وضعنا الزجاجات خلف البوابة الحديدية الكبيرة فى مدخل العمارة الواسع، وبمجرد وضع أقدامنا على العتبة الخارجية فوجئنا بالمتظاهرين يعدون باتجاهنا بسرعة شديدة هربا من وابل جديد من الرصاص ينهال عليهم، تراجعنا تلقائيا إلى الداخل وحاول بعض المتظاهرين الدخول معنا فقام حارس العقار بإغلاق الباب فى وجههم بسرعة! ففوجئ بنا ونحن نصرخ فى وجهه بأن يترك الباب مفتوحا، وبالفعل دخلت أعداد كبيرة لمحاولة التقاط الأنفاس، وبعضهم كان مصابا بالفعل.

بدأنا بإدخال المصابين والمختنقين بعيدا عن الزحام ليستلقوا على السلالم الباردة، لمساعدتهم بإسعافات بعد، أن انضم بعض الجيران حاملين القطن والمطهرات، وجدت نفسى أنظف جرحا طازجا فى جبهة فتاة رقيقة، واكتشفت بأنها نفس الفتاة التى التقطت لها صورة فوتوغرافية من الشرفة، وهى تصرخ فى وجه الضابط الذى وضع صديقها فى عربة الأمن المركزى

كنت أعرف أن الدموع التى تسيل على وجنتيها فى صمت، لم تكن جراء إصابتهاالحارقة، بل من مصير مجهول ينتظر صديقها فى عربة مظلمة.

استمر الدخول من البوابة هربا من جحيم القنابل ثم الخروج بعد قليل لمحاولة استكمال المسيرة إلى الميدان، حتى دخل شاب غارق فى دمائه، حيث كانوا قد بدأوا بإطلاق الرصاص الحى.

لم أشعر من قبل بأننى أريد الاعتذار عن كل شئ، ولكل شىء.

أعتذر عن كل السنوات التى ماتت من السخرية والتهكم على أمور لن تتغير أبدا!

أعتذر عن دعوة التظاهر التى وصلتنى فلم أغسل قلبى من اليأس ثم أطبعها، وأضعها تحت وسادتى فى الميدان.

صور كثيرة ألتقطها للواثقين لأتعلم الأمل.

حتى لوحة زهور الإيروس التى ظلمتها لم تكن قد سقطت لأسباب مجهولة أبدا، بل حطمت إطارها الزجاجى لأنها أرادت الخروج معى إلى الشارع، كانت تريدنى أن أرفعها فى وجه الضابط بدلا من تنكيسها.

كانت تريد أن تقول: «الورد يريد إسقاط النظام» ■

أنا مصرى..

لحظات من الثورة وحب مصر

خلف على حسن

كغيرى من أبناء جيلى، شاركت فى ثورة التحرير المجيدة، ولم تكن هذه المشاركة -وليس ادعاء- هى الأولى بالنسبة لى ولبعض زملائى فى التظاهر و الاحتجاج السلمى، فمنذ بداية الخمس سنوات الأخيرة من حكم الرئيس المخلوع حسنى مبارك، قمنا بالانضمام إلى عدة أصوات طالبت بالعيش والعدالة والمساواة كالاعتصامات والاحتجاجات الفئوية، أو فيما يخص الشأن الصحفى، وثورتنا على دور نقيبنا الحكومى مكرم محمد أحمد، الرجل الذى حول نقابة الصحفين المصريين إلى فرع آخر من أفرع جهاز أمن الدولة البائد.

يوما ٢٥ يناير و٢٦ وقفة على سلالم نقابة الصحفين وتشابك مع الأمن بالأيدى وضرب بعصى الداخلية الغليظة تطال أجسادنا، وقمع مُورس علينا بطريقة وحشية، واحتجاز.

فى نقابتنا، غاز مسيل للدموع يطفح علينا من نقابة المحامين بجوارنا، اشتعال النقابتين معاً بتعالى أصوات المتظاهرين، اعتقالات عشوائية تطال الزملاء أمام أعيننا.. شباب ينضمون إلى الصفوف من الشوارع المجاورة لشارع عبد الخالق ثروت، وناحية شارع شامبليون، محجبات ومنتقبات وقبطيات وأخريات لا تضعن غطاءً على الرأس على سلالم النقابة، إحداهن فوق كرسيها المتحرك ترفع علم مصر فى وجه جهاز الشرطة القمعى، وتهتف بأعلى صوتها يا مبارك يا مبارك قولى مين فى الشعب إختارك، ويسقط يسقط حسنى مبارك .. منذ عام تقريباً وقفت بين هذه الصفوف، لكن حزيناً، بسبب هتافات المصريين العالية ليس لإسقاط النظام الذى صَغر بهم فى عيون الأمم، وزادهم فقراً، وسرق خيرات بلادهم ليموتون جوعاً على الأرصفة، ولينهش البرد أجسادهم من شدة الفقر والبؤس وضنك العيش، لكن لفرحتهم بمبارة كرة قدم، نجح النظام البائد فيها، بصرف أنظارهم عن سرقة وطنهم وأدخلهم فى معركة واهية للتفرقة بين شعبين تجمعهما أمة وعروبة واحدة، فى هذه اللحظات وقفت فى شارع جامعة الدول

العربية، أهيب المنظر وأتعجب، وأفكر قليلاً، كيف يمكن حشد هؤلاء سياسياً؟، لماذا لا يخرجون فى وجه هذا النظام الغاشم لطرده من بلادنا؟ متى يخرجون ليهتفون بهذه الأعداد للفوز بمصر الحقيقية من أيدى الطغاة والمتجبرين ومن احتلالها الوطنى؟ كيف ومتى وأين يحدث ذلك؟ وأثير فى ذهنى مسألة لماذا لا يثور المصريون.. الآن فقط تحققت أمنيتى، رأيت مصر وهى تهتز بالفعل وتثور، هنا فقط فى ميدان التحرير، الذى هز العالم، وأصبح مزاراً سياحيا يفكر فى زيارته كل من تطأ قدماه أرض الكنانة من الوزير إلى الغفير -مثلما يقول المثل الشائع- فيه تاريخ الصمود والاستبسال، فيه تغيرت مصر وارتحل عنها هذا النظام الذى جثم على قلبها ثلاثين عاماً، هنا فقط تحررت مصر الشعب من تاريخ طويل من الفساد والاستبداد، نظام سلب الشعب إرادته وحريته، وتجبر عليهم وأقمعهم.

فى الساعات الأولى من اليوم الأول لثورتنا المجيدة، أيقنت أن مصر تتغير فعلاً، لن ترجع إلى الوراء مرة أخرى، فهى ليست وقفات احتجاجية عادية تثور فيها ونغضب ونردد هتافات ضد الحكومة للمطالبة ببعض الفتات أو قليل من الحرية، إنما هى باكورة ثورة. الآن فقط، مصر تهتز صارخة يكفى ما جرى لى من حرث للأرض، ونهب لمواردى وسرقة خيراتى، تنطق الأرض والشعب معاً، لقد قضيت يا مبارك على الأخضر واليابس، فلترحل الآن بدون تردد أو عناد، مصر الآن فقط تفتح ذراعيها للمستقبل، شباب يتوق للحرية التى غابت شمسها عنه ثلاثين عاماً، فمنه من ولد لم ير غير هذه الشمس القاتمة، يخرج الآن ينادى بأعلى صوته فليرحل الديكتاتور، فليلحق برفيق استبداده بن على، هؤلاء الذين حولوا أوطاننا لعزب وتكيات خربة، فليرحلوا الآن وليس غداً، قامت الثورة ولن تقعد، هكذا أيقنت فى اليومين الأولين منها.

الحادية عشرة صباحاً، يوم جمعة الغضب قصدت مرة أخرى نقابة الصحفيين أنا وبعض الزملاء من صحف مختلفة لأداء الصلاة هناك، والخروج من النقابة فى مظاهرة إلى ميدان التحرير، كنا قد بتنا ليلتنا نمنى أنفسنا بتكرار التجربة التونسية فى مصر، ويتخلص الشعب من هاجس الخوف الذى سيطر عليه لمدة ثلاثين عاماً بجهاز كارتونى اسمه وزارة الداخلية، هل يمكن ذلك! أن يتحرك المصريون إلى ميدان التحرير بلا خوف ويخرجوا من كل ناصية وشارع، الرهان على بكرة جمعة الغضب أخشى أن تنتصر تصريحات حبيب العادلى وضباطه عن أنه ليس هناك نية لدى المصريين للخروج فى مظاهرة مليونية للمطالبة بإسقاط النظام، الدعوة التى قام بها شباب الفيسبوك، ونعود منكسرين وينتصر هو ورجاله.. حين وقف بنا التاكسى أمام المبنى، التف حولنا بعض ضباط الداخلية، ودفعنى أحدهم من كتفى قائلاً مفيش نقابة النهاردة يابيه.. اتكل على الله من هنا.. الدنيا مش مستحملة لوحدها، فى تلك اللحظة رأيت الغدر فى الأعين، لقد اعتقلوا ثمانى صحفيين من الزملاء، فحاول زملائى الاشتباك معه وإظهار بطاقات تحقيق الشخصية له، لكنه لا يقبل أن يرى شيئاً غير

أن نمشى وبسرعة -عرفت بعدها أنهم منعوا زملاءنا فى جريدة الدستور الأصلى المعتصمين فى نقابة الصحفيين منذ شهور من الخروج إلى الشارع حتى لشراء الطعام، قمنا بتهدئة زميلنا الثائر، وانصرفنا، وأيقنت أن اليوم فارق فى عمر مصر وحياة المصريين، الداخلية مهزوزة لكننى أخشى من الغدر، والوعيد الذى أراه فى عيون كل الضباط الواقفين فى الشوارع، بسرعة البرق، سرنا باتجاه شارع شامبليون، أوقفنا تاكسياً آخر.. جامع مصطفى محمود يا أسطى، بعد عشرة دقائق كنا بين صفوف المصلين، بسبب انتظام حركة المرور فى هذا اليوم، لكننى رأيت تواجداً أمنياً كثيفاً فى كل شبر فى منطقة وسط البلد وميدان التحرير وكل الكبارى الواصلة بين محافظتى الجيزة والقاهرة.

هتفت الجموع أكثر من مرة وسط الخطبة لإمام المسجد بسبب مباركة الرجل للتحرك ولثورة الشعب ضد الفساد والطغيان، فور ختام الصلاة رأيت مصر العظيمة مرة أخرى تتحرك أمام عينى، لم تقدر الشرطة على استيعاب ما يحدث، فتحوا الحواجز الأمنية الملتفة حول المسجد وحديقته، لتنطلق الجموع الغفيرة إلى شارع البطل أحمد عبد العزيز فى منطقة المهندسين، بشر كالموج يتحرك، مرددين شعارات يسقط حسنى مبارك، والشعب يريد إسقاط النظام، بكى الكثيرون ورأيتهم بعينى حين رددت الجموع النشيد الوطنى بلادى بلادى لك حبى وفؤادى الآن فقط أيقنت مرة أخرى، قول مصر قبل ٢٥ يناير غير مصر بعد هذا اليوم كم اشتقت لهذا اليوم الذى أرى فيه بعينى المصريين بالجموع فى كل شارع وهم ثائرون.. الآن كسروا حاجز الخوف وجدار الصمت الذى خيم على قلوبهم وحياتهم ثلاثين عاماً، نعم، هى ثورة شعبية من كافة الأعمار والأطياف، فى كل الشوارع التى مررنا بها تفتح النوافذ وشبابيك البيوت المغلقة لتلوح بأعلام مصر، وتقول سيروا نحن معكم قلباً وقالباً، هى حالة إجماع إذن على التغيير ورحيل الديكتاتور، الحماس يلهب القلوب، والإصرار على إسقاط النظام هدف الجميع، فتيات وصبية وكبار سن وعمال فى شركاتهم وكل من يمر فى الشارع، يحيى الجموع المتحركة ناحية ميدان الحرية،فرد التحية بهتاف ياأهالينا انضموا لينا، وتعلو الهتافات فلا تسمع إلا صوتاً واحداً، الشعب المصرى ينادى للحرية ولن يرضى بالاستعباد بعد اليوم، لقد ثار أحفاد عرابى وسعد زغلول مرة أخرى، صوت يبرهن على أن التغيير قادم قادم لا محالة، لن يستطيع أحد إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء بعد رؤية هذا المنظر، لن يستطيع مبارك بجحافل أمنه وشرطته المتربصة بواد روح المصريين الثائرين، لقد رأوا منذ أيام قليلة شجاعة الشعب التونسى، فكيف يصمتون؟ وهم الشعب الذى علم العرب فن التظاهر، فى المسيرة لم تتدخل الشرطة وتركتنا نعبر إلى شارع التحرير، فهل ستتركنا نصل إلى ميدان التحرير بسلام، سؤال طرأ على بالى كثيراً وأنا أسير، لا لن يحدث ذلك، لقد عودتنا الشرطة المصرية منذ عهود على حماقتها وعصيها الغليظة، نعم هناك شيء مدبر من داخل الغرف المغلقة فى هذه

الوزارة البائدة، تقترب الجموع لعبور كوبرى الجلاء ومن بعده قصر النيل، هنا الرعب يلف المكان، أطنان من القنابل المسيلة للدموع، وسيل من الرصاص المطاطى ينهال فوق الرؤوس، مشاهد لا يمكن وصفها ولا كتابتها، الدم يغرق الأسفلت، يتبعثر فى كل جنبات الأرض، أدخنة تغطى الشارع، لا رحمة ولا شفقة بأحد، ضرب عشوائى يطال الجميع، من يموت يموت لابد من قمع هؤلاء وإجبارهم على الرجوع إلى منازلهم، هذا ما تقرؤه فى أعين هؤلاء الضباط الذين أخذوا على عاتقهم منذ سنوات تعذيب المصريين ومعاملتهم كعبيد، الأمر الذى يقابله فى أعين الثوار نحن صامدون حتى الموت ولا تراجع ولا استسلام، ولابد أن يسقط النظام اليوم، سنذهب إلى ميدان التحرير ولو كلفنا الأمر أعمارنا، لو ضربونا بالنابلم، صرخات تتعالى هنا وهناك وترويع لم أشاهد مثله من قبل، الكثيرون يرددون بصراخ فى وجه القنبلة ياولاد الكلب هو احنا يهود .

ثمانى مرات نصل إلى منتصف الكوبرى ونرجع للوراء، يتركوننا نسير بضعة أمتار وتنهال علينا القنابل كالمطر، وسط هذه الصرخات وبقدر قوة اندفاع الرصاصات باتجاه هذه الجموع الغفيرة، سقطت بلا رجعة من عقلى كل المقولات التى جاءت فى كتاب جمال حمدان شخصية مصر، وحنا مينا فى كتابه الأعمدة السبعة عن الشخصية المصرية وغيرها من الكتابات التاريخية،التى وصفت الشخصية المصرية بأنها سلبية لا تثور، تتحايل على الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بكبت المشاعر والبلادة والتخفى والنفاق والتكاسل فى العمل والفهلوة، وعدم قبول التغيير السريع، والاستكانة والصبر، والمرونة التى تجعلها قادرة على التكيف مع كل المتغيرات المجتمعية المحلية والعالمية، نعم، سقطت مقولة هى الأخرى، رددها الكثيرون فى السنوات الأخيرة وأنا منهم، التعويل على الشعب فى التغيير رهان خاسر، لقد سقطت فى هذا اليوم كل آراء علماء الاجتماع التى تؤكد على سلبية الشخصية المصرية، نعم، سقطت من عقلى بلا رجعة، وعلى أساتذة التاريخ إعادة النظر فى آرائهم تجاه الشخصية المصرية.

بعد حوالى ٦ ساعات، جاء العبور العظيم لكوبرى الجلاء وقصر النيل أو مذبحة قصر النيل كما أفضل أن أطلق عليها - حين تعززت الجموع بآلاف الشباب القادمين من مظاهرتى الهرم وبولاق الدكرور، تقهقرت قوات الشرطة إلى الوراء وتقدمت الجموع، لنحتل الكوبرى ونتقدم ونغنم بضع من عربات الأمن المركزى التى تقف متراصة على الكوبرى، رأيت بعينى مصريين يموتون وآخرون تطايرت أيديهم، وفريق سكن أجساده الرصاص، وآخر تدهسه سيارات الشرطة أمام أعيننا بلا رحمة أو إنسانية، المصلون فوق الكوبرى وسط الماء، غرقت ملابسهم وأجسادهم فى مياه الشرطة، لا رحمة لا شفقة لا عربات إسعاف، هى فقط تحمل الرصاص للشرطة لضرب المصريين، ولا شىء آخر غير الخل والكولا هما سلاحنا الوحيد ضد البندقية والمدفع، لكن لا صوت يعلو فوق صوت الشعب الثائر، شباب

الأطباء يقومون ببعض الإسعافات الأولية الموجود بالجهود الذاتية من شاش وقطن ومطهر جروح، خل وكولا تعزيزات تأتى من قاطنى الشارع، أصحاب الإصابات الخطيرة ومن يموتون على أيدينا يخافون الركوب فى عربات الإسعاف، التى ظهر لنا أنها تسلم المتظاهرين المشرفين على الموت والجرحى إلى جهاز أمن الدولة القمعى لاستجوابهم واعتقالهم.

رأيت مقر الحزب الوطنى يحترق أمام عينى، حينها جلست على الجانب الآخر من الشارع أتلذذ، بشراب البيبسى الذى قام بجلبه أحد الشباب من ثلاجة الحزب، وقام بتفريقه على المتظاهرين، هى أموالنا التى اشتروا بها هذا البيبسى والكولا هكذا ردد الكثيرون، وتساءلت ما هو شعور جمال مبارك أمين لجنة السياسات بهذا الحزب وهو يراه يحترق أمام عينه؟ هل مازال يصر على شعار من أجلك أنت أم أنه يرى شعار علشان تطمن على مستقبل أولادك شعار عبقرى صدقه المصريون بالفعل ويريدون مكافأته عليه بحرق حزبه؟ وكيف يفكر أمين التنظيم بهذا الحزب الباند الآن؟ هل ياترى يرقص ويصفق لمفجر ثورة الشباب شريكه فى سرقة الوطن جمال مبارك مثلما فعل فى مؤتمر الحزب قبل الأخير أم أنه يفكر فى شعار المرحلة القادمة الآن؟ وضحكت وقلت : نعم هى بالفعل ثورة الشباب، انفجرت فى وجه مبارك الأب والإبن بفعل رفيق الدرب أحمد عز وكل فلول الحزب الهارب.

ثمانى عشر يوماً أتنقل بين جنبات ميدان الشهداء التحرير، شاهدت خلالها مصر الحضارة والأمان والتعاون والألفة مصر الجميع، صلاة الجمعة وقبلها صلاة القداس، أزهرى يعقد قران شاب وشابة، وقسيس يرتل كلمات الإنجيل فى إكليل لشاب مسيحى وفتاته، رأيت مصر العظيمة التى تحولت بفعل الثورة من كائنات افتراضية ومن الفيس بوك إلى الناس بوك ،والى حقيقة تهز أركان العالم والميادين كلها، شاهدت موقعة الجمل والطريقة الهمجية التى تدل على الخرف والجاهلية والضحك فى آن واحد التى تم التعامل بها مع شباب اللاب توب، وتساءلت مثل الكثيرين عن العبقرى الذى فضل، ونحن فى القرن الحادى والعشرين، مواجهة المتظاهرين بهذا الخرف الذى يثير الشفقة ويدلل على عدم عقلانية تصرفات رجال الحزب الباند وقلة حكمتهم وحنكتهم وخرافيتهم التى خُدعنا بها لسنوات.

فى خضم الأحداث لفت نظرى ضحكات المصريين التى عبروا عنها بلفتاتهم التى حملوها إرحل إيدى وجعتنى، إرحل زوجتى هتولد والواد مش عايز يشوفك وغيرها، سمعت كغيرى من المصريين الشائعات التى أصابت شباب التحرير واتهامهم بالعمالة والخيانة، رأيت فى عيون أولاد منطقتى الذين يخافون على أقواتهم: يكفيكم هذا الخراب فلتتركوا ميدان التحرير.. البلد وقفت فى حين أنهم كانوا أول المهنئين لى بنجاح الثورة.

كنا فى آواخر شهر يناير وبدأنا فى فبراير، النقود نفدت من الجيوب لكن العزيمة لم ينل منها شىء، تقاسمنا رغيف الخبز الواحد أنا والزملاء، مشينا صباحاً ومساءً كل يوم ولعدة

أيام متكررة من شارع السودان فى منطقة المهندسين إلى وسط البلد إلى التحرير غير عابئين بتعب ولا ملل، قفزت من فوق الطاولة التى أجلس عليها لتناول الغذاء أثناء سماع خطاب التنحى فى نقابة الصحفيين، احتفلنا، ضحكنا، وسهرنا على أنغام الموسيقى فى الميدان حتى الصباح، اختلطت دموعنا مع ضحكاتنا من شدة الفرح والرقص، ما رأيته من أحداث على أرض الواقع وما شاهدته على شاشات التلفاز وانتفاض العالم كله للثورة المصرية واستبسال الجميع وإصرارهم على نجاح الثورة، وما سمعته من هتافات وأحاديث وتحليلات وغيرها يفوق كثيراً مما كتب، فيصعب على المرء أياً كان، وعلى أى آلة تصوير أو تسجيل أياً كانت، الإلمام بما حدث كله فى كفة واحدة، أو نقل الأحداث كما حدثت فى ساحة التحرير والمدن المصرية، لتبقى فى الأذهان بجانب ذلك مقولات العالم عنا: فالرئيس الأمريكى باراك أوباما يقول على الشباب الأمريكى أن يتعلم من شباب مصر ورئيس وزراء بريطانيا «يجب تدريس الثورة المصرية فى مدارسنا» ووكالة الـ سى إن إن الأمريكية تقول «أنه لأول مرة نرى شعباً يقوم بثورة وينظف مكانها».. يكفينى ويكفيك فخراً أن تسمع شعوب العالم العربى والدول الأوروبية يرددون نشيدنا الوطنى، يكفينى ويكفيك عزة أن أقف أنا وأنت نرفع رؤوسنا عالياً شامخة ونردد الآن وبكل فخر أنا مصرى .. أيقنت الآن وبلا شك أن مصر عظيمة أكبر من أى حاكم أو إسم فرعون مبارك كان يجعلنا صغيرين فى عيون الشعوب.. الآن فقط أنا مصرى ومن أجلها أريد محاكمة كل من قتل الشهداء فى ميدان التحرير، قناصة وزارة الداخلية التى قتلت شهيد الصحافة الزميل أحمد محمود الصحفى بالأهرام، كل من أحرق وقام باعمال بلطجة ضد الشعب أو سرق ونهب المحلات والبيوت وروع الآمنين أثناء أحداث الثورة، أنا مصرى أريد إلغاء جهاز أمن الدولة والقضاء عليه لغير طيلة الوقت فى قمع المصريين وتعذيبهم وتلفيق القضايا لهم، أريد الإفراج الفورى والعاجل عن سجناء الرأى والمعتقلين السياسين، محاكمة حقيقية للرئيس المخلوع حسنى مبارك وأسرته بتهم إهدار المال العام وافساد حياة المصريين طيلة ثلاثين عاماً واشتراكهم فى قتل شهداء الثورة واسترداد أمواله، أريد محاكمة كل من سولت له نفسه التربح من وظيفته أو تسبب فى إهدار خيرات الوطن من رجال الأعمال وأعضاء الحزب الوطنى وغيرهم أو من باع أراضى المصريين ومن قام بتصدير الغاز لإسرائيل بثمن بخس، أنا مصرى أريد تحقيق مطالب الثوار ودولة ديمقراطية وحكم مدنى ودستور جديد للبلاد بدون ترقيع.. فلنردد جميعاً الآن وبكل فخر أنا مصرى أعشق تراب بلدى وأعمل لصالحها وأخلص فى عملى وأكسب من جهدى بشرف ولا أقبل الرشوة أو المحسوبية ■

حكى ما حدث

رؤوف مسعد

وصلت إلى القاهرة قادما من أمستردام حيث أقيم بصفة دائمة. وصلت ظهر الواحد والعشرين من فبراير أى بعد حوالى شهر على ثورة الخامس والعشرين من يناير (والتى لن أضع لينابر تاريخا سنويا حيث أن قول الخامس والعشرين من يناير أشهر من أن تعرّف بعام).

كنت أتابع من مكمنى الأمستردامى الآمن–مع آلاف الملايين من البشر فى أرجاء المعمورة– ما يحدث فى مصر. تنتابنى يوميا مجموعة من الأحاسيس المتباينة ؛ قنوطى من عدم تحقيق رغبتى فى التواجد فى مصر،والمشاركة بأى شكل من الأشكال ولو حتى بالفرجة من بعيد. ثم رضاى بهذا القنوط وأننى حتى لو كنت متواجدا فى مصر فلن أستطيع المشاركة جسديا بسبب إعاقتى فى ساقى..ولنقل بسبب إجراء عملية جراحية فى ركبتى اليسرى لإزالة جزء كبير من الغضاريف المتآكلة.

هكذا رضيت.. وهكذا تخلصت من ذنب عدم المشاركة والقنوط تدريجيا، وبتشجيع من زوجتى وأصدقائى هناك الذين ساهموا فى إقناعى –بسهولة– بأن عمرى الذى وصلت به إلى الرابعة والسبعين، هذا إلى أربعين شهرا فى سجون ومعتقلات عبد الناصر يعفينى من ذنوب عدم المشاركة!

وهكذا أصبحت مشاركا فى الثورة جالسا (لا تنسوا موضوع ركبتى) ومساهما بشكل سماعى من الإذاعات والفضائيات العالمية ثم مظاهرتين صغيرتين واحدة فى لاهاى أمام محكمة العدل الدولية والثانية فى أمستردام.

فى يومى المظاهرتين كان البرد قارسا ودرجات الحرارة تحت الصفر، فاستبسلت وارتديت ثيابى المضادة للبرد وتوكأت على عصاى وعلى الأصدقاء الذين رافقونى المظاهرتين، معتبرا أيضا أن قد ساهمت بشكل ما (خاصة لا تنسوا موضوع تحت الصفر) مرتاح البال والضمير الثوريين (!)

وحينما طلب منى محرر الكتابة الأخرى شهادتى نكصت على عقبى وقلت له بوضوح إنى لم أشارك جسديا فى الثورة لكنه أصر وألحف.

هكذا وصلت إلى قناعة كتابية بأن أعيد رواية وتحليل ما استمعت إليه من شهادات من قالوا أنهم شاركوا،وعن تجاربهم. تجاربهم وهم يحكونها تضيف طبقة جديدة للحدث. فالحدث من مواجهة وصدام وجرى واقتحام وتقهقر ودماء بل وشهداء قتلى، يتخذ طابعا خاصا ومتميزا ونادرا، حينما يرويه شاهد عيان بل ومشارك فاعل فى الحدث ذاته. هذه الطبقة لا تخلو أحيانا من روح الفكاهة،كما لا تخلو كثيرا من المرارة والجدة.

لذا قبعت مرة أخرى فى مكمنى أسترجع حكيا لشهادات سمعتها ولم أسجلها فى ساعتها فلم أكن متهيئا لذلك، أرويها الآن حكيا على طريقتى معتمدا على ذاكرتى الخوانة – التى تصفها زوجتى برقتها المعتادة وبدقتها أيضا – بالذاكرة الحكائة ،فهى تستنكف أن تعلن أنى أحيانا أختلق وقائع لم تحدث فتقول إنى أعيد حكى ما حدث!.

ليس هدفى هنا ترداد أو ترديد ما سمعت بدقة ؛ فهذا مستحيل لأسباب ذكرتها سابقا.كذا، ولا حتى أفعال دقيقة لولا جرائم تفصيلية لما شاهدوا ورأوا ؛ فشهود العيان والفاعلون أدرى بشعاب مكة منى وهذا حقهم الذى لا أنازعهم فيه ولا أجرؤ حتى أن أباريهم فى ذلك!.

ما حكاه وما لم يحكه جميل عطية إبراهيم

أعرف الكاتب جميل عطية إبراهيم منذ الستينات فهو واحد من مؤسسى مطبوعة جاليرى ٦٨ مع إبراهيم منصور الراحل وآخرين. هو استقر فى الغرب قبلى بسويسرا وواصل الكتابة الروائية من مكمنه السويسرى مؤسسا لنفسه فضاءه الروائى الخاص، وهو أيضا مسيحى الجذور مثلى وصديق نتهاتف من آن لآخر كل منا من مكمنه الغربى. يقاربنى فى العمر السبعينى ويتوكأ على عصا مثلى لا يهش بها على غنم لا يمتلكه ولا يرعاه وليست له بها مآرب أخرى مثل موسى.

التقيته فى زهرة البستان فى مقعده القاهرى العتيد بعد أن كنا فى الزمن الغابر من رواد ريش قبل أن يحولها صاحبها إلى مقعدة للسواح متعمدا حتى يبعد عنها حرافيش الحارات أمثالنا فانسحبنا إلى أماكن أخرى منها الزهرة.

يسحب جميل أنفاس شيشته، ويتسحب – مثلى أيضا – بنظراته خلف الغاديات والرائحات من خلف عويناته السميكة التى يحتمى بها من رقابة زوجته السويسرية القابعة بجواره والمتسامحة «بالتأكيد أيضا مثل زوجتى» المتجاهلة للنظرات المتحسرة المتسحبة على الغوانى.

كنت قد سألت الكاتبة والصحفية عبير سالم وهى كانت تداوم بالإقامة فى التحرير كما عرفت منها وبالتالى ترصد من غاب ومن حضر من أولاد الكار وبالتحديد من عواجيزهم مثلى والمتأدبين، فذكرت لى أسماء من بينها جميل عطية إبراهيم الذى يناديه الناس من أصدقاء وغير أصدقاء باسمه الثلاثى لسبب غامض ولعلها أفاعيل إبراهيم منصور (الكبير تمييزا له عن الآخر الصغير مدير تحرير الدستور الأصلى!) فالكبير إذا ما أطلق تشنيعة على أحد لصقت به أبد

الدهر.فهو مطلق التشنيعة الشهيرة على البساطى بأنه لا ينزل من بيته قبل أن يستوثق عن الطقس!.

هكذا التقيته على الزهرة فذهبت إليه متوكئا على عصاتى أحييه وأحتضنه وقبعت بجواره وقلت له عشنا وشفنا يا جميل فأمن على قولى مبتسما.

سألته كيف كان يذهب إلى الميدان وهو الكليل النظر مثلى الهش الركبتين مثلى، فقال إنه كان يطل على الميدان من بعيد لبعيد ثم يقبع مرتدا إلى مجلسه على الزهرة. أضاف حينما كانت الظروف تسمح كان يرافقه بعض الشباب الأشداء العضلات فيتجول قليلا فى الميدان مرددا الهتافات صامدا «لبعض الوقت» مع الصامدين، ثم يتقهقر إلى الزهرة.

قلت له إن عبير سالم أكدت لى حضورك النشط، فلمعت عيناه بلمعة الفضول وقال لا أعرفها فقلت له أعرفها بك،وهى كتبت مدونة وكتابا بعنوان يوميات عانس مع أنها ما تزال فى بداية ثلاثينياتها نشرته لها الدار؛ فتبسم بخجل معترفا أنه لم يقرأ الكتاب لكن سمع به ودفن فمه يلتقم مبسم الشيشة يستجلب دخانها برفق وينفثه برقة. أقبلت – كما فى التراجيديات الإغريقية – عبير سالم، وقد فردت شعرها الكثيث الأسود، ناديت عليها وقلت لها معابثا، هذا جميل عطية إبراهيم وهو يقول أنه لا يعرفك، فنظر إلى معاتبا من تحت النضارة بينما تداركت هى الموقف قائلة بمجاملة وصدق، لكنى أعرفه وله الحق أن لا يعرفنى..

قلت له جادا هامسا فيما بيننا حينما صفا الجو وراق وذهب الآخرون إلى حال سبيلهم مش عارف أكتب يا جميل.. الكتابة بنت الوسخة قافلة معايا.

قال وأنا كمان ضحكنا مرتاحين فقد أصبحت البلوة الخاصة عامة الآن وهاهو زميل كاتب يعلن أن بنت الوسخة أيضا قافلة معاه.

قلت له حتى لا أشمته فىّ ؛ لا أقصد الكتابة عن الثورة هذه.. فلم نكتب عن ثوراتنا المجهضات السابقات بتوع زمان بعد (وإن كان جميل واحد من كتّاب جيلى القلائل الذى كتب ثلاثيته الرائعة عن يوليو ١٩٥٢) أضفت كنت شغال فى حاجة كده (لا يفصح كاتب لكاتب عما يكتب خوفا من أشياء كثيرة لا مجال لها هنا) وجاءت الثورة دى.. بوظت علىّ الشغل (وشعرت بالخجل من قولى هذا ظانا.

أن شغلى أهم من الثورة).. قفلت الكمبيوتر وقعدت أدام التلفزيون.

فقال وأنا كمان ثم أضاف معلهش ما انت عارفها لبوه وكان بالتأكيد يقصد الكتابة؛ فهو رجل شديد التهذيب والحياء.

رؤية جميل عطية القادم من سويسرا الهش الجسد اليقظ العقل، رؤيته عن الكتابة أنعشتنى وردت فىّ الأمل بأنه ما يزال هناك الأمل فى مواصلة كتابة ما.. حتى لو كانت غير مهمة!.

عبده جبير
بطل المسافات الطويلة والقصيرة

من لا يعرف عبده جبير فهذه مشكلته وليس تقصيرا منى، فهو كاتب يصغرنى

بجيل واحد وان كان هو يصر على أنه جيل ونص.. ماشى! صحفى وقاص للقصة القصيرة وروائى وناشر (كان أيضا مثلى فى الزمن الغابر) وحتى هنا فهذا طبيعى واعتيادى ،لكنه أصبح فندقيا يهجع إلى واحته الفيومية، المسافرون من كل فج عميق من أولاد عرب وعجم.

سألته..

كنا التقينا- أيضا - فى الزهرة على غير موعد بتعمل إيه اليومين دولا يا عبدو..أوعى تكون بتكتب ؟

فأجاب بثقة من لا يهمه الآخرين من كتاب وأدباء ....أيوه طبعا بكتب.. كتبت درافت طويل فوق التلتمية صفحة .

سألته متوجسا عن اللى بيحصل ده؟

فأجاب بنفس الثقة عن اللى حصل وعن اللى بيحصل.. طبعا وأفاض وأزاد وأنا مكبوس أتظاهر بالإصغاء والتشجيع بينما انطلق عبده جبير كنهر هادر حطم السدود.. بصراحة.. ندمت على سؤاله لأنه أهاج المواجع. لعله تنبه إلى حزنى فعير الموضوع.. وقال أنه الآن يطبع أعماله الكاملة.. أشار إلى اسم الدار (وقد التقيته بعد يومين فى الأتيليه الذى حضرنا إليه بدعوة من عادل السيوى لمناقشة وضع المجلس الأعلى للثقافة. كان عبده يحمل نسخة فاخرة مجلدة بغلاف أنيق سميك لروايته الأولى عطلة رضوان وقد قررت أن أعابثه فبدأت أعيب له لون الغلاف وطريقة الطباعة.. لكنه لم يبال فهو عداء للمسافات الطويلة، نفسه طويل واسع الصدر رغم التدخين والكرش نتيجة الأكل الفندقى).

لكن ما قال (وأصدقه إلى حد معين) بان ما يكتبه أثار اهتمامى فعلا. فهو يكتب عن الانجاز الثقافى الأدبى الذى اخترعه وصممه ونفذه أهل الثورة من شعارات ولافتات الخ (هذا حسب قوله)، (ونحن أولاد الكار لا نصدق بعضنا البعض إلا فيما ندر) وحينما أحس بتوجسى، أكد لى أنه يحصل على المادة الخام من شباب وشابات ينتمون إلى أسرته يجمعون له مادته (لم أسأله إن كان يكافئهم ماليا أم لا!) وتطوعت أنا بأن قلت له معلومة كنت مخبيها فى عبى عن عدد مجلة التايم الأمريكية الأخير (فهو يعرف الانجليزية حتى يأمن شرهم فى فندقه) الذى أشار ضمن ما أشار إلى اللغة الجديدة فى ميدان التحرير.

أمرى لله،فلا يستطيع عاقل له تاريخ إنسانى مع عبده جبير أن يكرهه ولا يقول له على مادة قد تساعده فى عمله الذى يقول أنه يقوم به.

عبير سليمان نحلة الأخبار ومخزون خلاصتها

هى مدونة من جيل شباب خمسة وعشرين يناير، مدونتها عنوانها يوميات عانس وقد جمعت المدونة ونشرتها فى كتاب بالعنوان ذاته.

تكتب فى الصحافة كما تكتب القصة القصيرة، والسيناريو.

كما أنها تقوم بالحكى خاصة فى احتفالات التوقيع للكتاب حيث تعرض ما فى الكتاب بطريقتها الخاصة بمصاحبة فرقة موسيقية

صغيرة.

كانت (قبل الثورة) مدعوة إلى هولندا لتشارك فى مهرجان ثقافى عالمى كبير بعنوان ليالى الشتاء فى مدينة لاهاى. رجعت إلى مصر فى اليوم الأخير من يناير بعد أن شاركت معى فى مظاهرة مصرية/عربية صغيرة فى لاهاى أيضا ضد مبارك وأدلت بحديث إلى التلفزيون الهولندى عن الثوار من جيلها.

اهتماماتها قبل خمسة وعشرين يناير كانت تنحصر فى الكاريير أى مشروعها الذى تريد له أن ينطلق فورا وبسرعة كوكيلة أدبية للكتاب والمبدعين على كافة أنواعهم وهو عمل غير مسبوق فى الشرق الأوسط العربى (حسب علمى) ..وقد استقالت من عملها الذى كان يدر عليها دخلا منتظما،لكى تتفرغ لما تريد تحقيقه.

حينما اشتعلت الثورة، تناقشنا ونحن نتابع على التلفزيون فى أمستردام ما حدث وما يمكن إن يحدث. فوجئت بحماسها وبمعرفتها لميكانيزم الحركة السائلة والمتغيرة أبدا للشباب ولما يحدث فى التحرير. قبل الثورة كانت عازفة عن العمل السياسى مثل ملايين غيرها.. عزوفا كنت أطلق عليه متفكها اكتئاب سياسى جاء نتيجة طبيعية لكآبة مبارك النفسية والشخصية ووجهه المحزن الكئيب الذى يصيبك بالقرف.فانعكس هذا القرف على غالبية الشعب المصرى وكنتاج أيضا لكآبة نظام حكمه المتجهم،الذى انتزع من المصريين حسهم بالفكاهة وضحكاتهم ومرحهم وحولهم إلى شعب يمارس العنف على نفسه يوميا عبر وسائل الانتقال والمواصلات فى الشارع وفى أماكن العمل وفى البيوت.

فى الشارع المصرى كان التحرش الجنسى قد أصبح ظاهرة خطرة ودائمة ويومية، لجميع الإناث،منقبة أو محجبة أو سافرة. عبير سافرة، فلك أن تتصور ما تعانيه يوميا فى شوارع القاهرة.

كنت أتصل بها ومعها بالهاتف كلما كان ذلك متاحا وكذا عبر الايميل قبل أن يقطع مبارك الانترنيت عن مصر فى محاولة ساذجة لعزلها عن العالم ولعزل الثوار عن بعضهم.

أرسلت لى أيميل فى بداية أيام الثورة التى التحقت بها عبير تقول لأول مرة أشعر بالفخر بأنى مصرية.

سألتها بعد ذلك حينما التقيتها عن الوضع الخاص لإناث الثورة فى ميدان التحرير.. فقالت إنه على العكس مما كان يظن الكثيرون فلم تحدث حالة تحرش واحدة وأن بنات الثورة كن ينمن فى مسجد عمر مكرم بالقرب من رجال وشباب الثورة..وأن الشباب هم الذين كانوا يقومون بحماية البنات ويحرسونهن فى موقعة الجمل وغيرها من المعارك، حينما تم التحرش بالثورة وهاجموها بالسيوف وقنابل المولوتوف..

قالت عبير أن البنات كن يجلسن بجوار الشباب يدخن السجائر بينهن محجبات وسافرات، ويغنين معهم يشاركهم فى ذلك شباب ملتحون وعلى جباههم سيماهم من زبيبة الصلاة..

تخرج من بيتها -بانتظام الآن- تشارك فى الوقفات والاعتصامات وما تيسر من المظاهرات.. وتواصل الإجراءات القانونية

لمولودها الجديد كوكيلة أدبية.

حياة الشيمى
التى ظهرت واختفت ثلاث مرات

الحكى عن حياة الشيمى يأخذ صيغتين : الماضى..والآن.

فى الماضى، نقول كانت، حياة الشيمى طالبة فى الجامعة يسارية منضمة إلى النشاط اليسارى العام وشاركت مع طلاب مصر مظاهراتهم واعتصاماتهم الشهيرة فى عام الضباب وسجنت معهم وغنت معهم فى ميدان التحرير فى الكعكة الحجرية ومثلت مع الفرق المسرحية فى الجامعة البعض يأكلونها والعة للكاتب الراحل نبيل بدران.. والملك هو الملك لسعد الله ونوس.

رحلت إلى لبنان وعملت فى الهلال الأحمر الفلسطينى وزارت المخيمات الفلسطينية..كما تآزرت مع العمال المصريين إبان أزماتهم مع الفصائل الفلسطينية المسلحة عندما عامل الفلسطينيون فى لبنان العمال المصريين باعتبارهم بتوع السادات وأهانوهم بل وسجنوا بعضهم بدون ذنب.

كنت أيامها هناك وكانت حياة الشيمى أيضا هناك..وهناك تعرفت عليها..

ثم رجعت هى إلى مصر تشارك فى النشاط السياسى الحزبى العلنى متوسمة خيرا فى جماعات اليسار، وتقوم بتمثيل دور البطولة مرة أخرى فى الملك هو الملك مع السعدنى ومحمد منير..وتشارك فى بعض أفلام داوود عبد السيد وكان آخرها سارق الفرح.

ثم تختفى حياة الشيمى اختفائها الأول..

تنسحب تدريجيا من الحياة السياسية والمسرح والسينما وتكسب لقمة عيشها من الترجمة من الفرنسية إلى العربية متفرغة لابنتها الشابة كأم وحيدة لتتخرج الابنة من الجامعة وتتزوج وتعيش مع زوجها فى واحدة من المدن الجديدة على طريق الفيوم. لتقع الشيمى (كما نناديها) بمفردها فى شقتها فى عمارة تطل على ميدان الفلكى فى باب اللوق، هاجرة الترجمة، عازفة عن الخروج،تقوم بواجباتها كأم وجدة الآن بين وقت وآخر وتلتقى بمن تبقى من أصدقائها القدامى.

ثم نشطت بعض الشىء وظهرت مرة أخرى مع الحراك السياسى الجديد فى مصر مع حركة كفاية..لكنها سرعان ما تنسحب للمرة الثانية. لتختفى أيضا إلا عن قلة من أصدقائها القدامى.

حينما رأيتها منذ سنتين تقريبا فى بيتها هالنى وضعها.. فهى لا تتسوق بل تطلب ما تريد تيك آوى تقضى فراغها على الأريكة المواجهة للتلفزيون تتفرج على الأفلام العربية والأجنبية القديمة.. وياريت تكون أبيض واسود والمسلسلات التركية،معلنة شكوكها فى كل بارقة أمل مثل البرادعى وغيره.. ثم تواصل ما تبقى من نشاط اليوم مستلقية على أريكة.. عازفة حتى عن النوم فى غرفة نومها !

هذا اكتئاب مباركى بامتياز!

لتظهر مترددة مع ظهور البرادعى وحركة التغيير ثم تنكفئ مرة ثالثة على نفسها.

لم أكن فى مصر حينما كانت تقف فى بلكونتها فى الطابق السابع فى عمارتها

وحينما شاهدت المظاهرات تجتاح ميدان الفلكى والمناطق المجاورة.. رأت القناصة يتمركزون على أسطح العمارات العالية ويقنصون شهود العيان..يقتلون حتى الأطفال الذين تمترسوا دفعهم الفضول للوقوف فى البلكونات لأولئك الذين يصورون من بلكوناتهم ما يحدث. ومنهم بالطبع حياة الشيمى..فقد سحبت كاميرتها القديمة وهات يا تصوير!..

فقررت النزول إلى الميدان..

نزلت مدعمة بالطعام والشراب وما تيسر من مساعدات أخرى.

هذا هو الآن لحياة الشيمى..

أصبحت شقتها ملجئاً لمن يلوذ بها طلبا لمكان آمن ولو لساعات راحة جسدية قليلة.

تعد ما تيسر من الطعام والعصائر وتهرع به للميدان مثلها مثل المئات والآلاف الذين ساهموا فى الثورة وآزروا الثوار.

ثم تهتف معهم الشعب يطالب بسقوط النظام

كنت أجلس على المقهى فى مساء قاهرى.. تلفنت لها أقول إنى فى مصر ونفسى أشوفها.. قالت سأرتدى ملابسى وآتى إلى الزهرة.

حينما وصلت مازحتها إيه النشاط ده؟ أنا ما توقعتش إنك تردى أصلا

فقالت طبعا لو كنت زى زمان وقبل خمسة وعشرين عاماً كان معقول أنزل فى الليل وآجى الزهرة؟ مستحيل

وحكت لى الشيمى حكايات الثورة كما شاهدتها فى الميدان وكما تابعتها من بلكونتها.كانت تنزل للميدان تراقب وتعاين وتشارك.. ثم ترجع إلى شقتها لتهبط مرة أخرى..

تبدلت لغة جسدها وملامح وجهها وأصبحت أكثر حضورا ونضارة هى التى أصبحت الجدة منذ سنوات قليلة!

هكذا بذهاب مبارك ووجهه الكئيب استرد الناس حياتهم السابقة التى سرقها منهم مبارك ونظامه وعصابته.

رجع المصريون إلى إنسانيتهم بعد أن توحشوا !!.

القاهرة ٢٧ فبراير ٢٠١١

ثوار الظل

سعاد سليمان

يا أهالينا ضموا علينا تصدر هذا الهتاف أكثر المظاهرات التى صنعت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، كنا نطلقه عندما نرى الكثير من المصرين يتفرجون على المظاهرات التى تمر بينهم، وأقصى ما كانوا يفعلونه هو أن يلتقطوا صورا للمتظاهرين، وكان هذا مثار استياء منا ونعتبره أحد أشكال الجبن، ولكن يبدو أنهم كان لهم مهمة جليلة أخرى وهى توثيق أحداث الثورة ووضع كل ما صوروه على الإنترنت فى الوقت الذى مُنعت فيه معظم وسائل الإعلام من تصوير القظائع التى ارتكبها الأمن المصرى بقيادة حبيب العادلى ضد المتظاهرين، ومن خلال هؤلاء المتفرجين من على الأرصفة وشبابيك وبلكونات البيوت شاهد العالم صلابة المصرين .

ويبدو أن أهالينا منذ يوم الأربعاء ٢٦ يناير ينضمون علينا، ليس هذا فقط، ولكنهم أيضا أصبحوا الجندى المجهول الذى يحمى الثورة، وساعد على نجاحها، ولا يعرف أحد عنهم شيئا، ولن نعرف، وهم لا يطلبون بطولة، ولا يسعون لأضواء الكاميرات ليدعوا صدقا أو كذبا أنهم صناع الثورة .

وهذه محاولة متواضعة وغير مكتملة الأركان منى لتسجيل جزء من بطولة هؤلاء الثوار، الذين اختاروا منطقة الظل بعيدا عن صخب الانتهازية والادعاء، وثوار الظل أو الجنود المجهولون لثورة يناير ليس لهم أسماء معلومة أو عناوين محددة ولكن لهم مواقف إنسانية تفوق الوصف

الأربعاء ٢٦ يناير:

رأيت وجهه مرهقا، وقد انحنى ظهره، ورغم ذلك كان يبتسم، هو رجل بلغ الستين من العمر يشبه دراويش مولد سيدنا الحسين، فى الأوقات العادية ربما يطلب منك حسنة، ولكنه تحول فى المظاهرات التى بدأت من تقاطع شارعى طلعت حرب مع عبد الخالق ثروت بخمسمائة شخص وهي فى شارع نجيب الريحانى بالعتبة بأكثر من خمسة آلاف، تحول هذا الشيخ إلى بسمة على شفاه المتظاهرين، فقد تجول بيننا بكيس من البلح،

يمنح كل شخص بلحة واحدة، وكأنها نوع من البركة، حتى المراسلين الأجانب لم يرفضوا بركة هذا الرجل أقصد بلحته .

عندما وصلنا شارع نجيب الريحانى بالعتبة، هجم عساكر الأمن المركزى ومن أمامهم العربات المصفحة المخيفة والتى تطلق الرصاص المطاطى على المتظاهرين الذين تفرقوا فى الحارات الضيقة أو مداخل البيوت التى رحب ساكنوها بإخفائهم، أما أصحاب الورش فى الشارع فقد كانوا حصن الأمان لكثير من الفتيات والسيدات المرعوبين من ضرب النار ونظرات المخبرين وعصا العساكر، وقام الصنايعية وأصحاب الورش بتوجيهنا للدخول إلى الورش وأغلقوها علينا، وقدموا لنا أكواب الشاى لمن يريد والكثير من الاطمئنان ثم ودعونا بعدما اطمئنوا من خلو الطريق من زبانية حبيب العادلى، هؤلاء الصنايعية لم نعرف اسما واحدا فيهم ولا يعرفون أحدا منا .

الجمعة ٢٨ يناير :

هذا هو اليوم الأكثر عظمة فى تاريخ الشعب المصرى، ليس فقط لأنه كان الفيصل فى إنهاء حكم حسنى مبارك وبداية صفحة جديدة فى تاريخ مصر، ولكنه أظهر معدن الشعب المصرى حتى لمن عاش فى مصر فترة طويلة.

فما أجملها السيدة العجوز التى تنطق بصعوبة أنت آيز إيه وتضيف ابنتها الشابة محتاجين إيه فرد عليها عايزين خل ويبدو أن السيدة من بقايا الجاليات الأجنبية فى مصر، أما ابنتها فواضح أنها مصرية، وتسكنان فى إحدى شقق عمارات شارع طلعت حرب وتحديدا فوق شركة مصر للأسواق الحرة أو بعدها بقليل لا أذكر، هذه السيدة وابنتها اخترقا حاجز الخوف، وعواقب مساعدة من يتعرضون للضرب بالغازات المسيلة للدموع، والتى ذاقوا تأثيرها، وبكل شجاعة أمطرونا بوابل من حبات البصل وزجاجات الخل وحبات الليمون والمناديل الورقية حتى نزيل أثر القنابل المسيلة للدموع، والمفاجأة أنهن أرسلن إلينا فى السبت بقسماط وبرتقال وقالت لنا العجوز علشان لو جعانين، ومن بين دموعنا المسالة من قنابل النظام الفاسد، ضحكنا من كرم وبساطة هذه السيدة وابنتها، ولم نعرف اسميهما ولم يعرفا أسماء أى منا، أما فى شارع هدى شعراوى حيث بدأت المظاهرات بعد صلاة الجمعة مباشرة، وفقدنا الاتصال بأهلنا، وقفت سيدة جليلة على باب العمارة، وهى تحديدا أمام معرض السيارات فى شارع هدى شعراوى، وقفت هذه السيدة تأمر البواب المتأفف بفتح باب العمارة لمن يريد الاختباء، ومعظمنا نساء، وبروح تملؤها الطيبة والأمومة، تسألنا من تريد الاطمئنان على أهلها أو تدخل الحمام أو تغسل وجهها، وحتى من قرصها الجوع فلتتفضل فى بيتها، وفتحت لنا السيدة الكريمة بيتها، وتحدثنا فى تليفونها الأرضى كل يطمئن على ناسه، وشكرنا كرمها، كما تركنا لديها كل المصابين الذين سالت دماؤهم لتضم جراحهم، والشهداء تلقنهم الشهادة، هذه السيدة الجليلة لا نعرف اسمها ولا تعرف اسم أىٍّ من الذين آمنتهم ولقنتهم الشهادة أو

داوت جراحهم وان عرفنا أن لها ابنا خرج فى المظاهرات ولم تعرف عنه شيئا .

منذ الساعة الثانية عشر ظهرا وحتى السابعة مساء نحاول دخول ميدان التحرير ونحن فى ميدان طلعت حرب والأمن يسد علينا كل الطرق، وبدأ الإحساس بالجوع يتسرب إلينا، وكل المحلات مغلقة بالطبع، والأمن يتربص بمن يحاول الدخول أو الخروج، ورغم كل هذا الحصار ظهر من يوزع أرغفة عيش شامى فارغة من أى شىء بداخلها عيش شامى حاف يوزعه على الجميع دون تفرقة، الجميع يأكله شاكرا، من أين جاء هذا الشاب؟ لا أحد يعرف، كيف دخل بأجولة العيش الكثيرة والتى لن تقل عن عشرة لإطعام عشرة آلاف شخص لا يعرفهم ولا يعرفونه ولم أحتفظ حتى بشكله أو لون ملابسه، هو فقط يد امتدت لى برغيف فارغ، أكلته وأنا والجميع نكاد نموت جوعا، وكان أشهى ما أكلت طوال حياتى، ومضى ملاك الخبز كما أطلقنا عليه ولم نوجه له كلمة شكر واحدة .

يبقى فى سلسلة ثوار الظل اسم واحد فقط، عرفته،لأنها ممثلة وطبيبة وصديقة لمعظم المثقفين وكذلك المتظاهرين وهى الدكتورة سهام عبد السلام، ولقرب بيتها من بؤرة الأحداث فقد أصبح هذا البيت بمثابة مستشفى للعلاج وبيت للراحة وماوى للمبيت والهروب والاختفاء، لا تسألك الدكتورة سهام عن اسمك، ولماذا أنت فى بيتها؟ تأكل طعامها أو تنام على فراشها، فقط تسألك هل ينقصك شىء، كيف حال جروحك؟ تطهر الجروح، وربما لن تقابلها مرة أخرى، وربما معظم الذين كانوا ضيوفها لم يعرفوا اسمها ولم تعرف أسماء الكثير منهم، ولكنها كانت هى والكثير من نماذج البطولة التى لم أستطع رصدها جميعا. كانوا جنودا مجهولين لثورة يناير، فقد كانوا ثوار الظل ■

ملائكة التحرير

سلوى بكر

صديقة قديمة لى عمرها يزيد عن ستين سنة، تصوم رمضان وتحتفل كل سنة بعيد شم النسيم، سألتنى وهى المهندسة المعمارية المرموقة بإحدى شركات المقاولات الكبرى، إن كنت قد رأيت ملائكة تظهر كل ليلة فى سماء ميدان التحرير لتحرس الثوار أيام ثورتهم وكررت السؤال مرارا : هل رأيت الملائكة فعلا ؟ فقد قال لى كثير من الناس أنهم شاهدوهم بأم أعينهم.

فى الحقيقة صدمنى السؤال، وكدت أضحك لسذاجته المتناقضة مع المستوى التعليمى لهذه الصديقة، فكرت قليلا قبل أن أقول لها : نعم رأيت الملائكة تحرس الناس فى ميدان التحرير.

تحتاج الأسطورة عادة إلى وقت طويل لتطبخ وتحد وتنسج، وتخرج فى صورتها الأخيرة ذات الملامح الخيالية الجامحة، فالأسطورة فى أبسط تعريف لها هى حقيقة يعاد إنتاجها بفعل الخيال الجمعى لشعب من الشعوب، وإعطائها، أى الحقيقة ملامح قادرة تثبيت هذه الحقيقة فى الذاكرة الجمعية، مع ملاحظة أن الأساطير فى العالم المعاصر تجاوزت مرحلة الصناعة الجمعية المشتركة، وباتت تتم بفعل فاعل، ومع سبق الإصرار من قبل الأنظمة السياسية والإعلام الموجه من قبلها.

فى تاريخ مصر الحديث قلما تمت أسطرة حقائق أو أحداث من قبل الناس، ربما حولوا بعض الأشخاص إلى حالات مأسطرة، أو حكايات مأسطرة، ولكن أن يبلغ حدث ويرتقى إلى مصاف الأسطورة، فهذا ما لم يحدث من قبل فى التاريخ المصرى الحديث، اللهم إلا بعد هزيمة ١٩٦٧ من القرن الماضى، فظهرت حكايات مأسطرة تتعلق بظهور السيدة العذراء بكنيسة الزيتون، مما دفع كيرلس السادس بابا الكرازة المرقسية وقتها لأن يقول ما معناه أن ظهور السيدة العذراء بكنيسة الزيتون يعد أمراً طبيعياً لأنها إنما ظهرت فى هذا المكان الذى سلكت من خلاله العائلة المقدسة عند هروبها إلى مصر، كى تواسى المصريين الذين فجعوا بالهزيمة من إسرائيل واحتلال أراضيهم فى سيناء،

وذلك بعد أن هربت السيدة العذراء ويوسف النجار من فلسطين إلى مصر.

إن أسطرة ثورة التحرير، وتصور أن ملائكة كانت تظهر هناك كل ليلة، لتحوط الميدان الفسيح وتحرس الثوار، إنما يعنى فى معناه الأعمق، أن هذه الثورة إنما كانت حدثاً جللاً فى تاريخ المصريين، وربما كانت أسطرة هذا الحدث هى أسرع أسطرة عرفتها مصر الأساطير عبر تاريخها، منذ زمن الطوفان السحيق الذى أنتج أسطورة إيزيس وأوزيريس وحتى أساطير ما بعد بركان ثيرا المدمر الذى أدى إلى محو ٢٠٠ سنة من التاريخ المصرى القديم.

إن جلالة ثورة التحرير كحدث، إنما تأتى لعدة أسباب، أولها عنصر المفاجأة، فلقد باغتت هذه الثورة الجميع : السياسيين والمراقبين والمؤرخين وكل المشتغلين بالشأن المصرى العام، كما فاجأت هذه الثورة أيضاً السلطة السياسية الحاكمة فى العهد البائد ورموز النظام السالف إضافة إلى القوى السياسية العالمية خصوصاً أصحاب المصالح منها فى مصر والعالم العربى وتحديداً الأمريكيين.

كما فاجأت هذه الثورة أيضاً كل الجماعات السياسية الراديكالية من يمين ويسار، فالتوقعات الناتجة عن استقراء ما هو موجود على الأرض كانت تتوقف عند حدود احتمالات لفوران شعبى واسع قوامه سكان العشوائيات وما يطلق عليه فى الأدبيات الماركسية بالبروليتاريا الرثة، وأن حدود هذا الفوران هو المطالبة بالخبز، وحياة أفضل قليلاً وأبعد قليلاً عن تحت خط الفقر الذى يعيش عنده ملايين من سكان هذه العشوائيات المحاطة عبر تجمعات ضخمة بالمدن المصرية القديمة وتحزمها من كل ناحية، لكن ثورة التحرير فاجأت الجميع، فهى لم تكن على غرار انفجار يناير ١٩٧٧ فى القرن الماضى، حيث خرج الفقراء احتجاجاً على رفع أسعار بعض السلع الأساسية كالأرز والسكر، إنما جاءت مطالبها منذ اليوم الأول ضد الاستبداد السياسى أولاً، ودعت إلى ضرورة إنهائه عبر إسقاط النظام الحاكم ورموزه، وأن العدالة الاجتماعية وهو شعار رفعته الثورة أيضاً لن يتأتى إلا بالتخلص من هذا الاستبداد.

فاجأت مطالب الثورة الواضحة المحددة الجميع، ومبعث المفاجأة هنا هو أنها لم تكن مطالب حزب سياسى راديكالى له الخبرة والباع فى العمل السياسى، أو جماعة من المنظرين لمسائل الشأن العام، إنما كانت مطالب مجموعة من الشباب الذين لم يعرف عنهم الاشتغال بالعمل السياسى، أو وجودهم ضمن أطر سياسية محددة لا مطلبيات بهذا الشأن.

طريقة الثورة غير المسبوقة ليس فى مصر فقط، ولكن فى العالم كله، وعلى مدى التاريخ، لعبت دوراً فى أسطرة الثورة على ذلك النحو السريع، فقد أدرك الجميع أن صناعة الثورة يمكن أن تتم عبر مجموعة أزرار إلكترونية صغيرة، وأن الطرق الكلاسيكية للثورات قد ولى عهدها، فوجود تشكيل سياسى سرى أو علنى يقود الثورة بات أمراً قديماً. لقد غيرت هذه الثورة نظرية الثورة برمتها، مثلما غير الهجوم على مبنى

التجارة العالمى فى نيويورك نظرية الحرب الحديثة وطرائقها.

تأسطرت ثورة التحرير سريعاً أيضاً، لأنها فجرت إبداعات وطاقات تجلت فى جانب التنظيم طوال ما يزيد عن أسبوعين داخل ميدان عام، فتنظيم الأحوال المعيشية وما يتعارف عليه Comodation «كومودشن» أو السهر على متطلبات الحياة اليومية الأولية داخل ذاك الميدان الفسيح، إذ هلّ الجميع وأزاح جملة من الأكاذيب روج لها النظام الفاسد السابق وسلطة مبارك العائلية من وجود أمراض وبائية كأنفلونزا الطيور والخنازير، أو وجود فتنة طائفية لا شفاء منها بين المسلمين والأقباط فى مصر، أو وصول المصريين حالة من الكبت والجوع الجنسى لا مثيل لها لدى شعب آخر، تجلت فى التحرش الجنسى، وشيوع اغتصاب النساء، فملايين من الناس مسلمين وأقباط نساءاً ورجالاً تعايشوا على مدى أيام وليال طويلة دون أن يبدوا أى ملمح من ملامح ظواهر سابقة مشار إليها آنفا.

ولدت ثورة التحرير – وفى التو لحدوثها – قيماً ثقافية جديدة، فآلاف النساء، وربما الملايين منهن اللواتى شاركن بهذه الثورة أخرس الحوار الدائر حول وضعية النساء فى مصر، فهاتيك النساء إنما جئن إلى التحرير من كل الطبقات والفئات الاجتماعية، تنتمين إلى ثقافات مختلفة بعضها دينى تراثى، والآخر فلاحى ريفى، أو مدينى، نساء بالبلوجينز أو بالجلابية أو بالإسدال والنقاب، نساء مدخنات وأخريات مرضعات لأطفالهن على أرصفة الميدان، ما أن تنتهين من إلقام أثدائهن للرضع، حتى تقفن ليهتفن : الشعب يريد إسقاط النظام.

ولم تكن القيم المتعلقة بالموقف من المرأة هو الجديد فى ثورة التحرير فقط، لكن قيم احترام الآخر، وحق الاختلاف بمستوياته المختلفة، وتفهم حرية الآخرين ونبذ الأبوية والعصبية العائلية، والتحزب الدينى هو ما كرسته هذه الثورة على نحو بين منذ بدايتها.

إضافة إلى ما ابتدعته من طرائق احتجاج تجلت فيها ملامح الشخصية المصرية بكل إيجابياتها، وهى الملامح التى نجح الاستبداد السياسى والفساد العارم لنظام مبارك فى طمسها، فعبر هذه الطرائق الاحتجاجية علّم المصريون العالم أن الفرح والمرح والسخرية والغناء الجماعى والرسم والتعبير بفوارغ علب الكشرى، يمكن أن يكون وسيلة للرفض، وأن التظاهر والاعتصام وإطلاق الهتافات المدوية يمكن أن يكون عبر احتفالات كرنفالية صاخبة تعلن عن كمون تراث قديم ممتد منذ احتفالات أوزوريس الصاخبة التى وصفها هيرودوت تفصيلياً والمتعلقة بالخصب، وذلك فى تاريخه المعروف.

صدق الذين أسطروا ثورة التحرير العظيمة، فالملائكة كانوا بالفعل فى ميدان التحرير، إنهم الشهداء الذين سقطوا فى عنفوان شبابهم وثورتهم والذين راحوا ضحايا شهوة السلطة والمال المتشبثين بالكراسى، إنهم ملائكة بالفعل، يمنحون الجميع النورانية والطهر، تطوف أرواحهم بالميدان دوماً وتباركه ■

مع تحيات الشعب والشاب ميدو

سامح الأسوانى

فى مساحة خالية على جدار أمام مترو الأنفاق، كتب شاب بالإسبراى عبارة واضحة وبخط كبير إلى المترو ثم رسم أسهما تشير إلى اتجاه محطة عين شمس وذيلها بتوقيع مع تحيات الشعب .. ميدو. وعلى جانبى تلك اللوحة الإرشادية، الوحيدة تقريبا فى الحى الشعبى القديم، إعلانان عن مراكز الدروس الخصوصية للثانوية العامة، فيما تتراص على الأرض أكوام القمامة التى تسبح فوق بركة متجددة من مياه الصرف الصحى.

تشير هذه اللوحة إلى إحساس، ظهر مجددا، بقيمة المشاركة فى بناء الوطن وذلك بعد يوم واحد من انسحاب الشرطة المريب من كل محافظات مصر تقريبا، بعد الصدام الحاسم فى يوم جمعة الغضب ٢٨ يناير، والذى أسقط نظام مبارك. الملحوظة اللافتة هنا أن الشاب ميدو كتب عبارته بخط جميل ومن دون أخطاء إملائية صارت ميزة كل متعلمى وخريجى مصر، والأهم أن ميدو خرج مع شبان حيه لإعادة بناء الدولة المنهارة بفعل الحكم الديكتاتورى والفساد وبرنامج التوريث، ولم يكتف شباب الحى، مع عشرات الآلاف فى مصر، بحماية الأملاك الخاصة والمنشآت العامة والكنائس، ضمن اللجان الشعبية، إنما قرروا أيضا ضبط الحياة اليومية وإعادة بناء نسق العلاقات الاجتماعية القائم على تغليب المصلحة العامة وتغيب الإرادة والتطلعات الخاصة لصالح المجموع، والقيام بدور الدولة الغائب فى حفظ الأمن وضبط الأسعار إلى درجة أن اللجان الشعبية استرجعت سياسة تأميم وسائل الإنتاج وأعادت توزيع الثروة فى أشكال بسيطة وحيوية.

إن الشعور بالخطر على النفس والمال، بعد التهريب المنظم للمساجين، أدى إلى نتيجة لم يتوقعها نظام مبارك المخلوع، فقد كان يهدف إطلاق البلطجية فى الشوارع إلى إشاعة حالة من الخوف والذعر بين الناس والإيهام بأن ذهاب مبارك يعنى حلول الفوضى، وقد قيل إن سيناريو الفوضى هذا كان معدا لتطبيقه فى حال ظهور اعتراض

على تولى جمال مبارك الحكم بطريق التوريث، لكن ثورة ٢٥ يناير عجلت بتنفيذ هذا السيناريو، الذى ثبت فشله تماما وأدى إلى توحد المصريين وظهور قيم جديدة مثل الإيثار محلا للأثرة، وهو رد فعل سلوكى يظهر لدى الكائنات كافة فى حال الكوارث؛ ففى أيام الفيضانات، التى كانت تعرفها مصر قبل بناء السد العالى، كان معتادا أن ترى الذئاب والثعالب والكلاب والفئران وغيرها من كائنات الريف فى حالة فرار جماعى وأن تراهم وهم يقلبون معا فى المخلفات التى ينزحها الفيضان بحثا عن الطعام من دون حدوث اقتتال فيما بينها، بما يخالف طبيعة الغرائز الفطرية، وإذا كان هذا حال الحيوان فما بال الأمر إذا كان الحديث عن الإنسان؛ الكائن الأعلى بين المخلوقات بعقله وقدرته على تنظيم غرائزه.

فى حى عين شمس، وفى أحياء مصر كلها، خرج الجميع على اختلاف مذاهبهم ومستوياتهم الاجتماعية والمعرفية فى الشوارع، ليس فقط من أجل مواجهة العصابات الإجرامية التى أطلقها نظام مبارك، ولكن أيضا لدعم الثوار الذين ظلوا معتصمين فى ميدان التحرير بالقاهرة، وميادين مماثلة فى أكبر المدن المصرية، كان الهدف هو طمأنة الثوار على أهاليهم وممتلكاتهم، ففى ميدان التحرير مثلا وبعد نزول القوات المسلحة إلى الشارع انتشرت دعوات تطالب المعتصمين بالتوجه فورا إلى منازلهم لحمايتها من العصابات وكاد عدد كبير أن يستجيب لهذه الدعوات لولا أن جاءت الأخبار بأن اللجان الشعبية تؤمن كل مكان فى مصر، ومن ثم لم يقل دور تلك اللجان عن دور الثوار الذين طالوا بإسقاط النظام، فقد اتحد الجميع فى مواجهة البطالة والفقر وارتفاع الأسعار، اتحدوا ضد القهر والظلم والقهر والتهميش، لذا لم يشعر المصريون برهبة أو ذعر حين خرج المئات وهم يحملون ترسانة من الأسلحة البيضاء والنارية، وهى ترسانة كافية لتقفيل أى حى فى المشاجرات التى كانت تحدث من وقت لآخر بين سكان منطقة وأخرى. إن مشاهدة سنجة أو فرد فى غير أوقات الثورة كان يعنى مسارعة المحال إلى إغلاق أبوابها، وهو ما تغير تماما مع الثورة ومع اللجان الشعبية فلولا هذه الأسلحة ما تمكنت تلك المحال من فتح أبوابها مطمئنة إلى أنه لن يجرؤ أى لص أو بلطجى على سرقته، بل إن البعض يكاد يجزم أن نسبة الجريمة، السرقة تحديدا، لم تتجاوز الصفر طوال أيام الغياب المتعمد للشرطة، وهو ما عبر عنه أحد شباب اللجان الشعبية قائلا: مش عايزين حكومة -شرطة- إحنا الحكومة والبلد بلدنا.

لقد حاول بعض أفراد النخبة التقليل من شأن اللجان الشعبية وسخروا من جهل بعض أعضائها كما شكوا من خشونتهم فى بعض الأحيان، لكن هؤلاء المشتكين أو المشككين لم يتمكنوا حتى هذه اللحظة من فهم عقلية الإنسان المصرى، الذى لم يثقوا به، والذى بدأ يسير قدما نحو ثورية ستظل تغير من واقعنا، قبل أن يستقر النظام السياسى بانتخاب رئيس جديد وبرلمان يعبر عن طموحات الجميع. هذه القوة الجديدة جاءت خارج إطار المؤسسات المعهودة

وخارج القوى التقليدية، وخارج أى تنظير للنخب السياسية والثقافية المتعالية.

على الجهة الغربية من حرم مترو الأنفاق يقع حى المطرية، الذى يشكل مع حى عين شمس دائرة انتخابية واحدة على الرغم من مساحتهما الشاسعة والكثافة السكانية المرتفعة، والتى تستلزم فصلهما فى دائرتين انتخابيتين مستقلتين، خاصة أنه لم يفز أى من أبناء حى عين شمس فى الانتخابات التشريعية المتعاقبة ، ولم يعرف الحى أى من مكاتب النواب طوال عقود، والحاصل أن الذى كان يفوز فى المطرية هو أحد أعضاء الحزب الوطنى حيث اشتهر بثرائه ونفوذه وسطوته حتى أن شقيقه، وهو مسجل خطر، وقع فى قبضة اللجان الشعبية وبحوزته عدد غير محدود من الأسلحة النارية التى كان يستعد لاستخدامها مع عصابته لترويع الأهالى تطبيقا لسيناريو الفوضى، وتم تسليمه إلى القوات المسلحة، كغيره من البلطجية ممن قبض عليهم.

لعب سكان المطرية دورا مهما فى ضبط الأسعار ومنع استغلال التجار، كما أنهم لم يسمحوا لتجار المخدرات بالعمل، فالوقت غير مناسب الآن. ففى اليوم التالى لتطبيق الحظر بدأ التجار فى استغلال الموقف ورفعوا أسعار السلع الغذائية والاستهلاكية أضعاف سعرها الحقيقى، وكان أهم تلك السلع هو الخبز بطبيعة الحال، والذى يمثل الغذاء الأول للمصريين، وفى تصرف مريب أغلقت معظم الأفران، المدعومة، فى غير مواعيدها المعتادة، أبوابها أمام الأهالى بحجة عدم وصول حصص الدقيق، فيما كان الهدف هو بيع الدقيق فى السوق السوداء وللمخابز السياحية التى رفعت سعر الرغيف من ٢٠ قرشا إلى ٥٠ و٦٠ قرشا، فتكدس الناس أمام الأفران وبدأت معاناة جديدة، جعلت البعض يلقى اللوم على الثورة، لكن حل الأزمة كان بسيطا وملهما وكشف عن مفارقة هائلة حين عجزت الدولة عن مواجهة أزمات طوابير الخبز التى عادت واستمرت مع حكومة رجال الأعمال.

الحل تمثل فى الرقابة الشعبية، حيث بدأ الأهالى فى مراقبة الأفران التى تهرب الدقيق الأخضر، وهو التعبير الشعبى للدقيق المدعم، إلى السوق السوداء أو إلى الأفران السياحية، وفور اكتشاف الأمر تسيطر اللجان الشعبية على المخبز وتجبر صاحبه على البيع بالسعر الرسمى، خمسة قروش للرغيف الواحد، كما تجبره على فتح الفرن إلى الساعة السادسة أى قبل موعد سريان حظر التجول بساعة.

مارست اللجان الشعبية إذن دور الدولة، مرة عبر الرقابة على السلعة الحيوية ومرة عبر فرض قوانين قهرية وشروط إذعان على المتاجرين فى أقوات الناس للقضاء على شكل من أشكال الفساد كان سائدا ومقننا قبل أيام قليلة من انطلاق ثورة الشعب

هذا الدور وصل إلى حد التأميم الذى طبقته الدولة فى الستينيات متبنية وقتها بعض أنماط الاشتراكية، مع الفارق بطبيعة الحال بين طريقة التأميم ومنهجه وأهدافه، فبعد أن قفزت أسعار الخضروات نحو ثلاثة أو أربعة أضعاف سعرها فى الأوضاع العادية، قرر الأهالى مصادرة بسطات الخضروات

المنتشرة بالحوارى والشوارع الرئيسية، ومنعوا الباعة، وهم فقراء أيضا، من العمل بشكل مؤقت من دون حرمانهم من الحصول على دخل يومى ثابت ومقنن، فقد قرر زعماء اللجان الشعبية شراء الخضروات من سوق الجملة بمدينة العبور، وتبرع عدد كبير من أصحاب السيارات الثقيلة بنقل البضائع توفيرا للنفقات، ثم وزع الأهالى أنفسهم فى أماكن مختلفة بالحى ليبيعوا بأنفسهم هذه الخضروات مع هامش ربح صغير، يصل إلى ماين خمسين ومائة جنيه يوميا، يذهب فى النهاية إلى صاحب بسطة الخضار المحظور عليه العمل عقابا على استغلاله، تمكنت اللجان الشعبية إذن من مدّ الحى بالسلع الرئيسية مع حفظ حقوق التجار الصغار، والأمر ذاته تكرر مع أسطوانات الغاز المنزليّة التى وصل سعرها إلى ١٥ جنيها فيما تباع من المصدر بخمس جنيهات.

هذه الروح التى بعثتها الثورة والتى كانت أيضا سببا فى استمرارها، لم تتوار حتى هذه اللحظة، بل إن الباعة فى أسواق الخضروات والفاكهة وعدداً كبيراً من القصّابين، أو الجزارين، قرروا خفض الأسعار تضامنا مع الثورة وتحت شعار مكافحة الغلاء، كما أن هذه الروح ذاتها سرت لمكافحة كل أشكال الفساد خاصة الرشاوى فى المؤسسات الحكومية المتعاملة مع الجمهور، والتى مثلت إتاوات يدفعها المواطن صاغرا من أجل قضاء مصالحه، حتى أن المصريين كانوا يدفعون رشاوى كى يتمكنوا من سداد الضرائب أو الرسوم التى فرضتها وزارة الجباية أو المالية

فى اليوم التالى لقرار مبارك التخلى عن منصبه، وقف شاب أمام موظفة فى مصلحة الشهر العقارى وقد فتحت درج مكتبها وهى تتحدث بنصف ابتسامة صباح الفل فى الشاى بتاعى وهى جملة شهيرة تعنى إنها تطلب «رشوة» لإنهاء أوراق الشاب، فرد عليها الأخير وقد شَب برأسه إلى الأمام قائلا بحماسة صباح الثورة، فرجعت الموظفة بظهرها إلى الخلف وتلجلجت قليلا وهى تحاول أن تنفى عن نفسها تهمة طلب الرشوة، فيما كان الشاب يسير مزهوا تجاه باب الخروج من دون أن تلتقط أذناه همهمات المرأة التى ضربها الذهول ■

خواطر من الإسكندرية حول الثورة المصرية

سامي إسماعيل

بالنسبة لى كان المشهد الأول فى ثورة ٢٥ يناير هو ذلك الشيخ الجليل من تونس الذى يشير إلى رأسه الأشيب ويكرر لقد هرمنا، هذا الشيخ الذى لا أعرف اسمه انحفر على جدار روحى كايقونة للأمل والخوف معاً. عندما أطل على شاشة التلفاز فجر بركان من البكاء : أبكى وأردد عقبالنا، متى ثورتنا؟ خفت أن أهرم دون ثورة وتمنيت أن ينطلق صوت الحشود فى الشوارع طلباً للحرية التى افتقدناها عقودا وراء عقود.

تابعت الدعوة لثلاثاء الغضب ٢٥ يناير لكنى لم أكن فى الشارع يومها توقعت تظاهرات ضخمة توقعت الخطوة قبل الأخيرة لأنى تصورت دائماً أن الغضبة الحقيقية ستكون يوم إعلان استيلاء جمال مبارك على سدة الحكم كنت أتصور دائماً أن هذه الخطوة ستكون الإهانة الأخيرة التى لن يتلعها الشعب، ومع ذلك عندما رأيت حجم التظاهرات يوم الثلاثاء قلت لا أراهن على إرادة الشارع إنما أراهن على غباء النظام،٤٤ ولم يخب رجائى كان النظام غبياً ومتأخراً جداً من البداية إلى النهاية بما وفر وقوداً كافياً للثائرين فى الشوارع وفضاء شاسعاً ليرتفع سقف المطالب ساعة وراء ساعة

كان يوم ٢٩ يناير أول يوم لى فى التظاهرات، كنت قد عدت من العمل بعد ليلة رهيبة استرحت قليلاً وفيما أستعد للغداء سمعت أصوات المتظاهرين يمرون فى الشارع لم أفكر كثيراً أسرعت إلى ملابسى وأسرعت باتجاه الصوت، يجب أن أذكر أنى لم أشارك فى أى مظاهرة منذ تظاهرات الجامعة عام ١٩٩٠ اعتراضاً على الغزو الأمريكى للعراق، المهم أدركت المظاهرة عند ميدان الساعة كانت ثمة سيارة تحمل مكبرات صوت ويسير وراءها حوالى ٢٠٠ شخص يرددون هتافات الرحيل، لكنى اندفعت وسط الحشد مردداً هتافات تطالب بالقصاص لدماء الشهداء وبلا مقدمات كنت فوق السيارة ممسكاً بالميكروفون والجموع تحتشد وتحتشد وأشعر أنها اللحظة التى انتظرتها طويلاً. عندما عدت فى الليل لأشارك فى اللجنة الشعبية للدفاع عن محل

عملى كان لدى يقين بأنها البداية الجديدة.

يوم ٣٠ يناير توجهت إلى محطة مصر بعد صلاة الظهر كانت حشود هنا وهناك وهتافات تتفق أحياناً وتختلف أحياناً، أذكر أن زوجتى التى يملؤها القلق علىّ اتصلت بى لتسألنى عن الأوضاع، كانت هناك أقوال عن بلطجية قادمين من أبو قير لمهاجمة المتظاهرين، أجبتها أنى محاط بمصريين تشرق وجوههم بالابتسامة والرضا، وضحكت من ذلك الطفل الذى لم يتجاوز الثامنة وهو يهتف بكل حماسة باطل حديد عز باطل وتدخل أحدهم قائلاً له أحمد عز فرد الموجودون أحمد عز وحديد عز كله باطل.

بعد ذلك فقدت التواريخ صرت لا أعرف أسماء الأيام فقط أتظاهر فى النهار وأبيت فى العمل وأعرج على البيت فى الصباح، منتظراً أنا والشعب جملة واحدة لن نقبل سواها ...

هذا القبول الرائع للجميع، تمشى فى الشارع تقابل أصدقاء لم ترهم من سنوات، كنا نتعانق بود كأنما تتعانق الأرواح وتتطهر من طول السكوت، ونتبادل التهانى، كان مجرد الخروج إلى الشارع أمراً يستحق التهنئة. بعد ذلك كنت أبكى كلما غنت شادية يا حبيتى يا مصر، واحدة من المتظاهرات تقول لأصدقائها أن أجمل ما فى الثورة أننا حفظنا هذه الأغنية الرائعة.

فى شارع بور سعيد كنت أنظر إلى الشرفات، أتصور أنى أنظر إلى عيون الناس وأستجير بهم، لا كما يستجير الضعيف بالقوى إنما أستجير بهم لنصير أقوى معاً، يوماً بعد يوم كنت ألاحظ تناقص أعداد الناس فى الشرفات. وفى شارع أبوقير حملت صديقى أحمد عبد الجبار على كتفى ليقود الهتاف وبعد حوالى ٤٠٠ متر اندفع نحوى شباب آخرون ليحملوه عنى، ومن بينهم وجدت شابا خفيف الوزن شديد الحماسة فحملته على كتفى وبينما تشتعل الحناجر بالهتاف تحت الصليب على يده وفهمت كيف يجعلنا الوطن جسداً واحداً وحلماً واحداً دون كلمة واحدة وبلا أى ادعاء؟.

رأيت صور عبد الناصر وصور السادات لكن ما أدهشنى وجود صورة الزعيم سعد زغلول يحملها أحد المتظاهرين، وأضحكنى صورة مبارك فوق عربة البطاطا أمام مسجد القائد إبراهيم وهو يحمل لافتة تقول «إنه يريد تغيير الشعب».

ظل المتظاهرون يرددون «إرحل» والرجل لا يرحل ثم قالوا «إمشى» والرجل لا يمشى وأخيراً حاولوا أن يفهموه «أرحل يعنى أمشى» ولم يفهم، عندها تصورت أن المشكلة الحقيقة أنه قد تجاوز الثمانين ومن الضرورى أن يكون عصبه السمعى قد ضمر ولذلك فهو لا يسمع فقمت بكتابة إرحل بلغة الإشارات على لافتة متمنياً أن يفهم لكن أحد المتظاهرين قال لى لعله لا يرى أيضاً، فبقيت لأيام أفتش عن شخص يكتبها بطريقة برايل وفى لحظة ملهمة أدركت أن ذلك لن يجدى نفعاً لأنه سيكون من الضرورى أن أقابله شخصياً وهو أمر لا أحتمله ولا أريده فانتظرت الفرج.

اليوم الأخير، كنت قد هربت إلى نوم

عميق يشبه الموت بعد الخطاب الأسود ليلة جمعة التنحى ولم أتمكن من الخروج حتى سمعت بيان القوات المسلحة والذى جاء مخيباً للآمال أيضاً... توجهت إلى جامع القائد إبراهيم تساورنى الشكوك فى أن ما جاء من ضمان القوات المسلحة لتحقيق المطالب الثورية قد يحدث شرخاً فى وجهة نظر الشارع، لكن الخطاب الأسود كان غبياً جداً حتى أن أحداً لم يكن باستطاعته إلا أن يسمع عمر سليمان ينطق تخليه مشيراً إلى مبارك لتنفجر الاحتفالات فى كل مكان ويخرج الناس إلى الشوارع وتلك السيدة الطيبة من أهل بحرى بالإسكندرية تخرج فى الشارع وتسأل الجميع: يعنى العيشة حتبقى أحسن؟ ونرد جميعاً بالتأكيد حتكون أحسن.

عندها... ودعت أصدقائى قائلاً أحتاج استراحة المحارب وأود أن أقبل أطفالى وأستعد للثورة.

الإسكندرية

٢٠١١/٣/١

الثورة التي تقرأ روايات ماركيز

سيد محمود

1- فى مطار القاهرة وكنت فى طريقى إلى الكويت قمت بفتح الكومبيوتر وعلى صفحة الفيس بوك ظهر
استيتوس من صديقى يوسف رخا يؤكد فيه أن الثورة يوم ٢٥ يناير، وكعادته سخر من الخبر ودعا الأصدقاء كلهم للمجيء بسندويتشات لزوم الرحلة إلى الثورة وبسرعة كتبت: يا جو، هنروح شارع الثورة اللى فى الدقى ولا بتاع مصر الجديدة.
لم يرد رخا، وفى الكويت انشغلت ليومين لم أكن خلالهما بحاجة لأن أدرب نفسى للإجابة عن سؤال وجه لى كثيرا من المشاركين معى فى الندوة التى جئت لحضورها: تفتكر مصر سوف تلحق بتونس؟ لم يكن السؤال جديدا، فقد عشنا عشرين يوما فى مصر ونحن نبحث عن إجابة مقنعة، وفى الطريق للإجابة تسلحنا بالتاريخ والجغرافيا ونظريات الثورة الدائمة وقواعد التخطيط الإستراتيجى وانتهينا إلى وهم مريح لخصناه فى عبارة اكليشيه: مصر دولة مركزية كبيرة ولها مؤسسات ضاربة فى البيروقراطية ونفوذها الإقليمى يصعب من تكرار النموذج التونسى، كما أن نظامنا ذكى ضبط إيقاع المعارضة وأعطاها مساحة تنفيس لم تكن متاحة للمعارضة التونسية والصحافة المصرية لا تزال تقوم بواجبها فى ذم الرئيس وعائلته ومناهضة فكرة التوريث ليل نهار، فلماذا نثور؟.

2- جاء يوم ٢٥ يناير وانتصف النهار لم يحدث شيء، أكد لى زميلى الخبير فى صحافة المعلومات أنه قضى الوقت كله يفتش فى مواقع الإنترنت عن خبر يطمئنه عما يحدث فى مصر ولم يجد شيئا ؟ فالثورة لم تصح من نومها، قضت الليل على الفيس بوك فتأخرت فى النوم.
ما قاله بدا لى تحصيل حاصل، غير أنه اتصل بى بعد الغذاء ليطلب منى مشاهدة الجزيرة بسرعة، قالها باختصار لافت لنظر الثورة وقد حدثت، والبلد ولعت .
مرت المشاهد أمامى صاخبة وعنيفة، لا إيقاع لها غير الغضب، ولبرهة شعرت أن ما

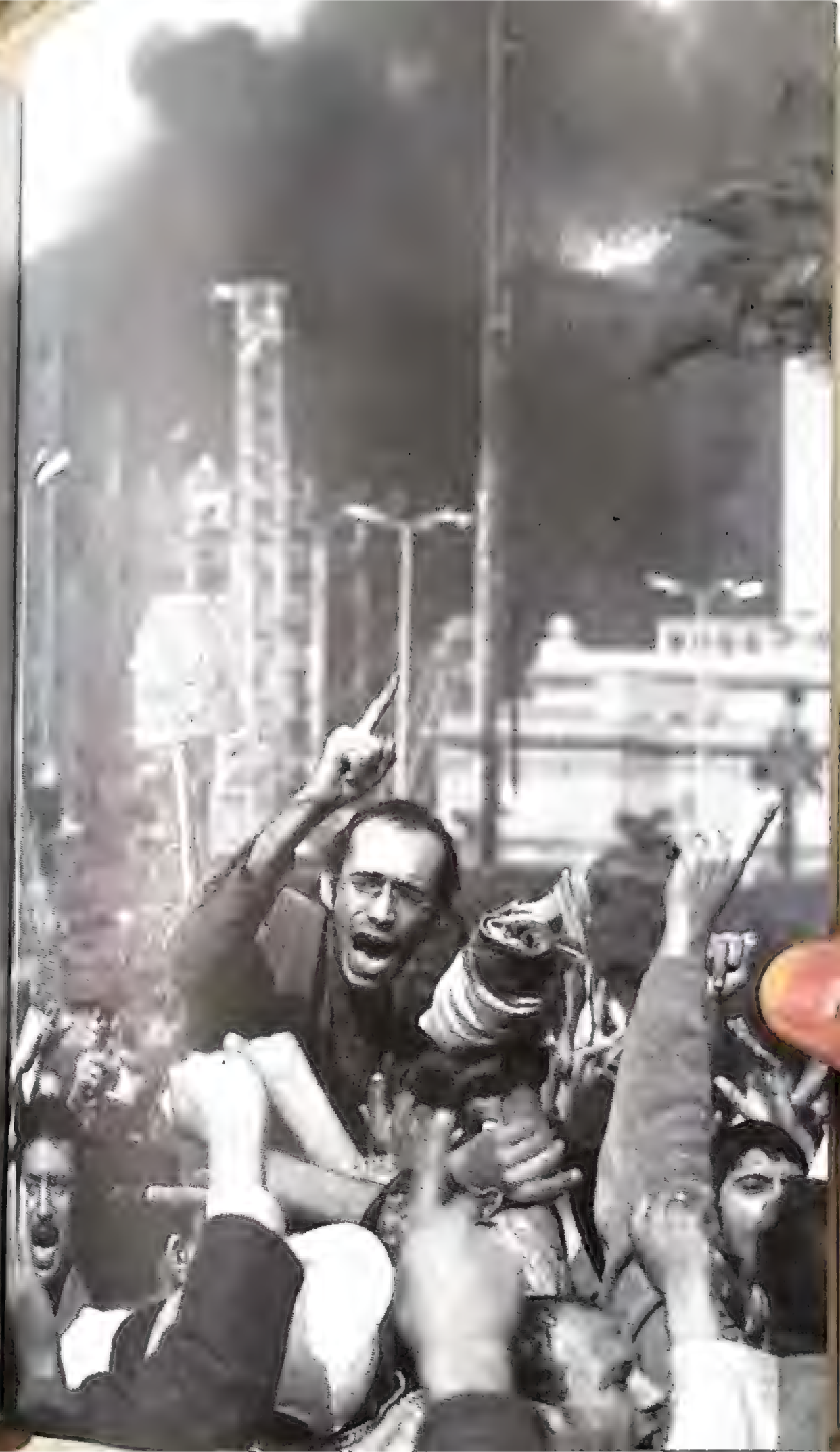

أراه يحدث فى بلد لا أعرفه وفى شوارع غير تلك التى غادرتها قبل يومين. لكن اطمئنانى راح وأنا أرى الميدان القريب من مؤسستى الصحفية وقد تحول إلى ساحة حرب حقيقية بين وجوه كان من الصعب تفادى الألم الكامن فيها أو تجاوز ما فى ملامحها من ضجر، وضاعف من إحساسى بهول ما رأيت ليلتها، الأسئلة التى انطوت عليها السهرة التى قضيناها فى بيت صديقنا إبراهيم فرغلى حيث كان السؤال:هل هى الثورة؟ ولا إجابة غير القلق.

قضى رفاق تلك الليلة الليل كله أمام شاشات الفضائيات أما أنا فكتبت على صفحتى: لا أنام، وتلقيت من الأصدقاء رسائل مفخخة بالألم، فهم يعيشون المعنى الذى قصدته سوزان سونتاج فى كتابها الالتفات إلى ألم الآخرين .

بدت لى أصوات من يظهرون على الشاشة مبحوحة فيها أثر من صراخ عميق وهتاف لا يمحو منها رنة الحقيقة وثمة قلق يقوده فرح خفى تسرب إلى أرواحنا ولم نتبين أسبابه إلا يوم جمعة الغضب .

3- لم أعش اللحظات العصيبة فى نهار جمعة الغضب والتى قامت فيها الشرطة بفتح النار على المتظاهرين، كنت قد عدت من سفرى عصر الخميس وقضيت الليل أناقش زوجتى فيما جرى، وعلى غير عادتها كانت تمتلىء بحماس لم أتبين أسبابه، إذ دعتنى لأول مرة منذ زواجنا للنزول إلى الشارع ولم أفهم دوافعها، ففى السابق كنت أذهب للتظاهر من دون إخبارها وهى التى لم تأت مثلى من تجربة طلابية غنية بمعانى المشاركة والعمل العام وغير ذلك من القيم الكبرى، حتى أنها لم تعرف بأخبار مظاهرة ٢٥ يناير وما جرى فيها إلا من خلال اتصال تليفونى أجريته معها من الكويت، كانت وقتها تشاهد أفلام الكارتون مع أطفالى فى طقس عائلى تماما.

4- صباح الجمعة حرمتنى رغبة أطفالى فى قضاء النهار معهم من متعة الذهاب للمظاهرات التى أعقبت صلاة الجمعة. لكنى نجحت فى فرض طوارىء فى المنزل وتصلبت أمام شاشات التليفزيون، وكان مشهد هرب رجال الشرطة فى الشوارع لافتا ومخيفا.

خبر صغير أذاعته قناة الجزيرة عن رفض فرقة من رجال الشرطة إطلاق النار على المتظاهرين فى الإسكندرية مثّل نقطة تحول فى إدراكى لمعنى اللحظة التى كنا نقترب منها، هو الوعى الذى قادنى إلى الاتصال بأصدقائى من محترفى العمل العام لأفهم ما يجرى.

غالبية الهواتف كانت مغلقة بقرار حكومى، باستثناء هاتف أرضى لصديق روى لى ما رآه أمام جامع الفتح فى ميدان رمسيس قبل أن يهزمه بكاء طويل راح فيه، لكنه لفت انتباهى إلى أن المواجهة باتت مفتوحة ولا سبيل للتراجع. قالها بحماس لا يلائم مزاجه فى الشهور الأخيرة التى قضاها منهكا فى إنهاء تشطيبات منزله وهى مرحلة لم يصل إليها إلا وهو يعبر عامه الخامس والأربعين.

كانت مكالمتى الأخيرة معه تحفل بالشكوى وبالسخط والمرارة التى أضاعت طقوس الاعتراف التى عرفناها معا.

صديقى كان حماسه للسياسة قد تراجع، هو من جيل الثمانينيات لم يتلائم مع تعبير ناشط سياسى الذى حمله رفاق أيامنا، كان يقول لى أن كلمة ناشط ناعمة ليست مثل كلمة مناضل المحملة بإرث العمل مع الناس، بينما ناشط تنطوى على معنى فوقى، هو ابن التحولات التى جعلت المناضلين يتسربون إلى مؤسسات المجتمع المدنى التى تعمل فى رفاهية .

والغريب فى سيرة صديقى هذا أننى دفعته دفعا لعمل حساب على الفيس بوك الذى كان يكرهه ويصفه بـ عدو الثورة .

كان علاء من الذين تربوا سياسيا فى أوساط عمالية ونقابية ويعتبر النضال الإلكترونى ترفا لا معنى له، ولذلك لم يندهش عندما سألته عن سبب إيمانه المفاجىء بما يصنعه جيل الفيس بوك لم يرد إلا ليؤكد لى عمق التشابه الموجود على الأرض بين التجربة التونسية والتجربة المصرية حتى أنه قال: انتبه، التحول بدأ فى تونس عندما رفضت قوة أمنية إطلاق النار على المتظاهرين.

بعد دقائق من إغلاق الهاتف كان التلفزيون الحكومى قد بدأ بث نشيد الرعب عبر إشارات على شريط الأخبار تؤكد حالة الفراغ الأمنى دون الكشف عن أسبابه الحقيقية كان طوفان اتصالات إغاثة قد بدأ، والأهل يتصلون من كل مكان.

الصورة على الشاشة كانت مفزعة، حديث عن لصوص وهجامة (لصوص المنازل) وقاطعى طرق وهروب جماعى لمساجين قبل أن نفهم أن الشرطة أخلت مواقعها وتركته لمتلاعبى العقول فى جهاز الإعلام الرسمى أما الرئيس الذى لم يعد له سوى كرسى الرئاسة فلم يكن له من حق سوى إقالة الحكومة وإعلان حالة الطوارىء وحظر التجوال.

5- مع نزول الدبابات للشارع بدت اللحظة مختلفة، تشير إلى منعطف يسهل معه إدراك حالة الضعف التى يعيشها النظام، فالجيش لم ينزل الشارع إلا فى لحظات تحول واضحة فمنذ العام ١٩٥٢ كان اللجوء فيها للقوات المسلحة هو الورقة الأخيرة لستر العورات السياسية، فأنا من جيل لم ير الجيش فى الشارع إلا بعد اغتيال السادات وكان هذا الظرف مقبولا يومها، أما فى أحداث الأمن المركزى فى العام ١٩٨٦ فلم يزل الملف كله غامضا لكنه كان مفهوما على الرغم من ذلك أيضا.

كان استقبال ابنتى (الأولى ١٢ عاما والثانية ٧ أعوام) للموكب العسكرى ورتل الدبابات الذى مر أمام البناية التى نسكنها مدهشا بل ومتناقضا، فقد اختلطت دموع الكبرى مع فرح الصغرى، منى التى شحنها الإعلام الحكومى بجرعات تخويف واضحة لم تر فى الدبابة وسيلة إنقاذ إنما بشارة يأس وألم، توقعت أنها البيان الأول الذى يؤكد حالة الحرب، على عكس مريم الصغرى التى قالت لى أنها استعادت ذكرى المرة الوحيدة التى اعتلت فيها ظهر دبابة يوم أن كانت فى

رحلة مدرسية إلى بانوراما أكتوبر حيث يسمح لطلاب المدارس بالتقاط صور تذكارية على نماذج لمعدات عسكرية، وما بين رفض منى وبهجة مريم قضيت ليلتى مرابطا فى شرفة المنزل أنتظر مجىء اللصوص، فيما كان الجيران يتناوبون على حراسة البوابة بعد أن فر طاقم السكيورتى الذى توفره المؤسسة المالكة للبناية، أما زوجتى فتولت هى الأخرى مراقبة مكان السيارة فى الشارع، كانت تخاف من اللصوص الذين سيسرقون تحويشة العمر.

طلبت منى نقل السيارة إلى أقرب جراج لكن البواب أخبرنا أن الجراجات المجاورة امتلأت عن آخرها، كما أن اللصوص بدأوا مهاجمة الجراجات الكبرى فى القاهرة كلها لذلك لم يطمئن قلبها إلا مع مجىء دبابة اتخذت موقعا قريبا من السيارة.

نساء البناية استقبلن الدبابة بـ الزغاريد لسبب لم أفهمه، إلا بعد أن التف صبية الشارع حول قائدها وجنوده، الأمر الذى مكنهم من قضاء سهرة سعيدة حيث ضيع الجنود نصف أوقات نوبة الحراسة فى لعب الكرة والصراخ بصوت عال كمن يريدون الإعلان عن وجودهم وبث رسائل الطمأنينة.

6- فى اليوم الأول لحظر التجوال، بدا الطريق إلى الجريدة خاليا، وملىء بالوحشة وأمارات الخراب، فالحرائق التى طالت بنايات ومحال تجارية كثيرة تركت سوادها للذكرى والزجاج الذى تناثر فى الشوارع كان دليل رغبتها فى أن تكون جرحا يبقى أثره على معصم المدينة، بدا للجميع أن مجرمى الليل راغبون فى ترك آثار غزوتهم وكان من السهل استقبال الرسالة التى تؤكد أن القاهرة الآمنة التى كانت تستقبل زوارها بالآية القرآنية التى تقول ادخلوها آمنين باتت على موعد مع خوف ممتد، وعليها أن تصارع شبحا خرافيا ينام فى أحشائها كسرطان تتوالد خلاياه.

لم يكن ثمة سيارات كثيرة والشوارع خالية من حافلات النقل المزدحمة عادة بجيوش البشر القادمين من أطراف المدينة التى نام سكانها فى حماية نهار أسود تملؤه روائح قنابل الغاز المسيل للدموع والدبابات كبقع أو ثقوب تنتشر على ثوب انطفأت ألوانه، لكن مع انتصاف النهار بدأت الجموع تتوافد وجيوش من البشر تأتى إلى قلب ميدان التحرير.

الميدان القريب من الجريدة قطعت المسافة إليه فى ساعتين، ليس فقط بسبب الزحام وإنما لأن كثيراً من الناس وقفوا لتأمل ماخلفته المعارك الدامية التى دخلها المتظاهرون الشباب مع قوات الأمن، والتقاط صور تذكارية مع سيارات الأمن المحطمة، طريقتهم الآمنة فى الثأر والتشفى. كانت العشرات من سيارات الشرطة قد احترقت والدبابات التى نزلت الميدان قبل ساعات مثلها مثل جدران البنايات كانت قد امتلأت بعبارات تطالب بسقوط النظام ورحيل الرئيس، العبارات لم تكن خالية من الجرأة التى لم تكن بادية فى احتجاجات السنوات الأخيرة وقفت مع زميلى المصور لالتقاط الصور قلت: إنها رحلة الثورة التى بشر بها يوسف رخا وسخر منها.

التقيت بصديق لى على مشارف الميدان

لفت نظرى إلى خطر متوقع قد أواجهه لو أبرزت هويتى الصحفية التى تشير إلى عملى فى صحيفة قومية موالية للنظام، قال صديقى: قل إنك فى إجازة وتعمل لصالح صحيفة مستقلة أو قناة فضائية.

يبدو أننا فى مواقع الثورة المضادة قلت لنفسى فى مرارة انقلبت إلى بهجة وأنا أصل إلى الميدان، الشباب قد أخذ مواقعه، تبدو النعمة على وجوه بعضهم وأنا أتأمل مر إلى جوارى شباب يكنس الميدان ويزيح كومات من الحجارة وقوالب الطوب وأكياس القمامة وطلب منى إظهار هويتى ولما فعلت: ابتسم وقال لى ربنا يقويكم، ربما أدرك مأزق من يعملون فى وسائل إعلام رسمية. تركته وبدأت التحرك باتجاه المتحف المصرى الذى كسرت أبوابه وجرى الاعتداء على بعض فاترينيات العرض بداخله لتظهر على شاشات الفضائيات تماثيل صغيرة مهشمة كان بإمكانها أن تدمى القلب لولا أن شباب الميدان قاموا بتشكيل جدار بشرى لحماية المتحف وطرد لصوصه. على مسافة قريبة من المكان كان مبنى الحزب الوطنى الحاكم قد احترق تماما وسقطت أسقف البناية كلها وجدران تتهاوى ولا أثر لشعاراته أو زجاجه اللامع ذى الخلفية الخضراء.

قال لى شاب ضبطنى أتأمل المبنى: الناس والجيش تركوه لحد ما وقع، زى ما يكون تمثال صدام حسين فى ساحة الفردوس ببغداد الشاب الذى أراد طمأنة نفسه بأن نهاية مبارك قريبة تركنى وبدأ التقاط صور تذكارية للميدان، بينما كانت الجموع تزحف إلى نقطة سحرية أسفل تمثال شهيد العسكرية المصرية عبد المنعم رياض، التمثال الذى واجهت النخبة المصرية حالته القبيحة بألم مكتوم تحول إلى أيقونة من أيقونات الثورة ونقطة لتجمع الثوار قلت لنفسى: ها هو رمز آخر يكتسب روحا جديدة

7- التجمعات التى حول الميدان كانت قد تشكلت لتأخذ صور دوائر متفرقة، تتقاطع، داخل الميدان، تكبر وتصغر لكنها تنتشر وتتنامى كأنما جسد ضامر يوشك أن يجدد خلاياه، وبدأ الهتاف اللى يحب مصر، مايخربش مصر سرت وراء الجموع التى وقفت أسفل بناية رئيسة فى الميدان تضم مكاتب لفضائيات عربية وأجنبية جاءت الكاميرات والصحفيون وظل فى أذنى صوت الفلاشات وأنا أعود إلى الميدان.

كانت الساعة توشك على الرابعة عصرا منذ الآن نحن نخترق قانون الطوارىء ولا أحد يمثل. طائرات تملأ السماء بأزيزها، تصيبنا بالرعب وهى تحلق على ارتفاع منخفض، تتراجع حركة السيارات فيما كانت الكتل البشرية تتراص بطريقة مبهرة وتكتمل كقطع بازلاء تمثل كافة الطوائف والتجمعات وشباب الميدان يمنحون المشهد بألوان الصخب، ألتقى بأصدقاء كثر عند زاوية شارع طلعت حرب من جهة الميدان، نقرر فورا تأسيس مركز صحفى لمساعدة المراسلين الأجانب وتوعيتهم بما يدور.

يوسف رخا الذى كنت أحسبه عدميا يمر إلى جوارى منفعلا، يبحث عن صديق افتقده فى الزحام ويمسك بيديه دفترا ويدون ما يرى، ومن خلفى أرى الصحافى حسين عبد

الغنى مراسل الجزيرة الشهير يبحث عن أعلى نقطة فى الميدان ليصحب الصحفيين لالتقاط الصور، أذكر المخرج داوود عبد السيد الذى صعد إلى أكبر بناية فى الميدان بمشهد فى مسرحية كاسك يا وطن لمحمد الماغوط ودريد لحام حيث يفرض الديكتاتور حظر التجوال، فيخرج الشعب لمشاهدته.

يأتى الليل ولا رغبة عندى فى المغادرة، إنه حال الجميع، نفكر أن أيامنا لم تعد راكدة، يمنحنا الميدان يوميا قبلة حياة ووعدا وأفقا كنا بحاجة إليه.

من يعود إلى بيته ليأخذ قسطا من النوم ويستحم ثم يجلس أمام التليفزيون لا يتوقف عن الاتصال برفاق الميدان، صور الجموع المثبتة على كل الشاشات تطمئن الجميع، حتى صورة القنوات الرسمية التى جرى تثبيتها على جسر أكتوبر حيث تمر سيارات قليلة تحت أضواء كابية تؤكد أن النيل ما زال يجرى، وهذا ما كان يعنينا، كنا كمن يتذكر القصيدة التى كتبها صلاح جاهين فى وداع عبد الناصر، وقف الشريط فى وضع ثابت، دلوقت نقدر نفحص المنظر.

هى أيام الفرز ولاشك فى ذلك، كل الناس تشعر بمسؤلية الدفاع عن الحلم، الأصدقاء يؤكدون أن شعباً آخر ولد هنا، اللجان الشعبية التى أصرت على تشكيل سياج سرى لحماية الميدان من البلطجية الذين قاموا بغزوة الجمل الشهيرة تقدم أدلة على قدرة شعبنا على الحياة، على حماية حلمه وأمنه الذى خربته آلة القمع، تقول صديقتى التى قررت الهجرة وتداوم على الذهاب إلى سفارة كندا بحثا عن جرين لايت : هذا ليس إلا سور

حديقة والزهور تنبت يوميا، ولن أهاجر
وسأبقى لأشم الوردة وأنتشى بعبيرها للنهاية
ويرد آخر نستعيد الجينات الحضارية التى بنت
الأهرام مئات القتلى يتساقطون، نتأكد كلما
بكينا أكثر أن الاستمرار خيارنا الأخير
اللافتات التى يرفعها الملتحون والمنقبات
تقول مسيحى، مسلم، الكل جاى يحلم،
آخذ نفسا عميقا وأفكر كيف منحنا الميدان
فرصة استعادة الهوية الوطنية بعد سنوات
كانت الدولة تزكى الخطاب الطائفى وتعلى
من شأن الداعين إلى استبدال الهوية الدينية
بالهوية المصرية.

وسط الملايين التى اعتادت المجىء، لا مجال للنقاش حول القرارات التى يتخذها النظام فهى لم تكن تعنى لنا شيئا لأنها أقل من سقف الثورة غير أن إعلانها يحفز على الاستمرار، فالنظام مثل شجرة معطوبة تسقط ثمارها ولا تجد من يلتقطها.

يعلن عبد المنعم رمضان أن قرار رئيس الوزراء بترك المتظاهرين فى الميدان محاولة لترك الزهرة حتى تذبل لكنه يعترف أن البستانى يمنحها ماء الحياة كل يوم

فى أوقات الفسحة القليلة أرى على الفيس بوك الكثير من النكات وأتأكد أن النظام لم يقرأ كرسى الرئاسة لكارل فونتيس وأن المصريون استردوا روحهم الخفيفة وأرصد مع أصدقائى الكثير من الصور التى تغير القناعات وتبدل العبارات كليشيه، تتحدث عن رغبة فى الطيران وعن هواء نظيف يدخل الرئة وعن مدينة لم تعد فى حضن الغبار.

أكتب فى مدونتى: أننا نمضى على خطى

عاربن جارسيا ماركيز بدأنا بـ خريف الطريرك ومضينا إلى لحظة كان فيها الجنرال لا يجد من يكاتبه والجنرال فى متاهته ويوم موقعة الجمل عشنا اللحظة التى شاهدنا فيها سرد موت معلن، وسهرنا الليالى التى انتظرنا فيها صرخته التى يقول فيها ماجئت لألقى خطبة.

8- ربما تكون الثورة المصرية التى تجرى وقائعها الآن، هى أغرب ثورة فى تاريخ الثورات البشرية، فهى ثورة لها جمهور ولا تزال تبحث عن زعيم وتحدد موعدها مثل أى عرس ووجهت الدعوات لحضورها، لتشمل أنصارها وأعدائها على حد سواء. حتى من تخلفوا فى أيامها الأولى عادوا وانضموا.

وحده الفيس بوك حولها إلى موعد غرامى يسهل ترتيبه، فقد كان هو نبض الثورة والترمومتر الذى مكننا من قياس درجات حراراتها طوال الأيام الماضية.

يتصل بى صديقى الشاعر عبد المنعم رمضان ليطمئن منى على الثورة، لا يكتفى بالنزول إلى ميدان التحرير لكنه يصر على أن أضرب له الرمل على الإنترنت أزوده بما تنتجه يوميا ورشة الأمل

على الفيس بوك نبدو مثل أم تراقب صحة أبنائها كل يوم، ترسل إلى الكبير ابتسامة أمل وتعطى الصغير جرعة الحليب وتربت على كتف المشاغب منهم ليهجع قليلا أو كما يشرح صديقى قاسم حداد نمارس علاج المسافة.

اليوم آن الآوان لنعتذر لـ الفيس بوك فقد اتهمناه طويلا بتعطيلنا، بقتل أوقاتنا. لكنه الآن فوق أعناقنا فقد مكننا من إحياء أوطاننا واستعادة أيقونات ثوارنا القدامى.

نأتى بالشيخ إمام من أرفف الذاكرة، نمسح الغبار عن نظارتيه ونساعده فى ضبط العود وعندما يجلجل نضغط «شير» فتأتى «لايك».

9- يوم اندلعت الثورة كنت خارج بلدى أفتش فى صفحات أصدقائى عن خبر يروى ظمأى، أنا الصحافى المحترف لم أعد أطمئن لما تقوله الفضائيات وبقية وسائل الإعلام كله ملون لكن الفيس بوك بدا لى أبيض كثوب عرس وواضح كضوء شمس.

فى اليوم الأول أذاعت إحدى وكالات الأنباء خبرا عن احتمال حجب هذا الموقع الجهنمى فبدأت القلق على حقوق المواطنة التى اكتسبتها طوال ثلاث سنوات. خفت أن أغلق جهاز الكومبيوتر فتنام إلى الأبد قصص الحب التى أعرفها والحكايات والمعارك التى كنت طرفا فيها. شعرت لوهلة بمخاطر انتهاك الذاكرة فكتبت أسأل أصدقائى جميعا فجاءت رسائل تكذب الخبر وأخرى تضعه فى إطار التوقعات. وبعد يومين اتخذت الحكومة التى كانت تدير أيامنا من القرية الذكية أغبى قراراتها على الإطلاق، إذ قررت إغلاق الإنترنت وقطع الاتصالات، الحكومة التى جاء رئيسها بحملة جهاز كومبيوتر لكل مواطن أعادنا إلى القرن الثانى الهجرى لكنه فشل فى تدمير مزاج السوفت وير الذى أعاد إلينا ميدان التحرير.

الميدان الذى تعرف قلة من المصريين أن

السبب الرئيس فى تسميته بهذا الاسم ،فقد
كان يحمل اسم ميدان الاسماعيلية (نسبة
إلى الخديوى إسماعيل مؤسس القاهرة
الحديثة) قبل أن تغيره حكومة ثورة يوليو إلى
ميدان التحرير حيث مر موكب جلاء القوات
البريطانية عن مصر وكانت معسكراتها فى
قلب الميدان فى المحل الواقع بين جامعة
الدول العربية ومبنى فندق هيلتون القديم.
اليوم ومع استمرار الثورة تجدد المعنى القائم
فى اسم الميدان بعد ضخ دماء جديدة، من
الجيل بدأ طقسا افتراضيا فتحول معه إلى
حياة واقعية بامتياز.

لا أقبل أن أصدق أن الفيس بوك وحده
صنع ما نحن فيه، فالأكيد أن القهر هو الذى
قاد الناس إلى هنا، حاجتهم إلى الخلاص
وتطلعهم إلى الأفضل، فتونس التى سبقتنا
فى الصعود إلى نهائيات كأس الثورة العربية
كان الإنترنت فيها مراقبا ومع ذلك نزل
الناس إلى الشارع وماجرى فى الحبيب
بورقيبة لا يختلف كثيرا عما يجرى فى
ميدان التحرير لكن فى مصر بدا الفيس بوك
مثل المنبه الذى يوقظ الناس من النوم
ويساعدهم فى الذهاب إلى أعمالهم، وبسببه
تحولت الثورة إلى إفنت وتحول الثوار إلى
أعضاء جروب وشحت فكرة التنظيم
السياسى وضاعت قوة البيان الذى كان
يحوى مطالب الثوار، ويساهم فى تعبئة
الجماهير، فالجماهيرذاتها لم تعد تجد فكرة
تلقى التعليمات ولم تعد بحاجة إلى
هيراركية جديدة، ففى جمهورية الفيس بوك
ثمة حقوق يتمتع بها الجميع، المعارض
والموالى، من فى قلب التنظيم ومن هو
خارجه وآلية التصويت حاضرة والحوار في
التعليق والاحتجاج لا يتوقف. كما أن
الوول الحائط يتحول إلى روزنامة للثورة
ودفتر ليومياتها ووثيقة لوقائعها ومصدر للذعر
ولأعدائها أيضا

قلت أمس لصديقي الذي يحب [illegible]
الذى جعله الفيس بوك عهدا بائدا [illegible]
كيف لم يتمكن النظام من محاصرة [illegible]
أعلن عن موعد اندلاعها قبل عشرين [illegible]
صمت صديقي ولم يفهم جيدا فكرة
طرحها الباحث السياسي مأمون فندي حين
لخص الصورة فى مصر مؤكدا أن الرموز التي
دافع عنها صديقي كانت تقود الدولة بطريقة
أخرجت معركتها المصرية بـ الخيول
والجمال وفشلت فى إخلاء ميدان التحرير
بينما كان المعتصمون فى الميدان أيضا
مخلصين لعقلية السوفت وير التى لابد وأن
تدفع كارل ماركس وليون تروتسكى ولينين
وهربرت ماركيوز والآن تورين لمراجعة
أفكارهم عن الثورة، فهؤلاء لابد وأنهم اليوم
ينظرون باعجاب إلى فكرة ميشيل فوكو عن
القوة الناعمة ولكلام بيير بورديو عن
الرأسمال الرمزى فما يجرى فى الميدان اليوم
ربما هو التجسيد الجبار لفكرة الفاعل
الاجتماعى التى طرحها الأخير فمواطن
الفيس بوك الافتراضي يكتسب، بشكل غير
واع، مجموعة من الاستعدادات من خلال
انغماسه فى محيطه الاجتماعى تمكنه من
أن يكيف عمله مع ضرورات المعيش اليومى
ففى التحرير يعيد الجميع اكتشاف ذواتهم
ويختبرون قدراتهم على تطوير عادات ذهنية
وسلوكية يجرى تطبيقها على كل المشاكل

التى يواجهها الناس فالواقع أصبح سورياليا
لدرجة تجعل جيل الفيس بوك يسخر من
[illegible] نظامه يعمل زارا لإجباره على الرحيل
وينتقم منه بنكتة تقول مارك بعد ما مات
قابل السادات وعبد الناصر، سألوه: سم واللا
منصة؟ رد FACEBOOK ■

الباب المفتوح

د. شيرين أبو النجا

احتاج الأمر كل هذه السنوات- أو بالأحرى العقود- لأتمثل اللحظة التى سردتها لطيفة الزيات فى الباب المفتوح (١٩٦٠) عندما وجدت الذات الفردية (السوية) مكانا وبراحا لها فى الذات الجمعية المتجمعة، عندما حسمت أمرها وخرجت مع الجموع الحاشدة التى جابت شوارع القاهرة. ما كان يمكن أن أفهم وأتمثل إحساس النشوة الذى تملك ليلى فى لحظة تشبه تلك اللحظة التى امتدت من يوم ٢٨ يناير وحتى ١١ فبراير- ومن جمعة إلى جمعة كانت الاكتشافات. حشود مليونية، هو الحلم ذاته، حلم عصى التحقق، تماما كحلم أن تنقطع قسرا علاقتك بالعالم بأكمله وتخرج للشارع واثقا أنك وحيد تماما فتجد الحشود تتدفق عليك من كل الاتجاهات، من شوارع رئيسة، ميادين، حوارى جانبية. مدهش ذاك الاكتشاف، أن تدرك أن الكل يفكر على نفس الموجة، الكل يسير نحو نفس نقطة النور.

من السهل الآن فى هذه اللحظة كتابة شهادة وجدانية، شهادة تموج بالعاطفة والفخر وقد تختلط بالدموع أحيانا، شهادة تفيض حبا وحنانا على كل شبر، كل شخص، كل كلمة، شهادة نحملها ونفقأ بها عين كل من استخف بنا واستخف بصمتنا دهرا، ما يعزينا هو أننا نطقنا حقا. لكن ما الذى نكتبه فى شهادة كهذه الآن؟ هل نكتب عن القنابل المسيلة للدموع ولترات الخل الذى استنشقناه، هل أحكى عن البصل الذى قامت النساء بإلقائه للمتظاهرين من النوافذ والشرفات، أم نحكى عن الغل والكره الذى رأيناه فى عيون الضباط، أم أحكى عن الشاب الذى تلقى رصاصة فى رأسه فى شارع القصر العينى ورأينا مخه يتدلى وقد خرج من رأسه - مشهد لم نره إلا فى أفلام الخيال العلمى- أم نحكى عن مواسير المياه التى كانت تكسر عمدا لتعوق المشى، أم نحكى عن البلطجية وضربهم للمتظاهرين بكل عنف ووحشية، أم نحكى عن الطوب والحجارة المسنونة التى انهالت فجأة على

رؤوس كل من كان فى ميدان التحرير، أم أحكى عن الشباب الذين اعتقلوا خلسة فى الهرج والمرج وتم تعذيبهم فى مقار أمن الدولة، أم نحكى عن الشهداء ومن فقدوا أعينهم، ومن تحملوا قهر مشاهدة جبروت إلقاء الأدوية والأغذية فى النيل، أم أحكى عن الشرطة السرية وحاملى السكاكين الذين كانوا يبحثون عن أى أجنبى ليقطعونه إربا، أم أحكى عن نظرات الشك والريبة التى كان البعض يقابلنا بها محاولين تشمم رائحة دجاج كنتاكى، أم أحكى عن كل من قرر أن ما يحدث لا يهمه فى شيء وأكمل حياته غير عابئ بشيء سوى أن ينظر لنا مؤدبا ويقول عيب ما تفعلونه، حرام عليكم حال البلد واقف.

ربما يجب أن ينال أصحاب العيب - فى سيناريو أقل بكثير من رواية يوسف إدريس - جزءا من هذه الشهادة، فقد كانوا على قناعة أن العيب كل العيب هو أن تطالب بحقك، أن تقول كفاية، أن تصرخ باطل، أن تطالب، أن تحتج، أن تتظاهر، كل هذه من شيم العيب. ولهذا كانت المظاهرة يصل عدد أفرادها إلى مائتين فنهتف بأمل واضح ساذج ثورة ثورة حتى النصر، لكن عندما جبنا شوارع وسط المدينة فى عام ٢٠٠٥ فى عدة آلاف كنا نصرخ غير مصدقين باطل. نسينا أننا نعزى أنفسنا فى حصول مبارك على ولاية سادسة، أخذتنا نشوة العدد وحرية التجوال فى وسط القاهرة، نسينا لأننا لم نصدق أن الباب كان مفتوحا، أو هكذا تصورنا. حتى فى هذا التصور لم يمرق أصحاب العيب من الباب المفتوح، أغلقوا أبوابهم فى وجه كل نقطة نور، رفضوا بإصرار وتحدى، كان التعالى يقفز من أعينهم، كل ما تفعله ليس إلا حركات صغار من وجهة نظرهم، تصرفات من لا عمل له. عدم احترام للنظام، وعدم نضج سياسى. قالوا إن زمن الثورات ولى، وجاء زمن الانكسار على المصالح الانتهازية الضيقة الصغيرة. سخروا كثيرا وصاغوا نظريات استعمارية وحولوا خلايا يأس وإحباط نائمة. أعادوا انتاج خطاب رسمى بائس. فاستحقوا أن يحرموا من كل باب مفتوح. قالوا لنا إنها إيران، ثم إسرائيل، ثم حزب الله، ثم أمريكا، ثم الإخوان، ثم العفاريت لكنهم لم يقولوا لنا إن ما يحدث هو نحن، نحن وفقط، لم ينعموا علينا بإمكانية الاعتراض! نحن مسلوبو الإرادة، بدون عقل، بدون فعل. الآخر دائما هو من يقول لا يملأ فيه حتى الرغبة والقناعة حرمنا منهما

أصحاب العيب، وأصحاب الانتهازية الصغيرة والمناصب الأصغر شاهدوا اللحظة البديعة على شاشات التليفزيون، وتأففوا من توقف العمل، - غالبا شعروا بالملل من عدد ساعات المشاهدة -، وتذمروا من توقف السياحة، وأخذوا على عاتقهم التحذير من الفوضى، وفجأة تذكروا أصحاب الأعمال اليومية فتحولوا إلى ملائكة رحمة وتحولنا إلى شياطين تنفث لهبا، أصروا على عودة الحياة الطبيعية. كانت حياتهم الطبيعية هى تجاهل شهداء التعذيب الوحشى، وتجاهل الفساد والنهب المنظم، تجاهل مظاهر الفقر المدقع لأنهم يقومون بأعمال الخير، ناهيك عن التسابق لعقد صداقات مع ضباط وباشوات

فى أس الدولة، ويضاف لذلك اتهام الشعب بالسلبية وكأنهم ليسوا من الشعب، وهم بالفعل كذلك. لكل ذلك استحق أصحاب الكنبة بجدارة فى ثورة ٢٥ يناير لقب حزب الكنبة. والكنبة كلمة مصرية عامية تستخدم للإشارة إلى الأريكة، وتطرح دلالة الاسترخاء الكامل المقترن بنوع من الكسل. كانوا كثرا هؤلاء، لكن الباب المفتوح الذى دخلنا منه جميعا إلى الميدان أغلق فى وجوههم تماما ولم يستقبل أمثالهم (العديد منهم طرد من اخة)، هؤلاء هم من شاهدوا اللحظة على الشاشة واكتفوا بتمنى الاستقرار لمصر ثم تصارعوا بعد سقوط الطاغية ليطلوا علينا من الشاشة ذاتها

لابد من اعتراف صغير هنا، ربما لأن الشهادة تستدعى ذلك. فى يوم ٤ فبراير وكانت جمعة مليونية بكل معنى الكلمة، احترت المكان المقابل لكنتاكى وحولته إلى مكانى، اشتد الزحام وهو ما كان يزيد من إحساس الاطمئنان أن الباب مفتوح، ظللت أسأل الأصدقاء وصلنا مليون؟، أشارك فى الهتاف الشعب يريد إسقاط النظام، ثم أراقب مجموعة تستخدم الطبلة وتغنى وترقص، ألتقط صورا. ثم أصمت تماما وأتأمل المشهد ولا أعرف كيف أصفه، انبهرت كليا عندما شاهدت الشكل على شاشة التليفزيون فيما بعد. فى ذاك اليوم عقدت صداقة مع سيدة منقبة كنت أقف بجانبها طوال الوقت، أذهلتنى بعد قليل عندما رفعت النقاب عن وجهها فى وسط المليون بعفوية وبساطة وشكت لى أن زوجها كان نائما لم يرغب فى النزول، ولكنها لم تتمالك كبح جماح رغبتها فى المشاركة فجاءت بصحبة ابنها. تحاول أن تتصل به وبعد محاولات عديدة تنجح فى أن تخبره بمكانها. بعد مرور ساعة تظهر عليها علامات القلق، حاولت أن أساعدها عبر الإشارة إلى شاب فى الجموع وأسأل هو ده؟ تنظر حيث أشير وتجيب بالنفى، وهكذا حتى ظهر الابن واتجه ناحيتنا فقدمتنى له قائلة: صاحبتى، أحسن ناس. فى ذاك اليوم التقطت لها صورة وهى واقفة فى حين يجلس مراسل أجنبى بجانبها على الأرض يزيح بين الحين والآخر أذيال النقاب عن شاشة الكمبيوتر دون أى تذمر. لم يأت الاعتراف بعد. فقط أردت أن أحكى هذه الحكاية التى كانت تفتح لى الباب أكثر.

فى هذا اليوم وكانت الساعة قد قاربت الرابعة شعرت بالغيرة من كل من يحمل لافتة أو جملة أو صورة، فما كان منى إلا أن قلبت ورقة وكتبت على ظهرها: هانت، أعترف أننى عندما كتبت هذه الكلمة ورفعتها لم أكن متيقنة من صحتها. لكن مجرد رفعها وتوقف البعض ليقرأها، ومع تزايد الأعداد بشكل يفوق الخيال اقتنعت تماما بأن المسألة كلها هانت، ثم كان أن بانت حتى تحققت. نعم كان الباب مفتوحا على مصراعيه لكل من اقتنع ورغب فى الالتحام والانتماء، لكل من أراد العودة إلى حضن كبير، حضن لم أتخيل حجمه إلا فى الساعات المتأخرة من الليل حين كنت أشاهدنا على الشاشات. وأطرح السؤال الذى لازلت أسأله حتى الآن: إحنا كان شكلنا كده؟ ■

ثورة بطعم الشعر

عبدالحكيم حيدر

هل صارت مصر شعرا فامتلأت الميادين نافضة عن نفسها تراب المصالح وعلائق الحرص الفرعونى القديم على قداسة البدن وقداسة الفرعون؟ هل هذه ثورة أم ذكرٌ أم حضرةٌ مخضبة بالدماء أم مكيدةٌ لرجل فاق ثقل دمه على شعبه فيضا ثقيلا حد رفع الأحذية والشتائم والرقص أيضا والتساند بما تيسر لهم من كسرات خبز خلعه ؟ هل هؤلاء الأحياء -فى لحظة شعر- تحالفوا على الموت بالموت فكتبوا الحياة الحرة بلا مذلة للأجيال التالية على مدى عقود أخرى؟. هل الشعر يأتى الناس فجأة ويصل لمنابت الدم فتتبدل الإرادات ويتوارى الحرص؟ على ماذا كنا نحرص من قبل؟ لا أعرف. كان حرص يتامى أو أقرب. حرص نُجّل به الخوف حتى يصير كالعبادة، والأرض والنبات والفصول ترد لنا المظالم حتى بموت الظالم أو الفرعون. ماهذه الحشود التى فجرت توا وخرجت للشارع بفجورها الجميل؟ صار الشارع فضيحة كونية للظالم وسترا وألفة للمظلوم، كأننا اكتشفنا أن الشارع أجمل من البيت وأجمل من الشجرة وأجمل من النيل وأجمل من الساقية وأجمل من الحصاد، فلا حصاد تحت اسم رجل صار خلال ثلاثين سنة أثقل على القلوب من حجارة الأهرامات.

صلف لا ينتهى ووظيفة بدرجة رئيس على رقاب عصافير صارت تكره يده، حتى وهى تحمل الزهور، ووجود بشع حد يتراءى لك كسحنة قدت من زلط وخيلاء بلا موهبة ولا كلمة ولا أية رائحة من روائح هذا الشعب وفطنته وذكائه، من أى مجرة هبط علينا هذا الثقل الذى لا يتناسب مع دم هذا الشعب ولا يتناغم مع حظه ولا قسمته ولا نصيبه. من أى نكد جاء ومن أى طين قد جبل؟. هناك ثمانون مليون مجذوب فى هذه الأرض يمطرون لطفا وطيبة، كيف أصابنا الله بهذا السهم الثقيل طيلة هذه السنوات؟؟.

أنا لا أصف الثورة، ولكننى أصف المشاعر، أنا لا أكره خصومة سياسية أو حزبية، ولكن أبوح بمكنون مجذوب لا يعى حرص الساسة، فالحياة فى جوهرها بوح لما تحبه وما لا تحبه حتى وإن كان حلما، حينما لا تحب

كانا فانت لا تحب حتى دمه فى الكتابة، وحينما تكره حاكما فانت تكره الورد النابت حول قصره رغم انه لا ذنب للورد، وهذا الرجل فجاة كرّهنا في الوطن دون ان ندرى، فتماثيل إسماعيل باشا صارت فى كل وجمود وجهه رغم أنه ليس هو الفنان الذى نحت وهذا من خراء حظ الحاكم حينما يصير ثقيل القلب وجامد العقل. كان تعيينى لحطى السن فى عام ١٩٨١ شهر نوفمبر وكان قد جلس على سدة الحكم من شهر، وتنقلت فى درجاتى وسنواتى حتى مرت ثلاثون سنة والرجل كما هو، حسبت سنواتى الباقيات فوجدتها ستا، حسبت معاشى كى أمشى وأعمل شحاذا حتى فى الهند وجدته قليلا، وأضمرت الرغبة لحين تغير الحال، هل أبوح لأولادى بنيتى لترك هذه البلاد لرجل قد من زلط ؟؟ الآن نحن فى ٢٠١١ والرجل كما هو يأكل ويشرب ويشتهى حكما. هل أنتظر كى يأخذ فترة أخرى ونحال معا هو إلى حوبرة بعدة وإلى بيتى بسمالوط ؟ ولكن صحة الرجل وقلبى بدا يضعف، إذن لا سبيل إلا أن أدهب إلى الهند ووضعت الخطة فى سرى، حتى صرخ المجاذيب فى الشارع بالثورة، والرجل على حاله من الثبات، والعظمة الملونة بالدم فى فمه تقطر ناراً وغلاً، من ذلك الكلب الذى ناولك تلك العظمة فقبضت عليها بكل ذلك العنفوان لمدة ثلاثين سنة بالوعد والوعيد؟ أعظمة السلطة فى أفواه كلاب حكامنا لذيذة إلى هذا الحد؟!.

ثلاثون سنة أخاف على قلبى. أخاف أن أموت دون أن أرى الهند، وثلاثون سنة وعظمة السلطة فى فم كلب تقطر دما وسكرا، حتى مشى الرجل بعظمته بعد أن رماها مجبرا فى شكل ورقة كتب عليها التنحى، وأنا بدأت أشتاق الهند الآن اترك لأولادى طعما جميلا للورد وللريح وللزلط وللناس وللكراهية أيضا ■

فلترقصوا لأنني أريد أن أغني

عبدالمنعم رمضان

كنت دائما احب يوم الإثنين أكثر من سواه، إلا ان الثلاثاء فاجانا بجمال لم تحدث عنه الكتب، اعترف ان الكتب اصابتنى بما يمكن أن يصاب به شخص ممسوس، واعترف أن بعضها علمنى أن الواحد منا يمكن ان يثق ويطمئن بمن يعترف أمامه انه يخاف، لأن الخائف سيبقى فى مكانه إلى النهاية، حتى ولو صار وحيدا، اما من يزعم البسالة وعدم الخوف فاعلم ان فراره قد يكون مع اول انكسارة للحلم، مع أول صفارة إنذار، مع أول نجمة تسقط على الأرض، كانت الكتب قد علمتنى ذلك، لكن ميدان التحرير حمل جرار هذه المعرفة من بئرها العكرة إلى بئرها الصافية، فاصبحت معرفة جسدية، معرفة من لحم ودم، فى ظهيرة اليوم الذى تنحى فيه الديكتاتور، قابلت المخرج محمد كامل القليوبى، قال لى: ماذا يريد هذا الرجل، كان يمكن أن يرحل فى اليوم الثالث، أجبته، لو فعلها لصارت الثورة ثورة تافهة، فالوقت الذى يخيفنا لأنه قد يغطى وجه الثورة بالتميع والفتور والانصراف، هو داته الوقت الذى يلزم لتحذير وعى الثورة، واشاعته، واصابة قطاعات جديدة بعدواه، كلنا كنا خائفين، قالت لى فريدة النقاش إنها خائفة جدا، وأنها تتصور أن انشقاقا ما فى الجيش قد يتسبب فى احتراب داخلى، المخرج الشاب عماد إرنست سألنى: هل نحن مع الجيش أم الجيش معنا، بلغة أخرى، من يستخدم من، كلنا كنا خائفين، عزالدين نجيب وصلاح عبدالسيد بادلانى الخوف، فى الليل تنحى الرجل الكبير وشعرت أن مؤامرة مقصودة وغير مقصودة قد رأت فى تنحيته توقيفا للوعى الثورى عند حد معين، قبل أن يتمادى جدا ويكسر الحدود، إن هذه المؤامرة كانت محكومة بالخوف من زيادة جرعات تجذير الوعى الذى حتما سينتقل من الطور الذى بلغه إلى أطوار وآفاق لن يقبلها العسكر والبرجوازيون المترفون والأمريكان وقادة أحزاب أوراق السوليفان، وأحلافهم جميعا، لقد انتصرت الثورة ولكن السؤال الذى هو عرق الثورة الآن، لمن نقلت الثورة السلطة

المنتزعة من الديكتاتور، فى أيام ٩، ١٠، ١١ فبراير انقبض قلب الطبقات الحاكمة القديمة، وانقبض قلب ورثتها، وأصبحت القلوب تترنح بين فراغ موحش، وفزع مقلق، كانت الكتب والخبرات الصغيرة قد علمتنى أن الانتهازيين يملكون قرون استشعار فائقة الحساسية، هذه القرون تحدد لهم اتجاهات الريح، وبالتالى اتجاهات خطواتهم، وأنهم، أعنى الانتهازيين، إذا انتقلوا من معسكرهم الذى ينتمون إليه إلى المعسكر الجديد، فهذا يدل على أن الجديد ينتصر، وهكذا ومنذ أول يوم للثورة، رأيناهم يؤيدون السلطة الحاكمة ويدعمونها، ويصفونها بحكمة السيد الرئيس، ويصفون خصومها بثقافة الانحدار التى فقست بيضتها وخرجت منها جموع الشباب، ثم انقلبوا فى آخر أيام الثورة، ورأيناهم ينصرفون عن السلطة الحاكمة بالاستقالة أو التنديد أو النيولوك،صغار فى الذهاب، صغار فى الإياب، انصرفوا يمتدحون فتوة الشباب وحيويتهم، الانتهازيون بقدرتهم على الانتقال من النقيض إلى النقيض، أجبرونى على النظر بإعجاب إلى ثبات محمد حسنين هيكل، ثباته الواعى الذى يختلف عن جمود غيره، وتصلب الشرايين عند سواه، عندما استمعت إلى محمد حسنين هيكل سواء فى حواره مع فهمى هويدى، أو مع السيدة منى الشاذلى، صفقت بيدى، وغمرتنى الدهشة، فالرجل أفكاره أسرع من كلماته، حتى إن عباراته لا تكتمل، مما يجعلها ممتعة للأذكياء، مؤلمة ومهينة للأغبياء، أظن أنه كان يعذب الديكتاتور فى لقاءاتهما القليلة، لكننى أيضا شعرت أن هيكل، صاحب اللغة والأسلوب، يطل علينا من نافذة غير النافذة التى يحاول أن يطل منها الشباب، هل تعرفون قصيدة النثر، إنها قصيدة بغير معايير، بغير خريطة، بغير تصورات، حتى قصائد النثر السابقة لا تصلح دليلا لقصيدة نثر جديدة، لا تصلح دليلا لقصيدة نثر جماعية، هيكل يرسم رسما كروكيا للمستقبل، رسما محبوكا رغم أنه كروكى، والشباب يكتبون الثورة على هيئة قصيدة النثر، وميزة قصيدة النثر التى هى عيبها أنها مفاجئة، أنها بغير تدبير محكم، أنها بدون أبطال، وأن سحرها لا يمكن تعلمه، وثورة الشباب تتميز بتلك الميزة التى يمكن أن تكون مقتلها، إنها ثورة ضد الأبطال، سيقف هيكل فى نافذة دريم، أو نافذة الجزيرة، أو نافذة بيته، ويعلن خبراته ومعارفه التى نقدرها كثيرا، لكن الشباب سيبحثون عن جدار آخر، ربما هو الجدار الخلفى لدريم والجزيرة وبيت هيكل، ويثقبونه، وما إن يتسع الثقب سيطلون منه على عالم جديد، وسوف يفكرون فى الخطوة التالية أن يقفزوا خارج الثقب، أسوار هيكل متعة عقلية بحق، وقفز الشباب خارج الأسوار قوة حياة أيضا بحق، أقر أننى لم ألحق بالميدان فى اليوم الأول للثورة، ذهب ابنى وانتظرته. وفى اليوم التالى حكى لى عن مشاركته فى معركة شارع القصر العينى، وحكى لى عن إعجابه المفرط بعمرو واكد، وعن اختناقه غير التام بغازات الدموع، وتوقعت أن أمر المظاهرات قد يستمر ليوم أو يومين آخرين، مثل مظاهراتنا السابقة قبل كفاية، وبعد كفاية، فى صباح الجمعة ٢٨ يناير يلتحق

ابنى بزملائه ثانية، كنت أسمع حركته وأبتسم كأننى حكيم بائس، سأعلم فيما بعد أنه شارك فى معركتى كوبرى الجلاء وكوبرى قصر النيل تحت قيادة الممثل خالد الصاوى، لم أفكر لا فى المشاركة ولا فى الفرجة، إلا عندما مرت فى عصر الجمعة ذاته، وبالقرب من بيتى بالهرم مظاهرة كبيرة تتجه إلى ميدان الجيزة، سمعت ضجيج الهتافات، يمكنك أن تسميه ضجيج الجيل، وخرجت لأرى الضجيج بعينى، بعد لحظات انفعلت، ثم اندسست ومشيت بينهم، لم أستطع أن أوقف سيال دموع انفعالاتى، وأنا أهتف، وعندما قابلنى علاء عبدالهادى داخل المظاهرة احتضننى وبكى معى، منذ تلك اللحظة التمست طريقا جديدة للخلاص، أصدقائى اللبنانيون اتصلوا بى يطمئنون علينا، صديقتى الأقرب، صارحتنى، بأنهم يعتقدون أن المصريين أقل صلابة من التونسيين ولن يكملوا المسيرة، صديقتى قالت لى: المصريون علماء كلام، يجيدون طق الحنك، وليسوا أهل فعل، فى آخر الثورة، قالت: لقد أصبحتم ملوك أحلامنا، أصبحتم الأطول قامة، قلوبنا تفيض بكم، كلام صديقتى ذكرنى بما أوشكت أن أكونه، لم أقل لنفسى قط، أننا نعيش مرحلة ما بعد السقوط، ولكننى كنت قد أوشكت أن أصدق الخراب الواسع الذى يحيطنى، أوشكت أن أصدق أن المصريين منحوسون، كل شىء يمسكونه يتحول إلى هباء، حتى إننا كدنا نفقد كل شىء، كنت أميل إلى الاعتقاد بأن مارك توين قد تعرف علينا، وعلى الديكتاتور الذى يحكمنا، فاستنتج أن الإنسان يبدأ كقذارة، لينتهى رائحة نتنة، ولا غرض من وجوده غير إمتاع الجراثيم، وأن عملية التطور توقفت وبترت بظهور هذا الإنسان، الذى وحده يملك القلب الشرير فى عالم الحيوانات، رفضت أن أقابل مارك توين ثانية، بعد أن قرأت له هذا الكلام، أحسست بالخجل، فليس مقبولا على الإطلاق أن يحكمك غبى جاهل محدود الأفق لمدة ثلاثة عقود، ولا لنصف عقد، كانت السلطات المؤبدة القديمة تفتح علينا كل يوم، خزانات نفاياتها وقاذوراتها التى لا تنفد، ومعها لم نعد نسمع، لم نعد نرى، لم نعد نشم، لم نعد نتكلم، لم نعد نتذوق، توقفت حواسنا الخمس، أصبحنا كائنات كرتونية، أصبحنا ملايين من الروبوتات، نموت قبل أن نموت، ونحيا قبل أن نحيا، فى الميدان، اكتشف الشباب الأماكن الضائعة لخزانات الحضارة، وفتحوها، فاستعدنا حواسنا، صرنا ثانية كائنات بشرية، لنا ألسنة وآذان وأنوف وعيون وحناجر، نهتف لنطمئن على حناجرنا المولودة للتو، نسمع هتافات الآخرين وآراءهم لنطمئن على آذاننا المولودة للتو، نرى، نشم، نذوق، كانت الحواس المولودة تصل بنا إلى قمتها، ونصل بها إلى قمتنا، وعند قمم الحواس كان لابد أن تولد الروح، رأيت هذه الروح فى كل بقعة من الميدان، رأيت ميلادها فى ميلاد النكتة، وفى ميلاد الحنان وفى ميلاد التسامح والعفو، تذكرت أن من لا يضحك لا يحزن ولا يحب، وإذا سألتنى عن الدليل والشاهد، سأدعوك للنظر إلى وجه النقيب مكرم محمد أحمد والعميد عبدالمنعم سعيد، إن

جسد كل واحد منهما هو نعش لروحه، فى الليل كنت أعود إلى البيت، انتبهت إلى أننى قبل أيام الثورة لم أكن أغادر البيت إلا قليلا، انتبهت إلى أننا كنا بلا وطن، كنا نكتفى بيوتنا، أما الشوارع ورغم أنف ماجدة الرومى وصلاح جاهين ويوسف شاهين، الشوارع لم تكن لنا، ولما ثار الشباب وطردوا الديكتاتور، استعادوا أرواحهم وحواسهم وطنهم، واستعادونا كآباء، واعترفوا بنا، كنا طوال ثلاثين سنة لا نعبأ سوى بنظافة بيوتنا، لقد قسمنا الوطن إلى شقق وبيوت، فأصبح وطنا مفتتا، أصبح وطنا مركونا فى قائمة الأشياء الملغاة أو المهملة، فور الثورة، وفور استعادة الوطن خرج الشباب كله، ينظفون أرضه، ويغسلون جدرانه ويصعدون إلى سمائه ليغسلوها أيضا، اليوتوبيا انطلقت من هنا، من الميدان، كلنا قرأنا عن المدن الفاضلة، وظنناها أحلام فلاسفة، وظنناها وافدة علينا من عالم المثل، إلى أن تحققت هكذا فى الميدان، ثمانية عشر يوما قضيناها فى جنة اليوتوبيا، قلت لنجاح طاهر ماذا سنفعل بنهاراتنا بعد انتهاء الثورة، هل سنعود إلى الرتابة، هل سنمكث ثانية فى البيوت مثل شعراء قاصرين، لماذا تذكرت فجأة طرفة أن الديكتاتور سيشاركنا مظاهراتنا ويهتف معنا بسقوط الديكتاتور، وأنه قد يستورد شعبا بديلا لأننا نعطس ونبول؟ لماذا تذكرت فجأة طابور موتى السنوات الأخيرة، عفيفى مطر وفاروق عبدالقادر، أذكر أيام مظاهرات كفاية، وفى كافيتريا سوق الحميدية، قال لى فاروق: الثورة التى ستحدث، وهى قادمة، سوف يقودها بشر لا نعرفهم، أما عفيفى مطر فقد ضاقت روحه بأكوام القاذورات التى سقطت فوق رأسه، وفوق رأس نفيسة، وفوق رؤوسنا، ومات بالحسرة، مات مثل ثمرة لم يذقها أحد، كان محبطا وكنا محبطين، فى الميدان كانت نوبات الأمل أكثر تواترا لكن نوبات الإحباط الأقل عددا كانت بحجم الخوف من الفشل، فى الليلة الأولى بكيت فور وصولى إلى البيت، وفى المرة الثانية خفت من المثل الصينى: أنصاف الثورات أكفان للشعوب، وصادفت أمين إسكندر، وسألته، لماذا لا ننصرف، فابتسم وتركنى وحيدا، فى اليوم التالى فهمت ابتسامته، وفهمت انصرافه، وتماسكت، وفور تبديل الإنتهازيين أماكنهم تفاءلت بشدة، وأصبحت أكثر إصرارا على أن يتم الشباب ما بدأوه، فالسلاح العلنى الذى استخدمه المقيمون فى الميدان، لم يتجاوز الوقوف والهتاف، والسلاح السرى، كان فى إيمان الشباب بأن الثورات لا تستمر كثورات إلا بمطالب راديكالية، مطالب تغيير جذرى، وأنها تذبل إذا تحولت مطالبها إلى محض إصلاحات، وكان أيضا فى نون الشباب محرفون ضد ميلودراما الرئيس وعنف النائب وركاكة الأعوان، طوال ثمانية عشر يوما ظل الشباب جذريين بلا هوادة، الشعب يريد إسقاط النظام، الشباب يعرف أن النظام ليس الحزب الحاكم فقط، ولكنه أيضا أحزاب المعارضة التى شاركته اللعبة ومنحته الشرعية، فى يوم الأربعاء الدامى، يوم معركة الجمل والحصان وضربة العصا التى شرخت ظهرى، كنت أقف فى الصباح قريبا من المتحف، ومعى اثنان من أصدقائى، ولما رأيت

جموع المأجورين تأتى فى اتجاهنا، قررت أن أخترق الحاجز المحيط بالمتحف لأقابل القائد العسكرى للقوات الحامية للميدان، أعاننى كارنيه اتحاد الكتاب، وكنت أظنه هزيلا، لأنهم بسببه سمحوا لى بالدخول، فى الوقت ذاته كان أيمن نور وثلاثة أو أربعة من حاشيته يدخلون مثلى، المأجورون يعرفون أيمن ويشتمونه، فهو نجم، وأنا شاعر لا يعرفه إلا بعض النخبة، استقبلنا قائد الحامية، أظنه برتبة اللواء، الرجل مهذب للغاية، بادرنا بالقول إن الجيش على الحياد، قلت له: هذا ليس الحياد، الحياد يفرض أن تصنعوا حاجزا من الدبابات يفصل الطرفين، وإلا أصبحنا على مشارف حرب أهلية، اللواء قال: ليست عندى تعليمات اسألوا هذا، وأشار إلى شاب يرتدى الملابس المدنية، فهمت أنه ينتمى إلى المخابرات، الشاب أهملنا، أيمن نور أسكتنى بيده ولسانه، وطلب من السيد اللواء أن يوفر له ولمرافقيه الحماية الشخصية عند دخوله وعند خروجه، عندها تأكدت أن النظام ليس الحزب الحاكم فقط، وأن الشعب يريد إسقاط النظام، أيمن نور قد يكون من جيلى، وهو جيل كنا لا نتوافق فيه إلا إذا تشابهنا، وبسبب ذلك كانت جماعاتنا هى جماعات المتشابهين، جماعات الكل فى واحد، والشباب من جيل ابنى، وهو جيل يتوافق أفراده رغم اختلاف كل فرد عن كل فرد، الشباب من جيل ابنى يعرفون تماما أن الكل فى آحاد وليس الكل فى واحد، شيرين الجمال من جيل وسيط بينى وبين ابنى، لم أرها من قبل، ولكن كانت تتصل بى عندما أكون فى الميدان ليطمئن قلبها وقلب والدتها الأستاذة بكلية العلوم على وطنهما، شيرين مولودة بعد الثورة بثلاثة أيام، مولودة فى عيد الحب، جودت فخر الدين وبول شاوول وهنادى زرقا وعائشة أرناؤوط وكلاريسا بيرث ومحمد بنيس وعباس الحداد والياس فتح الرحمن وثائر ديب ومنذر مصرى وخالد المعالى، كانوا يرددون على مسمعى، ودون صوت: مصر عادت شمسك الذهب، وحيد الطويلة يشعر أنه محبوس فى تونس، وكل يوم يسعى للسفر، لولا أن الطائرات تخونه ولا تأتى، هدى الجميلة ضحكت فى وجهى وقالت: صباح الخير، فى الميدان رأيت مجددا سهام بيومى وسلوى بكر وخليل كلفت ومحمد أبوالغار وعرب لطفى ورجاء إبراهيم وصنع الله إبراهيم، وتعرفت للمرة الأولى على يسرى نصر الله وأشرف الصباغ وطارق الشناوى وعلى بدرخان وابراهيم عيسى، وناديت جورج البهجورى، يا عم جورج، ووعدنى بأن يرسم لى بورتريها جديدا، وصالحت ناسا، وصالحنى ناس، إنها النيرفانا، إنها النيرفانا، يوم الأربعاء الدامى استغثت بأدونيس، قلت له: ساعدونا، اكتبوا البيانات، اصرخوا مثلنا، اصرخوا فى آذان العالم، اصرخوا بأعلى صوت، وفعلوا، ولكن فى الوقت الذى كان فيه الشباب يقفون فى الميدان، وينامون تحت الدبابات، ويواجهونها إذا لزم الأمر، وكان بعض الضباط ينحازون إلى جانبهم، كان رجال الأحزاب من يسارهم إلى يمينهم يراقبون ذلك الصراع الدائر، يراقبونه من النافذة، ويتجهزون لالتقاط السلطة، إنهم فوجئوا بالثورة على الرغم من أنهم لم يكونوا راغبين فيها، لأن

خطر الثورة عليهم لا يقل عن خطرها على الديكتاتور وأعوانه، لقد انتصرت الثورة رسميا، واحتفل الثوار واحتفل الشعب، وأطلق الجميع هتافات الفرح والحزن على شرف الشهداء من أجل الحرية ومشوا تحت الأعلام، وهتفوا ارفع رأسك، إنك مصرى، ومعهم احتفل قادة الأحزاب القديمة، ولن يخفى على الناظرين إلى وجوههم، إنهم مازالوا خائفين فى أعماق نفوسهم، إنهم يخشون أن تكنسهم المكنسة ذاتها، عندما قال أحد المارة إننى أستطيع أن أحمل الهرم، شرط أن يرفعه أحدكم ويضعه فوق ظهرى، كان هذا الأحد يبحث عن نقطة استناد، عن قوة استناد، وها هى التحالفات العديدة تجعل من الجيش تلك النقطة، أو القوة التى سترفع الهرم وتضعه فوق أكتاف الحلفاء التاريخيين، الجنرالات والبيروقراطية الجديدة ورجال الدين ورجال المال والأعمال والبشوشين فى الظاهر المستائين فى باطنهم من الثورة وكل ثورة، يكتب كارلوس فوينتس فى صدارة روايته كرسى الرئاسة، أنه فى عام ٢٠٢٠ وخلال انعقاد لمجلس الأمن فى الأمم المتحدة، تجرأ رئيس جمهورية المكسيك، المثالى النزعة، وصوت ضد احتلال الولايات المتحدة لكولومبيا، وضد رفض واشنطن تسديد أسعار النفط إلى منظمة الأوبك، تصويت رئيس المكسيك أدى إلى أن يأتى انتقام الولايات المتحدة سريعا، إذ تقرر رئيسة الولايات أن تقطع نظام الاتصالات فى المكسيك، فلم تعد هناك هواتف أو فاكسات أو بريد إلكترونى، ويغوص البلد فى كابوس إدارى لا حدود له، يصبح تبادل الرسائل هو الوسيلة الوحيدة للاتصالات، وسرعان ما يبرز المتنافسون الذين يسعون للاستيلاء على السلطة من خلال الرسائل التى يتبادلونها. وفى ٢٥ يناير ٢٠١١، تجرأ الشباب المصرى، وخرج إلى الشوارع والميادين. وهتف هتافه الحاسم. الشعب يريد إسقاط النظام، فأهاج النظام الذى أتى انتقامه سريعا، بأن قطع نظام الاتصالات، فلم تعد هناك هواتف محمولة أو بريد إلكترونى، وشوّش على بعض الفضائيات، وسرعان ما استطاع الشباب أن يؤلفوا وسائل أخرى تجعلهم الأجمل والأقوى إرادة بيننا جميعا، وامتلأت الإذاعة الموحدة، أو الإذاعات المختلفة بالميدان، امتلأت بالأغانى التى ينتسب أغلبها إلى الأجيال الأسبق، عبدالوهاب وعبدالحليم وأم كلثوم وشادية، كأن زمن الديكتاتور خلا من الغناء، وفى ظهيرة الخميس ١٠ فبراير ٢٠١١ بعضنا خاف من الأمطار وبعضنا تفاءل بها، وبعضنا ظل يتوتر، لكن الواقع كان أكثر مهارة، وأخصب خيالا منا جميعا، الواقع الذى حسبناه سحابة عمياء. فى مساء الجمعة ١١ فبراير تجرأ الديكتاتور وسقط تحت كرسيه، تحت كرسى الرئاسة، وامتلأت كل الميادين بالبشر الذين تحولوا إلى أشجار حلم، وبالأحلام التى تحولت إلى قامات بشر، ووراءهم هاجس سؤال ملح، كيف نكنس أتربة العالم القديم، كيف نؤسس عالمنا الجديد، كيف نجعل الثورة تامة، وكيف نجعلها دائمة، هذه هى المرة الأولى التى أشعر فيها أننى أعيش على شجرة، و كما تمارسان الطغاة هى الأكثر خرقا لقدرة المخيلة، فإن

فانتازيا الثوار هى الريشة التى رسم بها الخيال شجرتى، فى مساء الجمعة ١١ فبراير خرج الليل من المتحف ونام فى الميدان، وفجأة تصير أصعب الأشياء أبسط الأشياء، وفجأة وفجأة يبدأ النهار عندى، ويبدأ النهار عندك، وترتخى الأرض فنكتشف أن الصباح التالى هو صباح السبت الأول بغير ديكتاتور، وزوجتى التى أراها اليوم غير زوجتى بالأمس، وابنى غير ابنى، وذكرى الأب اعتدلت وأصبحت ذكرى أبى، والبيت اتسع، أصبح بحجم التاريخ كله، والجغرافيا كلها، أصبح بحجم الإنسان، فى صباح السبت نتبادل التحيات: صباح الخير يا حزنى، صباح الخير يا فرحى، وقبل أن نتجاذب ونتحاب، نرى كل الأشياء تركض فى اتجاه الثورة التى تريد أن تتم ■

حين رأيته .. فهمت

عزالدين شكرى

حين رأيته أول ما دخلت البهو الفرعونى فهمت

كان عريض المنكبين مثل بائع الشاى هذا، شمعى الوجه شديد البياض. حرك رأسه فى اتجاهى ببطء. عيناه تنظران إلىّ ولا ترياننى كأنهما من زجاج. كان بعيدا، بعيدا جدًا وكأنه فى مكان آخر. انحنيت واقتربت منه للسلام عليه لكنه أوقفنى بحركة من يده. (...) عندما تكلم الفرعون أنصتّ. كان صوته مجوفًا ورنانا. يتكلم ببطء ورتابة كأنه يتكلم فى التليفزيون. قال لى: هات ما عندك (...) تكلمت وقلت له الفكرة الأساسية. تحدثت عن العفن والتلوث وعن تشخيصاته المحتملة ثم دخلت فى سيناريوهات الحل. (...) ظللت أحكى للفرعون وهو صامت لا ينبس ببنت شفة. ظللت أتكلم كثيرًا. قلت كل ما عندى. (...) أتلو القصة التى تلوتها عشرين ألف مرة وصرت أحفظها عن ظهر قلب. تركنى الفرعون أنهى حديثى. (...) ثم قال الفرعون كلمة واحدة:

- شكرًا

ثم انفتح الباب ورأيت السيد مينا واقفًا ينتظر. فخرجت، وانغلق الباب. حاولت الحديث مع السيد مينا لكنه كان صامتًا أو راغبًا فى الصمت ومقتضبًا فى ردوده هممت بإعطائه نسخة من البحث إلاّ أنه ردّها بأدب مؤكدًا على أن لديه نسخة بالفعل. سألته عما سيحدث بعد ذلك فأجاب مستنكرًا بأن الموضوع الآن فى يد الفرعون نفسه، فلم أجد ما أقوله فأضفت أنه على العموم أنا موجود فى عنوانى لو احتاجوا إلىّ. فنظر إلى السيد مينا وقال

- عندما نحتاجك سنعرف كيف نجدك

خرج معى إلى الباب الخارجى للقصر ثم سلّم علىّ بسرعة. جاءت سيارته وفتح السائق لى الباب الخلفى فركبت وحملنى خارج القصر وخارج مصر الجديدة كلها (...) كان التاكسى ينحدر هابطًا بسرعة نفق الهرم وكانت الشمس ساطعة وكنت أدرك انه لم يعد بوسعى فعل أى شىء.

هكذا تنتهى قصة أحد شخصيات رواية

أسفار الفراعين التى تشرتها عام ١٩٩٩، وهو الباحث الذى وجد الحل للعفن الضارب فى بر مصر. هذا العفن الذى لم يسلم منه شىء والذى واجهته الدولة بالانسحاب، فأقام الحرس الفرعونى حواجزه الأتوماتيكية حول الأحياء الموبوءة لمنع سكانها من الفرار متخلياً عنهم - مثلما تخلى عن الصعيد كله - للصليب الأحمر وهيئات الإغاثة. بعد سنوات من الجهد والعمل الدؤوب وجد الباحث طريقة لمكافحة العفن والقضاء عليه، لكن المسئولين تجاهلوه. ظن أنه لو أوصل صوته لمستوى أعلى لانحلت المشكلة، وبعد نضال مع قوى الشر وصل للفرعون نفسه. لكنه عندما رآه فهم؛ أدرك أنه لم يعد بوسعه فعل شىء، وهى نفس النتيجة التى توصلت لها الشخصيات السبعة الأخرى التائهة فى سفر لا نهائى ولا مخرج منه فى رواية كابوسية لا تحمل شعاع أمل واحد.

تذكرت هذا المشهد وأنا أرقب جموع الشعب المصرى فى ميدان التحرير يوم السبت ٢٩ يناير - وهو أول يوم أذهب فيه للميدان: من هؤلاء الناس؟ من أين أتوا؟ فوجئت، تماماً، بأن هناك شعباً، حياً، فى هذا البلد. أخذت أتأمل الوجوه وأنا أجوب التحرير من ساحة الحزب الوطنى المشتعلة بقاياها إلى قوس قزح الجماهير حول صرة الميدان؛ كانت كل مصر هناك. رجل مسن وحيد يصرخ فى ساحة الحزب ضد الفساد والافتراء، وآخر يسير حاملاً شهادته العسكرية وورقة مكتوب عليها: مقاتل من حرب أكتوبر يريد إسقاط النظام، وآخر يحمل ورقة تحكى قصة قتل أخيه تعذيباً، وامرأة محجبة وأطفالها الثلاثة حولها، وشباب من كل نوع وصنف، وغيرهم وغيرهم. لم يكن معرض البؤس غريباً عنى، لكن كيف تجمعوا هنا هكذا فجأة؟ كيف تحولت الشخوص إلى جمع؟ إلى شعب؟ من أين خرج هذا الشعب؟ وكيف ولد كبيراً وجميلاً هكذا ودون مقدمات؟

فهمت، وأنا أعود للميدان يوماً بعد يوم لأتأكد أنى لم أكن أحلم، وأن ما أراه شعباً هو فعلاً كذلك، وأنه باق وحى وليس انتفاضة ظهيرة تنقضى فى المساء، أدركت بغتة أنى لم أفسح لهذا الشعب مكاناً فى خيالى. لا وجود للشعب فى أى من رواياتى هناك شخصيات، أفراد، حالمون أو غاضبون أو متواطئون أو متمردون أو فى غيبوبة، ولكنهم جميعاً بلا جمهور. الناس فيها، حين يظهرون، فرادى، طالبى منافع أو تابعين، خانعين ومستسلمين لعبودية تبدو لهم طبيعية ولى حتمية. حين انتفض فخرالدين فى مواجهة بطش الدولة القاهر الحالم لم يجد من يقف وراءه أو يسانده، وانتهى به الأمر قتيلاً بين يدى الناس الذين أغلقوا عيونهم وشبابيكهم وناموا تاركينه يواجه قناصة أمن الدولة وحده. وفى أسفار الفراعين غرقت الشخصيات، فرادى، واحدة تلو الأخرى، فى العجز الذى أصابتهم به لعنة الدولة الفرعونية المتعفنة حتى النخاع. يسافرون هرباً من عفن يزحف عليهم دون أن يصلوا لأى مكان. وفى غرفة العناية المركزة رقدوا تحت الأنقاض، كل على حدة، يواجه مصيره وحده ويستدعى مسئوليته والآخرين عما آل إليه الحال. وحين نفض فخرالدين ثوب

العجز وأراد الفعل، صار أبوعمر المصرى، قاتلاً منفرداً فى نجاحه الدموى وفشله فى تغيير واقعه الظالم.

لم أر الشعب من قبل سوى حفنة من التائهين على مصالحهم الضيقة، مضللين وبلا إرادة: هل كان هذا عمى منى، أنا الذى يفترض فيه أن يكون عين الأمة، أم أن هذا الشعب قد ولد لتوه فعلاً؟

حين رأيت الشعب فى ميدان التحرير فهمت من أين يأتى شعاع الضوء.

حتى ذلك اليوم كنا، كلنا، نتخبط فى ظلام الواقع الذى نحيا فيه: نصف تفاصيل بؤسه فى رواياتنا، من أكثر صفاته عمومية إلى أدقها. تارة نستسلم لليأس المطلق ونحكم إغلاق رواياتنا فلا ينفذ منها ولو شعاع، مثلما فعلت فى أسفار الفراعين، وتارة نداعب أطراف الأمل فى تغيير لا نعلم كيف يأتى، فى ضوء لا نعلم من أين يأتى، فى أفق لا نؤمن حقيقة بأنه سينفتح لكننا نرجوه، فى غد قد يحمل بشائره، فى أحد يرفع الأنقاض عنا أو مستقبل قد يأتى مختلفاً. لكننا، حتى حين نداعب هذا الأمل، لا نصدقه حقيقةً، ولا نعرف كيف نتلمس الطريق إليه فنربط شخوص حاضرنا به، أو حتى ببداياته التى لا نعلم لا كيف ولا من أين تخرج.

حين رأيت الشعب فى ميدان التحرير فهمت من أين يأتى الضوء. قام الناس، حين ضجوا وحين طفح بهم الكيل، قاموا. وفى قيامتهم أدركوا أن الحل كان بين أيديهم لعقود وهم لا يرونه. قام الناس فارتعدت فرائص الاستبداد والقهر والظلم: لا ترويع الشرطة بالحضور ثم بالغياب، ولا العسس، ولا الحواجز الأتوماتيكية، ولا الرصاص الحى، ولا متاهات القانون المزيف، ولا تضليل أبواق الفرعون، ولا ثقافة الرق وقفت أمامه، ولا دبابات الجيش كانت تستطيع. وقفوا، دون انتظار التنمية أو التعليم أو التأهل للديمقراطية، وقفوا هكذا بعبلهم فأسقطوا الفرعون فى سبعة عشر يوماً. وقفوا، وحين تخلت عنهم الدولة، هؤلاء المصريون الذى قيل لهم أن بقائهم رهن بالدولة الفرعونية العتيدة، لم يحدث لهم مكروه: صار الناس ألطف، والمرور أحسن، والأمن أقرب، والكرامة أعلى. حين وقف الناس سوياً صاروا شعباً، وحين صاروا شعباً فتحوا أبواب الأمل على مصراعيها ودخل بدل الشعاع مليون شعاع من شمس جديدة طردت فى سبعة عشر يوماً خزعبلات ظلام متراكم عبر عقود.

حين وقف الشعب، معاً، دون سلاح ودون قتال، مجرد وقوفه معاً ودبة قدمه فى الأرض، اهتز عرش الفرعون وسقط. وحتى لو أفلح سدنة الفرعون، مثل السيد مينا وأعوانه، فى تتويه الناس وتضليلها مرة أخرى، فإن شيئاً قد حدث ولن يتغير. أدرك الناس، دون شعارات أو طنطنة - أنهم شعب، وأن القوة كلها فى يدهم حين يقفون معاً.

حين أصبح المصريون شعباً تغير عالمنا نحن رواة مصر. لو شهد فخرالدين ميدان التحرير ما استسلم للموت على يد قناصة أمن الدولة ولا بين براثن نظام قانونى يكرس الظلم ولا بطلقات عمياء فى حرب خائنة. لو عاش الباحث وسحر وناصر ورزق وعبدالعال وحور والدكتور بدير وفاطمة ورأوا

الشعب واقفاً لوجدوا طريق العودة لمصر ولحياتهم المدمرة بالعجز والفشل ولعنة الفراعنة. لو عاش أحمد كمال وشهد الشعب واقفاً فى التحرير يملى إرادته على الفرعون لشفى من عجزه، ولخرج أشرف فهمى من قوقعته، ولبرأت داليا الشناوى من تعتنها وذنبها، ولوجد نشأت غالب حياته الضائعة: لو عاشوا وشهدوا الشعب فى

الميدان لخرجوا من تحت الأنقاض وعادوا ... عاش فخرالدين ورأى المصريين شعباً لما ... لفرنسا تائهاً، ولا للسودان لاجئاً، ولا ... لأفغانستان قاتلاً، ولما دمر نفسه ومن بعده ... مع من يكره.

حين رأيت الشعب واقفاً معا فهمت أن مصر قد تغيرت، من أعماقها، وأن عالما الروائى تغير، ربما إلى الأبد ■

صورة جانبية لمشاهد يوم القيامة المصرى

عزمي عبد الوهاب

الإثنين ٢٤ يناير:

فى بهو فندق شيراتون الكويت التقيت الأصدقاء، كانت تونس قد حققت نجاحاتها الأولى بهروب زين العابدين بن على خارج البلاد، وكانت الحواس مضبوطة على السكون المصرى، الذى تأكد فيما بعد أنه يسبق العاصفة والكل ينتظر، بما فى ذلك الأصدقاء العرب العاملون بالكويت: متى تتحرك مصر؟ إنهم يريدون تغيير العالم العربى من هنا.

كان الترقب هو الملاذ الوحيد لدى كثيرين، لكن الصديق أيمن بكر بدا الأكثر انفعالا بما جرى فى تونس، والأكثر تفاؤلا بأن مصر ستخرج عن صمتها عما قريب.

الثلاثاء ٢٥ يناير:

أفقت على اتصال من أحد الأصدقاء: أفتح التليفزيون، وكان شارع رمسيس فى مركز الصورة، ظللت أقطع زحامه الاعتيادى، على مدار سنوات، رأيته الآن محتلا بآلاف المتظاهرين، وبينهم عساكر الأمن المركزى، فى منطقة شد وجذب.

يوميا كنت أمر بهذا الشارع، فأرى كردون الأمن يحيط ببضع عشرات أمام نقابة المحامين، أو على سلالم نقابة الصحفيين، الآن، وأنا بعيد فى الكويت، أقول: الأمر مختلف لكن إلى متى؟!

انكسر الطوق الأمنى، هل يعود ذلك لتصريحات قادة الأمن بأنهم التزموا ضبط النفس مع المتظاهرين، الذين أفسدوا عليهم احتفالهم بعيد الشرطة؟! ربما!

فى بهو الفندق تساءلت ناشرة جزائرية عن وضعية الجيش فى معادلة السلطة بمصر، وماذا سيفعل إذا خرجت الأمور عن نطاق السيطرة؟ تحدثت وكأنها تتحدث عن الجزائر، قلت لها: إن الجيش المصرى مؤسسة وطنية، إذا صدر له أمر بالنزول إلى الشارع، فإن ذلك لن يكون إلا لحماية النظام العام وصيانة المنشآت والمرافق الحيوية، لكنه لن يطلق رصاصة فى اتجاه أحد، قلت لها: إن تركيبة الجيش المصرى لا تسمح له بأن ينحاز إلى طرف دون الآخر، قلت لها.. وقلت لها،

لكنها لم تصدق!

الأربعاء ٢٦ يناير:

عدالة اجتماعية.. عيش.. كرامة.. حرية، تلك كانت الشعارات التى حاولت ملاحقتها، أثناء متابعتى لما يحدث فى مصر على إحدى الفضائيات، تأكدت أن الأمر بالفعل مختلف، فالمظاهرات تخرج من شارع إلى شارع، من المهندسين والدقى إلى وسط البلد، والشرطة التى التزمت ضبط النفس فى البداية فقدت أعصابها، كان المشهد على كوبرى قصر النيل استثنائيا،عربات الشرطة المصفحة، تدهس المتظاهرين دون عقل، بينما تتطاير قنابل الغاز فى كل اتجاه، وخراطيم المياه تعمل بعنف على تفرقتهم.

عندما رأيت شابا يصعد إلى سطح إحدى العربات، ليعطل خراطيم المياه عن عملها، تأكدت أن مصر أخرى تولد الآن على كوبرى قصر النيل.

اتصل بى صديقى يسألنى عن رأيى فيما يحدث، قلت له إذا صمد الشباب إلى ما بعد منتصف الليل سنكون أمام حدث كبير.. لكن ضباط الشرطة أسالوا كثيرا من الدماء، على غير العادة.

الخميس ٢٧ يناير:

كان من المفترض أن تكون عودتى من الكويت أمس، لكن موعد السفر تأجل إلى اليوم،وفور أن هبطت أرض المطار فتحت هاتفى فإذا بى أتلقى الرسالة: مظاهرات النهاية ستخرج من كل مساجد مصر، بعد صلاة الجمعة، سنعتصم فى الميادين عيش.. حرية.. كرامة.. ابعثها لكل اللى تقدر عليه لازم نوصل لـ ٥٠ مليون إضافة إلى رسالة أخرى بالإنجليزية من الصديق محمد فريد موقعة من جروب كلنا خالد سعيد.

كانت الطريق من مطار القاهرة إلى حدائق القبة لا تنبئ بشىء، إنه الزحام، والوجوه التى تطالعها منذ سنوات، وهى تسير إلى حتفها بمزيد من الإذعان، الذى كان يكبر يوما فيوما، هذه مصر أخرى غير التى رأيتها فى الميدان.

فى عربة الأجرة كان الصديق سيد محمود، وقد تلبسته روح الثورة منذ أن خطا خطوته الأولى من المطار إلى موقف السيارات، لا يكف عن تحريض السائق المسكين على الذهاب إلى ميدان التحرير للانضمام إلى المتظاهرين.

الجمعة ٢٨ يناير:

يبدو أن الرسائل لا تصل فاليوم جمعة الغضب ومثلما اختفت الشرطة اختفى النظام، فلا أحد يريد أن يخرج ليقول شيئا لأولئك الذين اعتصموا بالشارع، ولا لأولئك الذين سالت دماؤهم الطاهرة.

وأخيرا يخرج الرئيس مبارك، الذى يبدو أنه دخل خريف الديكتاتور وحيدا، ليقول إنه سيقيل الحكومة، يتصرف وكأن يوم ٢٥ يناير لم يأت بعد، فإقالة الحكومة كانت تعنى لديه تغييرا وزاريا محدودا، بينما الشارع يطالب بإسقاط نظامه، هكذا ظل دائما يأتى متأخرا، لم يستطع أن يضبط إيقاعه على إيقاع الشارع لذلك كان لابد أن يسقط فى النهاية.

السبت ٢٩ يناير:

فى عربة المترو الأخيرة، كان الكل يتحدث فى السياسة وكانت العربة تنقسم إلى فريقين، فريق يتحدث عن تعطيل المصالح ووجبات الكنتاكى والاستقرار وفريق يتحدث عن الحرية والكرامة.

يحدث هذا بينما يقطع المترو الطريق إلى المجهول، متجاوزا محطة التحرير كعادته، فى الأيام الأخيرة بعدما احتل الشباب الميدان، وخلت الشوارع تماما من رجال الشرطة، وتمركزت قوات الجيش فى الشوارع.

وكان الهواء يحتفظ ببقايا دخان القنابل المسيلة للدموع أمريكية الصنع، وبضعة أفراد مدنيين ينظمون المرور بإشارة الاسعاف، ومن بعيد يمكنك أن ترى عمود دخان صاعدا إلى السماء، بعد أن أتى الحريق- طوال ليلة أمس- على مقر الحزب الوطنى.

وأمام جريدة الأهرام كانت دبابات الجيش تهدر فى طريقها إلى الميدان، بينما جموع الشعب تتوالى فى الاتجاه ذاته تحت لافتة: الشعب يريد إسقاط النظام، ولأول مرة فى تاريخ المظاهرات يكون الدخول بالبطاقة الشخصية وبعد التفتيش الدقيق.

من بعيد تسمع أغانى الشيخ إمام، التى أكلت من عمرك زمنا، وتسربت من بين أصابعك، لكن أكثر ما يزعجك هو تلك الوجوه السلفية لرجال لا تخطئ لحاهم ونساء منتقبات يجرح سوادهن بياض الصورة، ثم يأتى البرادعى من فيينا، ليشارك فى جمعة الغضب من ميدان الجيزة ويختفى، سيأتى بعده أحمد زويل من أمريكا، ليعقد مؤتمرا فى فندق خمسة نجوم، لكن لماذا اختفى المواطن الأمريكى سعد الدين إبراهيم من الصورة؟!

الأحد ٣٠ يناير:

رأيته مفترشا الأرض، لا تستطيع أن تعرف هويته الدينية، إنه وجه يشبه مئات الوجوه فى الميدان، فقط حين اقتربت منه سمعت صوته وهو يتحدث عبر الهاتف، مطمئنا أمه، وكما قال لها فهو فى حراسة الجيش والشعب والملائكة، عندئذ أدركت أنه مسيحى، دعا الشاب أمه إلى عدم القلق، لأنه لن يعود إلى البيت إلا إذا نجح هو ورفاقه فى خلع الديكتاتور، أو يزف شهيدا.

الإثنين ٣١ يناير:

باتت الصورة ثابتة، فى الميدان، الآلاف يدخلون ويخرجون، وطوال أيام حظر التجول، تقطع الطريق من التحرير إلى حدائق القبة مشيا على القدمين، فترى القاهرة مدينة مهزومة، ومع آخر ضوء من النهار، تخرج الأشباح، لتعبث فى الشوارع، واللجان الشعبية، كل عشرة أمتار، قف للتفتيش: بطاقتك، إذا كنت راجلا، وافتح شنطة العربية للسائق، وأمام كل بيت تمر به يقف الشباب بعصيهم فى انتظار المجرمين، الذين فتحت وزارة الداخلية لهم السجون، ليكتمل سيناريو الفوضى.

الثلاثاء ١ فبراير:

إن وجود القوات المسلحة فى الشارع

المصرى من أجلكم، وحرصا على أمنكم وسلامتكم وقواتكم المسلحة لم ولن تلجأ إلى استخدام القوة ضد هذا الشعب العظيم.
المتحدث الرسمى باسم القوات المسلحة

الأربعاء٢ فبراير:

اتصال هاتفى من أحد رجال الأعمال بقناة تليفزيونية خاصة، يعدنا بمفاجأة اليوم، ذهبت إلى الميدان، وفى الطريق كانت هتافات التأييد لمبارك تتوالى، الجو ينذر بخطر ما، فى الوقت الذى وصلت فيه إلى الميدان، فوجئت بفلول التأييد تقطع مساحة الخظر أمام المتحف الوطنى، دون أن يعترضها أحد،هل تواطأ الجيش ؟ لماذا لم يمنع هؤلاء من الدخول؟

بعد ساعة أو ساعتين كانت الجمال والخيول تشق الميدان، وكانت معركة الرشق بالحجارة تتجاوز الميدان إلى الشوارع الجانبية، وأمام تمثال طلعت حرب كان البلطجية ينزلون من العربات، استعدادا لمعارك تواصل فيها الكر والفر إلى ساعات متأخرة من الليل، ومن أعلى كوبرى أكتوبر كان الرصاص يدوى والشهداء يتساقطون، حتى مطلع فجر جديد، ولادة جيل جديد.

الخميس ٣ فبراير:

مساء أمس كان رئيس الوزراء أحمد شفيق يكرر كلمة لاأعرف،عشرات المرات، يتحدث عن تحقيقات سوف تجرى، لمعرفة من يقف وراء أحداث الأربعاء الدامى، فى الوقت الذى يحاصر فيه البلطجية الميدان، ويمنعون دخول الأدوية والطعام للمعتصمين حول الكعكة الحجرية، اصطدمت بهم إلى أن وصلت إلى الميدان لأرى الوجوه الأكثر صمودا

الجمعة ٤ فبراير:

جمعة الرحيل ولارحيل فلتكن جمعة الصمود، وليكن لرئيس الوزراء أحمد شفيق أن يتهكم على المرابضين فى الميدان

الجمعة ١١ فبراير:

مبارك يظهر للمرة الثالثة والأخيرة، ليقدم العزاء لأسر الشهداء، ويوجه خطابه إلى شباب ميدان التحرير، لكن الرسائل الحقيقية لم تصله، ليظهر عمر سليمان للمرة الأخيرة أيضا معلنا تخلى الرئيس عن مسؤولياته

السبت ١٢ فبراير:

أتذكر عندما كنت عضوا فى الحزب الشيوعى المصرى، أن اجتماع الخلية الحزبية لم يكن يزيد على ثلاثة رفاق، يتبادلون نشرتى الوعى والانتصار والمنشورات السرية. الآن استطاع الشباب أن يصنعوا حزبهم السرى، وفى غرفة الفضاء الالكترونى أو الواقع الافتراضى بات بإمكانهم أن يعقدوا اجتماعا، يضم الآلاف، صاروا متقدمين على مباحث أمن الدولة بمئات الخطوات، وكانوا وحدهم يعرفون أن قبضة الدولة تراخت لدرجة الهشاشة.

ميدان التحرير الآن صورة وطن، فى القلب تعلو الهتافات والغناء، وعلى الأطراف ينتشر الباعة الجائلون، وبين أقدام المتظاهرين، يسعى نفر من الشباب لجمع القمامة، ومن ثم إلقاؤها فى عربة محترقة خاصة بالحرس

الجمهورى، ومكتوب عليها مقر الحزب الوطنى إن مصر بكاملها فى الميدان، أطفال ونساء وشيوخ جاؤوا من كل المحافظات المشتعلة بالغضب فى الإسكندرية والسويس والدقهلية.

الجمعة ١٨ فبراير:

من دعا الشيخ يوسف القرضاوى للوقوف خطيبا على دم الشهداء فى جمعة النصر؟ هنيئا لنا أصبح القرضاوى خومينى الثورة، وعبد الرحمن بن يوسف شاعر الثورة ■

هوامش على دفتر الثورة
شهادة على أحداث الفيوم

عصام الزهيرى

«يا أيها الأطفال.. أنتم الجيل الذى سيهزم الهزيمة» نزار قبانى

أ- اللجنة التنسيقية للتيارات والأحزاب السياسية بالفيوم شكلت قبل ٢٥ يناير بأيام قليلة بمشاركة من كل التيارات والأحزاب السياسية الأساسية بالفيوم وقامت بدور رافعة الثورة وكانت قبضتها الضاربة فى المحافظة. وقع على عاتق هذه اللجنة، بعد تشكيلها بأسبوع تقريبا تحديد وتنظيم وإطلاق كل ما جرى على أرض الفيوم من مظاهرات واحتجاجات ثورية وكل ما وزع من بيانات جماهيرية خلال أيام الثورة الثمانية عشرة.

أعرف بالطبع ما يعرفه غيرى عن المواقف المريبة أحيانا وغير النزيهة أحيانا لرموز بعض الأحزاب والقوى فى مصر قبل الثورة، وقطعا أعرف الجهود التى كان يبذلها جهاز أمن الدولة المرعب فى اختراق الأحزاب والتنظيمات السياسية المختلفة، لكنى أعرف، يقينا، أن كل هذه القيادات السياسية التى طالما خذلت الناس وكل هذه العناصر الحزبية التى ارتضت أن تبيع كرامتها بمقابل أو دون مقابل لجهاز أمن الدولة الذى يطالب المصريون اليوم بحله وتفكيكه، كل هؤلاء الذين يختلفون عن القواعد التى تمثل هذه الأحزاب تمثيلا حقيقيا، القواعد التى انفصلت بعض قياداتها ورموزها عن تمثيل مبادئها وأفكارها وبرامجها، وبغض النظر عما أصاب هذه القواعد من انكماش. لذلك أتى تشكيل اللجنة التنسيقية بالفيوم شاملا كل التيارات والأحزاب بمحافظة الفيوم وبصورة قد تثير دهشة غير المطلعين على حقائق الأمور.

جاء تشكيل اللجنة عفويا كما جاءت الثورة نفسها فى عفوية ذات عنفوان، كانت الجمعية الوطنية للتغيير بالفيوم قد دعت إلى مظاهرة فى الثلاثاء ١٨ يناير ٢٠١١ وهو يوم من أيام ثلاثة تصادف أن سماء الفيوم ومصر لم تنقطع خلالها عن إرسال المطر،وألغيت المظاهرة. لكننا إبان دعوة الناشطين السياسيين وممثلى الأحزاب لهذه المظاهرة ووجهنا باعتراض وهو أننا فى حاجة

إلى تنسيق أوسع يشارك فيه الجميع، ورحبنا بالأمر فورا.

كانت المظاهرة التى أفشلها المطر مكرسة لتحية الثورة التونسية ودعوة الشارع المصرى إلى ثورة مماثلة، وكانت الرسالة التى أردنا أن تصل إلى الشارع تتلخص فى أنه إذا كان الشعب التونسى قد أقام ثورته ضد الديكتاتورية السياسية والفساد المالى والاقتصادى والإدارى والتدهور الاجتماعى الشامل فإن أوضاعنا فى مصر لا تقل سوءا ولا فسادا وتدهورا عن الوضع التونسى، وعليه فإن حاجتنا إلى ثورة لا تقل، إن لم تكن تزيد، عن الأشقاء فى تونس. لكننا لم نذهب إلى المظاهرة التى أعاقها المطر الغزير وذهبنا بدلا منها إلى اجتماع موسع استضافه مقر الوفد بالفيوم، وهو الاجتماع الذى شكلت وأعلنت خلاله اللجنة التنسيقية للتيارات والأحزاب السياسية بالفيوم. ولم يكن أحد من الحاضرين الذين ساهموا فى تشكيل وإعلان اللجنة (وهم ممثلو الوفد والتجمع والغد والأحرار والإخوان المسلمون وكفاية والجمعية الوطنية للتغيير) يعرف أننا بتشكيل هذه اللجنة نكون قد وضعنا نقطة على أول سطر لن ينتهى حتى يكون كل شىء فى مصر قد تغير.

2- مساء الخميس ٢٧ يناير كان موعد اجتماع اللجنة التنسيقية الثالث بمقر حزب الأحرار. كان المتظاهرون فى ميدان التحريرقد تعرضوا قبل ذلك بنحو يوم لضربة أمنية وحشية فى منتصف الليل أسقطت عددا من الشهداء والجرحى، وكانت المظاهرة السابقة التى دعت إليها اللجنة فى نفس اليوم بميدان الحواتم قد شهدت مشاركة جماهيرية واسعة سببت ورعا لقيادات أمن الفيوم جعلها تعلن حظرا كاملا لكل أشكال التظاهر والاحتجاج بالمحافظة، وكان مزمعا أن يناقش الاجتماع مسار مظاهرة جمعة الغضب فى اليوم التالى وصياغة بيان خاص بالأحداث أيضا.

فى نفس هذه الليلة التى جلست فيها على طاولة اجتماع حزب الأحرار إلى جانب ممثل الإخوان المسلمين الصديق العزيز يحيى سعد وصلنى نبأ اعتقال منسق الجمعية الوطنية للتغيير ببنى سويف، وهو ما جعلنى أتوقع ضربة أمنية مماثلة ببقية المحافظات ومنها الفيوم، توقعت أنه لن تمر الليلة حتى أكون (بوصفى منسقا للجمعية بالفيوم) ضيفا على أحد المعتقلات. لم أخبر أحدا من ممثلى القوى السياسية الذين حضروا الاجتماع حتى لا أسبب حالة من القلق لا داعى ولا مكان لها. ثم أتت الضربة فى نفس الليلة فعلا لكنها لم تصبنى أنا. أصابت صديقنا يحيى سعد الذى اعتقل من منزله بعد منتصف ليلة الجمعة كما أبلغنى د.طه عبدالتواب منسق الحملة الشعبية تلفونيا ونصحنى أن أبيت بعيدا عن منزلى حتى لا يعتقل الجميع فتفشل المظاهرة

وخلال هذه الليلة الطويلة قام ممثلو القوى المشاركون فى اللجنة بدعاية واسعة للمظاهرة فى شوارع الفيوم، وزعت دعوات مطبوعة فى شوارع المدينة وبعض مراكزها وقراها، وأرسلت مئات من رسائل الموبايل لكنها لم تصل جميعا بعد أن قامت

السلطات بتعطيل خدمة الرسائل بالكامل فى كل ارجاء مصر.

3- بعد ظهر الجمعة ٢٨ يناير خرجت عدة مظاهرات من عدة مساجد فى الفيوم، اتفقنا فى اللجنة أن تنطلق المظاهرة الكبرى بينها من مسجد عبدالله وهبى وصولا إلى ميدان قارون عقب أداء صلاة الجمعة. وبدأت المظاهرة بأكثر من خمسة آلاف متظاهر تقريبا لكنها لم تصل إلى ميدان قارون بعد أن واجهتها قوات الأمن بوحشية على بعد أمتار أمام شارع السنترال. سيول من المياه أطلقتها على المتظاهرين سيارات الإطفاء وانهمرت قنابل الغاز كالمطر. وواجه المتظاهرون وحشية الأمن ببسالة فائقة وبغضب كبير حتى تمكنوا من كسر كردونات الأمن المركزى واستمروا فى طريقهم المرسوم، فيما انفصلت مظاهرات أخرى أصغر تسربت من الشوارع الجانبية وأخذت طريقها من شوارع موازية وبأعداد تتصاعد طول الوقت تجاه ميدان قارون. (ملاحظة: قنابل الغاز هذه كان يعتقد أنها مسيلة للدموع فقط لكن اكتشف خلال مظاهرات الثورة أنها أيضا مؤدية للاختناق إذ أنها منتهية الصلاحية!).

فى ميدان قارون كان وضع قوات الأمن المركزى التى تواجه المتظاهرين واصطفافها غريبا بعض الشىء. إذ تمركزت القوات بحيث تغلق طريقين فقط من الطرق المؤدية للميدان، أحدهما هو الطريق الذى يؤدى إلى مديرية الأمن ومبنى محافظة الفيوم وهو أمر طبيعى، لكن إغلاق الطريق الآخر الذى يمر بقصر الثقافة القريب وصولا إلى منطقة باغوص كان أمرا لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء رغبة قوات الأمن فى حماية صورتين ضخمتين للرئيس المخلوع فى مفترق الطرق المؤدى لمديرية الأمن وصورتين أخريين لا تقلان ضخامة لحرم الرئيس المخلوع سوزان مبارك تقعان فى مفترق الطرق المؤدى إلى حى باغوص!. وعند وصول المتظاهرين لميدان قارون تبدت وحشية الأمن ورغبته فى إجلاء المتظاهرين عن الميدان أولا ثم إبعادهم عن صور الأسرة الحاكمة التى أعتمت الميدان الرئيسى للفيوم سنوات طوال.

استمر كفاح المتظاهرين من أجل الاحتفاظ بالميدان والوصول إلى صور الديكتاتور وزوجته ثلاث ساعات على الأقل، أطلق الأمن المركزى خلالها عشرات من قنابل الغاز (منتهية الصلاحية)، وأجلى المتظاهرون الميدان هاربين من الاختناق بالغاز عدة مرات فى حركة كر وفر: يخلى المتظاهرون الميدان ويختفون فى الشوارع الجانبية والمؤدية إليه يعالجون بعضهم من آثار الاختناق بقطع البصل وزجاجات الماء والكوكا والخل التى كان سكان الشقق المطلة يلقونها عليهم من البلكونات، ثم يعودون للميدان بأعداد أكبر من التى خرجت منه وبتصميم أشد على الاحتفاظ بمواقعهم، وهو ما نجح فيه المتظاهرون نجاحا باهرا وبخسائر قليلة، لم يلق أحد حتفه خلال جمعة الغضب بميدان قارون واحتفظ المتظاهرون بالميدان والأكثر. تسلق الشباب الحوامل الحديدية ومزقوا صور الديكتاتور وصور حرمه. ولم تتوقف حرب الشوارع بين

الأمن والمتظاهرين طيلة يوم جمعة الغضب وامتدت حتى الساعات الأولى من فجر السبت الذى كان يوما جديدا من أيام التظاهر الذى لم يتوقف بعدها فى كل شوارع وميادين المحافظة.

4- قبل ظهر السبت صاغ أعضاء اللجنة التنسيقية على عجل بيانا حملوا فيه وحشية الأمن واستخدامه المفرط وغير العقلانى للقوة فى ضرب المتظاهرين مسئولية تصاعد الأحداث فى شوارع الفيوم، وحسب ما استقر تخطيط اللجنة عليه انطلقت مظاهرات السبت فى الفيوم من ميدان الحوائم وصولا إلى ميدان قارون. انطلقت مظاهرات أخرى من أماكن أخرى كذلك طوفت بشوارع المحافظة وصولا إلى نفس الميدان.

فى هذا الوقت كان وزير الداخلية حبيب العادلى قد اتخذ قراره الخائن بانسحاب الشرطة من الشوارع وفتح السجون والزنازين لينطلق المساجين والبلطجية والقتلة والمسجلون ينهشون لحم المصريين بطول مصر وعرضها، وكان من بين هذه السجون سجن ديمو الفيومى الذى بدأ الأهالى يرصدون توافد نزلائه على منازلهم بأحياء ومدن وقرى الفيوم. لكن يبدو أن قرار الانسحاب الأمنى لم يتم تنفيذه أو اتخاذه فى كل المواقع، إذ ظل الأمن المركزى برغم خروج المساجين يؤدى دوره اليومى فى واجهة المتظاهرين بشوارع الفيوم لعدة أيام أخرى.

لم تحاول قوات الأمن القليلة المتواجدة خلال ساعات نهار السبت الاحتكاك بالمتظاهرين، لم يطلقوا خراطيم المياه ولا قنابل الغاز، ووزع فى هدوء بيان اللعنة التنسيقية على المتظاهرين الذين اطلقوا شعارات الثورة الشهيرة مثل يسقط حسنى مبارك والشعب يريد إسقاط النظام وارحل دون أى احتكاك من جانبهم بالأمن. وعندما ترامى لميدان قارون نبأ اشتباكات تجرى بين الأمن وأهالى محتجزين بسجن الفيوم، وهو ما يهدد بفرار من كانوا بسجن البندر من محتجزين، انفصلت مجموعات من المتظاهرين بميدان قارون متوجهة إلى البندر فى محاولة لرد الأهالى واقناعهم بخطورة ما يفعلون.

لم يكن هذا التصرف الحضارى مخططا له من قبل أحد، لكن ثورة يناير كشفت فى الفيوم، كما فى ميدان التحرير وكل ميادين مصر، عمق نبل الشعب المصرى وأصالته الحضارية، كما ضربت الأمثلة تلو الأمثلة على جدارة شعبنا الحبيب بالديموقراطية وبالحرية، جدارته بالعدالة والحياة الكريمة، وهى الأهداف التى انطلقت ثورة يناير من أجل تحقيقها.

مر هذا اليوم السبت ٢٩ يناير مع ذلك - بخسائر أكثر جسامة من خسائر اليوم الذى سبقه جمعة الغضب، وترامت أمام العيون والأسماع صور وأخبار استشهاد أبطال الثورة بالفيوم، ومن بين هؤلاء الشهداء الطفل أحمد على الذى لم يتجاوز عمره ١٤ عاما واستشهد برصاص قناص قرب مبنى مباحث أمن الدولة.

5- بعد قرار انسحاب الشرطة من شوارع مصر وتخليها عن حفظ الأمن اجتمعت اللجنة التنسيقية وقررت أن يتوقف التظاهر يوما عند غروب الشمس حتى يتسنى للمتظاهرين الالتحام ليلا باللجان الشعبية التى انتشر أبطالها فى كل الطرق والشوارع والحارات يحمون ويسهرون ويزودون عن كل رجل وامرأة وطفل وشيخ فى الفيوم ومصر. ومرة أخرى يتكشف فى هذا القرار معدن الشعب النبيل الذى لم يأت بجديد حسبما صرح وزير خارجية إيطاليا لما قال: لم يأت المصريون بجديد إنهم كما عودوا العالم يصنعون التاريخ.

بدءا من يوم السبت لم يعد يقى فى ميادين وشوارع الفيوم متظاهرون منذ غروب الشمس، ولم يكن يبقى بعد انصراف جملة المتظاهرين سوى شباب الأحياء الشعبية (دار رماد والصوفى والشيخه شفا وغيرها)، وكانوا يستميتون فى مواجهة قوات الأمن طيلة الليل استماتة مذهلة، وينهكونها فى مطاردات لا تنتهى عبر شوارع وأزقة المدينة، مطاردات لم تكن تهدأ كل ليلة قبل قرب الفجر.

6- بدءاً من آخر يوم فى شهر يناير بدأت حلاوة الروح التى أطلقها أنصار الحزب الوطنى بالفيوم قبل أن يلفظ الحزب والنظام كله أنفاسهما الأخيرة.

ترامى إلى أسماع أعضاء اللجنة التنسيقية التى تهيأ نفسها اليوم لقيادتها وتنظيمها الناجحين لكفاح شعب الفيوم خلال الثورة أنباء عن استعداد قيادات بالحزب لتسيير مظاهرة مؤيدة لمبارك!. وحتى تتجنب قيادات الحزب المنهار غضب الشارع على الرئيس المخلوع ونظامه قررت أن تسير هذه المظاهرات تحت شعار رئيسى هو لا للعنف.. لا للتخريب. وكأن المتظاهرين وليس وزارة الداخلية هم من ارتكبوا العنف الوحشى باستخدام الرصاص المطاطى وقنابل الغاز وخراطيم المياه! أو أن المتظاهرين من معارضى النظام السابق وليس النظام نفسه هم من أطلقوا المجرمين والمساجين من سجونهم لينشروا العنف والتخريب والجريمة!

علمنا أيضا أن قيادات الوطنى التى خططت للمظاهرة قررت أن يكون ميدان قارون مكانا لها، فأصدرنا قرارا فوريا وبالإجماع بتجنب الزحف اليومى تجاه ميدان قارون فى هذا اليوم. كان المخطط له أن ينتهز بلطجية الحزب الوطنى فرصة اقتراب مظاهرات المعارضة للاعتداء عليها وممارسة العنف ضدها. كان المقصود من حشد هؤلاء البلطجية تحت شعار لا للعنف هو ممارسة أكبر قدر ممكن من العنف!.

فى هذا اليوم، الذى كان يوم الأربعاء ٢ فبراير، توجهت أيضا قوات من بلطجية الحزب الوطنى باتجاه ميدان التحرير يمتطون الجمال والخيول، وهاجموا متظاهرى التحرير الذين صمدوا بصلابة وبسالة أنقذا بها ثورة المصريين من الموت اختناقا أسفل سنابك الهمجية وحوافر الفساد. وهو نفس اليوم الأربعاء ٢ فبراير الذى شهد أقوى مظاهرة فى تاريخ الفيوم الصغيرة على الإطلاق، أقواها من حيث العدد: قدرت الأعداد المشاركة بها بأكثر من مئة ألف متظاهر، وأقواها من حيث

طول المسار: بدأت المظاهرة فى ميدان التدريب بالكيمان وانتهت بحى باغوص شاقة طريقا بطول وعرض أحياء المدينة الصناعية والخريانه والبارودية والصوفى والشيخ سالم ووسط البلد والجون والمسلة والحادقة وباغوص. تجنبت مظاهرة الأربعاء الفيومية ميدان قارون الذى فخخته جحافل من بلطجية الحزب الوطنى وعساكر الأمن المتنكرين فى زى مدنى. تجنبت المظاهرة ميدان قارون وتجنبت أيضا مأساة ربما كان مخططا لها أن تشبه المأساة التى اشتهرت باسم معركة الجمل فى التحرير

فى مساء هذا اليوم الحزين، والمجيد كذلك، فى تاريخ ثورة يناير، اجتمعت اللجنة التنسيقية لقوى المعارضة بالفيوم. ناقشت أحداث يوم الأربعاء فى مصر والفيوم، واتخذت قرارا بإيقاف التظاهر فى الفيوم والرحيل الجماعى باتجاه ميدان التحرير. هناك كان فجر الحرية يولد بسواعد المصريين الأبطال، وكان النظام المستبد الفاسد يلفظ على أعتاب الميدان أنفاسا أخيرة ■

القادم أصعب

علاء كمال

فى بدايات علاقاتى بالعمل السياسى والتى تعود إلى ما يقرب من عشرين عاما ويزيد، قرأت العديد من الكتب ومئات المقالات عما تفعله الانتفاضات والثورات الجماهيرية بالشعوب، عما تقدمه فى العديد من اللحظات من مستقبل أفضل، وعما يمكن أن تعانيه من انتكاسات حينما يتمكن أعداؤها من لوى عنقها لمصلحة حلول قمعية / فاشية تجر الشعوب الثائرة لسنوات طويلة إلى الخلف. ولكن بشكل عام ظل نموذج الثورة، طوال ذلك العمر، هو نموذج أسير أوراق الكتب والمجلات، وكذا أسير نقاشاتنا النظرية الطويلة الحالمة بعالم يسوده عدل اجتماعى، ويسيطر فيه المنتجون على وسائل إنتاج السلعة والحياة الاجتماعية فى ذات الوقت.

وتحت وطأة الظروف المعيشية والأمنية فى المجتمع المصرى، كان حلم الثورة بالنسبة لجيلى من المستحيلات، فمنذ سنوات طويلة تفوق حكم المخلوع مبارك والشعب المصرى ينن تحت وطأة البطالة والغلاء وتجميد الأجور، وينن ويتألم تحت وطأة نظام بوليسى ظل يتوغل وينتشر طوال حكم مبارك ويراكم مئات الأجهزة الأمنية فى كل مكان حتى أصبح يحصى على المصريين أنفاسهم، فكل المتحكمين فى أمور المجتمع بداية من الوزير مرورا بعمداء الكليات، ورؤساء المؤسسات القومية والصحف والبنوك وصولا لأصغر عمدة فى أصغر قرية مصرية، يتم تعيينهم بموافقة الأمن، وتأتى تلك الموافقة بعد التأكد التام من ولائه أولا لتلك الأجهزة الأمنية، وثانيا للحزب الحاكم الذى تحول خلال العشرين عام الأخيرة من حكم مبارك إلى تشكيل عصابى يمارس سرقة واستغلال واحتكار موارد المجتمع، ويلعب الدور الرئيسى فى توزيع الكعكة على المحاسيب وأفراد العصابة من رجال الأعمال وشلة ابن الرئيس.

وتحولت حياة المصريين إلى حالة اكتئاب جماعى من فرط الحاجة والعوز والعمل لساعات طويلة لتأمين أبسط احتياجاتهم المعيشية اليومية، ومن فرط الاستبداد والفساد

وفضائح رجال الأعمال والفنانين ولاعبى الكرة والمبالغ الفلكية التى يحصلون عليها فى مجتمع قارب نصفه أن يكون تحت خط الفقر.

وقد حاول المصريون كثيرا تغيير أوضاعهم من خلال نضالات عديدة مثل : حركة كفاية، والحملة الشعبية من أجل التغيير، ومئات الاحتجاجات العمالية اليومية، و العديد والعديد من المنظمات المستقلة التى تكونت للدفاع عن حقوق مهنية وفئوية. ولكن عزوف الغالبية العظمى من الشعب المصرى من الانخراط فى تلك الاحتجاجات جعلها، بالرغم من بسالتها، لا تحقق فى كثير من الأحيان المرجو منها.

وفى الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١، و إثر دعوة من بعض الناشطين السياسيين، وبعض الناشطين على الفيس بوك للتظاهر فى عيد الشرطة للتنديد بممارسات التعذيب المنهجى من جانب أجهزة الأمن المصرية، وتحت وطأة ما شاهده المصريون من تغييرات حدثت بتونس، انفجر الشعب المصرى فى انتفاضة شعبية عارمة أطاحت فى غضون ١٨ يوما بديكتاتورية بوليسية عاتية تبنى بدأب منذ ثلاثة عقود، لقد واجه المصريون ببسالة منقطعة النظير فى القاهرة والإسكندرية والسويس جحافل الأمن المركزى ورصاص الشرطة، ثم واجهوا بلطجية الحزب الوطنى فى ملحمة شعبية رائعة من التنظيم وتبادل الصفوف وإمداد الصفوف الأمامية بالطوب والحجارة وإسعاف المصابين وغيرها من الممارسات التى كانت منظمة للغاية، بالرغم من عدم وجود قيادة لتلك الانتفاضة الشعبية الباسلة وقدموا مئات الشهداء و ما يقرب من ٢٠٠٠ جريح دفعوا دمائهم لتطهير ذلك المجتمع وجعله ديمقراطيا

إنها المرة الأولى فى حياتى التى أعيش فيها لحظات ثورية حقيقية، لقد خرج النموذج من الكتب ليصير واقعا ملموسا أمام عينى، المرة الأولى التى أرى كل هذه الجموع يحدوها الأمل فى غد أفضل وعلى استعداد للموت لتحقيق هذا الأمل. أنا عاجز حتى الآن عن وصف تلك اللحظات والأيام سوى أنها كانت أيام استثنائية فى حياتى، لقد عشت وشاركت قدر استطاعتى فى تلك الانتفاضة الشعبية التى أطاحت بالديكتاتور مبارك وأغلب أقطاب حكمه

والآن أصبح على تلك الانتفاضة أن تتحول إلى ثورة حقيقية شاملة عبر الإصرار على:

- إسقاط بقايا نظام حكم مبارك.
- العمل من أجل عمل جمعية تأسيسية لإصدار دستور جديد للبلاد بدلا من الدستور الحالى المرقع من كل الجهات، والمفصل على مقاس رئيس الجمهورية.
- دعم الاحتجاجات والمطالب العمالية التى تعطى تلك الانتفاضة / الثورة الديمقراطيةالوطنية ألقها الطبقى، وبعدها الاجتماعى الجذرى.
- أن يعكس الدستور القادم بنية جمهورية برلمانية، ويتيح محاسبة رئيس الجمهورية، ويقلل صلاحياته لصالح مؤسسات تعبر عن الشعب المصرى ومنتخبة بشكل ديمقراطى
- إسقاط حالة الطوارئ.

- حل جهاز مباحث أمن الدولة.
- رفع الحد الأدنى للأجور إلى ١٢٠٠ جنيه على الأقل.
- تأسيس حكومة انتقالية مدنية فى أسرع وقت لتولى إدارة شئون البلاد فى اللحظة الراهنة.
- حل الحزب الوطنى وتفكيكه وعودة مقراته للدولة.
- محاكمة مبارك وعائلته ووزرائه، وخاصة حبيب العادلى، ورجال أعمال الحزب الوطنى محاكمة علنية.
- إطلاق حق حرية التنظيم للنقابات العمالية والمهنية، والروابط والجمعيات الأهلية بحيث تكون مستقلة عن سلطة الدولة وأجهزتها الأمنية، ودون الحصول على موافقات مسبقة ويتم إعلانها بمجرد إخطار الجهات المعنية.
- إطلاق حرية وسائل الإعلام وتداول المعلومات.

من وجهة نظرى: نحن فى أولى الخطوات، و ستتحول تلك الانتفاضة الشعبية إلى ثورة حقيقية تكنس كل العفن السابق فى حال قدرتها على تحقيق تلك المطالب، ومطالب أخرى كثيرة تمس بشكل مباشر الحياة اليومية للمصريين، مع الأخذ فى الحسبان المقاومة الشرسة من جانب المستفيدين من بقاء النظام السابق وفلوله وهم كثر ومنهم بعض الضباط والرتب الكبيرة بالجيش المسئول الآن عن إدارة شئون البلاد، وذلك مقلق إلى حد كبير بالرغم من أن أداء المجلس الأعلى للقوات المسلحة حتى الآن لا ينم عن رغبة فى التمسك بالسلطة.

ولكن بالتأكيد: حقق الشعب المصرى نصرا عظيما. عاش كفاح الشعب المصرى ■

الموت المعلن فى الميدان

عماد فؤاد

لم اتخيل قط أن مصر التى خبرتها طويلاً، ستفعل كل هذا فى أيامٍ معدودات، أنا السائر أبداً في الظل، الذى تربيت على الخوف من أى زى رسمى لرجل شرطة يعبر فى الجوار، المؤدب حين يوقفوننى للتفتيش فى الأكمنة ونقط المراقبة، المتسامح حين يضعون أيديهم فى جيوبى ويفرغونها مما فيها ليستولوا عليها، العفو حين ترنّ كفوفهم الثقيلة على صدغى، الخانع وهم يكيلون شتائمهم لى قبل أن يدفعونى فى كتفى وكأنهم يتخلصون من حشرة مزعجة، فهكذا تربيت، أن أخاف، وأن أطأطئ الرأس أمام رجل الشرطة صغيراً كان أم كبيراً، وألا أضع كلمة حقوقى فى قاموسى اليومى مخافة صفعة من هنا، أو ليلة حبس من هناك.

فى مصر، لم أعرف معنى أن أكون آدمياً، تربّيت على الـ الرّضا بالمقسوم عبادة، وانت فاكر نفسك إيه؟، وتعال يا روح أمّك، واللى ما ربّتهوش أمّه، تربّيه الحكومة، كنت كى أخرج صباحاً من بيتي الكائن فى عشوائيات حى شبرا الخيمة ذاهباً إلى عملى بشارع الصحافة بوسط القاهرة، أمرّ على خمس نقاط تفتيش للشرطة، إن لم يتم إيقافى فى واحدة منها، سيوقفوننى فى التى تليها، وإن عاملنى شرطيّ باحترام فى إحداها، فالأمر ليس مضموناً فى الأخرى

منذ يوم ٢٥ يناير الماضى، لم يعد للزمن بالنسبة لى معنى، نسيت ضباب المدينة الأوروبية التى أحيا فيها، نسيت رمادية الروتين اليومى، وحالة البرد الصقيعى المعتادة فى مثل هذا الوقت من العام. المساءات والنهارات تساوت على خط استواء واحد هو ميدان التحرير، الجلوس لساعات طويلة أمام شاشات القنوات الأجنبية ومتابعة وكالات الأنباء العالمية على شبكة الإنترنت، تسقّط نتف الأخبار من هنا وهناك، ومحاولات فاشلة فى الأغلب ـ للاتصال بالأهل والأصدقاء فى القاهرة. كل الأشياء والأحداث أصبحت تختلط وتمتزج مع بعضها البعض، لأشعر فى النهاية أنّ صرختى التى تمور فى صدرى، وجدت حناجر أخرى تطلقها أنصع وأقوى وأكثر غضباً مما لو

فعلت، حناجر لناس يخبّئون وجوههم تحت سيول الحجارة وضربات العصىّ وقنابل المولوتوف وهم يستمرون فى التقدم، الرصاص الحى ينزّ فوق رؤوسهم وهم يستهينون به، صرختى وحدها صارت تنتقل من حنجرة إلى أخرى، وسط كل هؤلاء، المتجمهرين فى هذا الميدان الذى شهد تشكّلنا جميعاً على مقربة منه، لأكتشف اليوم أنه لم يزل قادراً على إنتاجنا بروح جديدة، لم نكن نعرف عنها شيئاً.

الموت المعلن فى ميدان التحرير، الهراوات والسيوف والخناجر التى تضرب العزل فى صور تبث علانية إلى العالم، الدم الداكن الذى يسيل من جباه ووجوه شبان وفتيات صدّقوا يوماً أنهم بشر، ودافعوا عن كونهم بشراً بكلمة لا: من قال لا، فى وجه من قالوا نعم، صرخة أمل ارتفعت سنة ١٩٧٧، واليوم، تعاد الصورة ذاتها بلا نقصان، فى الميدان ذاته، الساحة نفسها، الدم نفسه، شباب حر قال لا بصدور عارية، فواجهوا الرصاص الحىّ والبلطجة المعلنة وعلى عينك يا تاجر، ما كان يفعله زبانية النظام الديكتاتورى بين أربعة حيطان من تعذيب وترهيب وإهانة واستبداد، صار يحدث فى الشوارع، وعلى الملأ، رصاصات حية يطلقها قناص مصرى يختبئ فوق سطح بناية، قنابل مسيلة للدموع انتهت مدة صلاحيتها فصارت سامة لمن يتنشقها، هراوات مكهربة، مأجورون وبلطجية تم تأجيرهم بدءاً من ٢٥ جنيها وحتى خمسة آلاف جنيه لأجل أن يهاجموا المتظاهرين ويذبحوهم من الوريد إلى الوريد، ولماذا؟ لأنهم قالوا لا، واضحة، وصريحة، عفوية، وصادقة. واعتصموا بميدان التحرير، يغنون ويهتفون للحرية البعيدة

بعد كل الدّم الذى أريق، بعد كل الجثث التى سُحلت فى الشوارع والميادين، وبعد حرب الشوارع الباسلة التى خاضتها مدن السويس والاسماعيلية والإسكندرية وغيرها، بعد قتل العزل، وسحل زهرة شباب مصر، بعد الخيانة والتآمر من كلاب النظام الحاكم على كل مصرى آمن فى بيته، على مصر أن تتغير، وعلى من يرفض هذا التغيير أن يقدّم للمحاكمة، وعلى كل من مدّ يده وصافح يد هذا النظام فى أكذوبة تشكيل الحكومة الجديدة أن يحاكم، فهذه المصافحة تقطر دماً ودلاً وانبطاحاً ما حدث أعاد لنا مصرنا المنهوبة، وصرنا نرفع رؤوسنا عالياً ونحن نرى هؤلاء الشباب تأتلف قلوبهم على معنى مصر واحدة، غير منقوصة، مصر التى لا يتقاسمها اللصوص، التى لم يكن يتوقعها أحد، مصر التى حلمنا بها طويلاً، فكيف يؤجّلون مصرنا، كيف نسمح لهم أصلاً بسجن طيور فرحتنا من جديد.

تعبنا من مصر التى تمشى جنب الحيط، تعبنا من مصر لم نفسك علشان تعيش، تعبنا من مصر تراب الميرى، تعبنا من مصر التسلط والظلم والفساد وتحت الترابيزة، تعبنا من مصر المداهنة والغش والنفاق والرشوة والمحسوبية والتعريص باسم الوطنية، تعبنا من مصر الباشا والبيه وسيادة اللوا والمأمور وكفّ المخبر، تعبنا من مصر الجبانة، وها هى الصرخة تأتى من ميدان التحرير

عارية،

ومفضوحة:
مصر يا أمه يا بهية
يا أم طرحة وجلابية...
ثمة مصر جديدة تولد يا ناس

نعرف أن الولادة عسيرة
وأن المخاض طويل
لكنها آتية
لا محالة ■

٢٥ يناير
وأحداث يوم الغضب

فاروق عبد الخالق

في الحادية عشرة صباح الثلاثاء ٢٠١١/١/٢٥ وتلبية للدعوة التى وجهت عبر (الفيس بوك) إلى شباب المصريين للخروج فى مسيرات وتظاهرات من جميع الأنحاء (القاهرة - وخارجها) طلباً للتغيير والحرية والعدالة الاجتماعية كمطالب رئيسية.

والتى اعتبرت أن هذه الدعوة للمصريين جميعاً.. وأهمية المشاركة فيها فقد بدأت مسيرتى التى قررت أن تكون نقطة انضمامى لها فى منطقة الإسعاف حيث جرت العادة فى كثير من الأحيان أن تكون نقطة التجمع والتلاقى.. إما فى مواجهة نقابة الصحفيين أو المحامين أو سلم دار القضاء العالى.. حيث المشهد التقليدى لجموع عشرات رموز الجماعات المهتمة والمهمومة بالشأن العام.. ويحيط بها عشرات أخرى قد تصل إلى مئات قليلة من المحتشدين

وكلاهما محاصران وسط أعداد تتخطى حاجز المئات من جنود وضباط الأمن المركزى وأمن الدولة والشرطة والمباحث

وكل شرائح الأجهزة الشرطية وكثير من سيارات نقل الجنود والمصفحات وقوات مكافحة الشغب وأغلبهم مدجج بالسلاح والدروع والخوذات والتى كثيراً ما كان لها صولات وجولات فى الضرب والتعدى والإيذاء والسحل والاختطاف والاعتقال على مدى سنوات لقمع الاحتجاجات

واخذت هذه الملامح شكل الاعتياد وأصبحت جزءاً من ملامح أيام الاحتجاج الغاضبة المعتادة والمتوالية التى لا يفصل بينها إلا فترات قليلة قد تكون أياماً أو أسابيع

وتعددت المطالب، فقد تكون مهنية.. أو سياسية.. أو اجتماعية.. طلباً لمواجهة البطالة.. أو علاوة اجتماعية.. أو لرفع حراسة عن نقابة أو لمواجهة فساد أو لإفراج عن معتقلين أو طلب لمحاكمة عادلة أمام قاض طبيعى أو إدانة لتزوير فاجر فاضح أو ضد بيع مشبوه للمصانع والمؤسسات أو مناصرة لكفاح الشعب الفلسطينى أو اللبنانى أو ضد مظهر من مظاهر التطبيع أو ضد التوريث

وبقدر كثرتها وتكرارها واجتياحها للشارع المصرى وانتهاء أكثرها بعد وقفة تسجل احتجاجها ورفضها أمام كاميرات الصحافة والمراسلين العرب والأجانب وشغلها مساحات لا يستهان بها من برامج وصفحات هذه الجهات وتكشف اللثام عن الوجه القبيح للنظام.

إلا أن سياسة اتركه ينفث ويصرخ فى وسائل الإعلام المصرية والأجنبية وسط حصار الأجهزة القمعية لوزارة الداخلية.. فانشغال الشارع ولهاثه وراء لقمة العيش والزهق وعدم الثقة سواء فى نظام أو أحزاب أو نخبة.. سيجعل هذه الفعاليات دون فائدة ولا تأثير وأن هذا التعبير عن الرأى وهو محاصر سيكون سبباً فى عدم التفاعل أو ازدياد هذه الاحتجاجات.. إما قتلاً بالصمت أو التعتيم أو التهوين من شأنها أو بالاعتقال غير المعلن لناشطيها أو بالسخرية والاتهامات والمزايدة على كل من يتعاطف معها أو يشارك فيها..

فى الحادية عشرة والنصف قبل الظهر وصلت ميدان رمسيس وبدأت التوجه تجاه منطقة الإسعاف سيراً على الأقدام حتى أستكشف خلال هذه المسافة صدى هذه الدعوة خاصة وأن اليوم عطلة بمناسبة عيد الشرطة... خاصة وأن كافة مظاهر الحياة خلال طريقى إلى رمسيس سواء الشارع أو المارة أو السيارات شبه خالية تماماً وكثير من المحال مغلقة.

واتخذت من أرصفة الجانب الأيسر مساراً لى.. وعلى مسافات متفرقة ومتباعدة أحيانا كان يتجاوزنى أعداد قليلة جداً من الشباب فى نفس المسار ولكن اكثر سرعة ونشاطا منى..

وصادف ايضاً خلال تلك المسافة التى تمتد تقريباً لأكثر من كيلو متر ان شاهدت بعض وجوه لناشطين سياسيين وعدد من المثقفين من المهتمين بالشان العام وان لم يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة وهم يسيرون فى الاتجاه المضاد مما زاد من مخاوفى وإثارة شكوكى فى ان تلحق هذه الدعوة بما سبقها وأن لا يزيد حجمها وتأثيرها عما عداها.. وأيضاً ما تواتر إلى أذناى من تعليقات لبعض العاملين أو أصحاب القليل من المحلات التى فتحت أبوابها غير عابئة بيوم الأجازة الرسمية للدولة طامحة ان تجد لنفسها زبونا يرغب فى شراء احتياجاته فى يوم العطلة.. أو العيد كما أسمته الشرطة والدولة... وكما تم الاحتفاء والاحتفال فى اليوم السابق بمشاركة رئيس الجمهورية لقيادات الشرطة بهذه المناسبة والإشادة والمديح بدورها فى حفظ أمن الشارع المصرى.. والسهر على راحته.. بل وعلى امن مصر كلها.. وتغطية إعلامية تروج وتلمع وجوه طالما كانت كالجلادين والمعذبين للشارع المصرى.

وبقدر تناثر وتباعد هذه المحلات التى فتحت أبوابها كان تناثر العاملين بها فى وقفتهم لتجاذب أطراف الحديث الذى كان محوره هذه الدعوة أو كما أسماها الكثيرون دعوة شباب الفيس بوك.

إذا كانت الصحف الخاصة أو المستقلة أو الحزبية الصادرة صباح اليوم قد أشارت فى عناوينها الرئيسية ـ إما بحذر أو بحيادية ـ

إلى هذا الحدث وأيضاً الصحف الحكومية التى تناول بعضها الحدث ببرود شديد وفى عناوين جانبية وان اختلف موقعها ما بين الصفحة الأولى أو بعض الصفحات الداخلية. سواء عن سوء تقدير أو تقليل من شأن هذه الدعوة.. واستعداداً لإطلاق مختلف التسميات والأوصاف المعتادة.. قلة من الشباب المندفع ـ أو القلة المارقة ـ أو مثيرى الشغب ـ أو المشكوك فى انتماءاتهم ـ أو فئة ضالة أو ـ عملاء المحظورة وباقى أوصاف القاموس المعتاد، إلا جريدة واحدة.. كان عنوانها العريض والرئيسى فى صدر صفحتها الأولى.. فقط كلمتان: (يوم الغضب)..

كانت تلك جريدة الشروق.. فاشتريتها ومعها جريدة الأهرام التى أحرص عليها فى كثير من الأحيان بحكم العادة ـ رغم تراجع دورها ومكانتها وتجاوز بعض الصحف الصادرة فى الأعوام الأخيرة لأرقام توزيع الأهرام التى كانت لعشرات الأعوام تحتفظ بالصدارة.. إذ انصرف العديد من القراء عنها لأسباب لها اعتباراتها الصحفية.. سواء من حيث أسلوب التناول.. أو المصداقية.. أو التحليل.

قبل أن أصل إلى دار القضاء العالى كاد الشك أن يتسرب إلى قلبى، ماذا حدث؟ الهدوء.. الشوارع شبه خالية.. حتى ظننت أنى قد أخطأت الموعد.. إلى أن لاحت أمام ناظرى تلك الحشود المتفرقة للشرطة، وبمجرد وصولى إلى ناصية شارع ٢٦ يوليو وجدت تجمعاً من رموز المعارضة النشطة والمالوفة فى إصرار دون كلل فى هذه المناسبات تقف على سلم دار القضاء العالى أو أمامه تقريباً وليس على سبيل الحصر، منهم جورج إسحاق ـ أحمد بهاء الدين شعبان ـ أمير سالم ـ حمدى قنديل ـ جمال حشمت ـ جمال فهمى ـ د. محمد أبو الغار.. وآخرون، وبعض عشرات لا يكملون المائة من المنضمين وهتافاتهم تتعالى وقد أحاط بهم المئات من قوات الأمن المركزى مثلما يحدث فى كل تظاهرة أو وقفة، وتعزلهم عن الشارع ويصبحون كالحبيس وسط الحصار الأمنى والقوات الأخرى ما بين الملابس الرسمية والمدنية تأمر المارة بالابتعاد، وفى وسط حشد الواقفين مع المنضمين يقف محمد عبد القدوس بالمايكروفون يغرد وحيداً كما هى عادته دوماً يمارس دوره كأحد قديسى الحركة الوطنية..

وفى خلال دقائق كانت الأعداد تتزايد والهتافات تزداد علواً وحدة ضد الفساد والديكتاتورية والبوليسية، وزادت محاولات المحتشدين للخروج وكسر الحصار لتكوين صف خارج الدائرة المزدحمة لتكوين صفوف خلف الجنود.. وبالتالى تصدر الأوامر للجنود للعودة للوراء خلف المحتشدين، وأيضاً لمحاصرة الوافدين الجدد الذين يتزايدون..

وتتسع الدائرة شيئاً فشيئاً دون عنف متبادل تزامنا مع ازدياد مساحة الحصار، ويتزايد أيضاً عدد المراسلين الصحفيين والمصورين المتابعين لهذه الواقعة.

على الجانب الآخر من شارع رمسيس وأمام صيدلية ومرفق الإسعاف تجمعات من الشباب تتزايد ولم يكن الأمن على ما يبدو يتحسب لهذا المستجد، الذى بدأت هتافاته

تعالى وبالتالى بدأ توجيه بعض جماعات الشرطة للتعامل معهم فى محاولة لتحديد هتافاتهم، وتعالت أكثر صيحات أخرى تطالب بالانضمام إليهم والتحرك معهم ويبدو أيضاً أن هذا المطلب كان مفاجئاً، سواء للشرطة أو للواقفين على سلم دار القضاء العالى، الذين فاجأتهم هذه الدعوة بل وأثارت حيرة البعض منهم، فقد كانوا دوماً فى موقع القيادة مع بعض القيادات فى نفس المكان، وتنتهى الوقفة بعد ساعات قليلة وتعالت أكثر فأكثر هتافات الشباب ودعواتهم ونداءاتهم وإثارة حماسهم للانضمام للمظاهرة، ولم تقف الأمور كثيراً فقد انضم للمظاهرة أكثرهم بل وأصبحوا جزءاً متلاحماً ضد حشود المسيرة التى تزايدت أعدادها خلال فترة وجيزة أقل من نصف ساعة لتصبح آلافاً، والشرطة وقد فوجئت تحاول تأمين المسار لهذه المظاهرة التى فاقت التوقعات.

ما أن التحمت المسيرة مع الجماهير المتزايدة الوافدة من كل اتجاه وهى تتجاوز منطقة معروف وقف بعض الأشخاص لتوجيها إلى أسفل كوبرى أكتوبر فى اتجاه ميدان التحرير مبتعدين عن مطلع الكوبرى وهو المسار الذى أرادت الشرطة دون جدوى تحويلها إليه لتبتعد بهم عن الميدان.

بعض وفود الأحزاب التى خرجت للمشاركة فى هذا اليوم كانت تظن على ما يبدو أنها مسيرة مشاركة للشرطة فى عيدها، ومنهم مجموعة كان قائدها رجل طويل القامة، تجاوز الأربعين من العمر، يحمل سلة زهور بين يديه، قد أسرع ليتقدم المسيرة، فى مشهد أقرب إلى المسرحى، وابتسامة عريضة مصنوعة ترتسم على وجهه وهو يدير السلة يميناً ويساراً فى اتجاه ضباط الشرطة مهنئا إياهم بعيدهم، وخلفه مباشرة عدة لافتات تمثل حزب الوفد يحملها شباب من الحزب بشعارات تطالب بمواجهة الفساد، والانتخابات النيابية السليمة، من أجل ديمقراطية، لا لتزوير الانتخابات، لا للديكتاتورية، شعارات لا تغضب أحداً وكأنها تطلب من الفاسد إصلاح ما أفسد. وهذه الشعارات مكتوبة على أفرخ ورق مقوى يحمل كل منها شابان، حتى أننى قد استفززت من أحد حامليه الذى يظن انه يحمل لافتة قد يقبض عليه بسبب ناريتها وجرأتها..!! وبالخلف تزايدت هتافات الشباب بشعارات التغيير والحرية والعدالة الاجتماعية، والداعية إلى إسقاط رموز الفساد واللصوص واستعادة الأموال المنهوبة وبطلان مجلس الشعب والشورى المزورين، وسقوط الحزب الوطنى وسقوط جهاز أمن الدولة ورفض التوريث.

الساعة الواحدة فى ميدان التحرير والجموع تتزايد، وفى كل ركن أو ناحية خطيب وهتافات، وأصوات ثائرة هادرة، وجماعات أخرى تطوف بالميدان، كان الشباب يمثلون أكثر من ٩٠٪ منها.

أحياناً كانت النداءات تتردد بصوت عال عن أنباء المسيرات والجموع القادمة من أحياء القاهرة الكبرى المختلفة للانضمام إلى ميدان التحرير (مسيرة كبيرة أوى جاية من بولاق.. وصلت لحد التليفزيون)، (مظاهرة كبيرة اقتربت من ميدان الدقى)، (أدام

ليتجراون الوليس مانع مسيرة إمبابة من المرور للميدان. يلا يا إخوانا مجموعة منتا متين تلضبة يتحركوا للكوبرى عشان نساعد إخوانا نتوع إمبابة)، وفعلاً ما هى إلا نصف ساعة وتستطيع المجموعتان كسر الحصار والوصول إلى الميدان وبعد كل نداء تتعالى الهتافات والصيحات.. تحيا مصر، الله أكبر.. فى طرف الميدان فى الجزء المواجه لشارع قصر النيل وقف المناضل السياسى أبو العز الحريرى فوق أحد بوكات تهوية مترو الأنفاق المرتفعة عن الأرض نحو أكثر من متر وبصوته الجهورى الواضح المرتفع بثوريته الصادقة الناضجة، وشخصيته القيادية، معدداً مساوئ النظام وقد استقطب مئات من المتجمعين فى الميدان وهم يهتفون.. تغيير... حرية... عدالة اجتماعية، ويتعالى صوتهم مجلجلاً يحيا كفاح الشعب المصرى. يحيا كفاح المصريين.

ولأكثر من ساعتين تناغمت أوركسترا الجموع الحاشدة وامتلأ بها الميدان الكبير وارتفعت صيحات الاحتجاج بالمطالب المشروعة الغائبة منذ سنوات طويلة، واتحدت الأصوات جميعاً فى عاطفة جياشة من كافة الجموع، كانت الوجوه الموجودة بالميدان وجوه شابة ممتلئة بالحيوية (حاجة تفرح القلب) لغة متحضرة، وعى، تنظيم، تفاهم، وأيضاً سمة مشتركة أن الغالبية من الطبقة المتوسطة أو المتوسطة العليا والمستوى الاجتماعى والثقافى الملحوظ وتتسم أيضاً بحسن المظهر، الأكثر دهشة عدد الفتيات وتواجدهن الملحوظ والجدية الشديدة فى المشاركة.. الكل تقريباً يستخدم الموبايل ونسبة ملحوظة منه أحدث الموديلات بإمكانياتها العالية، والهتافات بكاملها لا مذهبية، لا حزبية، بل مطالب وطنية لها محتواها المهموم بالقضية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وأيضاً التطلع لمستقبل يليق بمصر، ولأول مرة منذ سنوات طويلة يرتفع هتاف الشارع باسم مصر وحقها فى أن تتبوأ مكانتها المناسبة بأصوات عشرات آلاف كافة ألوان الطيف المتواجدة بالميدان.. وبدأت الجموع الصادقة فى تلقى رد فعل الجماهير بسرعة وتناغم، فالصدق والعاطفة والهوية، وصرخة جيل لم يصبه التلوث كانت جواز المرور إلى قلب الجميع، وكانت صرخته بأعلى الصوت لجذب انتباه المسئولين على كافة مستوياتهم بأن الكيل قد فاض، وكأنها تطلب سرعة رد الفعل والإجابة عن العديد من الأسئلة التى لا تجد جواباً، لماذا كل هذا التجاهل المتعمد لطموحات وتطلعات الغالبية العظمى، وجرس إنذار شديد اللهجة يتطلب من يتنبه له، ويفهم الإشارة، ويستجيب لها باحترام كامل لإرادة الشعب التى يقودها جيل جديد أخطأ الجميع تقريباً فى تقدير قدراته ووعيه، كان من يتمتع بالفطنة وللوهلة الأولى يلحظ كم التنظيم والقدرة على الحشد والتحريك ووحدة المطالب، وكان يلحظ أيضاً تلك العفوية والتلقائية الباحثة عن تحقيق الذات وتصحيح النظرة.

واحترم كثير من المثقفين والناشطين السياسيين هذه الحركة، وبسرعة تحركوا على المستوى الفردى لكل منهم للتضامن معها، مما شكل رافداً كبيراً وهاماً انخرط معها

وبحاور معها وشاركها أمانيها وآمالها التى هى فى المجمل أمانيهم وآمالهم.

الوحيدون البلداء الذين لم تدركهم الفطنة أو القراءة الصحيحة هم الجهات المسئولة: رئاسة وحكومة وحزب حاكم ومجلس شعب ومجلس شورى ووزارة داخلية، كانوا أغبى من أن يفهموا أو يقرأوا الأحداث بطريقة مناسبة، وكانوا أغبى من أن يستحقوا جميعاً تولى مناصبهم أو القيام بمسئولياتهم التى وصلوا إليها فى غفلة من الزمن، تخلفت هذه الوجوه القبيحة عن المسيرة واستمرؤوا تعاليهم وغطرستهم ويقينهم الكاذب بقدرتهم خداع الشارع بأكاذيبهم وانتهازيتهم.

فى حوالى الثالثة بعد الظهر كانت حشود الشرطة والأمن المركزى ومكافحة الشغب تحيط بالميدان.. ولكن الحشد الرئيسى والقوة الضاربة كانت فى الجهة من شارع قصر النيل التى يقع بها مجلس الشعب ومجلس الوزراء وبقربها بعض السفارات الهامة ومنها الأمريكية، ولم تكن لدى جموع المتظاهرين أية نية لاستخدام العنف إذ كان الهتاف الذى يتعالى فى مواجهة حشود الشرطة ذاك الهتاف الرائع المتحضر سلمية.. سلمية..

وتعالت الصيحات مرة أخرى (مسيرة كبيرة أوى جاية من المنيل داخلة على شارع القصر العينى) وتعالت الهتافات (الله أكبر.. تحيا مصر).

وكان من الصعب تحديد الأعداد التى ازدحم بها ميدان التحرير على وجه الدقة ولكنها فى كل الأحوال لا تقل عن ١٥٠ ألف أو ٢٠٠ ألف إن لم يزد ـ حشداً لم نره من عشرات السنين، وأيضاً كالعادة قرر النظام وحكومته أن يتصرف بعنجهية وعنف أن يستخدم العنف عملاً بمبدأ متخلف وجاهل (أن هذا الشعب تلمه همسة وتفرقه خرزانة)، فجأة تحركت إحدى المصفحات المرافقة للأمن المركزى والمخصصة لإطلاق المياه المندفعة كالصاروخ بشدة تجاه المتظاهرين لتجرفهم أمامها وهى منطلقة بسرعة شديدة حول الدائرة التى تتوسط الميدان، وتفرقت الجموع التى فاجأها الأمر حتى لا تسقط تحت العجلات المتهورة، وما أن اخترقت طريقها والناس تتدافع أمامها إذ وحدث مشهد لم يسبق أن رأيته حتى فى أكثر أفلام السينما الأمريكية إثارة، إذ اندفع شاب (ولد بحق.. على رأى المثل الشعبى شارب من بز أمه) وفى سرعة بديهة ولياقة بدنية عالية وشجاعة وجسارة حتى فاقت سرعته فى ثوانى قليلة جداً سرعة السيارة ولحق بمؤخرتها وتسلقها فى قفزات سريعة رائعة حتى أصبح فوق سطحها وبسرعة البرق انطلق مندفعاً إلى الفتحة التى يخرج منها صاروخ المياه المندفعة الموجهة من أعلى كابينة السيارة، وفى استكمال الحركة الخاطفة كان الفتى قد استلقى ممسكاً بالفوهة مغيراً وجهتها ومغلقاً محبس المياه.. فى تلك اللحظة تنبه ضابط المصفحة وفتح الباب وتسلق بدوره فى سرعة خاطفة إلى سطح المصفحة حيث دارت مجريات اشتباك بين الشاب والضابط احتضن خلاله كل منهما الآخر فى عراك خاطف، الشاب الرائع بالتيشرت الأحمر النصف كم والبنطلون الجينز والضابط برتبة ملازم أول تقريباً

بالتيشرت النصف كم الأسود والبنطلون الأسود وتماوجت السيارة يميناً ويساراً محاولة الهرب من مطاردة المتظاهرين فسقطا وهما متشابكان من أعلى السيارة ونجا بمعجزة من عجلات المصفحة وأحاط بهما المتظاهرون وحملوا الشاب.. وجروا به بسرعة فى محاولة لإسعافه.. واستسلم لأيديهم ولكن لم يستسلم ذراعه فقد ارتفعت ذراعه لتظهر يده وأعلاها أصابعه بعلامة النصر، أما الضابط فقد أحاط به العشرات وأراد بعض الذين أمسكوا به أن يعتدوا عليه بأن يوسعوه ضرباً، إلا أن الهتافات قد تعالت (سلمية.. سلمية) وفعلاً تم التوقف عن التعدى عليه واقتياده وتسليمه إلى إحدى مجموعات الشرطة الموجودة بالميدان.

كل منهما كان يمثل وجهاً من أرض الواقع.. الضابط فى تنفيذ أصم للأوامر، مع علمه بأن فى وسط المتظاهرين ذلك الجيل الذى ينتمى إليه، وقد يكون فى وسطهم قريب أو جار أو زميل له وبدلاً من أن يحافظ عليه ويحميه شارك فى الاعتداء عليه.. أما الشاب فقد أخلص لقضيته ولوطنه وسجل واحدة من أغلى صفحات الفخر فى تاريخ المواجهات بين الشارع والشرطة.. متمرداً على القهر.. مقاوماً لأعتى آلات البطش بالمتظاهرين العزل من أى سلاح إلا إيمانهم وقناعتهم وصدقهم مع ما خرجوا من أجله (تغيير.. حرية.. عدالة اجتماعية).

وكانت هى المحاولة الأولى والأخيرة فى نهار ذلك اليوم فى استخدام المياه لتفريق المتظاهرين بميدان التحرير إلا أنها فى نفس الوقت لم تكن المحاولة الأخيرة لإخلاء الميدان بالقوة رغم سلمية المظاهرة، إذ تصدت قوات الأمن المركزى للمسيرة القادمة من اتجاه القصر العينى، سواء بمهاجمتها بصفوف الجنود المدججين بالعصى الغليظة أو المكهربة متسترة فى الدروع الواقية فى أيديهم والخوذات على رؤوسهم إضافة إلى استخدام القنابل المسيلة للدموع.. بل واستدارت قوات أخرى للتعامل مع بعض متظاهرى ميدان التحرير حماية لمجلس الشعب المزور والسفارة الأمريكية التى اقتطعت لنفسها منطقة حرام محظورة فى أرقى مناطق جاردن سيتى والشوارع المحيطة بها.. كل هذه الاعتداءات رغم المسيرات منذ اندلاعها لم ينتج عنها أى حادث تخريبى أو تعد على أية ممتلكات سواء عامة أو خاصة أو مضايقة متعمدة لأى محل أو سيارة أو إنسان.. وازدادت حشود القوات إلى أن انطلقت فى هجمة شرسة بمئات الجنود فى اندفاع كاسح ليهرول أمامه ـ فراراً من القسوة والإيذاء المتعمد ـ المتظاهرين الذين توالت فوق رؤوسهم وظهورهم الضربات المؤلمة بالعصى والهراوات بجميع أنواعها للمسافة بين مبنى التنمية الزراعية وحتى عمارة أسترا أى ما يقارب المائة وخمسون متراً.. وسالت الدماء تنزف من جروح عشرات المصابين.. وما هى إلا لحظات أدرك خلالها المتظاهرون ما حدث.. وأفاقوا من المفاجأة.. إلى أن انطلق العزل فى هجمة مضادة كاسحة بأيديهم وأذرعتهم والبعض الأخر استطاع أن يلتقط عصا أو حجر.. وإذا بالجنود يهرولون فى فزع من هول وجرأة وفدائية شباب ٢٥ يناير

الذين عادوا مرة أخرى إلى أماكنهم غانمين بعض الدروع والخوذات والهراوات.. وحمل المتطوعون زملائهم الجرحى والمصابين.. لم تعال أصوات التأوهات أو الصرخات رغم الألم.. وبدأ ظهور بعض الأطباء يسارع كل منهم لعلاج المصابين.. من أين حضروا وبهذا العدد الكبير!! وكل منهم يحمل شنطة بمعداتها البسيطة وبعض الأدوية والعقاقير والضمادات!!

وآذن النهار أن يغيب.. وهدأ الميدان.. وتذكرت من صادف والتقيت بهم من الأصدقاء والزملاء من مختلف الأجيال.. جيل الستينيات، السبعينيات، الثمانينات وبعض من أعرفهم ويعرفوننى من جيل التسعينيات.. كان منهم د. فهمى عبد السلام، د. سمير خضر، د. سيد رجب، المخرج علاء عزام، الصحفى إبراهيم منصور، الناقد ممدوح العطار، الشاعر محمد سيف، الباحث عمرو المراكبى، التشكيلى محمد الجبيلى، الكاتب إبراهيم عبد المجيد، الأديب والناشر مكاوى سعيد، د. مدحت طه، الناقد والأديب ناجى الشناوى، المخرج سميح منسى، المخرج مجدى أحمد على، المخرج يسرى نصر الله، الصحفى خالد السرجانى، المحاسب مأمون، الناشر مصطفى الطنانى، المحامى علاء عمار، وعشرات آخرون وكأن كل من أعرفهم كانوا بالميدان من كل الأجيال، ولعل زمناً طويلا افتقدنا فيه الثقة والجدية فى كل المفكرين والمنظرين والسياسين حتى كدنا نفقد الثقة بأنفسنا.. ولما جاء هؤلاء الشباب بكل الطهارة والنقاء وانكار الذات.. لم يتلوثوا.. ولم يتلونوا بعد.. سارعنا خوفاً عليهم وعلى أنفسهم وعلى بارقة الأمل التى أتاحوها لنا فاعتصمنا إليهم وتحت رايتهم

عندما حل الظلام كان الوجه الآخر لأجهزة إشراقاً لهذا الشباب. فقد تراجعت قوات الأمن المركزى لتأخذ مواقعها المخططة لكل المداخل حول الميدان، متاهة ومراقبة ما يحدث داخل الميدان.. وما هى إلا فترة وجيزة وبدأت تتشكل جماعات ودوائر أحدهم يخطب فى مجموعة وأخرى فى حالة راحة وهدنة بعد شقاء يوم فريد جديد مختلف عن ما سبقه من أيام مجموعة أخرى تغنى وتنشد الجميع قد افترش الأرض.. ويا للعجب. ذاك الشباب الذى كنا نظنه منفصلاً عن ثقافتنا وتاريخنا يصدح بأغانى الثورة والنضال والفلكلور باصوات حاربها أو تجاهلها الإعلام الرسمى متعمداً.. الشباب يصدحون بأغانى سيد درويش، أم كلثوم، حليم، عبد الوهاب، نجاة، وردة.. الخ.. بأغانى محمد حماد. أولاد الأرض، أولاد البحر فى أحلى أغانى الوطن والمواطنة والهوية والانتماء والثورة بأغانى الحلم الجميل. بأغانى الشيخ إمام ونجم وقاعود وزين وغيرهم.. شاركناهم وتأججت مشاعرنا.. أعادوا لنا شبابنا وبدلاً من اجترار الذكريات.. أيقظوا فينا الأمانى، وفى ليلة قاهرية.. مصرية.. ساحرة..، ظن الجميع أن حضن ميدان التحرير الدافئ بالمشاعر رغم شتاء يناير سيكون مسرحا لسهرة حتى الصباح ـ فجأة ـ سكت الغناء.. توقف، ففى الواحدة صباحاً شنت القوات المدعمة بإمدادات

أضعاف ما كان موجوداً بالنهار، وبمختلف أنواع أسلحة الإرهاب، وبجحافل من الجنود والمصفحات وخراطيم المياه، والقنابل المسيلة للدموع، والهراوات المكهربة، وآلاف الجنود.. نعم آلاف الجنود. فى مواجهة الأغانى والأناشيد والهتاف للوطن. وخلال دقائق تم إخلاء الميدان من أى صوت يصدح بالجمال والحلم

وقيل أنه قد سقط ثلاثة شهداء وأكثر من مئتى جريح.

إيذاناً ببدء فصل آخر ▪

الشارع برلمان الشعب

فريد أبوسعدة

بكيت كما لم ابك فى حياتى، بكيت ولا أزال كلما شاهدت تجليات النبل والإيثار فى هذه الثورة، كنت أخجل من الكلام فى هذا الأمر، متهما نفسى بأننى عاطفى أكثر من اللازم، وتجرأت أخيرا، وأشرت على استحياء إلى هذا فى جلسة ضمتنى مع الأصدقاء: إبراهيم أصلان وابراهيم عبد المجيد وسعيد الكفراوى ومحمد سيف، ولدهشتى أكدوا جميعا، وبصدق نادر، أنهم كانوا أيضا يكون!!

بكيت وانا أرى السيارات تدهس الجموع، بكيت وانا أرى خراطيم المياه تنصب على المصلين، بكيت وانا أرى اغتيال شاب العريش، وشاب الإسكندرية بالرصاص الحى، بكيت وأنا أرى صور الشهداء فى الميدان، بكيت وأنا أستمع إلى كلمات ذويهم المرتجلة النبيلة وهى تحتسبهم شهداء فى سبيل مصر، بكيت وأنا أرى التحية العسكرية المؤثرة فى بيان القوات المسلحة، بكيت وأنا أسمع أم كلثوم وهى تغنى: عيشوا كراما تحت ظل العلم، تحيا لنا عزيزة فى الأمم.

عندما تكون مثلى، واحدا بين هذه الملايين التى تموج فى الميدان، عندما تكون جزءا من هذا الجيل البشرى الهائل، بقوامه المترجرج الحىّ، ربما تشعر مثلى بأنك خالق ومخلوق فى آن، وأنك مثل الآلهة كل يوم فى شأن، فإذا هرعت صارخا هرعوا وراءك صارخين، وإذا هرعوا صائحين هرعت وراءهم صائحا كأنك جزء من هذا الجيل البشرى، ربما اليوم إصبع فى يد من أيادى هذه الهدرا المقدسة، وربما غدا تكون عينا، وبعد غد لسانا، هكذا تصبح جزءا وكلا معا، أو كأنك كل شىء ولا شىء!

هذه الحركة التى تنتاب الجموع الهائلة، الحركة التى تشكّل الميدان على إيقاعها، حركة نجمة بحر بشرية، حية، هائلة، بمساحة عدة كيلومترات، وبسبعة أذرع هى الشوارع التى تؤدى إلى الميدان أو تخرج منه، الحركة فى المكان، الحركة التى تحلحل المتماسك ليصبح سائلا، التى تصنع فراغا كافيا بين الناس فتستطيع أن تتأمل، وأنت فى الفعل، أفعال الآخرين، الحركة التى تشبه

الجماع، حيث ينغمس العاشق فى فعله دون أن يكف عن مراقبة معشوقه، هذا النوع من الحركة التى تصحح نفسها بمراقبة نفسها فى مرايا الغير ■

كابوس الديكتاتور وأحلام شعب

محمد شهدى

الحلم الأول:

بعد أن احتسى الديكتاتور جرعات وفيرة من الفودكا الممزوجة بعصير التفاح، سقط مغشياً عليه، وراح فى غيبوبة، فما كان من السيدة الأولى، وابنه الوريث إلا أن وضعوا أصابعهم على أفواههم تحذيراً للمتطفلين من وكالات الأنباء والصحفيين من إفساد هجعة الرجل الكبير. وراحوا يحرسونه فى منتجعه، فى حين كان هو مستغرقاً فى حلمه : وكان حلمه كما يلى ·

قام العدو بضربة استباقية دمر فيها جميع المطارات العسكرية على الأرض. تكراراً لسيناريو يونيو ١٩٦٧، وذلك نتيجة لتضارب الأوامر، وبطء التفكير ورد الفعل، وتخلف الأجهزة الفنية للمطارات والطائرات ووقع الرئيس أسيراً فى أيدى العدو.

قام العدو بمجهودات خارقة للعادة، لإعادة الرئيس إلى سابق عهده وتم تسليمه إلى لجنة من الحكماء الذين قرروا أنه يمكن بقوة المحبة أن يعتاد أى إنسان مهما كان –حتى الديكتاتور نفسه – طريق التوبة فيحيا حياة المواطن العادى المحب والمحبوب

وإلى أن يتم هذا الإنجاز الروحى الرهيب، فقد وضعوه فى قصره على الخليج. غير أن أبواب القصر كانت موصدة تماما باستثناء واحدة فى اليوم حينما كان يصحبه خمسة من الموساد الأشداء فى نزهة سريعة يحاولون فيها حثه على الإعجاب بجمال الطبيعة، والجمال، والتمتع فى خليج نعمة بمشاهدة الشعب المرجانية وقدرة الله فى صنع الجمال... أما بقية النهار فقد كانوا يسمحون للرئيس بالقراءة للجميع وكان من المحظور تماماً استخدام الفيس بوك أو قراءة الأعمال الأدبية التى تلهب العواطف...

وهكذا كانوا يسمحون له بقراءة روايات الجيب .. وسمير وميكى... وكوخ العم توم... وبعض الكلمات العبرية البسيطة والتى تتيح له التفاهم معهم... مثل شالوم وغيرها... كما منعوه من التدخين ومن تناول الفودكا... فى حين سمحوا له بتناول الكاكاو أما القهوة والشاى فقد سمحوا بتناولهما بشىء من الاعتدال وليس بالقدر الذى يؤثر

على صحته.

كما تم تخصيص ساعة كاملة من ساعات الصباح كى يمارس فيها رياضته المفضلة الاسكواش ...

كما تم كذلك تخصيص ساعة من ساعات المساء للرجال الطيبين والذين عهد برعايته إليهم بشرح مبادئ الدين اليهودى والمسيحى والإسلامى وتوضيح مدى السعادة التى سيجنيها إذا ما استطاع أن يدرك حكمتهم...

ولقد ألقيت مهمة مناقشته على عاتق ثلاثة ممن كانوا يعدون من أحكم أولئك الذين يرجى على أيديهم أن يهدوه إلى طريق الرشاد.

وكان هؤلاء الثلاثة هم : الشيخ الشعراوى، والشيخ الغزالى والفريق أحمد شفيق، وكان قد سبق للرئيس التعرف على هؤلاء الثلاثة فى أيام عظمته ومجده فى الثلاثين عاماً التى كان يحكم فيها...

فقبل أن يخسر الحرب بفترة غير طويلة جاءوا إليه فى قصر الرياسة أثناء عودته من مرضه يلتمسون منه أن يقتنع بخطأ الطريق الذى يسير فيه، تكلموا معه عن الخير الأبدى، وعن التسامح الدينى، وعن المحبة.. حدثوه فى عبارات بليغة وجياشة عن تلك المسرات التى يشعر بها العبد المطيع والمتواضع، كما حاولوا إقناعه بأن السعادة الحقة تنبع من كون الإنسان محبوباً لا من كونه مرهوباً ومكروهاً.

ولقد أصغى إليهم جميعاً فى شىء من الصبر الناتج عن الدهشة مثلما كان يفعل مع الكتاب والمفكرين فى معرض الكتاب الدولى . ثم فجأة انفجر فيهم هائجاً : ما الذى تعرفونه أنتم عن الحياة ؟ ثم تحول إلى ثورة هائجة ـ إنكم لا تعرفون إلا شيئاً يسيراً عن تلك النشوة المسكرة التى يشعر بها المرء، وهو يتسلط على شعب بأسره من خلال ما يبثه من خوف ورعب فى رعيته، حينما تعلم أن شعبك هو عدوك يحاول، عبثاً أن يعرف ما يدور فى عقلك.. ولا يصل إلى نتيجة حينما تعلم أن ما تملكه من القوة لا يكفى لإبادة جميع أعدائك فحسب، بل ويكفى أيضاً لإبادة جميع أصدقائك أيضاً.

كلا أيها السادة إن أسلوب الحياة الذى تطرحونه علىّ لا يستهوينى عودوا إلى دياركم فى اجتلاب الريح المغلفة بادعاء التقوى والورع.. واتركونى مرة أخرى لأسلك طريق البطولة..

قال الشيخ الأول : لقد تحملناك كثيراً، وتحملنا ضلال طريقك الذى اتبعته من قبل، فتحملنا ولو قليلاً، فنحن أيضاً قدرك، مثلما أنت قدرنا.. وعليك أن تحطم قيود المكابرة إذا أردت أن تخلص إلى التوبة والمغفرة، وإذا استطعت أن تتعلم كيف تلتمس سعادتك وسعادة أسرتك من سعادة الآخرين، وأصابتك القناعة والرضا فيما بقى لك من حياة على الأرض..

عندئذ قام الديكتاتور وهو يقول : فلتذهب إلى النار أيها الشيخ المخرف والذى دعا بهزيمة مصر فى ١٩٦٧ ... إننى لا أفهم مما تقول سوى شىء واحد... هو أنك فى ذمة الله وأنا تحت رحمتك... وأنك وجدت وسيلة لإهانة حظى العاثر.

حينئذ قال الشيخ الثانى رحمه الله : يا سيدى الرئيس.. كيف ذهبت إلى هذا الحد من عدم العدالة والرحمة، ألا ترى أنه ليس لدينا نحن الثلاثة إزاءك إلا أسمى مقاصد الخير.. ؟ ألا ترى أننا لا نستهدف إلا إنقاذ روحك.. وأننا آسفون لما نشرته من الكراهية والقسوة بين شعبك حتى اتهمك بالخيانة... وأننا لا نبغى إذلالك، وأنك لو قدرت الأمور حق قدرها فسوف ترى أن ما نعرضه عليك هو الخلاص من المذلة التى أنت فيها الآن...

عندئذ قال الديكتاتور : هذا كلام فارغ ولا يطاق سماعه، ولا يقال فى مواجهة صاحب الضربة الأولى والذى عبر بهذا الشعب المسكين من الهزيمة إلى النصر...!!!

وهنا قال الفريق بعد طول صمت: سيدى الرئيس... اسمح لى أن أدعوا الله من كل قلبي ومن أجل صحتكم الغالية علينا جميعاً... ألا تهتاج... ذلك أنه بالهدوء وحده يمكن لفخامتكم أن ترى وجه الحكمة فيما نحاول أن نوضحه لسيادتكم...

وتدخل الشيخ الأول رحمه الله مرة أخرى قبل أن ينفجر الرئيس فقال:

إننى متأكد سيدى الرئيس أن رجلاً فى مثل سنك لا يمكن أن تغيب عنه الحقيقة إلى الأبد غير أنك الآن مجهد، لهذا أقترح أن تتناول كوباً من الينسون الدافئ لتهدأ أعصابك فسوف يعمل على تهدئتك بشكل أفضل..

عند هذا الحد لم يستطيع الرئيس أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك فأمسك بقدح الكاكاو وسكبه على رأس الفريق الجالس أمامه فى أدب جم، فسال السائل المغلى على وجهه البرئ، غير أنه لم يزد عن أن قال : آسف يا سيدى الرئيس فليس هذا أسلوباً للحوار..

فى هذه اللحظة أفاق الرئيس وهو فى هيجان الغضب الذى استمر لحظة بعد صحوة وانعكست آثاره على الشيخان والفريق، اللذين كانوا يرتجفون وقد كسا وجوههم الشحوب، غير أنه ما أن انقشعت سحب النوم حتى تبخر غضبه، وراح يلتمس الرضا منهم، ورجاهم فى احتساء جرعات عميقة من الفودكا بعصير التفاح ■

يناير الطيب

محمد الكفراوى

عادت السماحة إلى الوجوه، استردت الأجساد أرواحها، أصبح الكل يخاف على الكل، ويعرف معنى الوطن، ويعشق رائحة التراب، ويقدر قيمة الدم.

أربع كلمات كانت بمثابة التميمة للثورة المصرية التى انطلقت يوم ٢٥ يناير الشعب يريد إسقاط النظام ، خرجت بعفوية وتلقائية لتعبر عن رغبة كل مظلوم فى الإنصاف، وكل مقهور فى استعادة حقه، وكل مهان فى استرداد كرامته، لم تكتف الثورة بتغيير النظام السياسى فقط والإطاحة برأس النظام ورموز الفساد، بل تجاوزت ذلك إلى تغيير أخلاق المصريين، وتحويلهم من بشر ذوى وجوه عابسة ونفوس سوداء ومحطمة، إلى كائنات تشف عما بداخلها، ارتسمت ملامح البهجة الحقيقية على وجوههم، وعادت الحياة إلى أجسادهم التى قاربت على التيبس، من طول فترة الظلم والقهر والفساد الذى تعرضوا له وعايشوه وعانوه على مدى الـ ٣٠ عاما الأخيرة وربما قبلها بسنوات طويلة.

بعض الوجوه مازالت تحتفظ بارتباك المرحلة، فرغم فرحتها بالثورة ومؤازرتها لها بالفعل أو بالخوف عليها من الاختطاف، إلا أن المخاوف التى تتجدد كل فترة، وبعضها مخاوف تاريخية مشروعة تستند الى انفراد الجيش بالسلطة بعد ثورة يوليو، أو المخاوف التى كان يصدرها نظام مبارك للمصريين والعالم كفزاعة يحمى بها أركان حكمه الفاسد، مثل التلويح بأن الجماعات الإسلامية سواء الإخوان أو غيرها من التنظيمات المتطرفة تسعى للحكم، أو حتى الخوف من استمرار الفساد من خلال بقايا النظام السابق الذين مازالوا يشغلون مواقع مهمة فى الدولة بمن فيهم رئيس الوزراء أحمد شفيق، إلا ان كل هذه المخاوف المشروعة يمكن تجاوزها، بل يمكن اعتبارها المرحلة الأسهل بعد إسقاط النظام الذى حاول الدفاع عن نفسه باستماتة وقوبل بعزيمة صلبة على التغيير، وأعطى المصريون للعالم درسا فى العزيمة والإصرار والتضحية، والتحضر والمدنية خلال الثورة وبعدها، ولا شك أنهم قادرون على تكملة المشوار

والاتفاق على صيغة لتطهير البلد ووضعها على طريق التقدم من خلال جيل كامل، عانى الأمرين من النظام السابق، الذى لم يشهد فى حياته نظاما آخر غيره، لتصبح كل المخاوف التى يواجهونها أمرا تافها بالنسبة لما خاضوه سابقا.

هل علينا شهر يناير والغالبية العظمى من المصريين تنام تحت ستار اليأس من المستقبل، مستمرأة حياتها القاسية التى فرضت عليها وارتضت بها وفشلت فى تغييرها، والأقلية التى مازالت تحلم بالتغيير، ترفع مطالب متواضعة وتخرج بها من فترة لأخرى فى الساحات العامة والشوارع، فى مواجهة القبضة الأمنية المرعبة التى تحطمت تحت مطرقة العزيمة، وانكسرت فى مواجهة عذابات جيل انضم إليه كل صاحب مظلمة أو غصة فى حلقه، كل مقهور ومطحون ومعذب فى هذا الوطن، تحت وطأة القهر والفساد والجهل والبطالة، وشاءت الأقدار أن يصبح يوم عيد الشرطة التى تحولت فى مصر إلى جهاز أمنى قمعى يقهر الشعب بدلا من ان يؤدى وظيفته الرئيسية فى خدمة الشعب. هو يوم هزيمة هذا الجهاز أمام إرادة الشعب فى التغيير. وبدأ ميدان التحرير يصدح بأغانى الشيخ إمام وشادية وعفاف راضى ومحمد منير وغيرهم ممن غنوا للوطن وأصبحت الأغنية الأثيرة التى ربما رددها الآلاف وسيظلون يرددونها كل ما تهل البشاير.. من يناير كل عام.. يدخل النور الزنازن.. يطرد الخوف والظلام.. فلا أحد سينسى هذه الأحداث وهذا الشهر الذى شهد ثورة المصريين وصرختهم و مجدهم كما لم يظهر من قبل.. يناير فجر بركان الغضب المصرى.. أزاح ميراثا طويلا من الاستكانة والرضا والاستعباد طهر البلد من حكم فاسد كان يجرها يوما بعد آخر قرونا للوراء.. وطهر روح المصريين من أمراض ظلوا أنها مستعصية واكتشفوا ترياقها فى مرآة عزيمتهم.

شكرا ليناير الثورة.. شكرا ليناير الطيب ■

المصريون.. وصناعة الحكام

محمد المنسى قنديل

... وهى من خصالهم المذمومة، هذه ليست كلماتى، ولكنها لشيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتى وهو يصف خصال بعض المصريين أيام المماليك، أولئك الذين ينفخون فى صورة الحاكم، ويضخمون من قدراته، ويوقظون داخله كل نوازع الطمع والشراهة والاستئثار بالسلطة، وقد كانت تجربة الجبرتى مع صناعة الحكام طويلة، ولكنه على الأقل كان شاهدا على تجربتين كبيرتين، أولهما هو على بك الكبير الذى تولى أمر مصر أثناء العهد العثمانى، ولم يكن منصبه يتعدى لقب شيخ البلد، لا أحد يعرف أصله ولا فصله، ويقال أنه ابن قسيس نصرانى من إحدى قرى الأناضول، وقد خطف وهو فى عمر الثالثة عشر وباعه النخاسة فى أسواق القاهرة حيث اشتراه إبراهيم كتخدا أحد زعماء المماليك، وكالعادة اعتنق الإسلام وخضع لحياة صارمة لا يمارس فيها غير تعلم صنوف القتال، وظل يترقى حتى أصبح فارسا قاسيا وشديد البأس، وفى عصر تسوده الفوضى ويصعد الأقوى على الأكتاف، استطاع على بك أن يصل إلى أعناق بقية زملائه من المماليك ويزيحهم من أمامه ليصبح شيخ البلد فى القاهرة، ولم يكن منصبا كبيرا، ولكنه كان الأفضل بالنسبة للمماليك الذين فقدوا تفردهم بالسلطة فى مصر منذ أن غزاها العثمانيون، كان فوقه الوالى التركى الذى يعينه السلطان العثمانى، ولكنه كان بعيدا عن الشارع القاهرى الذى كان يتجول فيه على بك على راحته، ثم جاءت اللحظة المهمة فى حياته عندما كان يصلى الجمعة فى أحد مساجد القاهرة، وصعد شيخ نصف ضرير على المنبر وبدأ يدعو له وحده، متجاهلا الوالى والسلطان العثمانى، أعطاه وحده كل ما يريد من تفويض وتأييد من الناس، وتحولت كلمات شيخ الجامع إلى طنين لا يهدأ من الذين يحيطون بعلى بك، أنت الأحق بالحكم، أنت وحدك القادر على إخضاع البلد تحت إمرتك، كانوا غرباء يصارعون غرباء ليعتلوا جسد الشعب المستسلم، وبدأ على بك الكبير رحلة صعوده، كان أول من ابتكر

نظام المصادرة وسلب أموال الناس لصالحه، وأول من فرض الضرائب غير المعقولة التى لا ينافسه فيها أحد، وبدأ حملة شرسة للقضاء على كل من يناوئه، قضى على دولة شيخ العرب همام فى صعيد مصر، وانتهز انشغال الباب العالى بالحرب مع الروس وبدأ حملته على جزيرة العرب، ثم حملة أخرى لضم بلاد الشام، وخاطب الروس ليمدوا لهم يد المعاونة، ولم يوقف تقدمه إلا خيانة أكبر قواده محمد بك أبو الدهب وانقلابه عليه.

وعاش شيخنا الجبرتى ليرى صعود حاكم آخر هو محمد على باشا، وكيف تحول من وال اختاره الشعب المصرى وأصر عليه فى مواجهة الباب العالى إلى حاكم مطلق، كان أول قرار اتخذه هو مصادرة كل أراضى الفلاحين المصريين لصالحه وصالح قواده من الشركس والألبان، و مات الجبرتى من الحسرة وهو يشاهد صعود محمد على دون أن يجرؤ أحد على مقاومته، وكان من نصيب الجبرتى أن يسلط محمد على من يدس السم لابنه خليل، وربما كان هو المقصود بهذا السم.

هكذا كانت تبدأ دائما صناعة الحكام فى مصر،بداية بسيطة تقود لكوارث كبيرة، هل هى خصلة مذمومة كامنة فى طبيعة الشخصية المصرية، كما يقول الجبرتى، أم هى إحدى خصائص الدولة النهرية التى سيطرت على مصائرنا لآلاف السنين، فالفرعون هو تجسيد للنهر، ومن يمتلك النهر يمتلك مصائرنا جميعا. لا نريد الغوص بعيدا فى التاريخ، فالواقع المعاصر يوضح أن العجلة لم تتوقف عن الدوران، فقد شاهدنا صعود فرعون صغير آخر هو حمال مبارك.

وبدأ الأمر بنفس البداية البسيطة أيضا. فبعد أن قام «المحروس الصغير» بزيارة لإحدى مدارس البنات فى مصر الجديدة، كتبت إحدى تلميذات المدرسة رسالة مفتوحة لرئيس الجمهورية تطلب منه ألا يحجب هذا الشاب الرائع عن العمل العام وأن يحسن أن يتيح له الفرصة ليفيد مصر بخبرته. من هذه الواقعة المدبرة سلفا بدأت عجلة صناعة الحكام فى الدوران، وتولد عنها طامع شرس فى السلطة، لم يكتف بإتلاف الحياة السياسية والاقتصادية على مدى عقد كامل من الزمن، ولكنه كان مصرا على حرق ميدان التحرير بمن فيه من أجل تحقيق أطماعه، وحتى بعض سقوط النظام لم تكن العجلة عن الدوران، ففى هذا الظرف الجديد، والثورة المصرية تحاول أن تولد من جديد، ترتفع الأصوات كل يوم تدعو المجلس العسكرى للبقاء مدة أطول فى السلطة. مفكرون ورجال أحزاب ومنافقون. كلهم غير راضين عن فترة الستة أشهر التى حددها المجلس بنفسه، إنهم لا يكفون عن الولولة. المدة غير كافية، سيأتى الإخوان المسلمون، وسيفيق الحزب الوطنى من سباته، ستعصف الفتن بالبلاد، ابقوا عاما.. عامين.. وبالتأكيد سيوجد من يهمس فى آذانهم أن يبقوا إلى الأبد، هل هى عقدة قديمة لشعب عاش طويلا لا يحكم نفسه بنفسه، هل يريد من يقوده مثلما يقود الفأر قافلة من الجمال، أليس من المفروض أن يحررنا دم الشهداء من هذه العقلية القديمة. لقد انقدنا طويلا وخضعنا طويلا وكانت النتيجة أننا صنعنا

وحشا اسمه مبارك لم نستطع التخلص منه على مدى ثلاثين عاما، فمبارك لم يصنعه السادات ولا أجهزة مباحث أمن الدولة ولا حوقة الحزب الوطنى، ولكنه صنعته تلك العادة المذمومة.

نحن جميعا نحمل وزر مبارك، نحن الذين ورطنا فيه أبناءنا من بعدنا، جعلناهم يدفعون من دمائهم ثمنا لخلاصنا، واعترف أننى أيضا أحمل نصيبى من هذا الدم، حدث هذا عندما كنت أعمل طبيبا فى ريف الصعيد، وكان مبارك قد بدأ صعوده الطويل إلى سلم السلطة، ورغم أنه كان حديث العهد، وكان مستوى دهائه السياسى مازال منخفضا، إلا أن ماكينة صنع الحكام كانت تدور بسرعة، لم تكن تقدمه كواحد من أبطال حرب أكتوبر فقط، بل البطل الأوحد، والذى كنا سنخسر الحرب لولا استخدامه كل عبقريته فى إبداع الضربة الجوية الأولى، وهى أكذوبة سرعان ما انكشفت حتى وهو فى قمة حكمه، فرغم أنه حكم على مدى ثلاثين عاما إلا أن السينما قد فشلت فى صنع فيلم واحد عن هذه الضربة الوهمية، المهم أنه فى أحد الاستفتاءات الصورية التى كانت الإدارة المصرية تطنطن لها كثيرا، تحولت الوحدة الصحية التى كنت أعمل بها إلى لجنة للاقتراع، كانت تضم خمسمائة صوت، وكان يوما غريبا بحق، فلم يطأ الوحدة أى مخلوق، لم يعان أحد من مغص، ولم يتشاجر أحد أو يجرح أحد ولم تقع أى حادثة على الطريق السريع، حتى قرص الأسبرين أو الفيتامينات لم يأت أحد ليطلبهما، ظلت الوحدة هادئة كقبر والبطاقات متراصة فوق بعضها العض وظل الصندوق خاليا، حاولت أن أشغل نفسى خلال هذا الوقت الطويل، قرأت أكثر من رواية ولم أستطع أن أنهى واحدة منها، وكتبت السطور الأولى فى قصة قصيرة، وكانت سخيفة، ولم يأت أحد، وأخيرا فى نهاية هذا اليوم الطويل والممل، فوجئت بمأمور الناحية قادما فوق جواده، وكانت خلفه سيارة جرنانة تحمل ضابطين وبعضا من رجال الشرطة، بالطبع كان المأمور يستطيع أن يركب العربة مع بقية الجنود، ولكن الجواد كان وسيلته لإظهار سلطته وقدرته كفارس، وربما ليرهبنى، وقد تحقق ذلك بالفعل، دخل الوحدة وهو يحدث أكبر ضجة ممكنة، وهتف فى صوت خشن: كله تمام؟ قلت له: كله تمام طبعا، ولكن لم يحضر أحد من الناخبين، هتف فى فزع والبطاقات؟ أشرت إلى صف البطاقات المكدسة داخل ربطتها التى لم تمس، صاح: يانهار أسود.. ستكون هذه نهايتنا جميعا، هذه البطاقات يجب أن تسدد فورا، والحق أن الضجيج الذى أحدثه قد أفزعنى تماما، خاصة مع وجود العساكر والضباط المتجهمين وهم يملئون فراغ الوحدة الصحية من حولى، جلس أمامى وهو ينفخ: لم يبق لدينا وقت.. والقاضى ينتظرنا فى المركز، بدأت أخرج البطاقات من ربطتها، وأضع عليها علامات الموافقة بأصابع مرتعدة، أحضرت كل أهالى القرية الذين قاطعونى ولم يدخلوا عيادتى أحضرتهم رغما عنهم، أعلنت وجودهم فوق دائرة الموافقة السوداء، كنت أبرر الأمر لنفسى بأن البلد

ملبئة بالأكاذيب، فما الضير من إضافة كذبة أخرى، رغم أن بذور الكوارث الكبرى مزروعة فى باطن الأكاذيب الصغيرة، المهم أننى أنجزت العملية الانتخابية فى زمن قياسى، ولكن حس الروائى داخلى تغلب على حرفة المزور، فإذا كانت الانتخابات غير حقيقية فلا أقل من أن تبدو واقعية، لذلك فقد أشرت بالموافقة على ٤٥٠ بطاقة، وتركت ٥٠ بطاقة للرأى الآخر من المعارضين، هكذا حدثنى ضميرى الديمقراطى الواهن فى ذلك الوقت، وضعت البطاقات فى الصندوق، وتم ختمه بالشمع الأحمر، وركبنا جميعا فى السيارة الجربانة لأقوم بتسليم الصندوق للقاضى بنفسى، حرصا على نزاهة العملية الانتخابية، وكان المأمور يركض بجواده بجانب السيارة شاعرا بالزهو لأنه أنجز مهمته وأرهب طبيبا مرتعدا هو أنا، وفى المركز الرئيسى كان القاضى فى انتظارنا، محاطا بأكوام من الصناديق النزيهة المختومة بالشمع الأحمر، وفور أن رأى صندوقنا تنهد فى ارتياح، كنا آخر الصناديق، كانت بقية اللجان قد أغلقت صناديقها منذ منتصف النهار، دون مشاكل أو غضاضة، ربت القاضى على الصندوق وحدق فى وهو يقول: إجماع؟ قلت: تقريبا، تغير وجهه ونظر إلىّ فى فزع، هتف: ماذا تعنى؟ قلت ببساطة: ٤٥٠ قالوا نعم .. و٥٠ فقط قالوا لا.. أليس هذا واقعيا، صاح: هذه مصيبة، افتحوا الصندوق مرة وأخرى وابحثوا عن هذه الأوراق الرافضة وإلا سنروح جميعا فى داهية، كان الذى يصرخ فزعا هو القاضى نفسه، ضامن النزاهة وحامى الحقيقة، فكيف كان يمكن ألا يفوز مبارك بالأغلبية الساحقة. هذه اللحظات من الضعف والوهن أصابتنى بالخجل من نفسى، وكانت كل الصناديق المتراصة من حولنا شهودا على ضعف جيل كامل، كيف يمكن والحال كذلك ألا يتحول مبارك ليصير حاكما مطلقا وعتيدا. أن يتغذى على خوفنا وخنوعنا، وقد بلغت استهانته بنا لدرجة أنه أخذ يمهد الطريق لابنه ليرثنا جميعا، لقد قلب شباب ثورة ٢٥ يناير طرفى المعادلة، عروا نظام مبارك وابنه وبطانته، لم يكونوا أقوياء، ولكن كنا نحن جيلاً من المرتعدين، نحن الذين خفنا أن ندفع ثمن الشجاعة فى لحظة، فتجرعنا ثلاثة عقود كاملة من الهوان. كان الشباب الذين هبطوا للتحرير يدركون أنهم سيحرروننا جميعا، فمبارك فى نظرهم لم يكن أكثر من تمثال من الشمع، مكانه هو متحف مدام توسو وليس على عرش مصر. وعندما أشعل رجال الشرطة فى التحرير نيرانهم ليقتلوا الشباب، أذابوا دون أن يدروا قناع الشمع الذى كان مبارك يختبئ خلفه، وكان الثمن غاليا، ولكنه يستحق.

عجلة صنع الحكام يجب أن تتوقف، علينا كشعب أن نتوقف عن فرعنة الفراعنة فى كل المجالات، نحن شعب طوال تاريخه لم يكن يثق فى نفسه ولا قدراته، علينا أن ننقل ثقافة ميدان التحرير إلى داخل نفوسنا، لعلها تبعث فينا روحا جديدة وتمسح عنا عار الجبن القديم ▪

كعكة الميدان

محمود خير الله

صرتُ أصدّق الآن أن الشعوبَ العربيّة يمكن أن تسلُف بعضَها الدماء، ويمكن، إذا ساعدتها الظروف، أن تُغنى وترقص لبعضها، فى العرس الذى لم تعرف البشرية أفدح منه، أو من كعكته الملتهبة.

صرتُ أصدّق أن الشعوب ـ مثل أمهاتنا الحزينات ـ تتبادل الملابس والأوعية والثورات نفسها، كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، دون أن تتبادل كعكة الحرية، التى لا تحظى بهذا الاسم أبداً، قبل أن يسيلَ على جوانبه الدمُ.

الطريقُ إلى هذه الكعكة تقريباً واحدة، القلةُ تنفق بعضَ ما لديها لتحطيم إرادة الكثرة، التى تعود بعد أقل من ثلاثين عاماً غاضبةً، لتنهش حقها فى الوجود، ولو لمرّة واحدة.

كتبُ التاريخ المصرى تعجُّ بقصص تدفنُ الأملَ عن المحتكرين، عن سارقى الأقوات والأحلام وناهشى البطون الجائعة، لا أعرف كيف لم تر الأنظمة العربية الدماء التى سالت من صفحات ابن إياس والمقريزى، كيف لم تر مذابحَ التاريخ، وهى تتمسرح على أرضها، فريسةً فريسةً، ومجزرة تلو مجزرة، كأنّ الدماء التى تسيل تحت أقدامهم تختفى، لتهشهم فى لحظة ما، فجأةً، من القاع، دون أن ينتبهوا لحماية مؤخراتهم.

حتى تميمةُ هذه الثورة فى مصر كان شاباً بسيطاً ـ وتقريباً لا يعمل ـ اسمه خالد سعيد، سالت دماؤه فى الشارع، تحت ضربات اثنين من الشرطة، مثلما أحرق التونسى البوعزيزى نفسه بعد صفعة مثلها، تلك التى عمّمتها بعض الأنظمة العربية على وجوه وأقفية الفقراء العرب، الذين انفجروا فى وجه الظلم.

حين يتعلق الأمر بالسياسة تصير الدماء لغةً بمفردها، يتكلّم حين تُجبر الدولة الأطباء والمهندسين والمعلمين ورجال الدين والإعلام على الصمت، دمُ الفقراء صار لهجةً تصلح للتعاطى مع بعضِ الرؤساء، أخيراً، دمُ الفقراء ليس رخيصاً.

حتى جروب كلنا خالد سعيد على الموقع الاجتماعى الشهير الفيس بوك هو الذى حرك الشرارة الأولى لانتفاضة هذا الميدان، كأنّ

الدماء تحب أن تنادى بعضها إلكترونياً أحياناً، مثلما تنادت صفحات إلكترونية كثيرة دفاعاً عن البوعزيزى، وقضيته وشعبه، صورتا البوعزيزى وخالد سعيد تجاورتا سريعا، فى قلوب عشاق الإنترنت حول العالم، هذه أول توأمة تحدث فى التاريخ بين شهيدين للحريات العربية.

الثورة حمرة الخد على وجه فتاة تلسعها حرارة الحرية، ابتسامة امرأة تعاند أعوامها الستين بالخطو فى حديقة الأمل، حنجرة شاب أراد أن يحصل على عمل، فجلس يغنى للانتصار.

الثورة المصرية صارت شبحاً يُخيّم على العرب، مثلما كان كارل ماركس يحب أن يتحدث عن الثورة العمالية، حين قال إنها شبح يخيم على أوروبا لم يكن يتوقع أبداً أن يتوالد هذا الشبح خفية بعد أكثر من قرن ونصف، فى بلاد العرب، فى جسد عربى بوجهين، محروق ومحطم.

الجميعُ يتجول فوق هذه الكعكة بحرية، الكلامُ والشبابُ واللافتات والأمل، خليطٌ من الناس يذوبون جميعاً على هذه الأرض، الشجاعة والعبقرية يمشيان على سجيتهما، رافعين إصبعين للانتصار، قبل أن يتكسرأحدهما كأصابع خالد سعيد فى الإسكندرية، أو يحترق الآخر مثل كف محمد البوعزيزى فى سيدى بوزيد. الحرية عجوز تعلم أحفادها تذوق الأمل، حين تمنحهم ـ بعد يوم من الهتاف ـ تمر النعيم

نعم، ما كان لهذه الكعكة أن تكتمل قبل أن يصرف لها التاريخ ما يكفى من الدماء.

هنا تساقطت الدماء بين فخذى فتاة فى المظاهرة، كانت تريد أن تحرر بلادها من الطغاة، فاكتشفت فجأة، فى هذا الميدان الواسع، أن الحريّة فى بلادها ـ عذراء مثلها ـ قد تسيلُ من بين فخذيها، على الأرض، إذا حاصرها الجلادون.

أبقى فى الميدان قليلاً ثم أعود إلى البيت جائعا، أتذكر دائما كلمات الشاعر التركى أورخان وولى، فى واحدة من أجمل قصائده

نحن نعيشُ مجاناً
الوديانُ والجبالُ مجاناً
المطرُ والوحول مجاناً،
السيارات فى الخارج
وشبابيك السينما مجاناً
ليس الخبز ولا الجبن
بل الماء المر مجاناً،
الحريةُ
تدفع ثمنها برأسكَ
أما العبوديّة
فمجاناً
نحن نعيشُ مجاناً ■

الرصاصة لم تعُد فى جنبى

محمود عبد الرازق جمعة

كان يوماً عجيباً بكل المقاييس، جرى فيه من المضحكات والمبكيات والمدهشات والمفاجآت ما جرى، بدءاً بهتاف الآلاف لمبارك، وصولاً إلى نزول الخيل والجمال إلى ارض الميدان! ولعل هذين الحدثين تحديدا مما يمكن وصفه بأنه مضحك مُبكٍ مدهش مفاجئ فى آن!

هذا هو وصفى العامُ ليوم الأربعاء، الثانى من فبراير ٢٠١١ .. الذى خُضت فيه تجربة لم أخضها من قبل، ولا أظننى أخوضها من بعد... تجربة مواجهة الرصاصة الحية!

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل حين كنت ارتحتُ قليلاً من إصابة مضى عليها نحو ساعة، حين أصاب حجرٌ كبير -أو هكذا شُبّه لي- عظمة حوضى اليسرى - المصابة أصلا- فاضطُررت إلى التراجع قليلاً. وحين عدتُ إلى صفوف المقاتلين ناحية المتحف المصرى وميدان عبد المنعم رياض وجدتُ نفسى فى الصف الأول، وراء متاريسنا تماماً، حيث أكثر الأماكن أمناً إذا ألقيت أحجار الأعداء، وأكثرها خطراً إذا اندفعوا نحونا!

كانت إستراتيجية الصفوف الأمامية فى جيش التحرير أن يقف الرامى خلف المتراس، ثم يستعدّ بحجارته، ثم ينطلق بسرعة إلى المناطق البينية بين المتاريس ليلقى الحجر، ثم يعود إلى مكانه ثانية... وقد فعلت هذا لمدة نصف ساعة، وفى المرة الأخيرة رميت الحجر، ولكن لم أعُد خلف المتاريس... ففى الثانية بعد منتصف الليل حدث ما أذكره بحذافيره كأنه محفور فى ذاكرتى: لقد سمعت صوت طلقٍ نارىٍ، تبعه صوت ارتطام جسم صُلب بجسم آخر يبدو أنه مغطًى بالقماش!

كان صوتا خافتا ربما لم أكن سأنتبه له لولا أن اشترك معه حدث آخر، هو شعورى بارتفاع شديد فى الحرارة فى جنبى الأيمن، ارتفاع لم أشعر بمثله من قبل... ولكن ارتفاع الحرارة اختلط مع شعورى بإحساس الألم الشديد المتولد فى جنبى، فلم أدرى أيهما أشدّ!

عندها وضعت يدى على جنبى، ثم رفعتها، فلم أجد دماءً! فوقع فى خاطرى أننى أصبت برصاصة مطاطيّة! فتراجعتُ إلى الوراء نحو

أحد أطباء الميدان، وقلت له: أظنى أصبت بطلقة مطاطية، فكشف الجرح، وحين رأى الدائرة الملتهبة الدامية سبّ ولعن، ومسح الدم وألصق الشاش، وطلب منى الذهاب إلى المستشفى الميدانى لتطهير الجرح وإجراء الإسعافات اللازمة، فسرت لمدة نحو ربع الساعة حتى وصلت إلى المستشفى الميدانى خلف هارديز التحرير (أول يمين فى شارع التحرير)، وهناك كُشف عن الجُرح وعليه، وقال لى الطبيب: إن الرصاصة حية لا مطاطيّة!

– كيف هذا؟ هل ما زالت فى جسدى؟

– بل خرجت، لقد كانت سطحية.

فتخيلت أنها خدشت سطح الجلد ومضت إلى حال سبيلها.

وحين وضع الطبيب ماء الأكسيجين على الجرح شعرت بالنيران تأكل جلدى، ولم يقلّ إحساسى بالألم إلاّ وهو يضع آخر لمسات الغيار.

ولأن الأستاذ بلال فضل كان قد أبلغ الإعلام بمعلومات تفيد بأن الهجوم على ميدان التحرير سيتضاعف مع الفجر، وسيتضاعف السلاح الحى والسلاح الأبيض، فقد آثرت الانسحاب حتى لا أكون عبئًا على المقاتلين، فاتجهت مع صديقى عبدالرحمن مدكور إلى منزله فى روض الفرج سيرًا على الأقدام، محاولين تحاشى البلطجية المنتشرين فى الجوار.

وفى الصباح عدت بالمترو إلى منزلى فى حلوان، وحين كنت أغيّر ملابسى الملينة بالدم والبيتادين المطهر، لاحظت أن فى كل قطعة ملابس منها ثقبين! فنظرت فى جسدى فوجدت به ثقبين أيضًا، وقد طهرهما الط... ووضع عليهما الضمادات، وربما لشدة ال... ماء الأكسيجين لم أشعر بالجرح الثانى، وعندها أدركت أن معنى جرح سطحى أن الرصاصة لم تُصب أجهزة فى داخل البط... بل مرّت عبر اللحم والعضلات والدهون، لتخرج إلى الهواء!

كنت مُجبرًا أن أتساءل: هل أصابنى مَن أصابنى هذه الإصابة عمدًا لأتراجع، أم كان يقصد قتلى، أم كان يقصد قتل غيرى فأصابنى؟

كل طبيب رأى الجرح قال إنه لو تكرر الأمر ألف مرة لما خرجتُ إلاّ بكارثة عضوية، فهل معنى هذا أننى محظوظ، أم أن الرامى هو المحظوظ لأنه لم يصبح قاتلاً، أم أن الثورة مكتوب لها البقاء رغم التربُّص بها؟

أسئلة كثيرة دارت فى خلدى، ولكن مهما كانت الإجابة، فإنها تعنى خيرًا. فبعد تسعة أيام كنتُ أكتم خلالها عن أهلى خبر إصابتى، استطعتُ أن آخذ العزاء فى جنتى حين أعلن تنحّى مبارك عن الحكم، ومن المفارقات العجيبة أننى كنت عند الطبيب الشاعر الصديق إكرامى قورة للتغيير على الجرح، وكان يخبرنى أن الجرح بدأ فى الالتئام، وأخبرتنا إحدى المريضات عند دخولها أن الجيش الإسرائيلى يحتشد عند الحدود، ففتحنا التليفزيون لنجد السيد عمر سليمان يُعلن تنحّى مبارك! ■

النفخ فى قربة مقطوعة

محمود عبد الوهاب

الكل يعلم أن نجاح ثورة تونس كان هو الشرارة الرئيسية الأولى التى مهدت لثورة ٢٥ يناير. كنت وقتها أشاهد التليفزيون فى الشارع فى منطقة عابدين منتظرا صديقتين لنصعد معا إلى فندق هابى سيتى. شاهدت شريط الأخبار وعرفت أن الرئيس التونسى هرب خارج البلاد وشاهدت فرحة الشعب التونسى.

عندما قابلتهما صحت لهما فى الشارع وبما هو غير معروف عنى من عدم اهتمامى الكثير بالسياسة. قلت لهما صائحا:

– مسى يا خبيبى..مسى

كنت فى ذلك أقلد جملة قالها ممثل قديم قام بدور خواجة فى فيلم أبيض وأسود.

بدأت الشرارة الثانية عندما أحرق رجل نفسه أمام مجلس الشعب فنقلوه إلى المستشفى، وطالب رئيس مجلس الشعب نواب المجلس بالانتقال إلى حيث الرجل لسؤاله عن متاعبه التى أوصلته إلى ما فعل. أخذت أضحك وأنا فى مكتبى. متأكدا من أن د. سرور خائف ومتوقع لشىء سىء.

نفس ما حدث لى قرأته بعد ذلك فى مقالات كثيرة فى صحف مختلفة كان أخفها دما مقالا على هيئة أسئلة وإجابات: مثلا لماذا قال د. سرور ما قاله فور حرق الرجل لنفسه؟ ثم تأتى الإجابة فى صيغة:

– بسم الله الرحمن الرحيم. الإجابة تونس

وكانت هذه هى الإجابة المشتركة لكل الأسئلة التى وردت فى ذلك المقال.

لم تكن الشرارتان السابقتان خاصتين فقط كإرهاصات للثورة المصرية، بل كانتا فى الواقع تشتعلان داخلى. أنا الذى لم أقف يوما أو أشارك فى مظاهرة، بل وكنت أسخر من القيمة العملية لأى مظاهرة. كنت دائم القول بأن العبرة بالنتيجة وليس لمظاهراتنا – فى مصر– نتائج، وبالتالى فهى نفخ فى قربة مقطوعة.

جاءت الشرارة الثالثة يوم الجمعة ٢٩ يناير، كنت قد جلست منذ الصباح أشاهد الأحداث على قناة الجزيرة، وظللت هكذا حتى بعد إلقاء الرئيس خطابه بعد منتصف الليل بدقائق. لكن حدث شىء آخر فى

منتصف النهار.

بدأت أسمع أصوات متظاهرين كثر فى الشارع، أصبحت مشتتا ما بين مشاهدة ميدان التحرير فى التليفزيون ومشاهدة الشارع. ظللت أتنقل بين الاثنين إلى أن ازدادت الجموع أسفل المنزل، وسارت حتى بلغت حديقة سوزان مبارك للطفل. وقف أحد الناس فوق البوابة بينما بدأ الآخرون يرشقون المبنى بالحجارة. توقعت أنهم لن يلبثوا أن يقتحموا المكان بدافع الحماسة المتزايدة، ولكن إشارة من الشاب الواقف على البوابة حركتهم ليستكملوا المسيرة إلى شارع نوال بالعجوزة وغالبا -بعد ذلك- إلى الميدان.

فى تلك الأثناء وقع الحدث. انطلقت عدة قنابل مسيلة للدموع ووقعت إحداها فوق سطح الفيلا أمام بيتى. وأنا أسكن فى الطابق الخامس، والفيلا مكونة من دورين ليس أكثر، غير أنى بدأت أشعر باختناق شديد ودموع تسيل من عينى وجفاف فى الحلق، قاومت لثوان فقط ثم دخلت مترنحا إلى شقتى وارتميت على الكنبة.

هنا بدأت أفكر فى نوعية هؤلاء الشباب. أنا لم أحتمل تأثير القنبلة وأنا فى الطابق الخامس، فمن هؤلاء الذين يستقبلونها بصدورهم؟

فى نفس اليوم جاءت الشرارة الرابعة عندما ألقى حسنى مبارك خطابه شديد الرداءة. كان الأمن قد انسحب والفوضى أشيعت والمكالمات انهالت على القنوات التليفزيونية المختلفة تطلب النجدة والغوث. وظهر المخرج خالد يوسف يكاد يبكى على شاشة قناة العربية طالبا حماية المتحف المصرى مذكرا الناس بما حدث فى العراق تلك التى كنا نتندر عليها وهنا نحن على الدرب.

بمجرد أن أنهى الرئيس السابق خطابه احتسست بغضب شديد وباهانة شخصية منه شعرت كأنه جاء إلى بيتى وبصق على وجهى. وكان على رد الإهانة بدءا من صباح اليوم التالى

من السبت ٢٩ يناير والى التنحى أنا فى الميدان بصفة يومية سيحكى آخرون عما رأوه كل يوم من أيام الثورة لافتات وهتافات ومئات الألوف من البشر. سيحكى البعض عن أشياء أكثر دقة ككاميرات التليفزيون التى فتحت لها بعض الشرفات يصورون منها. عن حرارة لقاء الأصدقاء والمعارف والزملاء صدفة فى أى بقعة من بقع الميدان حتى الذين بينهم ضغائن صغيرة استقبلوا بعضهم البعض بالأحضان

أما أنا فسأقفز إلى يوم الأربعاء ٢ فبراير وأذكر الشرارة الأخيرة. فعندما دخلت الميدان حوالى الثالثة والنصف من بعد الظهر سمعت عن أسر بعض الأفراد الذين دخلوا بالدواب فيما عرف بموقعة الجمال. ظللت أتجول فى أنحاء الميدان إلى أن بدأت الأخبار تتواتر عن هجوم للبلطجية من ناحية ميدان عبد المنعم رياض. شاهدت من بعيد قطع الطوب والأحجار تتطاير. ثم تطور الهجوم حتى شمل محاور شوارع قصر النيل وشارع البستان وشامبليون. غير أن أخطرهم كان محور عبد المنعم رياض حيث الجبهة أكثر اتساعا. حل الظلام والثوار يبادلون البلطجية

طوبا بطوب. ويقيمون المتاريس على المحاور. ويهجمون على البلطجية الذين يتقهقرون قليلا فيكسب الثوار أرضا جديدة ويقيمون متاريس جديدة فى منتصف الشوارع بدلا من أن تكون عند التقاء هذه الشوارع بالميدان يفعلون هذا لتأمين جموع المتظاهرين ولكى لا يتم اختراق الميدان. وكان الظلام قد حل وأنا أقف خلف الدبابات القابعة بجوار المتحف. أشاهد كرات النار المقذوفة من ناحية ميدان عبد المنعم رياض تقع على الأشجار فتحرقها. تقع ربما على ثوار لا أراهم. لكنى كنت أرى كل دقيقة تقريبا أربعة من الشباب يحملون أحد المصابين أو أحد الشهداء، يحملونه وهم يجرون به إلى الخلف، إلى نهاية الميدان من ناحية شارع التحرير حيث المستشفى التى أقامها الثوار والمتطوعون. كان بعض أفراد الجيش داخل حديقة المتحف المصرى لحمايته لكن ليس للتدخل بين أفراد الشعب: البلطجية والثوار. وكانوا بمجرد وقوع كرة النار أو زجاجة المولوتوف واستقرارها فى مكان يفتحون خراطيم المياه فى اتجاهها لإطفاء النار. زجاجة من هذه الزجاجات وقعت داخل نفس حديقة المتحف وتم إطفاء نيرانها. زجاجة أخرى وقعت فى بلكونة أحد المنازل أمام المتحف وأمسكت بالشيش ولم تصلها المياه.

وكنت لم أزل واقفا خلف إحدى الدبابات محتميا ورأيت رجلا أكبر منى فى العمر عائدا من الجبهة الأمامية والتقت عيوننا فهمس لى بالشرارة الأخيرة. قال لى بنبرة كلها ودّ وهو يغادرنى إلى الخلف لإحضار مزيد من الطوب

- ارم ولو طوبة واحدة.

شىء ما اعتمل فى أعماقى ولا يزال بها ولا أظنه سيتركنى أبدا إلى الممات. انحنيت إلى الأرض لأمسك بطوبة، غير أنى وجدت يدى الكبيرة تمسك بأكبر عدد من الطوب، ويدى الأخرى تفعل مثلها، وأتقدم إلى الأمام، وأبدأ فى قذف الطوب بأقوى ما يستطيع ذراعى القوى. وفكرت فقط فى أمى فى هذه اللحظة، لم يكن يعنينى أحد غيرها بالرغم من حبى لأفراد عائلتى وحبهم لى. لكنى كنت أريد الحياة فقط لكى لا أنكبها بموتى وهى فى الثالثة والثمانين. أما جميع أحبائى الآخرين ففكرت فى أنهم بالقطع سوف يتحملون غيابى

دقائق وصوبوا نحونا قنبلة مسيلة للدموع ورأيت البشر يندفعون باتجاهى إلى الخلف وصرت أجرى مثلهم آملا فقط فى أن أستطيع الحفاظ على وعيى إلى أن أبلغ بقعة آمنة بعيدة عن أقدام الثوار. وعندما استعدت أنفاسى وقفت هناك عند صخرة الشهداء أناول بلاط الأرصفة لمن يكسره بجانبى بعمود ثقيل من الحديد. وأضع القطع المناسبة الحجم فى البطاطين التى يحملها الآخرون ويضعونها أمامى لكى أملأها، فيجرون بها بدورهم إلى الثوار على الجبهة. وكان بعض الناس يأتون بمفردهم فيخلعون ستراتهم ليضعوها أمامى. وكان بعض الناس يصيحون وراءنا:

- الله أكبر..الله أكبر

ذكرنى هذا بالعبور العظيم، وابتسمت فى داخلى، ثم بدأت أصيح مع الجموع ■

هرمنا... هرمنا

محمود الوردانى

عندما اندلعت ثورة الياسمين فى تونس، عرض التليفزيون عددا كبيرا من مشاهدها ومن بينها رجل، فى أواسط عمره، يشير إلى شعره الذى ابيض قبل الأوان وهو يصيح ملتاعا:

«هرمنا.. هرمنا..»

وعندما اندلعت ثورة ٢٥ يناير فى مصر تذكرت على الفور هذا الرجل الملتاع، ولم يحدث من قبل أن اهتز قلبى على هذا النحو منذ ستين عاما. كان هذا اليوم يوما عاديا جدا، وكنت قد انتويت المشاركة فى الاحتجاج مثلما اعتدت. أقف قليلا داخل قفص لأجأر بالصراخ ساعة أوساعتين تحيط بى دروع من عساكر الأمن المركزى الغلابة والذين دربوهم على النهش. وبالفعل بعد الواحدة بدقائق، كان هناك بضع عشرات قليلة أسفل محكمة النقض بدار القضاء العالى. وكالعادة أيضا كان المفروض أن أدخل القفص شأن العشرات وأتسلى كما قال الرئيس! كان اليوم إجازة رسمية والشوارع شبه خالية، فعبرت شارع ٢٦ يوليو، وبدلا من أن أدخل القفص، واصلت سيرى وانحرفت إلى داخل شارع عبد الخالق ثروت، ووجدت أربعة محتجين فقط على سلالم نقابة الصحفيين سألتهم عن الأحوال، فأجابنى أحدهم متبسما: ربنا يبعت!، فقلت لنفسى: لأتمشى قليلا، عدت إلى دار القضاء العالى مستسلما لفكرة دخول القفص كما اعتدت لكنى عندما وصلت إلى أول المظاهرة المحبوسة داخل القفص، فوجئت أن هناك مظاهرة أخرى نجحت فى اختراق الطوق الأمنى وتدفقت فى شارع رمسيس، فأطلقت ساقى فى اتجاهها

منذ هذه اللحظة تغير وجه بلادنا إلى الأبد وسقط النظام. كانت المعجزة الأسطورية تتشكل أمامى. عشرات وعشرات أوقفوا السير فى شارع رمسيس وراحوا يندفعون فى اتجاه ميدان عبد المنعم رياض. شاب فى عمر الورد مستعد منذ اللحظة الأولى: لا تخريب ولا عنف.. سلمية.. سلمية.. فقط الشعب يريد إسقاط النظام، وهو الشعار الذى استعاروه من إخوتهم التونسة،

والشباب قادرون على حمايتها والتقدم بها على الرغم من الصدامات مع عساكر الأمن المركزى الغلابة.

أنا سعيد الحظ جدا فقد شهدت اقتحام المظاهرة الأولى لميدان التحرير وتحريره، وشاهدت شبابا يبكون - يبكون حرفيا - عندما نجحوا فى اقتحام الميدان، وفى الوقت نفسه كانت هناك مظاهرة أخرى تم مطاردتها من ناحية مجلس الشعب باستخدام القنابل المسيلة للدموع وخراطيم المياه، لكن المدد لم يكن يتوقف،. صعدت -أنا الرجل المسن- فوق أحد الأسوار وتطلعت حولى وتأكدت كم أنا سعيد الحظ، فمن ناحية كوبرى قصر النيل كان هناك مئات يتقدمون، ومن ناحية ميدان عبد المنعم رياض مئات آخرون، وقوات الأمن المركزى بدت حائرة وعاجزة عن السيطرة. كان العدد يزداد كل دقيقة وأرتال الأمن المركزى بعرباتهم المصفحة ومدرعاتهم عاجزون عن التصدى.

لكننى لاحظت فى هذا اليوم وماتلاه من أيام أن هؤلاء الشباب بقدر حرصهم على منع التخريب والتحطيم للمحلات والسيارت الخاصة والممتلكات العامة، وبقدر حرصهم على تنظيم المظاهرة وتأمينها، فإنهم لايتهيبون للحظة واحدة، فعندما يتقدم جنود الأمن المركزى، يتقدمون ويشتبكون معهم دون أدنى تردد. شاهدت بعينى شابا يندفع بجسمه مهاجما مدرعة تقتحم الميدان ويطير فى الهواء ويعتليها ليغلق محبس المياه الذى كانت المدرعة تغرق به المتظاهرين.

فى هذه الليلة لم يكن ميدان التحرير وحده الذى تم تحريره.. كانت مصر كلها ميدان تحرير. شبرا وبولاق الدكرور وبولاق أبو العلا وعشرات الأحياء فى القاهرة، وفى الإسكندرية والسويس والمحلة والإسماعيلية والمنيا وقنا وسائر المدن المصرية.

هل هى ثورة إذن ؟

نعم ثورة يامحمود ياوردانى. هكذا كنت أردد لنفسى غير مصدق. لا أريد أن أقوم بالتنظير والتقعير، لكننى ظللت طوال عمرى أحلم بأن أشاهد ماشاهدته الآن. المصريون يقومون بهدم وإسقاط النظام الذى عذبهم وأهانهم وسجن أبناءهم وقام بتجويعهم وحوّل بلادنا إلى سجن كبير ترتع وتلعب فيه أجهزة الأمن، وعلى الأخص جهاز أمن الدولة. لم تشهد بلادنا تدخلا مفضوحا يصل إلى حق الفيتو من جانب أمن الدولة مثلما شهدنا خلال الثلاثين عاما الماضية. هذا جهاز ينبغى تفكيكه إلى الأبد، واستمراره عار.. أكرر استمراره عار.

نحن أمام ثورة ذات خيال مختلف. ثورة يتم الدعوة لها وتنفيذها علنا وعلى رؤوس الأشهاد، ويستطيع أى واحد أن يدخل على صفحة خالد سعيد ويتبادل الجميع النقاش علنا. ثورة للشباب (السيس) أو الذى توهمنا أنه كذلك، بينما هو يبنى واقعه ومستقبله الافتراضى. ثورة لكل دوره وإسهامه فيها بدءا من نظافة الشوارع إلى اللجان الشعبية للدفاع عن الناس والبيوت. ثورة منظمة تتحمل مسئوليتها وتحافظ على استمرارها أجيال لاتعرف إلا الطريق المستقيم الواضح.

ثم كانت الفضيحة التى ينبغى التوقف أمامها وعدم السماح بمرورها مطلقا، وهى فضيحة انسحاب كل قوات الأمن فى لحظة واحدة واختفاءها عمدا مساء يوم الجمعة ولاحاجة لذكاء خاص ليدرك أى طفل أن هناك خطة أمنية منظمة لإخفاء وإخلاء البلاد من أى عسكرى واحد لحفظ الأمن، وفى الوقت ذاته كانت جهات أخرى من الجهاز الأمنى نفسه تقوم بأعمال خطف واعتقال ناشطين معروفين لها.

أعتبر نفسى سعيد الحظ أيضا لأننى كنت شاهدا على لحظة اقتحام البلطجية لميدان التحرير يوم الأربعاء الدامى. وبعينى شاهدت شابا لم يفر - مثلى - من أمام الخيل وهاجم بلطجيا من فوق حصانه وأسقطه وغنم الحصان. وشاهدت أيضا كيف يقف هؤلاء الشباب (السيس) بثبات أمام البلطجية المسلحين بالسنج والمطاوى وزجاجات المولوتوف، ورأيت كيف قاموا بهذه الأعمال الأسطورية: أى تأمين واستمرار مئات الآلاف فى ميدان التحرير ينتمون لكل الاتجاهات والتيارات السياسية ولكل الأعمار ومن كل محافظات مصر، واستطاعوا أن يدعوا صيغة موحدة لهم، ولم يسمع أحد عن أى حادثة تحرش واحدة، أو مشكلة بين مسلم وقبطى. أما التليفزيون الحكومى فقد اتهم المتظاهرين بتمويلهم من أمريكا وإيران وإسرائيل وفلسطين والهند والسند وبلاد تركب الأفيال. تحول التليفزيون الحكومى إلى ماكينة لضخ الأكاذيب وإن تميزت بالرداءة الشديدة، واستمرت محاولات الوقيعة الرخيصة بين المتظاهرين والشعب، وكان الشغل الشاغل لقناتى التليفزيون الرسميتين هو أن توغر صدر الشعب ضد المتظاهرين.

وأخيرا المجد لميدان التحرير والشكر والعرفان للقوات المسلحة التى شرفت بالخدمة فى صفوفها ثلاث سنوات قبل وبعد حرب أكتوبر والخلود للشهداء، أما الجراح فهى أوسمة على أجساد الشبان والشابات ■

كتبت هذه السطور صباح الاثنين ٧ فبراير

رأيتهم كلهم

مكاوى سعيد

كانت وفاء بجوارى ونحن نخترق شارع قصر العينى وسط الجموع متجهين إلى مجلس الشعب وبأيدينا المطالب وحناجرنا مبحوحة من الهتافات.. وكانت المسيرة منذ بدايتها فى الحرم الجامعى محاطة بطلاب يحمونها وهم ممسكون بعضهم ببعض بالحبال الغليظة حتى لا يندس بيننا أفراد من الأمن.. وكانت التظاهرة تتضخم وتتضخم كلما اقتربنا من هدفنا.. الطلاب من جهة والمواطنون العاديون بجوارنا.. لكن بمجرد اقترابنا من شارع مجلس الشعب .. انفلتت الحبال من بين أيدى الحماة وانضمت لنا جموع الشعب الثائرة ثم بدأ الأمن يهاجمنا بشدة وقذائف القنابل المسيلة للدموع تنهال علينا.. وأصبح بينى وبين وفاء مسافة بدأت تتسع بشدة.. وخفت عليها بشدة وأنا أرى هراوة رجل الأمن ترتفع تجاهها والغباء والقسوة يتجسد على ملامحه.. وفى لحظة قصيرة كنا كلنا نُضرب بشدة.. ودفعونا تجاه شوارع جانبية.. ولم ألتق بوفاء ثانية إلا فى ميدان السيدة زينب أمام قسم شرطة السيدة والمتظاهرين يدفعون بوتد خشبى فى محاولة لاقتحامه.. كانت هناك كدمة حمراء فى جبينها وكانت عيناها تدمعان بشدة.. عندما ظهر علىّ جلياً خوفى عليها.. قالت بابتسامة فاترة أنها لا تبكى لكن الدمعات من تأثير الدخان.. ثم انسلت بين الجموع ولم أعد أراها..

بعد أسابيع قليلة عندما عدنا إلى الجامعة.. ونجحت الثورة المضادة مستترة وراء مقولات الرئيس محمد أنور السادات بأنها كانت انتفاضة حرامية وليست انتفاضة شعبية.. وتتابعت أنباء القبض على زملائنا الجامعيين واتهامهم بالعمالة للخارج، وحرم أكثر من طالب دكتوراه من التعيين بالجامعة بناء على تقارير من أمن الدولة.. وخيّمت التعاسة على عام ١٩٧٧ الذى كان قد بدأ بداية رائعة وتوالت أعوام الانكسار بالصلح مع إسرائيل والاتفاقيات المضادة لإرادة الشعب.. كانت وفاء التى تعشق اللغة والقومية العربية عشقا لا مثيل له، كانت تنصحنى دائماً بعدم ترك مصر والسفر إلى أى بلد لتحسين

الدخل لأن مصر أولى بنا ولابد أن نعيش ونموت على ترابها.. هى نفسها التى بمجرد حصولها على شهادة التخرج سعت للهجرة إلى أمريكا ونجحت فى مسعاها.. وأذكر أننا تبادلنا عدة رسائل بعد هجرتها.. رسائل حيادية باهتة.. لم تجرؤ أن تقول فيها ما كان يقوله أغلب المهاجرين بأنهم وجدوا أمريكا جنة الله على الأرض.. ولم نتطرق إلى المسائل السياسية الشائكة.. وتوقفت رسائلها قبيل قسمها بيمين المواطنة..

فى كل التظاهرات التالية كان العدد يتناقص بشكل مزر وسخيف.. بينما يتزايد عدد القوات المدججة بالأسلحة والدروع لدرجة أنى أحيانا سرت فى تظاهرات لا يتجاوز عددها المئة ورأيت تظاهرات يقل عددها عن الخمسين.. وكنا نتندر أحيانا بأن عدد الواقفين أمام محلات الكشرى الشهيرة أكثر بكثير من السائرين فى مظاهرات تندد بما يحدث فى الوطن.. حتى حدثت القفزة التكنولوجية الأخيرة وبدأت الأعداد فى التزايد بقدر ضئيل.. وكنت كثيراً ما أتصوّر أن التظاهرات تسير وسط شعب يراقبها من على الجانبين دونما حراك.. كأنهم تماثيل شمعية من متحف مدام تسو وكنت أخشى أن تتحول هذه التظاهرات أيضاً إلى «شو» استعراضى تافه تسمح به الدولة للدلالة على ديمقراطيتها ويشارك فيه بعض الأفراد للتدليل على نضالهم.

ثم حدث ما حدث يوم ٢٥ يناير.. الأعداد القليلة التى بدأت تتكوّن عند الثانية عشر ظهراً خلال ساعات قليلة تزايدت بشكل كبير.. والهتافات المدوية أشعلت الحماسة فى الجميع وأخطاء الأمن المتلاحقة اكسبنا تعاطفا ودفعت بالكثير إلى الاشتراك والانضمام للحالة.. وقنابل الدخان والرصاص المطاطى والقنابل المسيلة للدموع والشعار السحرى يا أهالينا انضموا لينا دفع بالأهالى لمساندتنا. فحماة ذات طبقة الشمع الكثيفة وتحرك الجميع وكلما مر يوم اكتسبنا أرضا جديدة وضممنا أفراداً جديدة إلى مواقعنا وبت لا أخشى على الثورة ولا أخاف أن تجهض كما أجهضت انتفاضة يناير ١٩٧٧

ولن أستفيض وأستطرد فى سرد وقائع الثورة المباركة خاصة وكثير من الكتاب الزملاء سردوها فى ثنايا هذا العدد من مجلة الكتابة الأخرى.. أذكر فقط من افتقدتهم أثناء الأحداث:

زميلتى وفاء المهاجرة إلى أمريكا والتى تذكرتها كثيراً أثناء الأحداث وكنت على يقين أنها موجودة بيننا وأنها بمجرد سماعها بالثورة لحقت بها.. ربما مرت بى وسط الملايين.. ربما ناولتنى شربة ماء.. ربما قدمت لى البقسماط.. ربما بكت فى غربتها وهى تحتضن أطفالها وتشاهد التليفزيون وتسترجع ما كان..

صديقنا الفنان الراحل سعيد عبيد.. ما زالت صورته فى وجدانى وهو يتلقى هراوة الأمن على ذراعه العام الفائت فتكسره ورغم مرضه الشديد يصر فى التظاهرة التالية أن يشارك.. ورغم موته أعتقد أنه كان بجوارنا فى محنتنا وانتصارنا هذه المرة..

الكاتب الجميل إبراهيم منصور الذى أصر أن يعلق على صدره لافتة تتهم السادات

بالعمالة عند توقيع معاهدة كامب ديفيد.. ولم يغادر مقهى ريش حتى اعتقله أمن الدولة.. ورغم موته كنت أراه بيننا وكذلك أمل دنقل وعفيفى مطر والمستشار مصطفى عبد العزيز وفاروق عبد القادر وأروى صالح وسناء المصرى وشهداء مسرح بنى سويف نزار سمك وحازم شحاته وصالح سعد والهامى المرغنى ومحسن مصيلحى وباقى زملائهم الضحايا الشرفاء.

اجمل سطور هذه الثورة لم تكتب.. لأنها لم تنته بعد.. فالطريق طويل حتى نحقق ما بدأناه.. وقائمة الطلبات مازالت كثيرة ولم يتحقق أغلبها.. لكن لن نتوقف فقد بدأنا المسيرة ولن نتراجع بعد اليوم وسنحصل على حقوقنا كاملة ولن نكتفى بما حققناه.. ففى الاكتفاء خطورة كبيرة.. كما قال ماركيز: إن الثوار عندما يتوقفون فى منتصف الطريق فإنهم يحفرون قبورهم بأيديهم ■

الثورة والأمثولة

منتصر عبد الموجود

1 — بالنظر فى تاريخ مصر؛ يباغتك ذلك السمق من الأماثيل (جمع أمثولة) فعندما زارها خليل الله إبراهيم عليه السلام، طمع ملكها فى زوجه سارة، بيد أنه امتلك من الحصافة ما جعله يدرك البون الشاسع بين ما للنبى من عظمة و بين ما يضرب روحه هو من دناءة وخسة؛ فطلب عفوه وأهداه فتاة من الفرما (منطقة القناة حاليا) ليتم إبراهيم من نسلها أبوته لكل من جاء بعده من الأنبياء...

الحصافة التوراتية لملك إبراهيم يقابلها عماء بصيرة لرئيس سابق داوم على نهب ما لايحق له طوال ثلاثين عاما تاركا أبناء شعبه يفنون أعمارهم فى السعى وراء لقمة العيش معللا لهم تلك العبودية بكثرة ديون مصر ثم بفشلهم فى تنظيم النسل ثم بالنبوءة الكاذبة لسراب الإصلاح الاقتصادى... ترى لو امتلك الرئيس السابق جزءا من حصافة ملك إبراهيم واستمع مثله لصوت الحق ألم يكن فى ذلك إكرام لشخصه وصون لملايين الحيوات المهدرة؟! اليوم وبعدما تأكدت الحقائق تتجلى عظمة الشخصية المصرية؛ فبدلا من أن يقضى ملايين الشبوخ نحبهم كمدا وحسرة على حياة قارت على نهايتها، تناقل الإعلام صورهم فرحين مستبشرين وقد أرضتهم عزة النفس بعزاء التخلص من الطاغية مصاص الدماء

2 — كان النبى موسى عليه السلام مصريا منتميا لأقلية، قدر له الله عز و جل أن ينشأ فى قصر الفرعون متمتعا بكامل الحماية والرعاية، حتى إذا اشتد عوده .. نضجت روحه تحت شمس النبوة؛ فخرجت هادرة تجادل الفرعون وتسوقه إلى حتفه

فى قصر رئيس الحكومة السابقة د. أحمد نظيف نشأ طفل، لم يكن يعرفه المصريون، اعتنى به صاحب القصر وراح يمدد وجوده ويغطى أرجاء البلاد بأذرعه العنكبوتية، طمعا فى أن يتشرف به يوما كما يتشرف الأب بابنه (على المستوى الشخصى) ويجعله خادما لأقلية على أرض مصر استأثرت بكل الامتيازات (عمليا) بيد أن الطفل اشتد عوده وسمت روحه حتى قاد فرعون وهامان إلى

حتفهما! ترى هل حلت بعض روح النبى موسى فى شبكة الانترنت متمثلة فى فعالية فيسبوك وتويتر؟

3- بناء على نبوءة، أمر الامبراطور بقتل كل المواليد فى أورشليم؛ فهربت العائلة المقدسة إلى مصر تاركة خلفها مذابح الصغار دون أن تتخلى عن عنصر التخفى؛ لأنها أينما ذهبت فهى تتحرك فى أملاك الامبراطور..

وبناء على ما لا يندرج ضمن النبوءة قدر إدراجه ضمن الخبرة الشخصية لرئيس لا يتمتع بحصافة ملك إبراهيم، أقيمت طوال ثلاثين عاما مذبحة - ليست لأطفال اورشليم- للقوى السيادية فى الجيش المصرى، لم تكن أدواتها السيوف والأسلحة البيضاء بل التقاعد والمعاش المبكر والإقصاء الإدارى.. لأن الخبرة الشخصية (وهى أكثر حداثة من النبوءة) جعلت الرئيس يتوجس من خروج قيادة عسكرية تفعل به ما فُعل بغيره ... حتى هذا المقطع تتوقف أمثولة المسيح الطفل؛ لتعاود أمثولة النبى موسى عليه السلام الظهور (لم لا و هو المصرى بالمولد و النشأة و الهوى؟!)

من مذبحة الجيش تنجو رتبة صغيرة شاء لها القدر أن تتواجد بالأقصر وتمارس دورا يحد من تداعيات حادث الدير البحرى الذى وقع فى أواخر القرن الماضى؛ فيقربه الرئيس (كما قرب الفرعون الطفل موسى) لم يدر أنه يقطع به سلم الترقيات والرتب العسكرية و يجعله رئيسا لأركان الجيش فقط ليقصى الجيش عن الحماية الدموية لعرش الفرعون.

4— اليوم تتهاوى الأصنام الصغيرة فى ساحات القضاء بينما الصنم الأكبر فى شرم الشيخ يعانى ألم ضربة فأس التخلى عن جميع سلطاته.. بالعودة إلى أمثولة النبى إبراهيم عليه السلام بعد أن حطم الأصنام الصغيرة ترك الصنم الأكبر قائما والفأس مغروسة فى كتفه؛ ليستفز العصاة على التفكير ومراجعة النفس. بينما فأس التخلى عن السلطة المغروسة فى كتف الصنم الأكبر تنبيه يستفز الصالحين للخوف على ثورتهم من عودة الصنم مرة أخرى ◘

الإسكندرية

التحرير

نورهان البولاقى

ماذا أكتب عن خمسة عشر يوما متواصلة فى الميدان، ماذا أكتب وأنا أشعر أن كل لحظة تحتاج إلى صفحات وصفحات لتستوعب المشاعر التى تملؤنى وتعصف بى. الأمر محير جدا، لكننى سأحاول إزاء هذه الخبرة الكبيرة أن أكتب فقط عن لحظة معينة من يوم واحد فى ميدان التحرير. تلك اللحظة من مساء يوم الأربعاء الذى هجمت علينا فيه الخيول والجمال. وكان قد وردنى معلومات من مصادر موثوقة من أقارب وأصدقاء على صلة ببعض الشخصيات القيادية فى الجيش والشرطة وحذرونى من البقاء فى الميدان حيث سيتم ضربنا بشدة، وتفريقنا بالقوة، وأن الناس خارج الميدان يروجون عنا الشائعات المغرضة وما لايحتمل من أقاويل، برعاية من النظام طبعا، لكننى أنا ووالدتى وأصدقائى قررنا عدم المغادرة أبدا، وذهبت تجاه المتحف المصرى فى محاولة لعمل وحدة إغاثة تابعة للعيادة الميدانية .

كانت المسافة بين الميدان والمتحف تعج بالمتظاهرين العزل طالبى الحرية والكرامة، فى مواجهة البلطجية المسلحين بالأسلحة البيضاء والكرابيج والعصى والشوم والجنازير. ولم يكن أمامنا سوى بلاطات الأرصفة، ننتزعها من الأرض ونضرب بها على السور المعدنى الممتد حول الميدان. الشباب والفتيات والرجال يقرعون السور الحديدى بالحجارة مصدرين أصواتا تحذر البلطجية من الهجوم علينا كان الجميع على استعداد تام للموت دفاعا عن الميدان، البعض أشعل قطعا من الخشب ولوح بها، والبعض صنع المقاليع وتزود بالحصى لقذف البلطجية المتربصين بنا عن بعد

دخلنا «بير سلم» فى إحدى العمارات لاقامة وحدة الإغاثة، وتدفق علينا المصابون فى حالة من الفوضى العارمة، كانت الإمكانات تتراوح فى حدود للإسعافات الأولية وعلاج الجروح الخفيفة، سوى أن أغلب الحالات كانت إصابات بالغة تحتاج إلى تدخل جراحى، وكانت الكسور مضاعفة والحروق شديدة، وخاف صاحب العمارة من وصول البلطجية وراح يغلق الباب، وشممنا

رائحة بنزين شديدة، وقال أحد الشباب، لا تخافوا، معى أربع زجاجات مولوتوف، لن أسمح لأحد من الاقتراب منكم، دا لوعرفوا يوصلوا لحد هنا،

كانت المعركة تشد، وتتزايد أصوات الطرق على الأسوار الحديدية، وتزداد أعداد الوافدين من المحافظات، للميدان، نظرت فى أعين الناس، وكنت أجد شيئا واحدا فى عيونهم جميعا، لا تردد فيه أبدا، لن نتحرك من هنا، لن نترك الميدان، إما النصر أو الشهادة، شممنا رائحة الجنة، شيوخ الأزهر قالوا لنا من يمت هنا دفاعا عن الميدان فهو شهيد

راح البعض يتصل بأصدقائه ويوصيهم وكأنه يودعهم، رددنا الشهادتين ونمنا فى حديقة الميدان، نمنا ونحن لانعرف هل سنرى النهار مرة أخرى، أم تكون آخر لحظات حياتنا فى الميدان دفاعا عن الكرامة.

وشاءت لنا الأقدار أن نحيا، نعم نحيا إلى اليوم الذى رقصنا فيه على وقع كلمات التنحى، ونترحم على أرواح الشهداء الذين شعرنا بها وهى ترقص معنا فى الميدان ■

كنت هناك

فى أى فصل تنبت الحرية

(يوميات ثورة تونس)

وحيد الطويلة

نزلت إلى تونس، كنت وحدى إلا من صوت طفلتى الصغيرة يرن فى أذنى، ووجه زوجتى التى أخفت حزنها لابتعادى عنها، عن عينها.

قالت حاولت أن أدخل على الماسنجر أو الفيس بوك حتى لا نفتقدك كثيراً.

ركبت تاكسياً لأبدد وحدتى لأعرف المدينة، لأثرثر مع أحد، أى أحد.. فى الليل عندما أتعب سأعود الى المقهى: الحضن الدافىء للغرباء.

قال السائق ما هى أخبار المظاهرات فى مصر؟ سمعت أنكم هناك تستطيعون أن تسبوا الرئيس، ماهى حركة كفاية؟

قال محمد ولد سيدى لمرابط صديقى الموريتانى الذى تآلفت معه سريعاً:

لا تحكى مع سائقين التاكسى بعد ذلك، وبصوت خفيض أكمل، كل كلمة تصل للبوليس فى نفس اليوم إن لم يكن فى نفس الساعة.

أتآلف بسرعة مع الموريتانيين والسودانيين، و أفكر كثيراً فى أن أحصل على جنسيتهما منذ فترة بعيدة، طيبون بالجملة ومثقفون وفى غاية الكرم

ذات يوم طفت بالسيارة مع درة صاحبة المقهى الذى أكتب به، كانت تقف عند أعوان البوليس - أفراد قوى الأمن على رأى إخواننا فى الهلال الخصيب- تدعوهم من الشارع أن يأتوا إلى المقهى ليشربوا شيشة وشايا، تقول وهى تهش وتبتسم،

عندما لاحظت تساؤلا على وجهى:

حتى لا يخربوا المقهى، يلعن دين والديهم..

لكنها منذ عامين تقريباً تعلق صورة زين العابدين بن على.. خيارنا الوحيد ٢٠١٤

أضحك بسخرية لأخفف عنها وأقول خيارنا الوحيد وبدون سنوات: عندنا يقولون: إديها كمان حرية.

وجدت الفيس بوك مغلقاً - لم تصدقنى زوجتى منى سلمان المذيعة بقناة الجزيرة واعتقدت أننى أتهرب منها، وأن حسناوات تونس بجانبى طوال اليوم، أنقذتنى من بين أنيابها صحيفة الحياة اللندنية، نشرت خبراً

فى نفس التوقيت عن منع الموقع فى تونس، على إثر ذلك بعد أن ظهرت نصف براءتى، الزوجات لا يمنحنك الثقة ولو كن واثقات فيك - أعلنت الجزيرة الحرب سريعا وقدمت السيدة منى فى نفس الأسبوع حلقة من برنامجها منبر الجزيرة لمدة ساعة عن غلق الموقع، وأيد الموضوع اتصالات من توانسة من بلاد عدة بأسماء مستعارة على الأرجح، وطلعت أصوات أخرى تقول إن الموقع متاح، بينما هو على شاشتى فى عداد الموتى والمسحوقين

فى نفس الليلة فتح الموقع وقامت كتيبة النظام التى تقف خلف من يحكم تونس بالعواء طوال الليل وبأن الموقع متاح منذ اعتلاء بن على للسلطة، لكن الخونة- من أمثالى بالطبع- هم الذين يريدون تشويه صورة تونس، الحمد لله، لم يستعيروا التعبيرات السورية من عينة إضعاف الشعور القومى وتسريب الوهن إلى ضمير الأمة - لديهم تعبيراتهم بالطبع - ولديهم الخبراء على كل شكل وصنف ولديهم ختم الرب، حكومه كاملة ترد على الموضوع وتلعن قناة الجزيرة والإعلام المدسوس والمأجوروألفاظ أخرى من طراز التحريض وحفنة الكارهين والشراذم الإعلامية، المهم أننى ظهرت بريئا أمام حكومتى السيدة منى وشاركت آخرين فى إشعال النار من بعيد.

لكن حريقا أكبر منهم كان فى الطريق.

أدر إصبعك بعيدا عن أعيننا

أحرق البوعزيزى نفسه بعد أن صودرت عربة الخضار، لكن الحقيقة المرة أنه أحرق نفسه بعد أن تلقى صفعة من اليد الغليظة.

قال بن على حين اخبروه

فليمت، فليمت

مات غيره كثيرون من قبل

هناك من تحدث عن البطالة وهناك من يتحدث عمن سجن وحوصر فى قوته وقوت أهله وفى حركته فى الشارع والسن وإلى الحمام منذ سنين دفاعا عن حرية التعبير لكن ما هو أقرب إلى الصواب أن الناس خرجت فى الأساس ضد اليد الغليظة للدولة البوليسية، ضد اليد العاشمة التى طوقت أعناقهم وسحقت كرامة الشعب التونسى

خرج بن على على الناس فى التلفزيون كما يسميها إخواننا التوانسة، غاضبا عاصفا، أعطى وعوداً من مقعد القوة، دق الطاولة بيده مرتين بعنف لوح باصبعه، توعد بسيف الحجاج: وصرخ: بكل حزم بكل حزم

كان الرد الثانى بعد البوعزيزى جاهزاً من مطرب الراب حمادى بن عمر عاصفا أيضا مضاد له فى العصف والاتجاه. أغنية بعنوان الجنرال، قال فى أهم جملة فيها

أدر إصبعك بعيداً عن أعيننا

اعتقل لثلاثة أيام، قالوا إنه قد أفرج عنه لم يظهر له أثر وأهله قالوا: كله تمام، ما صار شىء.

واليد الحقيرة التى صفعت أطلقت النار، أطلقت الكرطوش.

تناثر دم الشهداء على الأرض واحتدمت الاحتجاجات أثناء عملية تشيع الجنازات التى أرادتها السلطة خفية، وأرادها الأهالى وقوداً لغضبتهم.

السلطة تقتل والناس تتظاهر، بدا أن هذه هى المعادلة الجديدة.

كان الدم هو البطل، ولطفى حجى صديقى مراسل الجزيرة يضرب فى المطار كلما دخل أو خرج؟

وخرج بن على ثانية بعد أن دس العصابات داخل المدينة لتنهب وتحرق.

قال إنهم إرهابيون وعصابات ملثمة

وجاءه الرد سريعا من المسرحى المعروف فاضل الجعايبى:

لسنا ملثمين ولسنا عصابات.

كان الجعايبى قد تلقى فى نفس اليوم هو ورفاقه بركات اليد الغليظة التى لاحقتهم وركلتهم فى الشوارع.

ورفعت جليلة بكار يدها المزدانة بدم الشهداء والمصابين تلوح: لا عودة بعد اليوم

أعلنت حالة الطوارئ وبدأ حظر التجول

وكان الخروج الثالث :، خرج بعد ميعاد بدء حظر التجوال بساعة كي يضمن أن الجميع فى البيوت مسمرين أما م الشاشة: بدا متوسلاً ومتسولاً وقال:

أنا فهمتكم، أى نعم فهمتكم، فهمت الكل: العاطل والمحتاج والسياسى...وانهالت وعوده بينما كان شتاء الغضب يغطى أطراف العاصمة.

وخرج الناس إلى الشوارع، كسروا حظر التجول، وانطلقت الزمامير واندس أعوانه، جاهزون وربما التقطوا الإشارة سريعاً، وتناثرت بضع هتافات خافتة بائسة.

قلت لسيدة تقف الى جانبى:

من هؤلاء ولماذا يهتفون:

- أأنت مصرى؟

.. مصرى وتونسى.

- أنا أريد تخفيض سعر السكر والحليب والدقيق والمكرونة والبيض

. فقط ؟

- وقطع يد رجال البوليس والإدارة

وأردفت: الفساد.. الفساد

.. والبوليس ؟

صمتت

يجب قطع يد البوليس أولاً حتى تستطيعى أن تقطعى اليد القذرة للدولة

- الله يهلكهم

(للإحاطة، كان بن على قد وعد وأرجع الجمهور التونسى الذى قام بتهشيم ملعب كرة القدم فى مبارة كرة القدم بين الأهلى المصرى والترجى التونسى دون محاكمة وأوفى بوعده)

وفتحت المقاهى وشرب الناس الشيشة وناموا على أمل بالهدوء، فى الصباح كانت الدماء تجرى بسرعة على أقدام أصحابها فى تجاه قصر قرطاج، واشتعلت العاصمة، التى كان كل هم السلطة الغاشمة ألا تصل الاحتجاجات إليها، وظهر التحدى الحقيقى حين اجتمع الناس أمام وزارة الداخلية الوزارة التى كانوا يتحاشون المرور من أمامها وانهالت هراوات البوليس الكهربائية، وصعد التيار فى كل رأس فى تحد علنى.

ظهر الطاغية بمظهر المسكين، وقال أن هناك من غالطه وأعطى له المعلومات بالخطأ (وأنهم سيحاسبون.. سيحاسبون) وهناك من قال أن الرئيس بشر واعترف بالخطأ وهذا هو بداية الإصلاح الحقيقى، حيلة كادت تنطلى على الجميع، وفوجئت شخصياً عندما ظهر أحمد نجيب الشابى وهو يقف فى صفوف المعارضين الأوائل وهو صاحب التعبير الشهير

عن انتخابات بن على الأخيرة حين قال فى قناة الجزيرة أنها مسخرة مسخرة مسخرة، وهو الذى ذاق الأمرين من عسف السلطة والبطش به، فوجئنا به يقول أنه يقبل تنازلات بن على إذا كانت هناك آلية تضمن ذلك، سقط بن على من عيون الذين قاموا بالثورة لم يبلعوا الطعم ولا استهوتهم دعايته وتنازلاته ولا أرهبهم زبانيته وبلطجيته الذين ملأوا الشوارع، وانهمروا منذ ساعات الصباح الأولى إلى الشوارع.

فى الشارع شىء وفى القصر شىء آخر

فى الشارع كانوا ينادون: خبز وماء وبن على لا، وفى القصر كانت ليلى بن على تصدر أمرها للخدم بتجهيز الغداء، ثم انسربت خلف زوجها وطفليها إلى أقرب هيليكوبتر، تاركة المائدة دون ساكنيها، بينما السكان الحقيقيون كانوا فى الشارع بأقل قدر من الطعام و أكبر طبق من الحرية.

لم يصل الجمعة إلا نفر قليل وإن ظل بعض الدعاة يدعون لنصرة بن على كما هو معتاد كل أسبوع.

لم تنفعه الدعوات الكاذبة.

ووقف رجل فى نهاية الأربعينيات من عمره ينادى: أيها الشباب هلموا، إفعلوا ما لم نقدر عليه، افعلوه، لقد هرمنا هرمنا، وراح يبكى.

وخرج بن على إلى الأبد

صرخ سمير بن على، واحد من الكتاب المعارضين الذين ذاقوا الأمرين، وهو يبكى: سقط هبل أخيراً سقط هبل.(سمير لقبه بن على لسوء حظه، صحفى بالإذاعة التونسية وهو من محافظة القصرين التى دفعت أكبر عدد من الشهداء يقال إنهم ٦٣ شهيدا. بطشت به اليد الغليظة حين رفض الانضمام إلى التجمع الحزب الحاكم، والتوقيع على ترشيح بن على الآخر رئيساً للفترة القادمة وأخرج من الإذاعة)

كان لافتا للنظر أن أحد المحامين وقف فى قلب العاصمة متحدياً حالة الطوارئ ليصرخ تونس حرة، بن على خرج، تونس حرة، بن الهاربين هرب

لم ينتظروا الصباح، الصباح الحقيقى بدأ، شرعوا ينزعون صورته من كل مكان فى شارع الحبيب بورقيبة، الشارع الرئيسى فى قلب العاصمة - وكانت المفاجأة كلما نزعوا صورة وجدوا أخرى تحتها، وحين نزعوا الثانية كانت هناك ثالثة، وراحت سكرة النشوة سريعا وهبطت فكرة الخوف من المجهول

ذهب الديكتاتور وبقيت الديكتاتورية

كان الغنوشى رئيس مجلس الوزراء قد ظهر فى بيان خافت ينعى رحيل بن على بلغة باردة مرتعشة كأنه غير مصدق أو غير موافق (فى أرجح الأقوال أنه فوجىء مثلا بأن بن على هرب فى الصباح) وبجانبه رئيس البرلمان المبزع الذى تولى الرئاسة المؤقتة بعد يومين، والثالث (يا للهول كما يقول يوسف وهبى فى إحدى مسرحياته) هو عبد الله القلال رئيس مجلس المستشارين بسلامته والذى كان وزير داخلية بن على فى وقت قريب.

قلت: يا خبر أسود

قال أحدهم: لماذا؟!

.. القلال وزبانيته مازالوا فى السلطة ولن يسلموها بسهولة، سيقتلون الثورة.

قال واحد يقف خلفنا:

ولد القحبة، قتال الأرواح.. قتال الأرواح.

فى الليلة الأولى لم ننم، قضينا نصفها نتحول بين القنوات المختلفة ونصفها فى الشارع، كان العسس المحلى قد استعاد صورته التى قرأناها فى الكتب والثورات، وقفنا فى الشارع مدرس وصحافى ونجار وعطار وصاحب حانوت وحارس بيت، الذى يحمل هراوة والذى يحمل عصا بمسامير، وثالث ورابع وعاشر يحملون قطعاً حديدية متنوعة لندافع عن حينا ليلتها- حى المروج - حى بعيد عن وسط المدينة بنحو عشر كيلو مترات فى الاتجاه الجنوبى إلى مدينتى الحمامات و سوسه.

لم نعد نحتاج لوسط المدينة ليلتها، أنهينا المظاهرة الكبرى وانتصر الشعب وانتشينا.

قال المدرس الذى يعشق العربية، علمنا الناس كى تقف معنا، كنا ننتظر المصريين ولكننى لا ألومهم، كان على الشعوب العربية كلها أن تقف ضد النظام المصرى، لو تغيرت مصر لتغيرنا كلنا من زمان.

شاهدنا الناس الغلابة المحرومين ينهشون مجمع (المونوبرى للمواد الغذائية) المملوك لزوج إحدى بنات الرئيس، لم يعبأوا بحظر التجول ولا بطلقات الرصاص ولا انتشار الجيش ولا بالحديث عن عصابات، أخذوا ما حرموا منه، ما تيقنوا أنه حقهم المسلوب وعادوا إلى بيوتهم.

كنا نمر على حى النور بسيارتنا مسرعين، سكانه يلقون الطوب وقطع الحديد على السيارات، حى فقير يشعر سكانه أنهم منهوبون من الحكومة والنظام و لم يستطع أحد من سدنة الأخير أن يقترب منه أو يدخله لسنوات..

واستمر حظر التجول.

نمنا فى المقهى، لا يمكن أن ينام كل منا بمفرده فى بيته، طبخنا ما استطعنا، وحين شرعنا فى الأكل اكتشفنا أن الخبز غير موجود

قال سمير بن على ضاحكاً

أخذ الخبز معه ومضى.

اقترحت على صاحب المقهى أن يأتى بالخبز من سيارة الجيش المرابطة على مقربة.

لماذا؟

أكيد هم يملكون خبزاً باقيا من جرايتهم وقد كان.

أكلنا وضحكنا ولو كان عندنا شراب غير الشاى والماء لشربنا.

نمنا، وفى حوالى الرابعة قبيل الفجر دق الباب بعنف ودخلوا علينا، اعتقدنا أنه رجع وأنهم سيعتقلوننا صحفى مصرى وصحافيون معارضون وصهللة حتى قرب ساعة.

سمعنا صوتاً بدا أنه من مكان قريب، اتضح أن آلة التنبيه ضد السرقة والموجودة فى البنك الملاصق لنا تماماً، راحت تصدر صفيراً عالياً متواصلاً، وقد شكوا أننا نقبنا الحائط الذى يفصل بيننا وبين البنك لنسرق النقود.

قال أحدنا بتهكم واضح: الفلوس راحت مع المخلوع.

. إسلام نعم. إسلاميون لا....

فى الصباح بدلنا المقهى حتى لا نشعر بالملل.

قال مبارك صاحب مقهى العتيق وهو

الاسم الذى اختاره للمقهى الشاعر الكبير آدم فتحى : قناة الجزيرة تريد أن تدخل الإسلاميين علينا، فى إشارة واضحة لما بثته القناة من تصريحات متعددة لراشد الغنوشى رئيس حركة النهضة الإسلامية والتى كانت محظورة حتى ليلة كتابة هذا المقال.

مبارك مثقف يعرف كل الفنانين والمثقفين الذين يأتون صحبة آدم إلى المقهى ويحكى حكاياتهم، ما إن يبدأ آدم فى حكاية حتى يكملها مبارك

قال جارى: نريد دولة علمانية .إسلام نعم إسلاميون لا

نريد دولة لانكية.

علمانية تقصد ؟

Oui peut etre ، نعم، أنت تعـــرف أننا نستخدم المصطلحات الفرنسية.

أجابه آخر: من حقهم أن يكونوا حزباً، وأن يدخلوا الانتخابات وأن يقول لهم الناس: لا، نريدهم مؤمنين أو معترفين بقيم الجمهورية مثل الأتراك.

انعطف الحديث نحو ساركوزى وموقف فرنسا المخزى، الذى وقف مع بن على ولم يصدر تصريحا واحدا يملأ العين أو يشفى الصدور أو يجعل الديكتاتور يتراجع عن سفك دم شعبه، ظل الموقف مهينا، وكللته وزيرة الخارجية الفرنسية بتصريح بارد عن أهمية تونس وأهمية الاستقرار،

فى مصر ظل أنيس منصور بذكائه الحاد يردد جملة يتيمة منذ ثلاثين عاما: استقرار الاستمرار واستمرار الاستقرار..

قال الرجل: ساركوزى ميبون (شاذ فى أعف الترجمات).

قال آخر: لقد ظل يشم فى مؤخرة الفرد حتى آخر لحظة.

لكن الحقيقة التى لامراء فيها أن قناة الجزيرة – رغم اختلافنا معها تجاه العديد من المواقف إلا أنها سجلت نفسها فى موقف البطل الثانى خلف دماء الشهداء ووقفة الناس فى الشارع كل يوم وصمودهم

ملاحقة الجزيرة الحدث لحظة بلحظة وزرع مراسلين من الناس ومن المناوئين ليس من التوانسة فحسب بل من كل المناوئين للديكتاتورية والطامحين إلى الحرية هو الذى جعل الحدث فى بؤرة الضوء وصار من المستحيل على أحد أن يوقفه

وامرأة تقف أمام المقهى تصفق بيديها وترقص وتقول

يا جزيرة لا تكذب زين العابدين بطل

المقهى ملاصق للمخبز، وعدد الذين يقفون فى الطابور أضعاف الذين يجلسون فى المقهى.

كانت الناس تتسابق فى الأيام التى سبقت خروج بن على تخزن كل شىء الحليب والبيض والتونة والدجاج إن وجد. لكن طوابير الخبز بزت كل شىء، وتخيلت أنا فى القاهرة.

يتحدث الناس عادة فى السياسة فى النسوان والرجال فى النقود وفى كرة القدم، فى تونس لم يستطع أحد الحديث فى السياسة بكلمة لن يقول لك واحد كلمة، اللهم إلا رشيد خشانة ومن على شاكلته، والنساء والرجال متوفرون فى علاقات مريحة بعيدا عن العقد العربية و روزنامة الإسلاميين، ولا نقود إلا فى جيب بن على

وحواشيه والمصمين إليهم صاغرين أو بدون كرامة، لم يبق إلا كر القدم، الناس كلها تاملت فى كرة القدم، تعصب لا مثيل له ولا حتى فى مصر، لن تفاجأ إذا عرف أحدهم أنك مصرى أو جزائرى أو مغربى

وما عليكم بأربعة أهداف لواحد يحدثك كأن المباراة وقعت بالأمس، رغم أنها وقعت عام ١٩٧٨ يوم كان الكاتب يوسف القعيد يكتب روايته الثانية.

فى برنامج فى قناة الجزيرة الرياضية كان أحد المذيعين التوانسة يسأل لاعبا عما إذا كان يذكر تمريرة اللاعب الفلانى سنة تسعين، التمريرة الحاسمة التى جاء منها الهدف، بوغت الضيف وحاول أن يدعى أنه يتذكر ساعتها لطمت على وجهى. يفعلون ذلك حتى وهم بعيدون آلاف الأميال عن بلدهم

الناس تتحدث عن عجيزات النساء وهدف أبوتريكة والتمريرة الحاسمة ومساحيق الغسيل.

عشت لسنين آلام أصدقائى رشيد خشانة ولطفى حجى وغيرهما هؤلاء الذين واجهوا سلطة غاشمة تقف وراءها فرنسا من جهة وأمريكا من جهة أخرى. منذ حوالى ثلاث سنوات فقط شرع نفرفى إقامة رابطة لحقوق الإنسان، رابطة فقط، بحثوا عن قاعة –أية قاعة – لعقد اجتماع تأسيسى، وكانت الإجابة إما بالصمت أو بالإشارة وتكشيرة فى أفضل الأحوال، اجتمعوا واقفين فى الشارع أمام فندق أفريقيا باعتبار إفريقيا قارة والديمقراطية بدأت تنهشها وتصلح مكاناً للانعقاد.. فى ثوان، ظهرت الأيدى الغليظة، أوسعتهم قوى الأمن ضرباً بشجاعة، أمام أعين الناس الصامتين ثم المتسربين فى الشوارع المجاورة.

احتجت وزارة الخارجية الفرنسية بعد يومين احتجاجاً باردا كعادتها تجاه اليد التونسية الحنون.- تأخر ساركوزى شهراً هذه الأيام لفروق توقيت مقاومةالقمع.

لأكثر من عشرين يوماً لم تأت صحيفة واحدة فى تونس على ذكر خبر يتيم عما يجرى، منذ لحظة احتراق البوعزيزى حتى لحظة احتراق النظام، لا ترى خبرا يتيما أوحتى هاربا من صحيفته، وإن اجترأت صحيفة بعد عشرين يوماً فهى تستطلع رأى بعض المصطفين فى صفوف الحزب الحاكم عن أحداث سيدى بوزيد دون أن يعرف قارئها عن أى أحداث تتحدث وكأننا فى دولة كينيا فى القرن التاسع عشر أو فى سوريا فى القرن القادم، الثانى والعشرين

فى الماضى كانت الناس تنجم، أما الآن فالمسألة على طاولتك فى غرفتك وفى حمامك.

تونس بلد العرافين، تمتلىء الصحف بأطنان يومية بأسماء العرافين ومكاتبهم وقدرتهم على قراءة الطوالع، يطلع عليك أول كل عام سيل عرمرم عن هذا الذى تنبأ بمقتل الأميرة ديانا، وبوفاة الرئيس عيدى أمين على سريره، لم يجرؤ أحد أن يتنبأ بما سيحدث لزين العابدين ولو فى منام أو صحو كما لم يتنبأ أحد بأن دولة قطر ستفوز بتنظيم كأس العالم، ولم يجرؤ أحد من الذين رأوا شبيه ذلك فى منامهم أن يعترفوا حتى للشيطان بذلك.

ماحدث كان خارج توقعات العارفين والمستيقظين.

فى تونس عرفت رشيد خشانة مدير مكتب الحياة اللندنية الممنوعة فى تونس بالطبع، الذى عض على إصبعه متحديا قمع النظام وأحذية بطانته وظل يطبع صحيفته (الموقف) تحت التهديد اليومى، يصدر عدداً ويمنعون أعداداً .

كنت أشترى عددين أو ثلاثة من الصحيفة التى لا يوجد بها إعلان واحد ولا يجرؤ أحد أن يقترب منها، أقول عددين أو ثلاثة حتى يشعر رشيد أن هناك من يشترى صحيفته، كنت أراقب من يشتريها وهو يرتعش ومن يبيعها وهو يرتعد، كانت دائما مخبأة تحت الصحف، وفى أفضل الأحوال يأتيك الرد: فى المرتجع،أو لم تأت بعد.

قال البائع بعد سنين من الصداقة: أخاف أن يكون الذى يشتريها واحد مدسوس علينا من الجماعة.

اسأل رشيد أحياناً عن شىءعادى أرسلته، فيجيب لا، ثم يكمل:

يبدو أن الجماعة أخذوها عندهم.

أخذ الجماعة كل شىء تقريباً.

فى مؤتمر المعلوماتية والتكنولوجيا الذى أقيمت فعالياته فى تونس منذ سنوات قليلة، طنطنت الأجهزة بتونس التى تسبق العرب أجمعين فى المعلوماتية ـوهذا صحيح إلى حد كبير، (لاحظ أن السلطة لا تكذب هنا، والمثل المصرى يقول يفوتك من الكذاب صدق كثير)، لكن العلامة الفارقة أن السلطة كشرت عن أنيابها وضربت الصحفيين الفرنسيين والبلجيكيين، أقول ضربتهم، اعتدت عليهم بالضرب المبرح لأنهم انتقدوا منع المعلومات فى قلب مؤتمر المعلوماتية.

رد فرنسا شيراك كان أقوى من رد ساركوزى، بيان شديد جدا وتهديد بسحر

نامت ديكتاتورياتنا سعيدة هانئة بأسباب كثيرة من بينها هذا التواطؤ الفج من أنظمة الغرب الديمقراطية، والتغطية عليها وعلى جرائمها.

هرب بن على إلى غير رجعة

لكن الناس رغم الفرح خائفة رغم إحساسها بالقوة، قوية لأنها أصرت على تنحية وازالة كل رموزالحزب الحاكم حزب التجمع، لا حظ أننى لا أكمل اسمه كما يفعل كثيرون ويضيفون الدستورى الديمقراطى - واخوف دفعها لأن تصبر على حكومة وحدة وطنية لستة شهور فقط. هم خائفون من سرقة أحلامهم فى أول الطريق لذا تعالت أصوات مرتعشة تتمنى أن يؤول الأمر للجيش خوفاً من المجهول.

قال جارى فى المقهى وهو يكاد يبكى: لم نقم بالثورة لنسلم الحكم إلى الجيش مهما كان وطنيا، لا نريد عسكرة للحكم بعد ان اكلتنا الدولة البوليسية، يكمل:

نحترم الجيش الذى وقف موقفاً وطنيا شجاعاً واستطاع فى أيام قليلة أن يفرض الاحترام، وأقبل فقط بالجنرال رشيد عمار رئيسا للجمهورية إذا انتخبه الشعب.

رفض رشيد عمار أن يطلق الجيش على المتظاهرين، وقال لبن على بحزم واضح الطريق اتجاه واحد فقط، ورغم أن بن على

أقاله إلا أن ما تسرب أنه بعد يومين أصر على مقابلته وقال له بالحرف وبفرنسية واضحة لم يقلها الفرنسيون:

Tu es finis

انتهيت.

قلت هل تنتخبه إذا ترشح؟

قال لا، ولكنى سأطالب بتمثال له وتمثال للوعزيزى ثالث لقناة الجزيرة وتوابعها من فيس بوك وتويتر وحتى قناة الحوار الفضائية - التى اتهمها برهان بسيس احد أذناب الحكومة (التوصيف له ولى من قبله)، بأنها فضائيات الكراهية.

كنت قد نقلت طلبا من احد مسئوولى قناة فضائية كبيرة ممنوعة فى تونس بأنهم على استعداد لإستضافة من يشاؤون ولو كان من قبيلة الحكم بشرط واحد..

بسرعة قلت: شرط الايكون برهان بسيس.

فى كل دولة عندنا واحد مخصص للرد على المعارضين، برهان بسيس فى تونس، عماد فوزى شعيبى فى سوريا، فى مصر اثنان بالطبع، جهاد عودة ومجدى الدقاق (اثنان لفروق التوقيت ولأنها كبيرة) فى لبنان بالطبع كثر بعدد الطوائف، وبعض الطوائف منقسمة أيضاً

كانت قناة الجزيرة واقفة على أظافرها تنتظر الصور، فى الأيام الأولى كان الإرسال صعباً، تفتح المواقع بخلع الضرس، وموقع إيلاف تم غلقه وموقع الجزيرة مغلق من بعد ما بثت المحطة أول خبر عن تونس منذ سنين، اضطررنا أن نلجأ إلى الفيس بوك الذى اصبح متاحاً، وضعنا الأفلام على صفحتى وأعطيت باس وورد الصفحة لزميلنا فى الجزيرة لينقلها ويخبرنا لنزيلها، قبل أن يفطن إليها الجماعة، وهكذا نزيل ونضع غيرها

كان يوم الجمعة متسارعا، نبحث عن الأفلام من كل عابر، من كل من يحمل كاميرا أو هاتفا معقولا، الحدث يتصاعد والسلطة تحاول إخفاء المصير وضابط البوليس السمح يقول لصديقه بصوت عال لنسمعه نحن: إشاعات إشاعات

قلت لزوجتى، اسحبى الفيلم الأخيربسرعة،

أجابت: ليس هناك فيلم ولا يحزنون، ليس إلا مقالات لأصدقائك،

سحبه الجماعة فى غمضة عين وخفت أن يقفلوا الصفحة وتهيأت وسميرين على للاعتقال.

كان ذلك فى الوقت الذى كان بن على قد قفز إلى طائرته بطفليه وزوجته

شيعته الصحف فى اليوم التالى بجنازة غير متوقعة، بنعش فارغ من جثته، مكتظ بجثث ضحاياه، والذين كتبوا برقيات عزائه هم الذى كتبوا لسنوات برقيات قمع الشعب وسحله.

ورأيت المرأة التى كانت تحجل وتغنى ووقفت على حيلى أحجل و أغنى أمامها:

يا جزيرة لا تكذب زين الهاربين هرب.

سونيا والغناء والأستاذ هيكل

يعمل التوانسة على فترتين وراء لقمة عيش مضنية ووراء قروض فاحشة، أدخلهم النظام فى دوامتها وتركهم يعومون وحدهم، يعود من يعود منهم ظهرا لداره لتناول غداء سريع ثم يعودون للعمل وفى السادسة تزدحم

الشوارع يرجعون إلى بيوتهم منهكين لا يفكرون فى الخروج ثانية ولا يقدرون، لا الجهد يساندهم ولا جيوبهم تساعدهم، يكلمون بعضهم وهم فى سياراتهم، يشيحون بأياديهم لبعضهم البعض كأنهم فى فيلم للمجانين، وعندما تسأل تجد الإجابة الحاضرة: الضغط، الناس كلها على أعصابها، لذا أفكر أحيانا بشكل جنونى أن هذاهو أحد -أقول أحد الأسباب- التى ساعدت فى تعلم التوانسة العزف على العود، السهرات فى البيوت غير مكلفة وتلم الأحباب ويشيع الغناء ليطرد كآبة العيش والخوف من المجهول.

الغناء يقاوم القمع، القتلة لا يحبونه، إنه يحيى الروح وهم يريدون قتلها.

هنا فى تونس يمكن لك أن تتيقن أن محمد عبد المطلب مازال مطرباً مسموعا وكارم محمود ومحمد قنديل واسماء اختفت من بلادها- زياد رحبانى غير معروف على قدر اهميته وتجربته لأننى أعتقد أنه يغنى لى وحدى ولجرابيع مثلى-.

يتساءل الشاعر الكبير آدم فتحى فى إحدى أغنياته عن صالح عبد الحى وعن المطرب عبد الحى سلامة مع أنك يمكن أن تلف القاهرة كلها ولا تجد شريطاً واحداً لعبد الحى ولا أحد يتذكر عبد الحى سلامة على الإطلاق فى كل أنحاء المحروسة ولا سمع به، عاد مارسيل خليفة إلى الظهور بعد أن اختفت أغانيه فى سوريا، عادت جوليا بطرس وأميمه الخليل، شغلوا كل المحطات وتذكر الناس ريتا والعصفور الذى طل من الشباك وشمس الحق التى ظهرت وغيرها.

عاد الشيخ إمام المعروف فى تونس كذا عبد الحليم حافظ، بالكاد يعرفه فى مصر قلة من النخبة، والذين سمعوا عنه لم يسمعوه جيداً، وشرائطه بالطبع غير متوفرة.

كانت سونيا وهى بالماسة صاروت بشرى معد للانطلاق قد اعترفت لى أنها كانت زمان تضع شرائط مارسيل خليفة فى الكاسيت، تغنى معه وتكتب الأغانى وراءه كلمة كلمة تقفل وتفتح حتى اوجعها إصبعها، لكنه منذ مجىء بن على استراح إصبعها، واختفى مارسيل.

وانا أمازحها: سلامة إصبعك، انشاء الله يغور من فى بالى ويقطعوا إصبعه، وهى تضحك، تمر أمامنا تغنى بقوامها الفارع وقدها الممشوق.

الأستاذ هيكل قال إن الغرب تحديداً أمريكا صنع من نظام بن على نظاماً ممنعاً لا يسمح بأى ثورة، ليوافق المنخرطين تحت على أى (سلام) تفرضه أمريكا واسرائيل على المنطقة والقضية الفلسطينية (سوريا توافق على كلام الأستاذ هيكل رغم أنها لا تعرفه وهو لا يعرفها).

الشاهد، الناس تغنى على طريقتها والصحافة على جنبها

لسنوات عندما تفتح صحيفة تونسية ستجد الصفحة الأولى ونصف الصحيفة تقريباً مكتظة بحكايات كرة القدم ومارياتها التى لاتنتهى و صورلاعبيها التى احتلت كل المساحات ماعدا المساحة المخصصة للسيد الرئيس السابق والسيدة حرمه.

كنت أرى وجه ليلى بن على بدون تعابير، وجه جاف جامد، حواجب مصنوعة على الطريقة اللبنانية،حادة مرفوعة من نصف الحاجب حتى طرفه البعيد، مقوسة توحى بالصلف، اكره تلك الحواجب وامقت اكثرمنها النساء اللواتى يروجن لها فى التليفزيون، ما علينا، كنت اراه وجه خاليا الا من تعبير (العنطزة الفارغة)، لم اكن أراها حتى قاسية، القسوة تليق بآخرين، بزوجها.. بزوجها، وجه جاهل فى أقرب التوصيفات لا يعرف ما يدعى ولا ما يمنحك، وصور تها تعرضت (للفلترة) حتى تبدو بلا شائبة بشكل مسح عنه الوهج الإنسانى،والأخطاء الإنسانية التى تمنح الوجه الفتنه والألفة البشرية أو النسائية هذا يختلف بالطبع عن الصور التعبيرية عندنا فى مصر للرئيس مبارك، لم يصلوا اليها بعد وان تفننوا فى أشياء أكثر إبداعا.

أوجعنى أكثر تهافت الصحفيين المصريين واللبنانيين)، الذين تهافتوا أمام ليلى وبطولاتها وكتبوا، كتبوا بعناوين من العيار الثقيلة أقلها ؛ سيدة العرب، وزغردى يا من لن تخسرين شيئا، مرمغوا وجوههم ووجه الصحافة فى الوحل، والسيدة لم تقصر ولم تتهاون بطانتها، صنعوا منظمة للمرأة العربية ووضعوها على رأسها،، فى اتجاه مضاد تماماً للاتجاه الذى كافح فيه علماء ومفكرون وسياسيون سنين طويلة.

دفع نظام بن على للصحف والصحفيين فى جل البلاد العربية، وانهالت الدعوات على الأذناب وصغار الكتاب أصحاب المناصب الكبيرة فى صحفنا، فى العيد (الوطنى) لتونس تنهال الدعوات على الأسماء إياها، تراهم فى كل عام يسمنون ويتسلمون موضوعات إنشائية مدبجة مسبقاً تعلم الصحفيين الصغار معنى أن تكون مطيعا وخانعا:

مرة مازحت أحدهم، قلت له كى أهرب من الموضوع إن الشاعر المصرى حلمى سالم - منه لله - يقول: سادلك على جملة تخلو من الماضى المركب: كن رهناً للطاغوت فهذا أفضل للطاغوت

رد بسخرية::

شكلك ستذهب فى ستين داهية قريبا.

قلت وأنا اضحك خائفا:

مكتوبة لكم إنشاء الله.

فى تونس يترحم الناس على إثنين: بورقيبة وابو القاسم الشابى، صنع بورقيبة صفحة ملونة للمرأة التونسية، صنع لتونس من قبلها، ولم يستطع النظام رغم اقصائه من الحكم ان يقصيه من حياة الناس، وضع بورقيبة تونس على طريق التعليم، وفى كل التقارير الدولية جاءت تونس متقدمة على الجميع نافستها أحيانا الأردن وحدد النسل، وتخيل معى أن ذلك لم يحدث، لكانت تونس الآن تقارب الثلاثين مليوناً وكانت الثورة قد قامت من زمان.

قالت جارة جميلة فى المقهى ربى يرحمه.

قالت جارة أجمل منها: المؤكد أنه فتح الطريق: لا تعرف ان قد كان قد ساعد الثورة بالتعليم أم أخرها بسبب تنظيم النسل، لكن المؤكد أنه ساهم فيها ولو بطريق غير مباشر ولو لم يكن يطيق الثورة بطبيعته، كان يعتقد أنه أب للشعب للتونسى والأب لا يمكن ولا يجب تغييره.

لكن المؤكد أن هناك من مهد الأرض لبورقيبة وهو قطف بذكاء واستغل ثمار الزرع، هناك من أرسوا ومهدوا لإسلام حداثى: الطاهر عاشور والحداد والعفيف الأخضر وهشام جعيطة وكثيرون وصولا للمبدعة ألفه يوسف، زرعوا الطريق جيداً، ونمت أفكارهم، قطف بورقيبة واستغل ذلك أفضل استغلال وإلا لما تسنى له أن يواجه (بعلمانيته) جحافل تربت على تراث مقلد، هذا موضوع آخر لكنه يصب فى خانة تعبيد طريق الثورة.

ما إن تقابل تونسيا فى الستين عاماً الماضية إلا وقال لك بيت شعر ابى القاسم الشابى: إذا الشعب يوماً أراد الحياة، يرددونها بغير مناسبة، لم يكن ابوالقاسم نفسه يعرف أنه بعد منويته بشهور سوف يتحقق حلمه وقسمه، فى قناة فرانس ٢٤ التى غطت الثورة بشكل متباطىء فى البداية ثم تسارع إيقاعها حين وجدت الجزيرة تلعب فى ملعب آخر وبتشكيل آخر، قال أحد الضيوف إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر بإذن الله، وتعالت أصوات من قلب المقهى، إسلاميون لا، هناك من يريد أن يدفن ابوالقاسم وهناك من يريد أن يدفن الثورة.

فى تونس بعض تسجيلات لجورج وسوف ملك المقاهى هنا يغنى فيها مقطعا من أغنية الأطلال للشاعر إبراهيم ناجى، لاتقل شئنا فإن الحظ شاء يبدلها جورج ويقول فإن الله شاء، فيما قبل الثورة لم يكن أحد يلقى بالا لغناء جورج للجملة، بعد الثورة قال صاحب المقهى، أحرقوا الشريط.

حاول بن على فى السنين الأخيرة ان يؤسلم بعض المعطيات على طريقته. أنشأ زوج ابنته مصرف الزيتونة، فى مماهاة لجامعة الزيتونه بإرثها الدينى، أنشأ إذاعة الزيتونة أيضاً، وجبة خفيفة جدا لا تستطيع ان تقترب من مدفعيتنا الدينية الثقيلة، وظلت خطب الجمعة لطيفة تحكى عن التورك فى الصلاة وما شابه ذلك، فى رمضان الماضى اعتلى احد المساجد خطيب سورى دخل عليهم بالحنجل والمنجل، وعندما انطلقت قذائفه، وصلته الإشارة فاعلن اعتزاله علناً.

حاول صخر الماطرى زوج ابنته الصغرى ان يظهر بعد الإذاعة والمصرف الإسلامى بمظهر الملاك.

.. يحب يعمل ملاك، قال السائق التونسى..

أعطى لكل حاج تونسى هذا العام شكارة من البسيسة (وهى أكلة تونسية لذيذة ومفيدة وان كنت لا أحبها، وكرهتها أكثر بعد هذه اللقطة المزيفة) قدمها زادا وزوادا للحجاج فى رحلتهم ولكى يمطروا صخر بدعواتهم فى الكعبة.

فى السنوات الأخيرة راجت أقاويل عن أن الرئيس لو إنخبط فى مخه وتقاعد فإن ليلى بن على هى المرشحة للركوب على الكرسى أوهى المصنفة رقم واحد، ووجد هذا الكلام صداه ولو من تحت الطاولة بين أشباه النخبة التونسية والعربية بدعوى أن المرأة قد حان دورها (أنا بالطبع أويد المرأة فى تولى كل شىء لكن ليس هنا بالذات) ولعب اللاعبون واللاعبات على هذا الوتر مستغلين الوضع الباهر الذى قدمه بورقيبة

متسلحاً بالإسلام الحداثى، وحافظ عليه الطغاه البائد وإن ادخله فى طرق أخرى، إذ فرغ البلاد من كل احتمال إلا إحتمال رحيله غير المتوقع.

وعلى غير المتوقع أيضاً بدأت أخبار أخرى، ربما يستغل صخر الماطرى الوضع ويقفز هو على السلطة، رجل وزوج ابنة الرئيس السابق وليلى والموضوع كله فى ذقن العائلة والرم والقتل من عندنا

يحب يعمل رئيس، قال سائق آخر، وأردف: على الأقل عمل إذاعة الزيتونة

قال صاحب المقهى، أبو القاسم الشابى انتصر أخيرا، و ينام سعيداً فى قبره الآن فلا تقلقوه.

سمعت اسم الطرابلسية وهم أشقاء وأبناء أشقاء المدعوة ليلى زوجة الرئيس السابق، سمعت عما فعلوه منذ خطت قدمى تونس منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، فنادق وتوكيلات سيارات، سيطروا على قطاع السياحة الباب الكبير للموارد التونسية، اخترعوا لعبة جديدة ما يجدونه جاهزا يشاركون صاحبه فيه بالنصف، أحد أصحاب مصانع المعسل قرر ان يفتتح منفذا فى تونس لبيع إنتاج مصنعه الموجود فى مصر، كانت الإجابة: بالنصف، المكسب بالنصف، المصرى كان عنده دم عاد فرفض وعاد أدراجه.

كنت أرى عماد الطرابلسى يحوم حول المقهى الذى نرتاده، لم يكن يحوم حول إمرأة كما فعل النشامى فى عدة بلاد عربية، كان يحوم ليقول لنا هأنا ذا، هانا هاهنا.

قال لى شوقى الأجنف صديقى البارع فى اعمال الجرافيك ومشتقاته أنه عمل معه لفترة مرغما وعندما سأله عن أجره أجاب خمسة آلآف دينار

قال بهدوء: اعطوه خمسمائة ولما ظهرت على جهه ارهاصات ملامح تعجب، قال ولا مليم (فى الحقيقة هو قال له.. ولا دورو بالتونسية وأنا قمت بالترجمة وبعفة أيضاً)

فى الدوحة قابلت تونسيا يعمل رئيسا للجرسونات فى مقهى فى سوق واقف

قال لى سأعود ومعى سيارة فولكس فاجن آخر موديل، القانون يمنحنا سيارة فى العمر بجمارك بسيطة

بعد فترة عاد مكفهرا، طلب منه عماد الطرابلسى هذا شراوها بنفس الثمن الذى اشتراها به وخصم منه ثمن استعمالها لأسبوع، حين رفض، وجد السيارة محترقة فى اليوم التالى

قال جارنا فى المقهى: إحمد ربك، لو كان بلحسن الطرابلسى شقيق ليلى هو الذى طلب منك ذلك ورفضت لحرقك أنت.

لكن الاحتراق لم يتأخر طويلاً، يبدوا أنها كانت نبوءة وعلامة لم ينتبه إليها أحد

بعد احتراق بوعزيزى بإسبوعين وطلقات الرصاص تصطك بالأجساد استوقفنى أحد ضباط المرور، أشار باصبعه إشارة الأمر، توقفت

قال: الرخص.

لماذا، السيارة عليها أرقام الصحفيين المعتمدة من الدولة.

قدمت له بطاقة اعتماد الصحفيين الأجانب

الرخص... قال بصلف

الغيظ يصعد إلى رأسى

انت ترانى كل يوم مرتين وتعرفنى
شخصياً، الرخص سليمة، لكنك لن تراها
عيونه تمتد داخل السيارة بفتش عن شىء
ما.
اسمع قالها ببساطة، سيارتى ليس بها لتر
واحد بنزين، وأريد عشرة دينارات
البلد كلها مولعة بالبنزين وانت تبحث عنه
فى جيبى

الأرض والشموع

يوم الجمعة ١٤ يناير كان بن على رئيساً
فى الصباح، وبعد المغرب كان الغنوشى
رئيساً مؤقتاً، وبعد يوم آخر كان فؤاد المبزع
رئيساً مؤقتاً أيضاً
رئيس لمدة ثلاث وعشرين عاماً وثلاثة
رؤساء فى ثلاثة أيام
والمتظاهرون لم يبارحوا الشوارع،
واللافتات تقول، لن نعود لبيوتنا حتى
تخرجوا من حياتنا.
افترش الناس الأرض أشعلوا الشموع
ترحماً على شهدائهم فى محاكاة لثورات
طلعت قبلهم فى دول أخرى.
لا تصدق أحداً يقول لك نحن فعلنا
وحدنا، هناك من النخبة من دافع وقاسى
وسجن وحوصر وعذب وضرب وانتهكت
أعراضه، وهناك من قاموا بالدعاء، لكن
الثورة الحقيقية صنعها الناس الغلابة
المسحوقون وليس الجوعى، الناس الغلابة
التى لم تنتفض ضد الجوع، التونسى يستطيع
أن يفض مسألة المأكل بأى شىء، لكنهم
انتفضوا ضد اليد الغليظة التى صفعتهم
وكممت أنفاسهم طويلاً، وضد القدم
الغليظة التى داست على رقابهم. احدى ...
عسكرى الأمن فى الشارع هو القانون ...
كانك فى سوريا أو مصر. اكثر بكثير ...
هذا ما يفسر أن الثورة جاءت بعيدة عن
العاصمة، أو انتقلت من القصرين وتالة
ورديف وسيدى بوزيد إليها. لم يكن ...
طعام، كانت ثورة الناس للكرامة. الناس فى
العاصمة بالمجمل كانوا متأخرين سنوات ...
الذين عاشوا فى المدينة، وغضبهم جاءت
متأخرة، حتى الأحياء الفقيرة فى العاصمة
ومنها حى التضامن الاحط الإسم
والملاسين والكبارية ومقرين شاكر والحى
الأحمر جاءت قبل أن تنتصر الثورة بليالٍ
قليلة، لكن لم يك فى مقدور أحد أن
يوقفهم وسمعت أصحاب المصالح يطالبون
بمواجهتهم خشية على أملاكهم ومصالحهم
الريعية التى اكتسوها أيام بن على ونخب
سمع بطانته، كان كل هم الجوعى فى هذه
الأحياء أن ينقضوا على الأحياء الغنية يقلقون
منامها، لكنهم عندما أحسوا بضعف بن على
فى خطابه الأخير وتوسله وماشدته واعتراف
الصنم بالخطأ بحثوا عن بيوت عائلة ليلى بن
على زوجة الديكتاتور ليرموا محتوياتها فى
الشوارع بعد تهشيمها أو حرقها
فى كرة القدم كان الجمهور المهمك
المدفوع يقول دائما نسور قرطاج. لم اكن
أحب التسمية ليس لمبالغتها، بل لمبالغة من
يتحدثون بها والنفخة الكاذبة التى كانوا
ينفخون ربها
استيقظ الغلابة، النسور الحقيقية فى الثورة
التونسية، ما مر شهر واحد على أول شهيد.
ما اكتمل، ما أكمل القمر دورته إلا وكان ...

على وحقيته فى مزبلة التاريخ، فى كتاب
الصفحات الردنية والدول المصفحة كما
يقول سيدنا هيكل، والناس غير مصدقة لما
يعلوه فى أيام ليست تعد بالأيام
سبحان مغير الأحوال، رجال الأمن
يتظاهرون و يبكون - العقبى لنا فى كل بلد
عربى - ، منهم من يعتذر ومنهم من يطلب
الصفح، وآخرون يقولون أنهم كانوا
مرغمين، وكاركاتير فى صحيفة تونسية يبدو
فيه رجال الأمن فى مظاهرتهم ومواطن يقبل
عليهم من بعيد وهو يقول: من فضلكم،
تظاهروا بهدوء
قال جارى، لقد شاركت أنت وزوجتك فى
الثورة.
قالت زوجتى إنها شاركت فى الثورة
بانطلاقة الفيس بوك
قالت الجارة الحلوة، سأطلب لك الجنسية
التونسية. وأقسمت بشرفها
حيث كانت الثورة كنا، حلمنا بها، آمنا بها
تحديدا بعد أن انطلق الرصاص وصعد الدم
الزكى وصمد الناس، آمنا بها بعد خروج
الناس للشوارع معلنين أنهم لم يبتلعوا طعم
وعود بن على
قلت لسمير بن على
ستنجح
قال ستنجح
كنت على صفحتى فى الفيس بوك
نجحت الثورة فى تونس، أستأذنكم فى
الرحيل.، أستأذنكم فى العودة
أفكر بأكبر عدد من المناشدات ■

خطة الثورة
التى لم يطلعنى عليها أحد

ياسر عبدالحافظ

أخيراً استردت الكلمات معناها، من جديد أصبح للمفردات معنى، أردد بينى وبين نفسى بفرح وقبلوا روجاتكم.. هنا على قارعة الطريق / فسوف تنتهون ها هنا غدا أمل دنقل الذى لطالما فتنى غضبه، ثم انطفأت كلماته مع مرور الأعوام، بل وانطفأت كل رغبة فى الشعر. كيف يمكن قراءة الشعر فى بلد لا أحلام فيه؟

قبل عشرة أيام من ٢٥ يناير كنت فى مصر أقضى إجازتى السنوية، للعام الثالث على التوالى أعود برغبة المستكشفين، أسير فى الشوارع أنظر إلى الوجوه، أتسمع بفضول ما يقوله الناس، أتأثر مع كل من أقابله. شهر واحد متاح أمامى أختزن فيه آلاف الصور والكلمات أعيش عليها حتى يحين موعد العودة.

غير أن شيئاً كان مختلفاً هذا العام، كأنى نزلت إلى بلد آخر، هدوء لم أعتده، تحفظ لا يمكننى تبين أسبابه، أقول لنفسى ربما أنا من تغيرت أو نسيت. أسأل أصدقائى فيردون بكلمات مبهمة... ربما لم يفهموا ما أعنى، أو يرجعون هذا إلى أعراض الغربة، أو أنهم مشغولون بما يكفى، عالقون فى الماكينة اليومية التى لا ترحم أحداً ولا وقت معها للتفكير فى أسئلة زائر مشغول بإعادة رسم صورة وطنه.

عندما عدت إلى الكويت كان السؤال المعتاد: ماذا رأيت؟ مضافاً إليه هذه المرة: هل هناك استعداد لتظاهرة ٢٥ يناير؟ أرد وأنا لست واثقاً جداً مما أقول: الأوضاع فى مصر هادئة بشكل مريب. إجابة لا ترضى أحداً، لكن ماذا أفعل؟ هذا ما رأيته، كيف كان لى أن أعلم أن الشعب يخطط على مهل لثورة ستقلب العالم رأساً على عقب؟ ثورة لم تتوقعها أجهزة المخابرات الأميركية والإسرائيلية التى تعيش بيننا بمباركة اتفاقية قيل أنها ستجلب الرخاء ولم تزدنا إلا فقراً مثلما خدع السادات إسرائيل يوماً، خدع الشعب اليوم أحد قيادات تلك الحرب، الرئيس الذى كان يظن أنه ربى شعبه وفق مبادئه: ما يقوله وما يريده هو الأصلح لنا جميعاً، من حقنا أن نعترض، لكن الكلام

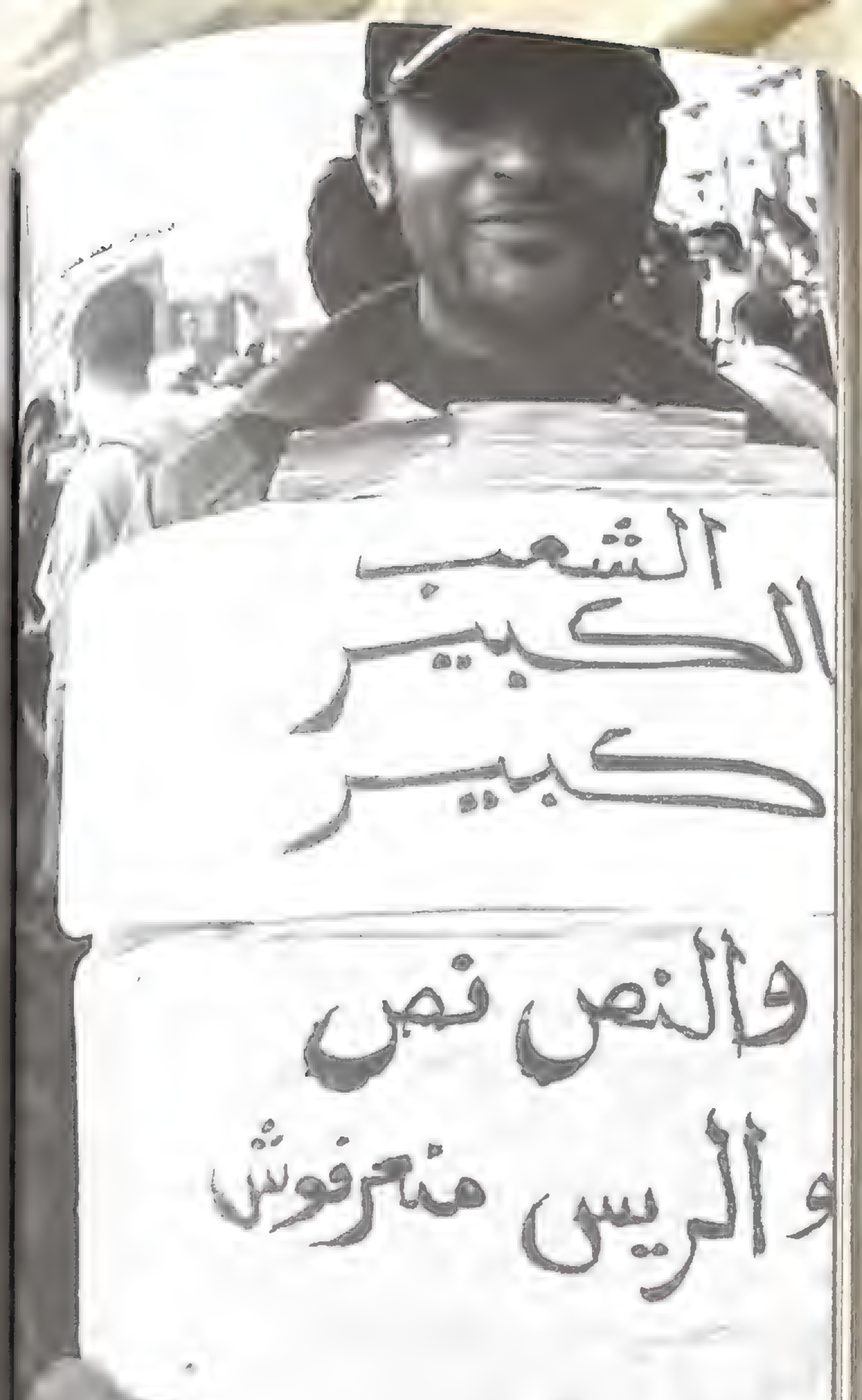

يطير فى الهواء ويرتد إلينا، ولم لا، ألسنا شعبا تنقصه المعرفة السليمة بالممارسة الديموقراطية مثلما قال رئيس وزرائه السابق الذى تمت التضحية به، وانتهى به الحال باكياً على هذا الخروج المذل.

قبل عودتى بأسبوعين كنت أعمل على إنهاء بعض الأوراق فى المصالح الحكومية، الطوابير نفسها، تبرم الموظفين من المراجعين، الرشاوى التى يجب دفعها لتخليص المعاملات (لدينا فتوى من أحد الشيوخ بأن هذه لا تعد عند الله رشوة لأننا مجبرون عليها)، لكن المواطنين مثلى لا تبدو عليهم علامات الضجر المعتادة، ينتظرون فى صبر وسكون، غير أن أحدهم خرج عن الخطة المرسومة، علا صوته بنهر الموظفة المشغولة بالحديث مع زميلاتها عن إنجاز معاملات من يقفون أمامها مثل التلاميذ. صرخ فيها بحدة: أنت هنا لخدمتنا. اعتبرت هى أن ما يقوله إهانةَ، هددته بأن تقدم فيه بلاغاً بالتعدى على موظف أثناء تأدية عمله، تدخل الآخرون بينهما، همس له أحدهم بشىء ما، عاد بعدها إلى سكونه، اعتذر لها وعلى وجهه ابتسامة راضية. وأنا أتابع المظاهرات فى ميدان التحرير كنت أبحث عن وجهه بين الناس.

لم أربط الأمور بعضها بعضاً إلا عندما اشتعلت الثورة، تذكرت سائقى التاكسيات المعروف عنهم انتقادهم لكل أمور البلد، كل واحد منهم وحسب التخصص الذى يحبه يقدم خطة بديلة لما ينبغى أن تسير عليه الحكومة، من يفهم فى الهندسة المعمارية تجده يحدثك عن الأخطاء التى يتم ارتكابها فى بناء المنشآت، هناك من سيحدثك عن الكيفية التى يمكن من خلالها حل مشاكل المرور، وهكذا حتى تصل إلى السياسة الخارجية، وفى النهاية لن تجد رأيا واحدا يقول إن الأوضاع تسير على ما يرام. غير أننى فى زيارتى هذه لم أجد من يدلى باقتراحات جديدة. هل أصبح الخمسة إلى هذا الحد؟ أحدهم، وبعدما وصلت إلى المكان الذى أريد، وبينما أفتح الباب للنزول قال مفيش حاجة بتفضل على حالها، نطقها بشكل عابر وكأننا نتبادل التحية ولم يمنحنى الفرصة لأسأله عن ما يقصد، وأنا لم تشغلنى الجملة لأكثر من دقيقة. الآن أتساءل هل كان يقصد تنبيهى لأبقى وأشارك؟

ربما هذا ما يصنعه خيالى، ربما تصلح هذه كفكرة لرواية... هل اتفق الشعب كله على الثورة دون أن تدرى الأجهزة الأمنية والمخابراتية؟ ربما، لكن ما هو مؤكد أن فكرة الثورة على الأوضاع كانت مطروحة على ذهن كل مصرى خلال العشر سنوات الماضية على الأقل، والخبراء يمكنهم أن يعددوا الأسباب... الغلاء الفاحش، عدم تناسب الأجور مع الأسعار، البطالة، الفقر، غياب المشاركة السياسية، وكل ذلك صحيح لكن أى من ذلك ليس السبب الرئيسى، هناك ما هو أهم

يحب المصرى أن يكون لديه برنامج خاص لحياته، موظفاً كان أم رجل أعمال، طبيباً أم عاملاً، لديه مهمة ملتزم بها، يؤدى عمله ويربى أولاده فى وطن يتبادل معه الألفة والمحبة، إذا خرج من هذا الوطن

مضطراً فإنه يحسب بالساعات الوقت الذى سيقضيه بعيداً عنه

ما حدث أنه، ومنذ منتصف عهد مبارك تقريباً، بدأ المصريون يفقدون الإحساس بفكرة الوطن، بات هذا الوطن عبئاً يحملونه فوق ظهورهم، يخدمونه ولا يقدم لهم شيئاً، كل الشعارات تقول أن هذا الوطن تحول إلى صنم نعبده وهو العاجز عن دفع الضر عن نفسه، يتغير شعار الشرطة من الشرطة فى خدمة الشعب إلى الشعب والشرطة فى خدمة الوطن، تذاع الأغانى الوطنية الحماسية فى الصباح بلا سبب، والسؤال الأساسى من الإعلام لمواطنيه: إلى أى مدى تحب مصر؟.

إن كنت تحب مصر عليك بالصمت، هناك من يفهمون أكثر منك ويعرفون قيمة هذا البلد، يضمنون استقراره، وقد وهبهم الله شباباً دائماً فلا يشيخون حتى يظلوا باقين يحمون أرض الكنانة، وجوه لم تتغير منذ ثورة يوليو، تخرج من ذاك المنصب إلى غيره... لا أهمية لما نريده، فقط ما يعلنونه، أما أنت فما زلت صغيراً وهناك الكثير لتعلمه، والنجاح لا يأتى دفعة واحدة، عليك بالصبر والعمل والاجتهاد، ليس مهماً أنك لم تحقق شيئاً وقد قارب عمرك الأربعين، نحن فانون، قبض ريح، الوطن... مصر هى من ستبقى. إن لم تسمع هذا من السياسيين، ستسمعه من الإعلام، وإن هربت منهما سيقوله لك الشيخ يوم الجمعة فى المسجد، أو فى الكنيسة يوم الأحد، وإذا طاردك الشيطان الذى يوسوس للناس بالشر واندفعت إلى طريق الإدمان ستوصم بأنك من شباب البانجو والحشيش الشباب الضائع

الذى لا يريد أن يعمل، العمل ليس عيباً بالمناسبة، ما المشكلة إن كنت خريج كلية الحقوق وعملت كفرد أمن مثلما نصحت وزيرة القوى العاملة الشباب فى لقاء تليفزيونى. هل كنت تتمنى نفسك أنها الكلية التى تخرج منها ألمع الزعماء والقادة، هذا كان زمناً آخر، قبل أن يزداد عددنا إلى هذا الحد، ألم يحذر السيد الرئيس من أنه لا بد من وضع حد لتكاثرنا، ها هى النتيجة

خلال الأعوام الماضية ومع ذلك الجمود فقدنا الإحساس بأن هناك شيئاً يحدث، يمر العمر علينا ولا نشعر به، لا فرق بين صبا وشباب وشيخوخة، ليس هناك تنافس، الخطط موضوعة ولا نقاش فيها، المقاعد محجوزة بالفعل، وكى تضمن مكاناً عليك أن تنزع من داخلك كلمة لا، وبعد أن تخدم فى المكان الذى تم اختيارك له بإخلاص سيتم النظر فى أمرك، ومن يدرى ربما يوماً تنال ما تريد، المهم ألا تنظر إلى ما متعنا به غيرك، مصر تتبع (اسمياً) نظام الاقتصاد الحر والذى يعنى أن المغامر هو من سيفوز، إن استمعت إلى الشائعات عن العلاقات والتربيطات والصفقات فأنت لا تفعل سوى إفساد حياتك... هل ستفسدها وقد أوشكت الأبواب أن تنفتح؟ احمد ربك وارضى، شاهد فيلماً من أفلام الموجة الشبابية قبل أن تنام فكم السخرية فيها يجعلك تنفس عن غضبك، أو ربما تفضل مشاهدة واحدة من القنوات الدينية لتعرف أن ما عند الله خير وأبقى.

منذ ٢٥ يناير وذاكرتى تتدافع فيها مئات الصور التى كنت قد استطعت تغييبها

لوقت... من ماتوا تحت التعذيب والقهر والإحباط، من انتحروا يأساً، من ماتوا على الطرقات التى لا تصلح للاستخدام، ومن ماتوا فى عبارة منتهية الصلاحية ولم تعد صالحة للإبحار، ومن ماتوا من غذاء مسرطن

بالتأكيد كنت أتمنى أن أكون فى ميدان التحرير الآن أصرخ مع من يصرخون، أخرج غصباً ما عشاه من إحباط ويأس، إنما مع ذلك، نحن المغتربين لم نغادر مصر، نعيش ما يحدث فيها لحظة بلحظة، وإن كان قد فاتنا شرف المشاركة فإن ما يهون علينا لحظات الفرح التى تعيشها الآن أرواح ضحايا ذلك النظام. يهون علينا أننا نسترد القدرة على الحلم بأننا سنتمكن من تربية أولادنا فى مناخ بلا قهر ولا ظلم، حيث يمكنهم الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات لاختيار من يمثلهم دون قهر أو تزوير

أحلم أن أرى أكثر من مرشح يقدمون الى الشعب برامجهم الانتخابية ونحن نختار من بينهم، أتمنى أن أرى مناظرات سياسية بين المرشحين على التليفزيون، وليس حواراً إعلامياً يخدم شخصا واحدا فقط، أتمنى أن أرى رئيساً يرحل بعد انتهاء مدته، لا يزيف الدستور ليجلس فى مكانه مدى الحياة، ثم يأتى بابنه من بعده، أتمنى أن تخلو الشوارع من صور الرئيس الذى لا يحبه أحد

أرغب فى وطن حر يكون فيه للشعر وللكلمات معنى ■

فرحتنا هي التي ستميتنا لا رصاص الجبناء

يوسف رخا

فيه حظر تجوّل، والناس محصورة. – أحد الأصدقاء من سكان القاهرة

عيد الشرطة

ليس إسلامياً، وليس محدود العدد؛ وقد رأيته رؤى العين فى ميدان التحرير

مسيّلة للدموع

كان يسقط ماء من عيونهم
من نظراتهم المصممة وحناجرهم
قبل أن يرتموا على ظهورهم
متشنجين فوق سلالم العمارات
مفزوعين باحتقان وجوههم
بالفراغ الذى لم يعد ينتج أكسوجين
حيث لكل واحد منهم ألف نسخة مطابقة
تفتح عيونها بالخارج
كانوا يغيّرون وجهتهم ويركضون
وبينما يحتمون بأبواب العمارات
كان يسقط من عيونهم ماء
يبرق بين أقدام اللاحقين

(ليلة الجمعة، ٢٨ يناير)

نقطة مؤسسة الأهرام خاوية. أراحوا جهاز التفتيش عن البوابة، ولا صوت حيث يزوم المغادرون. ليس من مخلوق فى المكان سوى رئيس التحرير فى مكتبه، يشاهد التلفزيون واقفاً وذقنه نابتة. أحتسى القهوة الأخيرة هنا وقد عبأت حقيبتى بعلب السجائر التى جهّزها لى القائم على البوفيه من فائض مخزونه بسعر مرتفع، وأستعد للعودة إلى ميدان التحرير

(الإثنين، ٣١ يناير)

○○○

عيد الشعب

لا أحد يصدق الإعلام الحكومى حين «يهيب بالمواطنين» أن يتوخوا الحذر فى مواجهة «البلطجية» والعصابات المعنيين بتنفيذ مخطط أجنبى أو مؤامرة. كلنا نعرف أن البلطجية عملاء الداخلية والحزب الحاكم، أن المؤامرة الوحيدة القائمة هى مؤامرة النظام القائم على الشعب، وأن أدوات ذلك النظام باتت أقل عدداً وأضعف

مما يشاع منذ غادرت قوات الشرطة مواقعها تمهيداً لفتح السجون وتهريب المجرمين قبل المعتقلين سياسياً، ثم انطلاق صغار موظفى الداخلية بالرشاشات فى سيارات مسروقة إلى المناطق السكنية. من دمّر واجهات المحلات وأشعل فى صالاتها الحرائق؟ ومن أفرغها من بضائعها؟ لاالمتظاهرون ولا «قلة مندسة» الشعب المصرى كله قلة مندسة. و ما كان شىء من هذا ليحدث لولا هزيمة الشرطة على الأسفلت. قبل وبعد معركة الجمعة، الشرطة وابل من الطغاة الصغار، المرتزقة والمرتشين. وبرغم أننا داخل المنظومة لسنا نحن أنفسنا سوى منتفعين، لا أحد يصدّق الإعلام الحكومى حين يصف أول ثورة حقيقية فى مصر بـ«الأحداث المؤسفة»، إن فرحتنا هى التى ستميتنا وليس رصاص الجبناء.

أظن أكثر من شاركوا فى التحرك بعد يوم الثلاثاء كانوا مثلى غير مسيسين، أو غير ناشطين سياسياً حيث لا فائدة من النشاط السياسى سوى التعرض للاعتقال والإهانة إن لم يكن العزل والتعذيب. قبل ٢٥ يناير، كان كل شىء يحدث على حس المعارضة الإسلامية، وأنت لست إسلامياً. (وحتى الآن تستخدم فزاعة الأخوان لا لإخافة الشعب الذى أدرك إرادته وحقه فى الإرادة ولكن من أجل تغذية مخاوف الإدارة الأمريكية حيال إسرائيل على وجه الخصوص.) أنت لم تكن جزء مما يحدث لأنه كان يحدث على حس الإسلام السياسى، أقول. أما الآن فقد غير التحرك كل شىء.

التحرك؟ يوم ٢٤ يناير كنت لا أزال أمرح ساخراً من كلمة «ثورة» هل يوجد ثورة بميعاد؟ محدد «أنبعث على «الفيسبوك». إذن لكسى فى مساء ٢٥ عدت إلى الفيسبوك وحملت على حاضر ما تمكنت من تصويره بلمعوبى قبل الخروج.

○○○

رأيته رؤى العين، وعدت إليه صباح الخميس بعد انقطاع خطوط الاتصال كليا، الإنترنت والمحمول الأربعاء كنت «تمترست» فى الجريدة أسمع الانفجارات وأرى الجموع تجرى فى الشوارع، أتشمم رائحة الدخان المسيل للدموع وقد تصاعدت من شدة كثافتها إلى نوافذ الطابق التاسع كنت أنوى أن أمضى ليلة الخميس «أناضل» عبر الإنترنت لا فائدة.

○○○

الجمعة ٢٨ يناير

قرب جامع عمرو فى مصر القديمة، قلتُ للرفيق نائل الطوخى ينصحنا الأخوة التوانسة بدفس خشبة فى شكمان المدرعة لشلها عن الحركة ولكن المهم أن نجد الخشبة؛ رد الرفيق نائل الطوخى بل الأهم أن نجد الشكمان

صليت لأول مرة من سنين، بعد أن استمعت إلى الخطيب يحث العباد على اجتناب الفتنة؛ قال إن من لا يحصل على حقه فى الدنيا سيعوضه الله فى الآخرة، ودعا بالبصيرة والتوفيق لرئيس الجمهورية، القائد الأعلى للقوات المسلحة والحاكم

العسكرى مروع الكاريزما منذ ١٩٨١. ولى أمرنا وامرنا الذى أنزل به الله فيما يبدو ولم ننزل به التداعيات الذينة لانقلاب عسكرى حاز على تأييد الجماهير سنة ١٩٥٢، لم يسلم المصلون على بعضهم فى النهاية بحسب أعراف صلاة الجمعة، وخلال ثلاثين ثانية كان الهتاف يدوى من أعمق نقطة فى المسجد: الشعب يريد إسقاط النظام.

لقد اختلطت فى رأسى منذئذ تعبيرات وجوه المحتجين الداخلين إلى المسجد قبل الخطبة وهم يتعرفون على بعضهم بلا كلمة أو إشارة، بالعيون فقط، وخطاهم المستمية لاحقا وهم ينضمون إلى بعضهم فى المنحنيات المؤدية إلى الشوارع العمومية بعد أن ساروا على أقدامهم إلى وسط البلد من المعادى والجيزة وغيرها من الأحياء البعيدة فضلاً عن مصر القديمة. ثمة اتفاق غير معلن على كل شىء، اتفاق ملزم لدرجة التضحية بالروح، يكشف هشاشة القلق من الخلافات الطائفية الأخيرة ويتجاوز حتى الخلافات القيمية وتضارب التوجهات. الإسلامى مع الليبرالى مع الماركسى

كنا غدرانا أو قطرات تنبق من الجوامع والبيوت وتصب فى أنهار تواجه سدوداً أمنية. وكنا نتبخر، إثر الاصطدام بتلك السدود، دخاناً أبيض تلوذ منه أنوفنا بالدخان الأسود للإطارات التى أشعلناها، لو راوغتنا مداخل العمارات.

فى مصر القديمة وفى شارع قصر العينى، إلى حيث انتقلتُ عبر عين الصيرة ومجرى العيون مشياً على الأقدام، كان

الأمن المركزى يبدأ فى قصفنا من قبل حتى أن نتكتل. وبرغم توفر الخشبات وغيرها من الأسلحة المرتجلة كقنابل المولوتوف التى سيتلقى الأمن المركزى منها دفعات متتالية فى معركة غير ضرورية انتهت بهزيمة أفراده وفرارهم من أمام المتظاهرين، لم تتسن رؤية مدرعة واحدة، دعك من شكمانها

بعد وصول الجيش إلى الميدان، كانوا يعودون لقنصنا انتقاماً، أو لدهسنا تحت عجلات السيارات الموالية. و خلال مشاهد تذكّر بالانتفاضات الفلسطينية ضد إسرائيل، الأمر الذى جسد لى فكرة أن نظامنا هو بالفعل امتداد للمشروع الاستعمارى فى المنطقة، وقد طالبت الحكومة الإسرائيلية أوروبا وأمريكا بتأييد مبارك قفزاً على إرادة الشعب وليس إرادة جزء من الشعب ولا طائفة أو جيل منه، تلك الكلمة المنتهكة التى مكنتنا الأحداث من استردادها نقية: الشعب، كانت الأكثرية تمنع الأقلية الأصغر سناً أو الأقل وعياً عن قذف معذبيهم بالحجارة دفاعاً عن أنفسهم

فى خطابه الذى ينتظره العالم منذ عيد الشرطة، ولم يكن فى الخطاب ما يميّزه عن أى خطاب «بيضان» ألقى منذ عشر سنين، بينما يتحدث رجل مترو الاتفاق الأول عن أمن وأمان المواطن المصرى وأن الشباب هم ثروة البلاد، كان الأمن والأمان ذاته يطلق النار على العزل من هؤلاء الشباب واحدا واحداً من مسافات تصل إلى بضعة أمتار. وبينما لا نزال نغسل وجوهنا بالكوكاكولا ونغمس أنوفنا فى البصل، كنا نتساءل عما إذا كانت ذخيرته حية

أبلغ هتاف يوم الجمعة كان الآه المجردة، يليها الشعار الذي سيستعيض لاحقاً عن النظام بالرئيس وعن الإسقاط بالمحاكمة. ساعات كالأيام أو اللحظات، لا أعرف. كل ما في الأمر أننا نريد أن نصل، مرورا بمقر الحزب الوطني الذي تمكن بعضنا من إحراقه ثم مقر مجلس الشعب، إلى أقراننا. وكلما اقتربنا، مع مرور الوقت وتقهقر قيادات الداخلية أمام صمود تلك الأعداد المهولة من المحتجين، كنا نتقدم بالفعل، لاقينا أهوالاً على الطريق. كأننا في حج صعب، والقبلة ميدان التحرير.

حفلة تنكرية

وهل ظل مبارك كما عرفناه وأحببناه حاجباً على بوابة الاستقرار؟ وهل نجح، مع ذلك، في إرجاع مصر إلى العصر الجاهلي؟ يوم الأربعاء سيعود الأمن متخفياً في هيئة متظاهرين مؤيدين لمبارك مع ميليشيات المتنفذين في الحزب الوطني وسط عدد كبير من المأجورين الذين عباهم أمن الدولة أو أخرجتهم السلطات إلى الشوارع عوضاً عن أداء عملهم في المؤسسات الرسمية (وسيكون عبد المنعم سعيد من البذاءة بحيث يسمي ما قاموا به ثورة ثانية). لا شك أن هناك من يؤيد مبارك بصدق، إما لأنه خائف أو لأنه مستفيد؛ وحتى إن لم يكن هذا تفسيراً مقنعاً، من حق أي كان أن يؤيد مبارك. ال سوريالي حقاً أن ترى النوق والخيول قد اقتحمت الميدان على المعتصمين. وقبل أن تلتقط نفسك تسمع بالأمن وعملائه يحاولون تصفية المعتصمين بالرصاص الحي

صباح الخميس، ٣ فبراير

○○○

الثلاثاء ١ فبراير

ليست «شعب» هي الكلمة الوحيدة التي استرددناها عشية اجتماعنا بأعداد تذكر فعلا بحج المسلمين، أصبح للوطن معنى أيضاً، للثورة والعدالة والإصلاح أصبحت منذ التحرك كلمات واضحة ذات معنى. وكان النظام يتفوق علينا كل لحظة في إطار أن معناها ينحصر فيما يقض وجوده وسائر شرعيته. لابد من أن نضيق على النظام وأجهزته الأمنية خصوصاً حتى يمكننا الكلام في أمور غير شخصية، هذا ما أكدته لنا التطورات

مليون شخص على الأقل بامتداد ميدان التحرير والمناطق المحيطة طوال ثلاثائنا السعيد الذي قطعه علينا بلطجية الحزب الوطني وأفراد أمن الدولة والشرطة في ثوبها الجديد. وبحجة أن ثمة من يؤيد مبارك لعل للاستقرار معنى إذن. لعل له معنى سوى أن تُستخدم المرافق والموارد العامة بشكل منظم في الإنفاق على بعض العاملين لدى الدولة البوليسية وخدمتهم، وأن يتحول التعليم والتوظيف بل والعمل النقابي ومن ثم كل ما يمكن إنتاجه أو تنميته إلى شبكات مصالح عائلية آخر ما يعني القائمين عليها هو المهنية أو الجودة وأكثر ما يهمهم هو التكريس لمساحات الاستفادة المباشرة التي تمكنوا من شغلها داخل إطار القانون أو خارجه وعلى حساب السبب المفترض لوجودهم في

المكان كأن الحياة نفسها تمثيلية صممت من أجل حماية وإثراء من يشغلون المناصب بلا أي عقل وربما يقوض المناصب نفسها عانة الدينصورات الأليفة و سلسلة أفلام عودة المومياء. هل لهذا ظلت مصر كل هذا الوقت من الخراء بحيث يستحيل الانتماء إليها؟ لقد استبدلنا المساءلة بالتملق والدقة بالتعريص، وليس سوى «بلطجي» يحمل رشاشا لا تعرف إن كان من سكان العشوائيات أو أمين شرطة متخفياً. لعل للاستقرار معنى سوى التنفيذ الأوتوماتيكي لسياسات أمريكا في الشرق الأوسط بلا أي اعتبار لمشاعر الناس، من جهة أخرى، وبغض النظر عن «الخطر الإسلامي» الذي يتربص بنا - نستقبل وزيرة الخارجية الإسرائيلية عشية القصف في غزة كأنما لنبارك لها على أن الله هداها إلى استعمال الفوسفور الأبيض ضد الأبرياء من مواطنيا الغزاويين ولا كلمة – أو أن يشعر مواطنو بلد لم نع أهميته حتى توقفت فيه الحياة بالذل أينما ذهبوا في العالم وقد حدسوا أن بلدهم لابد أن يكون مثلهم: شيئاً رخيصاً بلا قيمة، غير صالح للدخول في مجريات الحضارة الإنسانية ومن ثم جدير بالاحتقار..

○○○

عفوي تماماً منذ عيد الشرطة. عفوي وصادق. لم يجف الماء بعد من هذا المكان لطائرات الجيش «ارحل» ولحظر التجول «مش هنمشي»؛ للجيش نفسه «إيد واحدة» و لعنف الأمن ظاهراً أو متخفياً «سلمية».

رأيت عائلة تقليدية جداً يحمل ثلاثة من أفرادها ثلاث لافتات إذا مررت عليها بالترتيب تقرأ «جيت علشان ولادي»، رأيت لافتة مكتوبا عليها: مبارك يتحدى الملل وسمعت فتيات يهتفن: دم المصري مش رخيص. حين ربت على كتفه قال لي ممثل «مقاتلي حرب أكتوبر» كما عرفته اللافتة التي يحملها مؤيدا للثورة: البركة فيكم كان يبدو متعبا. وتذكرت أن الناس من غير المتظاهرين كانوا يلقون إلينا زجاجات المياه والفاكهة من نوافذهم ونحن نمر عبر شارع قصر العيني

شهادة

أكتب الآن وقد استعدت ثقتي بعد معجزة الأمس وقبل أن تنتهي الجملة ربما أفقد الثقة من جديد. في ميدان التحرير الآن عشرات الآلاف من الناس العاديين غير الطامعين في سلطة أو نفوذ. في ميدان التحرير مئات وربما آلاف من البلطجية المتربصين بهم، المحسوبين على نوع آخر من الناس العاديين: ناس يفضلون تقمص دور «رامبو» لحماية ممتلكاتهم الخاصة على تأمين إمكانية ممارسة حقوقهم المدنية. وفي ميدان التحرير أفراد الجيش المصرون أكثر فأكثر على تطبيق حظر التجول والبادي انحيازهم للنظام في الساعات الأخيرة. مر أسبوع منذ حضرت معركة الجمعة، وغداً على الأرجح سأحضر معركة ثانية. في مثل هذا الوقت من ليلة أمس بدأ ضرب النار على المتظاهرين. أصوات متفرقة وسط صمت الشارع. من أجل كل ما رأيته ومن أجلي: تحيا الثورة. تحيا الثورة. لكنني

اكذب لو قلت إننى أعرف أى شىء

عدت لتوى من هناك

عزيزى،

تحية من البيت الصامت حيث الحياة كما هى أو حيث لن يعود شىء كما كان. أبداً، على الإطلاق: هذا ما يجهله المتذمرون كأنهم حين يطالبون برجوع «الشباب» من «الميدان» «وكفاية بقى!» إنما يغمضون أعينهم عن الشىء الوحيد الحاصل بلا أى شك:

أن حركة لا سبيل إلى إيقافها تحفر الوعى والواقع على حد سواء، ولا رجعة الآن فى شكل متجدد لأيامنا حتى لو خمد الشباب كأنهم بالتذمر إنما يمارسون على أنفسهم ضرباً من خداع الذات، واهمين أن الأشياء يمكن أن ترتد إلى ما كانت عليه وهو لا يمكن ولن يريدوه على الأرجح، حتى هم.

فصام جمعى فى المساكن المستفزة والطرق المنقوشة بالدبابات. وحتى لب الاعتصام بدأت تصيبه بارانويا من الدخلاء وأعراض أخرى مربكة للعزلة والاستماتة، بعد كل ما تهدده من عدوان. فهل يأتى يوم يدانى فيه تصميمنا الجمود الذى سئلناه؟

الآن بين ثوار «التحرير» لا أذكر واقعة التحرير التى سميت الساحة باسمها فى الأصل، للمفارقة ، لم يعد الأمر قاصرا على يوفوريا الهواء، وبرغم امتنانى شخصيا لإمكان التنفس الخوف أقسى على الناس من غضبهم، وإدراك متأخر جداً أن البلد فى قبضة عصابة!

مستحيل أن أشرح، ولا أدرى كيف أصوغ ما يجب أن تنقله عنى إلى الأصدقاء. طمئنهم ليس على أرواحنا ولا وحدة كلمتـ[نا] ولكن على بوابة نعبر من خلالها جميعا. ر[...] أقر ما بوجودها ومن أنكره، ولا نعرف شـ[يئا] عما ينتظرنا خلف الدخان

هل قرأت ساراماغو؟ هل استمعت إلى الشيخ إمام؟

مشهد الشباب بخوذات مهندسى البـ[ناء] الصفراء وعصيهم تتقدمهم وسط أسرا[ب] العائدين على الأقدام فى ضوء سيارة واحدة بعيدة فوق الجسر المظلم. هل لك أن تتصو[ر] أن الخوذات لحمايتهم من الحجارة والمولوتوف إن لم يكن الرصاص؟ وأين [...] يحدث وراء السلك الشائك ألق النهر المنساب على الجانبين، تحت أضواء المدينة الخالية؟

عزيزى،

لا نهاية للمشاهد والملاحم ولا ضرورة بعد - لتمجيد أى شىء. كلنا الآن يحتفى بكلمة مصر، ولم يجرؤ أحد على الاعتراف بأن مصر هى أكثر الأشياء مرونة بيننا. مصر التى جبلتنا على الخنوع والفساد لها أنا عشـ[ت] يوما متوقفة عن الحركة. وثمة مصر أخرى هشة وشفافة ولامعة كالزجاج، تلك التى لم تزل فى حناجر الآلاف ممن أدوا صلاة الجمعة بأحذيتهم على أسفلت الكوبرى، فى طريقهم إلى الميدان حيث من يفتشهم يعتذر لهم ويهنئهم بسلامة الأبطال. فى مصر الثانية هذه أثبت الناس أنهم قادرون على المبادرة والتنظيم والالتزام بل واحترام الغير، واختفت تماما زواحف الطائفية والتحرش الجنسى، البلطجة والكذب المنظم. لن تسقط

دولة ميدان التحرير باسط أو أسرع مما تسقط به دولة مبارك، لكن الآتى مصر ثالثة ستحدد معالمها قبل أى شىء قابليتها على [...] أولاد الثورة أحرار الجميع. أنا حتى اللحظة بخير، وأنا [...] متمسكون حتى الرمق بفرحتنا

آباء من الفضاء الخارجى

ثلاثة جمع ولا يبدو أن مبارك قد أدرك ما يحدث من حوله، لا هو ولا العاملون معه ولا قطاع آخذ فى التضاؤل من المصريين الذين يفضلون وهم الأمان على فرصة أن يكون لهم ولبلدهم معنى أو يحصلون أخيراً على حقوق اكتسبوها بانقطاع أحبالهم السرية. إما هذا أو أن التبجح والتنطع قد جاوز حد العماء، والخسة طبعاً، الخسة التى تحوّل النفس، بين شهقة وزفرة، إلى كذبة سافرة. مجرد كذبة مكرورة مفترض من الناس أن يبتلعوها حتى بعد أن ذاقوا طعم الحقيقة وسجدوا على الأسفلت. أنا أعدك بذلك. منذ ١٩٦٧ ونحن لا نصدق الأكاذيب بقدر ما نبتلعها خوفاً وبحثاً عن المصلحة المباشرة. فى كل جهاز إدارى وفى كل المجالات مبارك صغير يفعل ما يفعله مبارك، تحكمه الاعتبارات العائلية واعتبارات تحالف النصابين أكثر ألف مرة من الرغبة فى التنمية أو الإنتاج. ومن قبل حتى أن يولد من أطلق شرارة الأحداث الجارية، كانت الرؤى القومية/ اليسارية قد ذهبت وبقيت، بلا مبرر، الدولة البوليسية. ذهب الزعيم (على كل ما فى فكرة الزعامة من قيد) وبقى الديكتاتور الحرامى. مجرد صنم أجوف، صدقنى. وليس من يمنعه من التصرف وكأنه سلطان يورّث عزبته لابنه بينما تقبل الوزيرة يد امرأته أمام الكاميرات. لكن الدم الذى يجرى فى عروق مبارك ليس أزرق. ونحن نعلم. لا يمكن أن يظل الناس يصلون لإله عجوة إلى الأبد، خاصة وأن نعيمه لم يعد مواتياً. ومنذ سنين وسنين وقد تحولت الأشغال والمآرب إلى تمثيليات نبحث، نفسنا بين طياتها عن مساحة مسروقة يمكن أن نكون فيها بشراً: الكتب التى لا يقرأها أحد لأن أكثر من نصفنا أمى؛ العمل الذى لا يأتى على أكثرنا بالربح الكافى للعيش ويتلخص إجمالاً فى تملق الرؤساء؛ العشق الذى يخصص قسم كامل من أحد أقبح أجهزة الأمن فى العالم لمنعنا من ممارسته؛ الفنون ومباهج الحياة التى يضيّق عليها مشروع سلفى اتضح منذ ٢٥ يناير أنه (وبخلاف مشروع الإخوان المسلمين) متواطئ بالكامل مع السلطة ويساهم فى تحجيم الجماهير لتسهيل استبدادها بالقرار. ولا قرار. التعليم والصحة والزراعة والمواصلات وحتى السياحة، فضلاً عن «تجاوزات» الشرطة: كل شىء فاسد وغبى ومزيف. خلاف ضخ الأموال العامة فى الحسابات الخاصة وتنفيذ ما تأمر به أمريكا حرفياً بلا اعتبار لا للهوية العربية ولا للضمير الإنسانى، بالذمة، ماذا فعل نظام مبارك فى الثلاثين سنة الماضية؟ ثم لحظة من فضلك. بأى حق يخاطبنى الآن شخص أثبت لى بالقنابل المسيلة للدموع والذخيرة الحية والتضليل الإعلامى والمسيرات المدبرة والبلطجية المسلحين بل وبالجمال والحمير أنه ليس سوى رئيس عصابة؟ ثم بأى حق

يكلمنى بوصفه أباً أو حتى جداً مخرّفاً؟ بأى منطق يطلب سأصدق أن الشهداء أوجعوا قلبه أو أنه لن يقبل إملاءات من الخارج؟ ولا يفتأ نائبه الجديد، مهندس «عملية السلام» العربى الإسرائيلى الأول - رافعاً الغرور وناصباً المرفوع - يحدثنا بكل هدوء عن «الأجندات» إلى مبارك وعمر سليمان وأحمد شفيق وأنس الفقى وسائر المخلوقات الفضائية: بحق ما يجعلنا نتنفس ويخرج الصوت من حلوقنا، لن يعود أحد إلى بيته حتى تصبح لنا بيوت؛ لن نعود إلى الحياة حتى نشعر أننا أحياء. وأنتم لستم آباءنا، يا قحاب.

صباح ١١ فبراير قبل التنحى

صلاة شكر

بريق اللافتات. والصاخبون. والذين تركتهم مطمئناً. وللمرة الأولى منذ اجتمعنا. والخيمات التى يسكنونها. وطعم الهواء خلف الحواجز. والذين تركوا أشغالهم ليجمعوا الزبالة. وبائعو الأعلام مع بائعى التسالى. وليظموا صفوفاً فى الدخول والخروج. والذين «عزّلوا» بعائلاتهم. والنائمون تحت الدبابة. علامة النصر بالإصبعين. والذين يفتشونك ويعتذرون. والنائمون فى العراء. وكذب المحطات الرسمية. وفى أحضان الله. والكلام المقفّى. والذين يقبّلون الجنود. والخيانة على صفحات الجرائد. والخيانة بلا أجندات. وحاملو الأرغفة والفواكه. الشاى فى الكوب البلاستك. والسيجارة المشتعلة من سيجارة. وصورة تذكارية مع الدبابة. الذاهب والآتى. و«مرحباً بالأبطال.» ومن راح حسه وهو يهتف والخوذة المرتعدة لى النار والكوكاكولا لغسل الوجه ولى الطوب والخوذ والعصى أخوذه بـ الرجوع وأحصنة السكالى وأملف سفرة بالشظايا أوجع قلبه ما حدث لهم والكوكاكولا ثلاثة حسيهات كشرى صغيرة. ولا يجد حرجاً. ومع علمه ولن يقبل الإملاءات الأجنبية وغشوه مضللون. حاملو الجرحى عبر المداخل ويشوهون - وخراطيم المياه على الساجدين. والساجدون على الأسفلت. والذقن والشعر والأغنية ويقولون إنه على كل رئيسنا. سائق التاكسى الخائف. ورافعو الصليب المقدس. وسائق التاكسى المجول. والذين دهستهم العجلات. صورة الرئيس مع الحذاء. ومسبح الأجساد واحداً بعد واحد. والذى مات قبل على الطلقة التى أخرجها من عنقه الطبيب والذى اختطفوه وأحرقوا وجهه بالسجائر والذى مات فى المرة الثانية. من يهتف لا يمت. والقنص من فوق أسطح الفندق والقنص تحت ستار الليل والشعارات فى الرصاص والذى واجه المدرعة بمفرده والقلق على البلد ككلام المأجورين. وتحت غطاء الليل. أكثر من معنى لخيبة واستغاثات الأطباء. والنائمون على السلالم وخسة الشرطى. ومن حمل القبلة وقدمها عليهم. ومن وسط دخان التسح ومن حرق محلهم وهم يركضون والذى منع زميله من ضربهم بالحجارة. والنيل ليلاً. والجندى الذى قال لى: كيف أضربكم وأخى بينكم وضابط الجيش الذى غمزنى بذراعه. والشعب يريد إسقاط النظام. ودقات الطبل

بدنا على. والكارثة. والساحات المدمدمة كمناحل ودقات لتغيم الشعار. الانتظار والذراع مرفوع بالطاقة. ومن كان شرطياً سيذبح والجلوس على الرصيف. والموت ضرباً. والموت بالنهار. والمطر على الجباه الشعب يريد محاكمة الرئيس وعيون الخارجين من المساجد. وأطفال العشوائيات وما يبقى من السيارة بعد أن تحترق والانفلات الأمنى والرشاش فى المراحيض وأفواج الآتين بعد أن يأموا والآتون مع أصدقائهم والآتون مع أقاربهم والآتون لوحدهم ويسقط مبارك ■

عين الثورة

صور الصفحتين والصفحتين الثالثتين 📷 عادل وسيلى

عقب صلاة الجمعة القادم
يريد إسقاط النظام

هنا
مقر
ثوار البدرشين

عطية عبد الله عطية

صور الصفحتين والصفحتين التاليتين جيهان عمر

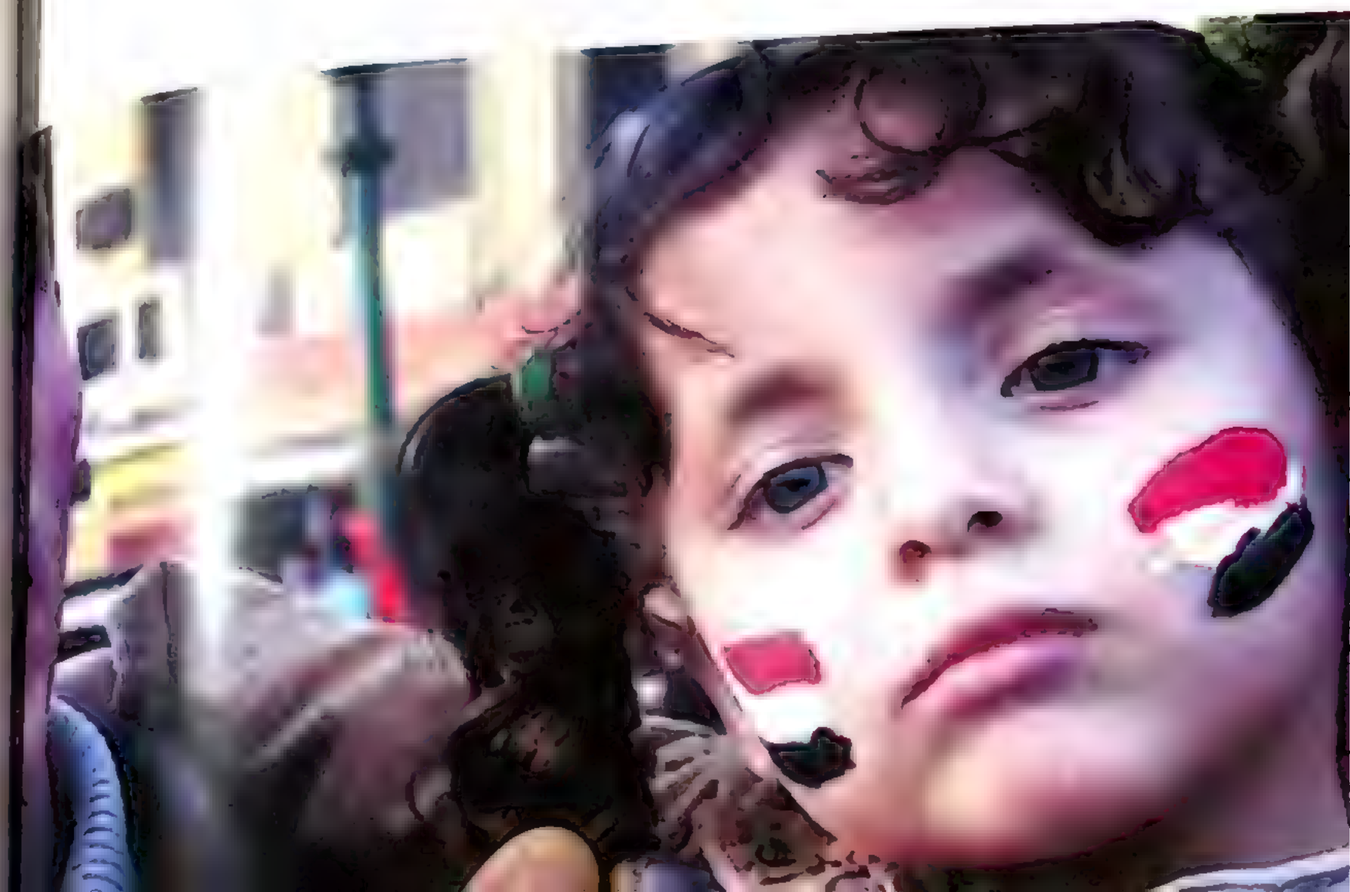

EGYPT مصر
٢٥ ی ن ا ی ر
25 RYANY

ربيت لحيتي زي النبي -
قال إعتقلوه ده إرهابي
شغلت عقلي لأي آدمي -
قال دمروه ده علماني
قلت طيب عزتي وكرامتي -
قال كفاية عليك الكوره والأغاني
بس دم الشهيد
خلاني أنا اقوله مبارك
مش هيقعد تاني

أرحل

صور الصفحتين والصفحات التالية 📷 تحسين بكر

١٣٣٢

الانتظار

مصر
٢٥ يناير
25 JANUARY

نصوص

الزعيم

إبراهيم عبدالفتاح

نظراً لآن النعمة فاقت حدها
ولأننا مش قدها
ولأن فعلا انجازاتك
فوق طاقتنا نعدها
ولأننا غرقنا فى جمايل
مستحيل حنردها
نستحلفك ..... نسترحمك
نستعطفك .....نستكرمك
ترحمنا من طلعة جنابك
حبتين
عايزين نجرب خلقة تانية
ولو يومين
اسمع بقى
إحنا زهقنا من النعيم
ونفسنا فى يومين شقا
عايزين نجرب الاضطهاد
ونعوم ونغرق فى الفساد

بنى وبنك حضرتك
دا شعب فقرى مايستحقش جنتك
أنا عارفه شعب ماينفعوش
إلا شارون وبلير وبوش
عايز يجرب الامتهان
ويعيش عميل للأمريكان
يمد غازه لإسرائيل
ويومين كمان ويمد نيل
أهو يعنى نشرب ميه واحدة
ندوب فى بعض
ماء وماء
ونفض سيرة الانتماء
وبلاها نعرة وطنطنة
تبقى البلاد مستوطنة
(متسلطة بالسرطنة)
إيه اللى خدناه م الكرامة والإباء
حبة خطب وكلام...كلام

إحنا راهننا على النظام
ورضينا بخيار السلام
احنـد عين الشمس بيه
علشان مايطلعش النهار
يطلع لمين ؟
حبة معارضة مغرضين؟
وحسب بيان السلطة
شلة ماجورين؟
ياعم فضك سيرة
وارضى بقسمتك
دا شعب مش فاهم أكيد
يالا اطرده من رحمتك
وان كنت غاوى الحكم
خليك مطرحك
حاغطس واقب وأعود
بشعب يريحك
راضى وعمره مايجرحك

أخرس ومايسمعش
وأعميلك عينيه
مش كل قرش يبص فيه
مايقولش لأه، وفين، وليه
يضرب ينفض فى السليم
وعلى الصراط المستقيم
كل اللى يعرف ينطقه
عاش الزعيم
يحيا الزعيم

نشرت هذه القصيده بجريدة الدستور قبيل انتخابات الرئاسه الفائته والقائله ونسبها بعض الناس بالخطأ لشاعرنا وعمنا الكبير أحمد فؤاد نجم .. ونسبها آخرون أنى أنفسهم ولا أدرى لماذا وعشى كل هى قصيدتى ولهم السجن لما تقع الفاس فى الراس
٢٠٠٥ ... ٢٠١١

قصص فى حجم الكَفيْن

حمدى الجزّار

صلاة

جمعة ٢٨ يناير ٢٠١١ جامعة.

ميدان الجيزة على اتساعه ضيّق، ضيق صدور الناس فى البلاد، بعد أن أحاطوا أرصفة شوارعه بأسوار من حديد غليظ، بارتفاع قامة إنسان قصير، ومنظره كالح وقبيح فى عيوننا، بعد دهان واجهات عماراته القديمة، الآيلة للسقوط، بالأصفر الصحراوى.

الميدان يزهو بنفقه الجديد، ذى السلم الكهربائى اللامع، والبلاط الرخامى الناعم، ويتأنق بجزيرة خضراء صغيرة، فى وسطها لوحة عملاقة، صورة فوتوغرافية للرئيس بالحجم الطبيعى. الرئيس بنظارة شمسية واقف، ومبتسم، وخلفه حقول خضراء. وعلى أعمدة الإنارة لافتات الترحيب، وصورة لرجل الأعمال الكبير، نائب الدائرة، وصاحب الجمعية الخيرية.

الميدان ينتظر منذ زمن طويل، بصبره المعتاد، الرئيس، ورئيس الوزراء، طويل الذكاء، والمحافظ لمهرجان افتتاحه. الحكومة والميدان غافلان، لا يدريان حقيقة ما يجرى فى البلاد.

قبل أذان الجمعة، خرج من الشوارع والحوارى وأزقة الجيزة الداخلية، شباب وكهول ونساء وعجائز عابسون، فى جلاليب بيضاء، وبنيّة وسوداء، وبنطلونات جينز وبلوفرات، وفساتين وجواكت.

خرج متوسطو الحال والفقراء والميسورون، الحرفيون والتجار والأساتذة والبهوات، فرادى، وأزواجًا، وجماعات للصلاة بجامع الاستقامة، ولأسباب أخرى.

ملأ الرجال صحن المسجد الكبير، ككل جمعة، والنساء فى الصفوف الخلفية، معهم ووراءهم الأطفال، وفى الساحة أمام المسجد والسنترال افترش المصلون، الزائدون عن سعة الجامع، الحُصر، ووقف الآف حولهم : أقباط، ومسلمون، يحمون، لا يصلون.

بخلاف أية جمعة، منذ سنوات طويلة، كان البارز الغريب، فى مشهد الميدان، عشرات من عربات الأمن المركزى والآف الجنود فى زيهم الأسود، تحت الكوبرى، وبجوار سور مكتبة كلية الزراعة، وعلى نواصى الشوارع، يحكمون حصار الناس والميدان.

بين الأذان وإقامة الصلاة، كانت تجوب سحب قلق، وتوجس وترقب فضاء الجامع ومصليه وسجاجيده وحُصره، وتطوف سماء الميدان وشوارعه، وتهبط مستقرة فوق رءوس الجميع، وعلى وجوههم، كما هو حالها بمصر كلها.

سرت أخبار فى الليل عن قدوم البرادعى، ومناوئين للنظام، للصلاة بالجامع، ومنذ الثلاثاء الماضى يسقط، فى كل لحظة، قتلى وجرحى، فى التحرير، والأسكندرية، والمحلة، وغيرها. القتلى والجرحى الأكثر عدداً سقطوا فى السويس، أم النضال.

الجرحى والمكلومون بالألآف، والدنيا هائجة فى كل مكان.

ليلة أمس، على مقهى السّمر، أقصى الميدان، قال لاعب شطرنج مخضرم : كل شىء يتوقف على هذه النقلة، هذه الجمعة.

فى خطبة الجمعة قال الخطيب نسأل الله لمصر السلامة، ورد المظالم واجب.

بعد ختم الصلاة صاح، وسط الصفوف، واحد يسقط يسقط حسنى مبارك، فرددت خلفه جموع المصلين، بقلوب مخلصة، وحماسة، وقوة أمل، حتى عبر الهتاف للسماء، وللأمن، وفى الساحة ردد الجالسون على الحصير، والواقفون حولهم، النداء، متحدين حافظ النظام، مُهلك الناس.

قبل أن يتحرك أحد من مكانه، أو يقوم، كانت مدافع الماء، والغيظ، والقلوب العمياء، قد فُتحتْ، وصُوبتْ على المصلين والحشود.

اغتسال ووضوء جديد بعد صلاة، لا بأس، ولا خوف، ولا ضعف . تحدثتْ أفندة الناس، وعيونهم.

تقهقر بعضهم قليلاً، وجرفت وأسقطت تيارات الماء القوية فى طريقها كثيرين، ومع التدافع

للخلف وللأمام، وفى كل ناحية، سقط عجائز وكهول وأطفال ونساء.

بعد مدافع الماء بدأ إطلاق القنابل المسيلة للدموع، من كل صوب، ومن أعلى الكوبرى، والبنايات. سحابات الدخان الكبرى أظلت الميدان والجامع والناس، والرائحة الخانقة تزكم الأنوف والأرواح، الوجوه جلود حمراء ملتهبة، والعيون دامعة. اختناق وعطس وبصق لكن الهتاف لا يخفت، ولا يلين، ولا يتوقف، بل يزداد قوة وشدة، واصراراً: يسقط يسقط حسنى مبارك، تهدر حناجر وقلوب الناس فيحوم، ويجول، الموت بين الناس، وفى الميدان.

الرصاص المطاطى والحىّ يهطل، ويغزو الأجساد، يخرقها ويدميها، ويميتها، من كل صوب، وكل اتجاه، القنّاصة، برشاشات مشرعة، تنفث النيران، فوق السنترال والأبراج كصقور وغربان سقط، ما لا نعرف كيف نعد ونحصى، قتلى وجرحى، فصرختْ نساء وولولت، ولطمت الخدود. اكتستْ أثواب بحمرة الدم، وانتشرتْ على أرض الميدان، وحُصر الجامع برك دماء.

اشتعلت نيران فى بعض السيارات، والمحلات والناس، وسرت فى كل الأنحاء، تصاعدتْ وحَمتْ، وأخذت تلتهم كل اللافتات والعلامات والصور.

وعلى مهل، وبلا استمتاع، بدأت النار تأكل صورة الرئيس، لحظة بعد أخرى تلتهم النار سنتيمتر بعد آخر من الصورة العملاقة بإصرار وقدرة، وحماس.

لم يمض وقت طويل حتى تحولت الصورة لكتلة فحم، ورماد.

وكان النفق الجديد قد سده دخان أبيض خانق، وعلى بلاطه الرخام وقعت أجساد، وسالت دماء غزيرة، لكن هتاف مئات الآلآف يسقط يسقط حسنى مبارك ترتيل، وصلاة.

بلاغة

مساء الأربعاء ٢٦ يناير ٢٠١١

فى شارع ٢٦ يوليو بوسط القاهرة، وأمام وحول دار القضاء العالى، مهيب البناء، بأعمدته الرومانية، وسلالمه الرخام، وأبوابه التاريخية المغلّقة، كان الألآف يتظاهرون، يحتجون على فساد

النظام، يطلبون العدالة والكرامة والحرية، ويهتفون برحيل الرئيس، مُحاصَرين، من كل اتجاه، بالأمن المركزى ومركباته ومدرعاته. الجنود والضباط ملابسهم سوداء، وعصيّهم كهربية، وأوامر قتل المتظاهرين عمياء، لكن الخوف فى البلاد، كان، بالأمس، قد مات.

رجال ونساء، شيوخ وشباب، يموجون، ويهدرون، ويعلّون الأصوات، فيهم، ومنهم، قضاة وقورون، وأساتذة جامعات، ونشطاء فى مجال حقوق الإنسان، وفنانون وكتاب ومحامون مفوّهون، لكن يبدو أن البلاغة، فى مصر، مشاع.

وسط الزحام على سُلّم دار القضاء الرخام، قدام الباب المغلق، كانت تقف امرأة نحيلة، قصيرة، من عامة الناس. ثوبها أخضر وواسع وطويل. تسدل على رأسها، ووجهها، وصدرها، نقابًا أبيض، لا يُرَى منها سوى عينيها الواسعتين الذكيتين.

واقفة على قدميها لساعات، فى نفس المكان، كانت المرأة تحدق فى باب، دار القضاء العالى المقفول، دون تعب أو ملل، واجمة صامتة.

وأخيرًا هاهى ترفع وجهها للسماء، وتفرد يديها لآخرهما مفتوحتى الكفين، وبصوت رقيق، وانفعال غامر، تستصرخ الله، وتحسم القضية .. تهتف من أعماق قلبها بحرقة وايمان: فى بطنى جنين ست شهور.. يموت وبلدى تعيش.

شاعر

شاعر الجامعة، المتأنق بصرامة، كان صاحبى.

من عشرين سنة لم نره، ولم يكتب، أو ينشر قصيدة واحدة.

ها هو يخرج من كهف ماضينا البعيد، ويأتينا.

يلم جسده من رقدته فوق الأسفلت القاسى، ينحنى ويزحف، ويطلع من خيمة اعتصامه، الواطئة الصغيرة، بميدان التحرير .

بذراعيه يشق لنفسه موضع قدمين بين الحشود، يؤرجح جسده، ويتكأ بيسراه على كتف واحد

أمامه، يشب على أطراف أصابعه، ويرفع يمينه ويفتح كفه، يلوح لنا، يحيينا، ويتحرك، يتقدم نحونا.

فى ميدان التحرير، بدا لنا الشاعر نحيلاً، ومُمصوصًا، شعره المنكوش طويل ورمادى، وترينجه الرياضى رث، حال لونه، اسودت ياقته، وتكرمش قماشه، لم ينم منذ أيام إلا ساعات.

الشاعر فقد من وزنه، وشبابه، الكثير، تجعد الجلد حول عينيه، وفمه وجبهته، ورقبته، لكنه يتحرك برشاقة صبى ونزقه، ويشق طريقه فى الزحام نحونا، مبتسمًا، كما أفعل أنا.

تحاضنا، فألقى كلتا ذراعيه على كتفى وظهرى، وهو يهمس بكلمات فى أذنى، بصوت مبحوح واهن، شديد الخفوت.

لم أسمع ما قال تمامًا، ولم أفهم، لكننى هززت رأسى، وربتُّ على كتفه.

وهو يتأمل حلقة أصدقائه القدامى، ويتمعن فى وجوهنا، واصل تبسّمه الذى أضاء وجهه بنور طاغ، وبكى بكاء مرًا، وحارقًا، وسعيدًا

جملة

كل يوم من أيام الثورة، منذ عادت الاتصالات والأنترنت، تكتبْ على صفحتها على الفيس بوك، فى خانة الاستاتس، جملة واحدة: النهارده هروح الميدان، ميدان التحرير..أشوفكم هناك

كل يوم تذهب، وكل ليلة، آخر الليل، أنتظر أن تكتب جملتها الجديدة المتكررة، لأعرف هل عادت للبيت، وجلست أمام الكمبيوتر، وكتبت جملتها أم لا.

جميلة هى، وتبدو فى صورة البروفيل رقيقة، وحالمة.

بيضاء البشرة، سوداء العينين، وشعرها الأسود ناعم ومسترسل، وابتسامتها جذابة.

عادة تكتب جملتها، رسالتها، فى نحو الواحدة صباحًا.

ليلة الثلاثاء، ٨ فبراير، كتبتْ النهارده هروح الميدان، ميدان التحرير.. أشوفكم هناك .

وأضافت، على غير العادة أنا فى أسعد أيام حياتى.

بعدها لم تظهر جملتها مرة أخرى، سكتتْ صفحتها، وتجمدت على جملتها الأخيرة

جُنْدى

بين ميدان التحرير، وميدان عبد المنعم رياض، على ناصية شارع قصر النيل، قاعد متربع فوق الدبابة، فى جلسة الكاتب المصرى، بداه على ركبتيه، كمصلى يختم صلاته، جندى شاب. ومُتعب. سمح الملامح، طيّبها، حالما تنظر إلى وجهه تعرف أنه فلاح، وأول ما تسمع صوته ولهجته تعرف أنه من الأرياف، من الدلتا، على الأغلب.

اقترب منه، وحيّاه واحد من المتظاهرين بسلام، وابتسامة، فرد بتحية عسكرية، باسطًا كف يمينه المتشقق بحذاء خوذته، وجبهته. جبهته بارزة، تكسوها بعض غضون وشقوق، على شابه، وحداثة سنه.

المتظاهر أفندى متانق، كصحفى أو محام.

سأله: جت أوامر بالضرب يا دفعة؟!

ببساطة، وعفوية، قال الجندى : آه.. كان فيه أوامر جت الصبح..بس إحنا كسرناها..متخافش!

- جت منين؟

- جت من هناك ..

وأشار بيده كما اتفق، فى اتجاه ما، وخلاص.

حار المتظاهر منين يا دفعة ؟ .

سكت الجندى، فاقترح المتظاهر جت م الرياسة؟

- آه ..م الرياسة . وافق الجندى.

- قالوا لكم تضربوا بايه؟

متعجبًا قال الجندى:

اضرب باللى أنا راكبه ده.. بالمدافع والدبابات!

فعر المتظاهر فاه ها؟!

- آه .. بس أنا ما ضربش الشعب. إحنا الشعب، ما حدش يضرب أخوه أو أبوه أو أخته .

وحوّل الجندى وجهه عن الأفندى، وتركه مبهوتًا، واجمًا.

دبابة

أمام دار الأوبرا، فى مدخل كوبرى قصر النيل، أطفال تحت السابعة ونحوها، أولاد وبنات، سمر وبيض، وصُفر، بملابس زاهية وأحذية وصنادل ملونة، أغلبهم جالس على الخواف الحديدية الصلبة، يدلدل رجليه، وخمسة ستة واقفون، يتساندون بمرح، فوق الدبابة الصفراء الجديدة، كبيرة المنظر.

يحيط الأمهات والجدّات والآباء بالدبابة، كأنهم أولياء أمور أمام باب مدرسة ابتدائية، ساعة طابور الصباح. وفوق الدبابة وحولها جنود فى كاكى الشتاء، ومدفعها، الغليظ الطويل، مقفول الفوهة بقماش.

الأطفال يتضاحكون، يلعبون مع بعضهم، والجنود.

العيال، فوق الدبابة، يهزّون أرجلهم فى الهواء، كأنهم يطرطشون ماء نهر النيل، المنساب، بهدوء ووقار، خلفهم، وعلى يمين الدبابة أسد قصر النيل رابض كحارس مهيب، تحت شمس فبراير الحانية.

الأولاد مطمئنون فى حضن الدبابة، تحت عيون الكبار والجنود، يلتقطون ببهجة ومرح الشيبسى والحلوى والفيشار، من أكياس فى إيديهم، وعلى صدورهم.

وجندى يرفع فى الهواء، ولصدره، رضيعًا، ويبتسم للأم التى تلتقط الصورة بكاميرا الموبيل، والجندى الآخر يرفع خافة الدبابة طفلة أخرى..

رجلان

مساء الجمعة١١ فبراير٢٠١١

كانَ قصر الرئاسة معزولاً بالأسلاك الشائكة، محروساً بعشرات الدبابات وآليات الحرس الجمهورى، ومحاصراً بعشرات الألآف من الثوار الذين توافدوا عليه، من كل صوب، منذ ليلة أمس.

بغروب شمس اليوم، من القصر الجمهورى، ظهر على شاشة تليفزيون الحكومة نائب الرئيس، كبير العسس السابق.

فى ثانية الصمت الأولى بدا العجوز، ذو الوجه القاسى، متجهماً، يائساً كآبق فى طريقه للجحيم، صمتَ لحظات، وهو يحدق فى ورقة بيده، بلع ريقه الناشف، وكمدانٍ يتلو بنفسه على العالم قرار إعدامه الشخصى، أعلن تخلى الرئيس عن منصبه، وتفويض المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد.

مساء الجمعة١١ فبراير٢٠١١

فى ميدان طلعت حرب، مع انتهاء البيان القصير، المكوّن من جملة واحدة، ومع تلاشى الوجه العتيق من الشاشة، وللأبد، شق شاب طريقه بين زحام الألآف فى الميدان الأنيق. تسلق قاعدة تمثال طلعت حرب، حتى حاذى رأسه، قبّل جبهته وطربوشه، وصار يلوح بعلمه للسماء وللنجوم، صارخاً بالحرية، وانفصل بكليته عن الجموع التى تزأر بالفرح فى الميدان والشوارع. صرخ ونادى السماء، كأنه فرحه وحده، وانتصاره وحده.

حول طلعت حرب والشاب شعب يغنى ويرقص، يقهقه ويبكى فى آن واحد، يموج ويهدر، جسد واحد عملاق كشمس، وكجبال، يزغرد نشوانًا وسكرانًا، يزلزل الأرض، ويدب فوقها بملايين الأقدام، ويطلق الضوء، والألعاب النارية، من كل صوب، فى اتجاه واحد.. اتجاه السماء العالية.

علم

لأول مرةٍ فى حياتى يخطر على بالى أن أدفع نقوداً، وأشترى علماً كبيراً، ويخفق قلبى بأن اصمّه برفق بين يدى، وبأنامل أصابعى المسه، وأتحسس قماشه بغبطة، ورهبة، لأول مرةٍ أرغب فى ان أقبض عليه بكف يمينى، وأرفعه فوق رأسى، وأطلقه بامتداد ذراعى وانبساط يدى، واحركه فى هواء بلادى يميناً ويساراً، كآية وبشارة، مصغياً، بكل حواسى، لخفقته ورفرفته، ومحدقاً فى ألوانه ونسره. أرفعه عالياً بقوة يدى وروحى، وألوّح به للآخرين، بمرح طفل، مبتسماً من قلبى المرتعش، ابتسامة رضا، وسلام نهائية.

ربما أفعل ما أفعل كى أرى وأنظر الخلق؛ وليظرنى الجميع على الأبواب والنواصى، فى الشبابيك والبلكونات، فى الشوارع والميادين؛ ولأجل أن أتنفس هواءهم واحيا، الامس سحابة الفرح التى سكنتْ فيهم، تلازم وجودهم وحضورهم، تحيط أجسادهم ووجوههم، وفوق رءوسهم تمضى معهم أينما ساروا. أستوقفهم، ألمس، برقة حمام، أكتاف الرجال والنساء، وأنظر فى عيونهم التى أضاءت بالنور بعد ظلام طويل..طويل. وأقول لهم دون أن يتحرك لسانى: وأنا أيضاً فخور الليلة، والليلة فقط، بأننى ولدتُ هنا مثلكم، وأنى واحد منكم.

وأصيرُ ذرة رمل، قطرة ماء فى بحر شعبى، على رصيف طلعت حرب، ولا مكان بنهر الشارع لقدمين آخرين. أنساب وأموج مع الكائن العظيم بخفة، دون إرادة، منوّماً، ومنتشياً بغبطة، لم أذقها من قبل أبداً. علمى شراعى أرفعه، وجهى له، وعيناى تتطلعان للقمر فى السماء، ولله الأكبر.

الله أكبر..الله أكبر من كل لسان، وكل فم تصّاعد للسماء.

من خلفى أمسكت يد مراهق مترددة بقماش علمى، نظرتُ إليه متسائلاً، حين التقت عيوننا قال برقة، بصوت خافت: نفسى أشيل علم .

تركتُ العلم لأصابعه، وفرحة عينيه، وابتسامة صباه.

فى لحظة خاطفة، حمله صديقه الفتىّ على كتفيه، واندفعا فى نهر الشارع، مخترقيْن الزحام، نحو ميدان التحرير. من فوق، أخذ يلوّح بالعلم كأنه روح أمته، وكنز ذهبه الشخصى بيده، وبصوت كالرعد راح يصرخ مصر حرة.. مصر حرة.

هبطتْ، كريح، من الرصيف إلى نهر الشارع جاريًا خلفه، مرددًا بعده مصر حرة

واحد

رجل شارع عادى، فى منتصف العمر تقريبًا، يلبس قميصًا خفيفًا، رغم البرد، وبنطلون جبردين، وغير فريد فى شىء، أو بعلامة مميزة على وجهه!

ولا تستطيع بسهولة أن تعرف عمله أومهنته، أو محل إقامته،

أو ظروفه، ولا أعرفه ولا يعرفنى، كان يجلس وحيدًا فى مقهىالحرية بباب اللوق، إلى المنضدة المجاورة لى، مال علىّ فجأة، وقال لى بوجه منشرح:

الواحد نفسه اتفتحت على الحياة، والدنيا، والشغل، والكلام مع نفسه، والدردشة، والرغى مع أصحابه، وجيرانه، وركاب المترو، والنادل فى القهوة، والزملاء فى الشغل، والمارة فى شوارع وميادين المحروسة، والأصدقاء على الفيس بوك، وماسينجر جوجول، وياهو، وهوت ميل، وحتى على الكلام مع مراته!

الواحد عنده شهوة للكلام حتى مع طوب الأرض، وأسفلت الشارع، الواحد كأنه مقبور من أربعين سنة، دبت فيه روح جديدة فجأة، فنبت له جسد جديد، وعقل آخر بدلاً من الذى أكلته الديدان، وخرج للعالم للتو، أو.. أقول لك، الواحد كأنه سجين أخرس خرج من السجن ونطق فجأة، ومرة واحدة، فى ميدان التحرير يوم وليلة ٢٥ يناير، ومن بعدها ماسكتش. الواحد يريد أن يغنى، ويرقص ويضحك على الهايفة والمليانة، يريد أن يجرى فى الشارع، يصافح كل من يلقاه، ويقول له بصوت راقص، وفرحة من صميم قلبه مبروك.. مبروك.

صمت للحظات كأنه يتذوق كلماته، ثم قال :

تعرف.. لو اتعميت أو اتشليت أو اتكسحت، أو حتى لو مت الليلة هكون أسعد متوفى فى العالم!

أَسَفْ!!

بمناسبة الدعوة لمظاهرة آسف يا ريس فى ميدان مصطفى محمود، لتوارى، وتزامن، وتغلس على مليونيات جمعة النصر فى ميدان التحرير، وميادين محافظات مصر كلها، كتبتْ فتاة، فاتنة الجمال وظريفة، فى صدر صفحتها على الفيس بوك، كتبت الآتى:

اقترح أن نقول مع آسف يا ريس ، معلهش يا عادلى،

و لا مؤاخذة يا عز، وحقك عليّه يا مغربى ، و سورى يا جرانة، و ما كنش قصدى يا أم جمال ..

وأرسل أحدهم برقية عاجلة، عبر تويتر، للرئيس السابق جاء فيها،

شد حيلك شد.. التنحى بيهد!

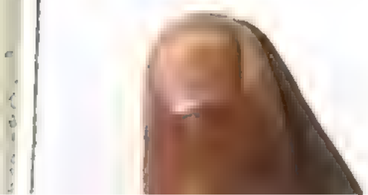

دم الشوارع

سعدنى السلامونى

لا بيادات
ولا دبابات
ولا رشاشات
لا سجن ولا معتقلات
لا قنابل ولا مطاطات
إنتوا اللى بتعمروا التليفزيونات
بجرايد خاينة ومجلات
كاميرات جبانة
بتخون الشاشات
□□□

والشارع طالع والع
الشارع
الأطرش والأعمى
بقى شايف وسامع

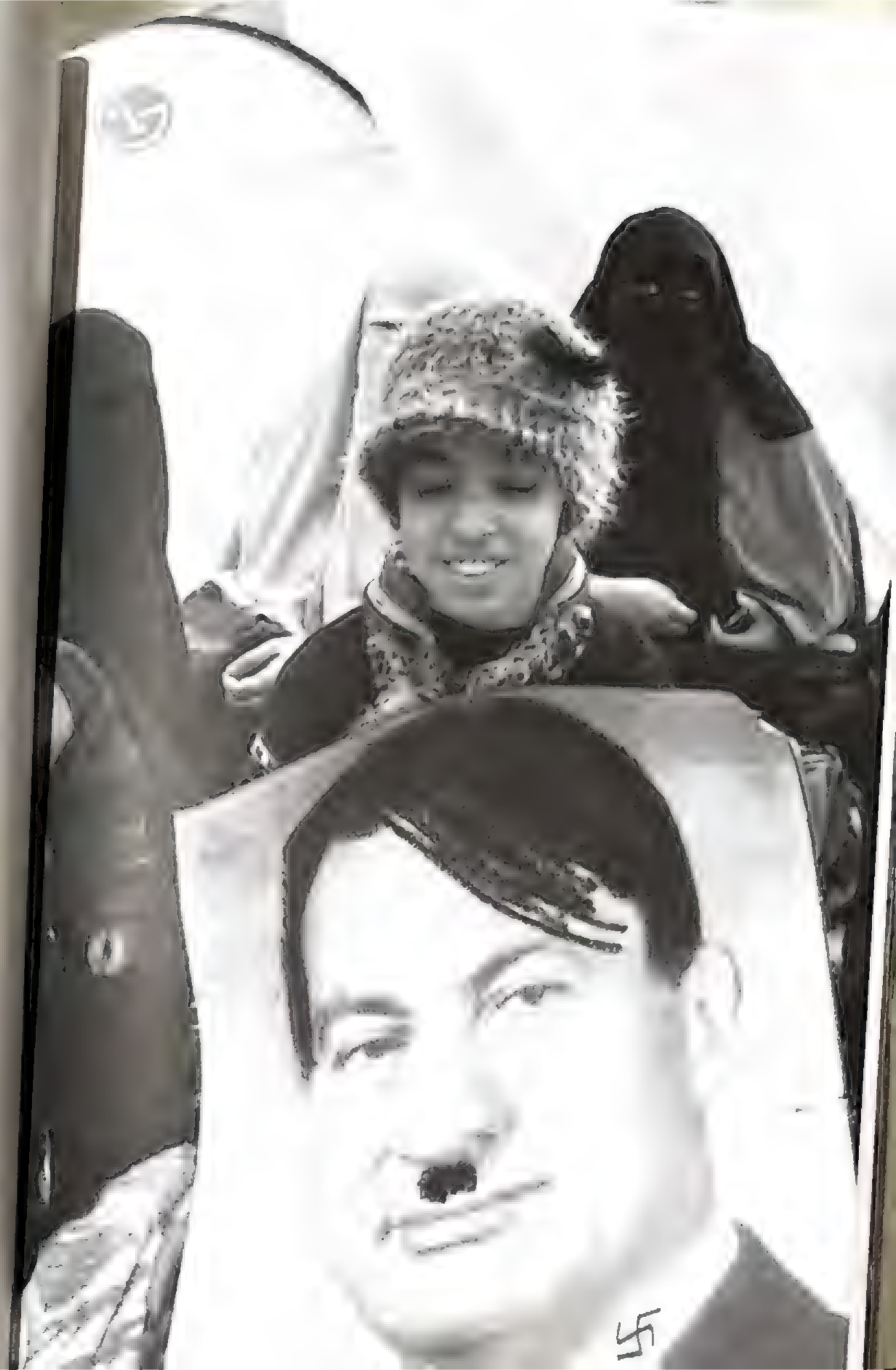

طالع والع
الكيسة
ساحبة فى إيديها الجامع
والشركة
بتوسع لرجول المصانع
الشارع
والع والع
□□□

يا ميت ألف مليون خسارة
رميتوا ليه الرشاشات
ومسكتوا الحجارة
حجرنا مش حجركم
مليان قوة وحرارة
حجر يولع من أقل شرارة
حجر مليان
غضب وحماس وإيمان
حجر
ضد الظلم والطغيان
إن كان حجركم حى
إدونا أمارة
□□□

الشارع
والع والع

مافيش رجوع
رصاصكوا نازف دموع
صمتكم
صراخ مسموع
يا شوية ذئاب بشرية
حاكمكم جربوع
والع ... والع
ومافيش رجوع
□□□

طالعين ومش راجعين
وآلاف بتهتف وبالملايين
وأبو مينا قالها
قتلتوا واحد من ولادى
وحاضحى بالاتنين
□□□

وحاضحى واضحى واضحى
وألم قلبى اللى شقتوه نصين
طالع والع والع
ومش راجعين
□□□

يا بشر
دم الشهداء

سقط الحكام والأمراء
سقط فسادهم اللى زرعوه فى الأرض
وعام فى وش السماء
□□□

يا بشر
دم الشوارع
حرر العمال والفلاحين
والعلماء
الفن والفنانين
خليكوا شاهدين
دم الشهداء بقى جناحين
مسلم جناح الشمال
ومسيحى جناح اليمين
واخدين الشارع
بأرضه وسماه وطايرين
طايرين
طايرين
طايرين

٢٠ / ٢ / ٢٠١١

جرى إيه يا أخينا هوه احنا عبيد ؟

سمير الأمير

فرح أنا بالثورة التى عشت كل عمرى أحلم بها، فرح بأن ما كتبته مبشرا بها لم يكن ضربا من الخيال، من كان يتصور باستثناء الشعراء والحالمين أن ينتهى الأمر بهؤلاء الذين سمموا حياتنا إلى قفص الاتهام؟ نعم كنا كشعراء نبشر بتلك الثورة ولكننا أبدا لم نتخيلها بهذا القدر من الجمال والإبداع، لقد كانت القلوب مثقلة بهذا التبجح الذى واكب انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، وكان النظام يتصرف وكأنه باق للأبد فصور السيد المعجزة مؤسس نهضة مصر الحديثة تحاصرنا فى كل الميادين وفوق أسطح البنايات، كنت أقول لنفسى كيف يحمل الناس لهذا الرجل كل تلك الكراهية ومع ذلك لا يجرؤ أحدهم أن يلقى حجرا على صورته أو أن يمزق لافتة من اللافتات التى تتكاثر تأييدا ومباركة له رغم أن الفقراء فى بلادنا لا يجدون ما يقيم أودهم ويستر أبناءهم، و فى مطلع شهر يناير جاء حادث كنيسة القديسيين الذى أدمى قلوب المصريين جميعا كى يزيد الجروح جرحا وأذكر أننى قررت أن لا أهاتف أيا من الأصدقاء المسيحيين لتهنئته بالعيد خجلا من ذنب لم أفعله، إذ شرعنا أنا وزوجتى فى البكاء بمجرد تذكر أسماءهم، ليس حزنا عليهم ولكن على تلك المحبة التى نمت بيننا كأسر دون أن يكون الدين عائقا وأيضا على بلدنا الذى كان كل يوم يصبح غريبا عنا ونصبح غرباء عنه، فقبل هذا الحادث بإسبوعين فقط كنت أتحدث للقناة الأولى عن حى الحسينية بالمنصورة الذى يقطنه المسلمون والمسيحيون كنموذج للتسامح، لقد كدت أفقد إيمانى بمصر التى لم أعد أجد أى دليل على وجودها سوى فى الحنين إلى ماض أصبح بعيدا، فمصر مبارك المؤتمرة بأوامر البانتجون ليست مصرنا ومصر مبارك التى تتولى فيها أجهزة الأمن قتل وتعذيب المواطنين وإيقاع الفتن بينهم ليست مصرنا ومصر مبارك التى تسكت عن قتل الإسرائليين لجنودها ومواطنيها وتحاصر الشعب الفلسطينى فى غزة ليست مصرنا ومصر مبارك التى أجهضت الأحلام وسممت الرؤى وحولت الأحزاب إلى عرائس

كرتونية تخشى من التغيير أكثر من النظام نفسه حتى أن أحد رؤساء تلك الأحزاب منتهية الصلاحية صرح للصحف ذات مرة تعليقا على عزم شباب ٦ ابريل الخروج فى مظاهرة مع شباب الأحزاب بأنه لن يشارك لأنهم حسب قوله عيال لاسعين تلكم مصر ليست مصرنا ولكن مصرنا هى هؤلاء الذين تطاول عليهم ذلك القصير، مصرنا هى التى كانت تتجلى فى التحرير بكل عراقتها وضميرها وتسامحها ورحابة قلوب أبنائها، مصرنا هى التى رفضت حكم العائلة وردت على حملات النفاق التى سعت لتأبيد جمال مبارك بجملة كان شعارها كبيرة عليك وقبل ذلك فى بداية سنة ٢٠٠٧ كنت قد كتبت قصيدتى التى استلهمت فيها مقولة أحمد عرابى الشهيرة فى ميدان عابدين وهو يواجه الخديوى لقد خلقنا الله أحرارًا، ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نُورَّث، ولا نُستعبد بعد اليوم . والحقيقة أننى أرسلتها لكل صحف المعارضة ولكنها لم تجد سبيلها للنشر فاكتفيت بقراءتها فى المؤتمرات والندوات ولم يدر بخلدى أن ما حلمت به سيصبح واقعا وأن قصيدة أجمل منها ستنشر فى ميدان التحرير وفى كل ميادين مصر .

جرى إيه يا أخينا هوه احنا عبيد؟
هوه عرابى لسه مجاش
ولا قالشى الظلم ما يورثناش؟
ولا قال يا خديو متهددناش؟
محناش ناقصين تهديد
محناش ناقصين. إلزم حدك
محناش قيراطين من قراريط جدك
والا بيت مامتك وباباك يا غزيّل
احنا الشعب اللى ساعات بينام ويقيّل
لكن لما بيصحى عاديك
يطلعلك فى ماسورة الميه
مهما تقفل فى الشبابيك.
من باب الدم يخش عليك.
اعقل ولايمها الله يهديك

خليك جنب البيزنيس زى التانى
حافظ ع القرشين يا عبيط
ابعد عن كانى وعن مانى
نطاط الوهم ونطاط الحيط
النسل النمرود موصول الخيط
من عند معاوية لغاية بشار
ومن الحجاج لما لعلى عبدالله
افهم بقى!!
متاخدش كلامى هزار
البحر الأحمر مش حلة
والأبيض مش طشت غسيل
وبلدنا مش حتة أرضية
مكتوبة باسمك فى وصية
بلدنا. بلدنا. لكل ولادنا
من عند قنالنا للسد
هبة الفلاح والنيل
مش ورث لحد
اسمعنى المرة دى بجد.
خليك عاقل
وكفاية عليك قوى تبقى مدير
شركة تصدير الجرجير
أو بنك الصحراء والتعمير
إلزم حدك
شيل على قدك
واوعى الغولة تزغلل ف عينيك وتشدك

تبنيك علشان تفرح على هدك
وتلم الدنيا عليك
بعد ما كانت ليك يا حزين
تصبح غلبان مسكين
تتمنى ترجع تانى مجرد ابن
زيك زى ابن الفرعون القاتل
وابن الفرعون المقتول
الله يخرب بيت الظلم
ولاده كتير
بس ولو
مهما تغيب الثورة
فى عـــا بتغلى وتحلو
ادعيلها ربنا يهديها
ســـل الحق
وادعيلنا المولى يقدرنا
ونقولك لأ

العلامات ..

عبدالرحيم يوسف

التراب حَ ياكل وشّك
ويسيبك تعوى لقمر أخرس
ما يملاش وشّه
إلا التراب !
.. كنت باقولَك
إنت دلوقتى مش حصان
ورعشة ضلوعك مش حَ تهش حاجه !
.. كنت باقولَك
إن اتجاهات الريح
اللى كنت بتعرف تقراها بصوبع مبلول
اتلخبطت ..
لدرجة إنها مش قادره تشيل البساط
ولا ترجعه زىّ ما كان : أحمدى !
.. كنت باقولَك
ما تسيبش حاجه عَ الترابيزه
تفكرَك بأىّ حاجه
أو تحرّضك عَ الفضيله !

العالم دلوقتى اتقطم حتّين ..
الكريمه ساحت عَ المفرش
ومرنة الفراوله غاصت كل الوشوش
الدورق اتقلب
والحتّه .. بتقط ع الأرض !
كلام فـ سِرّك :
بكره التلامذه حَ يخرجوا فـ مظاهرات
يتطلوا زىّ الفشار
ويبخوا بحناجر مجروحه
ورا أول لسان عصفور فيهم :
اللى عدّى .. عدّى !
واللى فات .. فات !
لاحَ يسكتهم غُصيان
ولا خراطيم ميّه
ولا دوامات تراب ...
كنت بتقول إيه بقى ؟ !!

على كل وش كتاب مفتوح

عمرو حسنى

على كل قنوات التلفاز
المدح نازل ع الثوار
والمسأله ما فيهاش ألغاز
بعد النفاق قلوبها هرار

على كل صفحات الأخبار
اللى اتملت سنوات بالعار
صوره لبطل صامد بيزك
فى جبهته وعلى خده دماء
بيغنى لشباب الفيس بوك
أوبرا لأرواح الشهداء

شهداء بلادى ف الجرنان
أسامى نورها يرد الروح
كريستيان .. سالى زهران
وف كل وش كتاب مفتوح

على كل جبهه وخد وسام
من شاش وقطن وصبغة يود
معجون بدم على أحلام
تكوى وتحرق قلب حسود

وتحت أسماء الشهداء
حبر المطابع كان مكسوف
يلطخ اللى ما عنده حياء
واللى ما يشترى يجى يشوف

صوره لكلب بيحضن قط
ويمد إيده باستجداء
م المركب الغرقان بينط
عثمان ف لحسه لأى حذاء

الثوره عارفه مين بياع
وعارفه مين هما الأعداء
اللى ف جيبه ألف قناع
واللى ف سرايته ألف رداء

على كل صفحات الأخبار
اللى اتملت سنوات بالعار
صوره لبطل صامد بيزُك
فى جبهته وعلى خده دماء
بيغنى لشباب الفيس بوك
أوبرا لأرواح الشهداء

تعالَ هنا يا وطن

عمر حاذق

تعالَ..
تعالَ هنا يا وطنْ
سنشربُ شايًا معًا
وستسحبُ من شيشتى نفسًا
وسأحكى وتحكى...
سأشكوك منكَ كثيرًا
سأسألُ كيف يطاردنى الشُّرَطِىُّ كفارٍ
وكيف يجرّ على الأرضِ قلبى
وكيف يبيعُ عذابى وحُلمىَ دون ثمنْ
سيسقطُ صوتىَ منى
سأبكى كطفلٍ وتبكى كأمٌ
وتحضننى ثم تمسحُ شعرى
تُطيِّرُ حولىَ عصفورةً من شجنْ
وتحلفُ إنى أحبُّكَ يا ولدى
كنتُ أسمعُكم تهتفون بحبى
ولكنهم أحكموا فوق رأسى رباطَ الكفنْ

وكنتُ أسوقُ الغمامَ يُبَلِّلكُم
فيعودُ جريحًا، ثقيلَ الوهنْ
وحين رمونى بعيدًا
ككيس القمامة
سرتُ وحيدًا
بكيتُ طريدًا
إلى أنْ دخلتُ غناءَكمُ وطنًا وسكنْ.....
فابكى كأمٍ ويبكى كطفلٍ
وأحضنُهُ وأقولُ أحبكَ يا ولدى
نحن أمواجُ بحرِكَ
خذنا لتلعبَ نورسةٌ معنا
وتغرّدَ فينا قلوعُ السفنْ
تعالَ..
تعالَ هنا يا وطنْ.

١٤، ١٥ فبراير ٢٠١١

ترجمة

نصوص وقصائد عن الثورة

ترجمة عن الإسبانية:
أحمد يمانى

١ – خورخى لويس بورخيس

«لا أعرف إلى أية درجة يمكن أن يكون كاتب ثوريا. فى الوقت الراهن، هو يعمل على اللغة والتى هى تقليد».

لقد ارتكبت أسوأ خطيئة

لقد ارتكبت أسوأ خطيئة
يمكن أن يرتكبها إنسان
لم أكن سعيدا.
لتسحبنى أنهار النسيان الجليدية
وتضيّعنى، بلا رحمة.
لقد أنجبنى والدىّ
من أجل اللعبة الخطيرة
والجميلة للحياة،
من أجل الأرض والماء
والهواء والنار. لقد خذلتهما

لم أكن سعيدا. انتهى.
لم تكن إرادته الشابة.
انطق على ذهنى
العماد السيميترى للفن،
الذى ينسج تفاهات.
لقد أورثانى قيمة. لم أكن شجاعا.
إنه لا يهجرنى أبدا، دائما إلى جانبى
ظلّ شقائى هذا.

٢- إدواردو ليثالده

أيتها الثورة

أيتها الثورة:
أمد إليك يدى
وأحيانا تعضينها.
أنا رجل فردانى،
لكن العالم ليس جميلا
فقط الأحمق والمجنون والوغد
يظنون أن العالم حديقة
تزهر فيها زمردة بطعم الخوخ.
انظرى، أنا معك، جديًا
كيف يمكن أن تجرحك،
يا حجر القرن،
بعض كلمات منى؟

حتى أكثر الطغاة حقارة
لم يسقط أبدا بسبب الأدب.
اسمعى، كلى قليلا، هادئة،
من يدى
ليس سمًا هذه الكلمة المسكينة الكئيبة،
التى أقدمها لك
من ثعلبة عجوز.

٣- رودلفو ألونسو

لتحلم

لتحلم بأقصى ما تستطيع.
لتحلم ليلا ونهارا...
لتحلم فى كل لحظة وكل نفس
لتحلم بكل ما تريد
بكل هدف لديك.
لتحلم بالشمس والنجوم،
وبهدير البحر،
وبالهواء الذى تتنفسه،
لكن لتحلم.

٤- تشى جيفارا

لا تحمل الثورة فى الشفاه كى يعتاش عليها،

الثورة تحمل فى القلوب للموت من أجلها.

□□□

إذا كنت اليوم أغنى للأمس
ذى الحجر الميت
وأستدعى ذكريات طيبة
فذلك لأن الحاضر يزهر فى الماضى.

□□□

لأن هذه الإنسانية العظيمة قالت: كفى، وبدأت فى المسير. ومسيرتها العملاقة لن تتوقف حتى تتحصل على حريتها الحقيقية، والتى من أجلها ماتوا أكثر من مرة دون جدوى

□□□

فى الثورة إما أن تنتصر وإما أن تموت، هذا إذا كانت حقيقية.

□□□

بالأمس نفسه، مرت شاحنة للجيش، فى مؤخرتها جنديان متدثران ببطانية. لم أمتلك الجرأة على إطلاق النار عليهما ولم أمتلك رد فعل كافٍ لتوقيفهما.

□□□

دعنى أقول لك، مخاطرا بأن أقع فى السخافة، إن الثورى الحقيقى تقوده مشاعر عميقة من الحب.

٥- إنريكى تييرنو جاربان

كل ثورة سياسية كبيرة هى ثورة أخلاقية كبيرة.
كل ثورة أخلاقية كبيرة تفترض ثورة سياسية كبيرة.

٦- جونثالو أرانجو

يد زائد يد
ليستا يدين

بل يدان متحدتان
ضم يدك إلى أيدينا
كى لا يكون العالم
فى أيد قليلة
بل فى كل الأيادى.

٧- إدواردو جاليانو

هايتى أيضا قامت بدفع تعويض هائل. فمنذ حصلت على استقلالها عام ١٨٠٤ فإن الأمة المدمرة تماما كان عليها أن تدفع لفرنسا مبالغ طائلة ولمدة قرن ونصف كى تكفر عن خطيئة استقلالها.

□□□

فى عام ١٩٥٣ اندلعت الاحتجاجات العمالية فى ألمانيا الشرقية
انطلق العمال إلى الشوارع وتكفلت الدبابات السوفيتية بتكميم أفواههم. حينئذ اقترح برتولد بريشت ما يلى: أليس من الأسهل أن تقوم الحكومة بحلّ الشعب واختيار شعب آخر؟

□□□

تكافح صناعة الأسلحة الأمريكية الإرهاب بأن تبيع أسلحة لحكومات إرهابية، والتى تقوم علاقتها الوحيدة بحقوق الإنسان على فعل كل ما فى وسعها كى تقضى عليها.

٨- روكى دالتون

الشرطة والحرّاس

دائما ما رأوا الشعب
ككتلة من الظهور تجرى إلى هناك

كحقل يتركون فيه الهراوات تسقط بكراهية.
دائما ما رأوا الشعب كالعين التى تحسن التصويب
وبين الشعب والعين
مرمى المسدس والبندقية.
(يوما ما كانوا أيضا من الشعب
لكن بحجة الجوع والبطالة قبلوا بسلاح
وبهراوة وبمرتب شهرى
كى يدافعوا عن الجياع والعاطلين عن العمل.)
دائما ما رأوا الشعب متحملا
متعرقا
صارخا
رافعا لافتات
رافعا قبضات
وكلما قالوا لهم أكثر:
يا أولاد القحاب يومكم سوف يأتى
(فإن كل يوم يمرّ
كانوا يظنون أنهم قاموا بالعمل الكبير
فى خيانة الشعب الذى ولدوا فيه:
الشعب عبارة عن حفنة من الضعفاء والبلهاء
كم أبلينا حسنا بوقوفنا إلى جانب الأحياء
والأقوياء.)
وحينئذ جاء الضغط على الزناد
وانطلقت الرصاصات من ضفة الشرطة والحرّاس
إلى ضفة الشعب
هكذا انطلقت دائما من هناك إلى هنا

والشعب يسقط نازفا
أسبوعا بعد أسبوع
وعاما بعد عام
وبعظام متكسرة
يبكى من أجل عيون النساء والأطفال
فارا من الفزع
توقف عن أن يكون شعبا
ليصير حشدا من الكرز
اختفى فى شكل كل من ينقذ نفسه ذاهبا إلى بيته
وبعد ذلك مباشرة
لم يكن سوى رجال الإطفاء يغسلون الشوارع من الدم.
أقنعهم العقداء للتو
هكذا يا شباب -كانوا يقولون لهم-
بقسوة وأطلقوا على رؤوس المدنيين
نارا على الغوغاء
أنتم أيضا أعمدة أمن الأمة
كهنة الصفوف الأمامية
فى تقديس الراية، الدرع، النشيد الوطنى، الأعيان
الديمقراطية التمثيلية، الحزب الرسمى، العالم الحر
لن ينسى الشرفاء فى هذا البلد تضحياتكم
حاليا لا نستطيع رفع مرتباتكم
كما هى رغبتنا بطبيعة الحال».
دائما ما رأوا الشعب
متشنجا فى غرف التعذيب
معلقا

مضروبا
مكسرا
متورما
مختنقا
منتهكا
موخوزا بإبر في العيون والآذان
مكهربا
غارقا في البول والغائط
مبصوقا عليه
مسحولا
بقاياه الأخيرة تطلق زبدا من الدخان
في جحيم من الجير الحي.
(ومع سقوط الحارس العاشر قتيلا،
قتله الشعب
والشرطي الخامس تشعث شعره على يد المقاتلين المدنيين
فإن الشرطيين والحراس الوطنيين
بدؤوا بالتفكير خصوصا وأن العقداء
قاموا بتغيير لكنتهم
واليوم يلقون ذنب كل فشل على
عناصر القوات البغال التي لدينا).
والواقع أن الشرطة والحراس
دائما ما رأوا من هناك إلى هنا.
ليفكروا كثيرا
ليقرروا بأنفسهم إذا ما كان قد فات أوان
أن يحثوا عن ضفة الشعب

وأن يطلقوا النار من هناك
جنبا إلى جنب معنا.
ليفكروا كثيرا
ولكن في الوقت نفسه
ليس عليهم أن يفاجئوا
ناهيك عن أن يشعروا بالإهانة
فاليوم بعض الرصاصات
بدأت في الوصول إليهم
من هذا الجانب
حيث يظل واقفا الشعب نفسه دوما
فقط فإنه على هذا المستوى تأتي من الصدور
وتجلب المزيد والمزيد من البنادق.

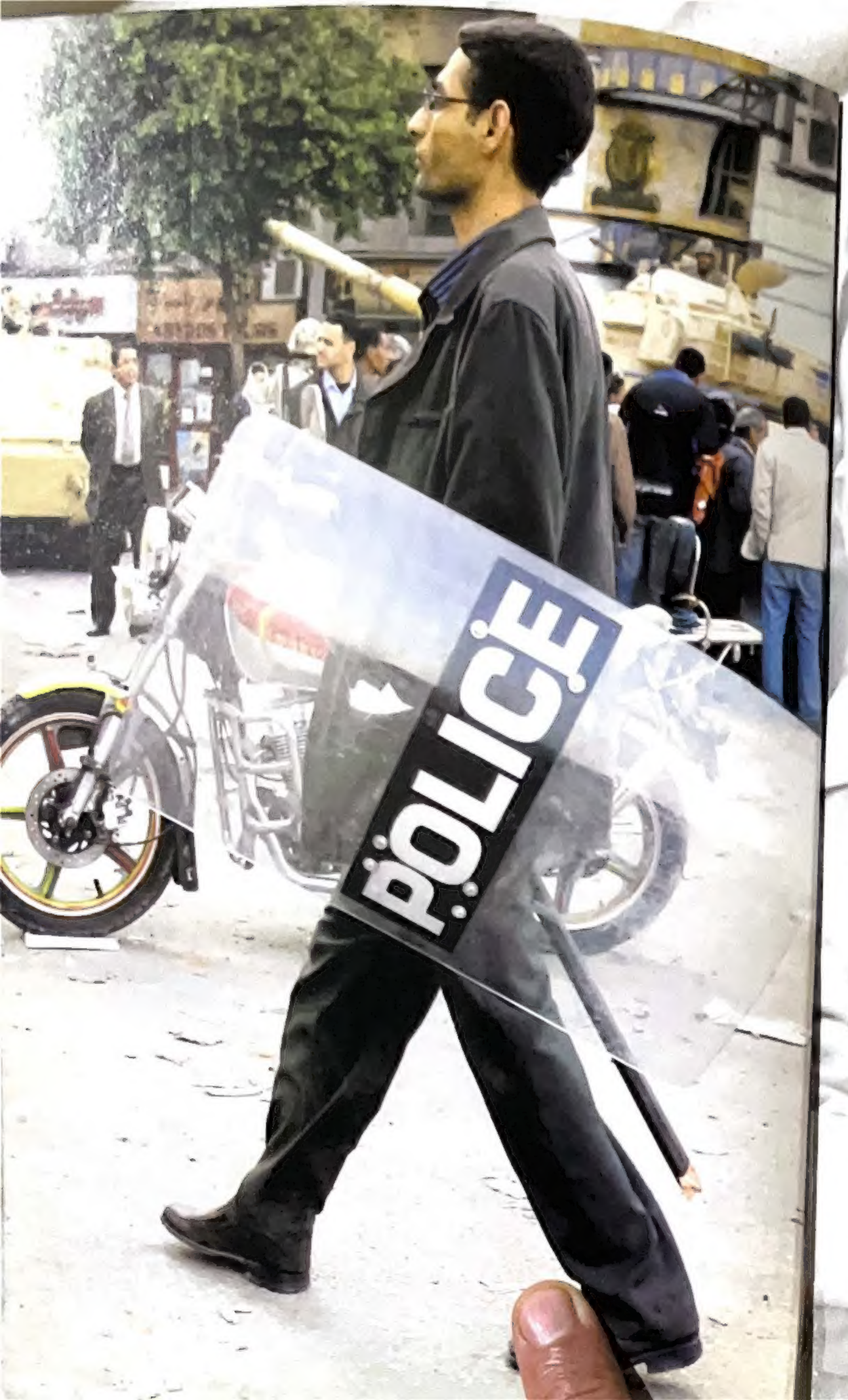

فوتوغرافيا : محمد حمدي

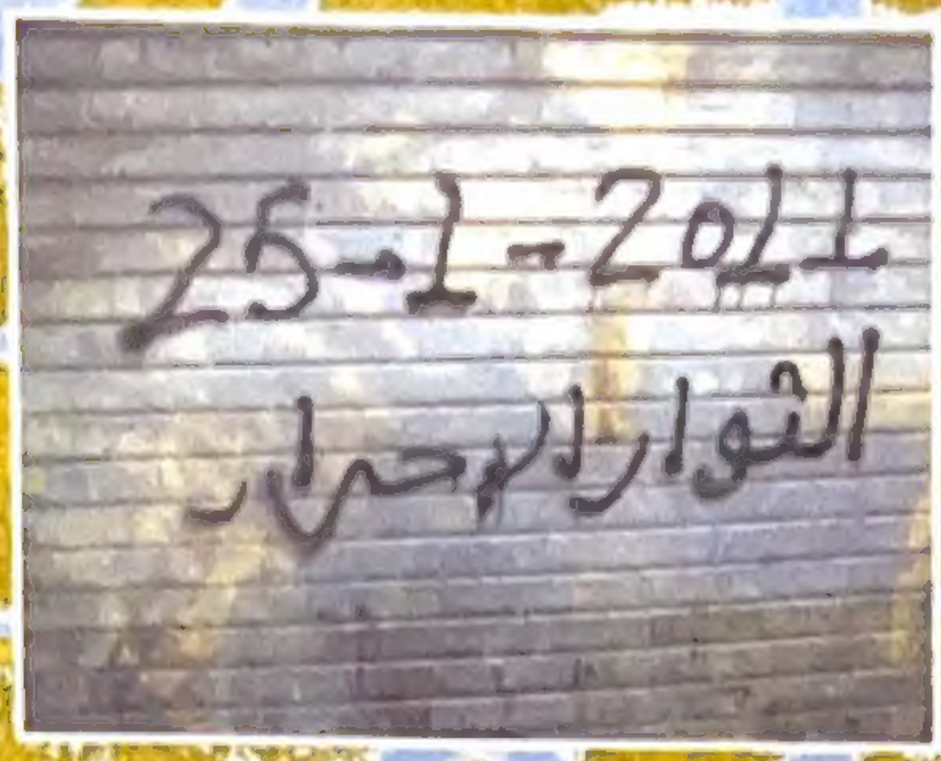
25-1-2024
الثوار الاحرار